الدكتور
صباح عبيد دراز
أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر

السمات البلاغية في بيان النبوة


مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

السمات البلاغية في بيان النبوة
الدكتور صباح عبيد دراز
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٤٧٢ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٤/١٤٢٩٨
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
978-977-225-404-0



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

دراز، صباح عبيد .
السمات البلاغية في بيان النبوة /صباح عبيد دراز
القاهرة ، مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٤
٤٧٢ صفحة ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٠ ٤٠٤ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الحديث - بلاغة
٢- السيرة النبوية
أ- العنوان

٢٣١,٩



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أحمدك اللهم حمدا يليق بجلالك ، وأشكرك اللهم شكراً جديراً بنعمائك ، وأصلي وأسلم على حبيبك المصطفى ، الذي اخترته نبيًا رسولاً ، فكان لسان النبيين والمرسلين ، ومنحته البيان في قرآنه وفي لسانه ، معجزة خالدة فكان أبلغ من نطق ، وأفصح من أبان ، وعلى آله وصحبه .

وبعد

فلقد كانت صلتي بالبيان النبوي قوية أصيلة ، ترجع إلى عهودي الأولى حين كنت طالبًا بمعاهد الأزهر أدرس نصوصه ، وأحاول تفهم أسراره ، ثم قويت الصلة ، حين مارست الخطابة الدينية ولجأت إلى الحديث النبوي أدرك مغازيه ، وأستجلي مراميه ، وأنبهر أمام تعابيره بأسرارها البعيدة ، ودار الزمن دورة ـ علاقتي فيها بالبيان النبوي تعمق وتقوى ، ووجدت نفسي بسبيل البحث عن موضوع (للدكتوراه) ولم أتكلف رهقًا ، فها هنا هدفي المنشود وأملي المرتقب .

وليس سرًا أن علماء البلاغة والنقد أدوا بعض ما يجب عليهم نحو القرآن العظيم ، فتعددت وجهات البحث البلاغي ومناهجه ـ وكلٌّ مثمر وطيب ـ لكنهم تجاه الحديث لم يحققوا غاية ولم يرسموا نهجًا يكشف عن الجمال الفني في بلاغة النبوة .

غير أني ـ نفسيًا وعقليًا ـ وجدت أن خير منهج يحقق هذه الغاية هو دراسة البيان الكريم من واقع نصوصه دراسة بلاغية موضوعية تظهر الجمال في النظم والصياغة وفي تركيب الصورة البيانية ، وتجلي الخصائص والسمات التي تَفَرَّد بها البيان النبوي دون سواه من الأساليب .

هي إذن دراسة بلاغية أدبية ، يتعانق فيها بيان الجمال الجزئي صياغة وبيانا مع الجمال الكلي الذي يحقق الغرض ، ويوفي بالمقام ، ويقنع العقل ويمتع الوجدان .

اقتنعت بهذه الخطة ، وبدأت في تخطيطها عَلِّني أجد هاديًا مهد الطريق أو فرطًا ذلل المصاعب ، وأقبلت على كتب البلاغة في شتى عصورها أتمثلها وأسترجعها مدققًا متأنيًا ، إن ـ البيان النبوي وا أسفاه ـ لم يلق من علماء البلاغة عناية حقة ، وإن الأحاديث لشذرات متناثرة ، في ثنايا الكتب يتفاوت المؤلفون في ذكرها كثرة وقلة وندرة ، لكنها لا تؤلف موقفًا خاصًا ، ولا نهجًا معينًا ، غير بادرة طيبة من الشريف الرضي في «المجازات النبوية» عالجها بطريقته الخاصة وبما سمح له فكره ، وعلمه ، وعصره من نهج وثقافة ، هذه البداية لم تجد من يكملها أو يترسمها ويثريها .

فوليت وجهي ـ بعد يأس ـ شطر علماء الحديث ، شرحه وغريبه ، ومنيت نفسي بإدراك المُنَى ، وأقبلت أطالع بجد وحماسة ، فماذا وجدت؟ رأيت عمالقة الحديث يؤولون ألفاظه ، ويشرحون أهدافه ، ولا تستوقفهم بلاغته القاهرة إلا في الفينة بعد الفينة ، إشارات خافتة ، ومعالم غير واضحة ، وحتى من أراد منهم علاج البيان النبوي أخطأ التوفيق غالبًا ، لعدم رسوخه في عالم البلاغة ، أو لاضطراب منهجه ، فأدخل أدوات المنطق وأصول الفقه تأثرًا بمتأخري البلاغيين ، هم إذن على طريق غير ما أريد ، وعلينا أن نناقشهم دون أن نقلدهم في وجهاتهم .

فلنأت إلى المحدثين ، وما فيهم إلا الرافعي ـ رحمه الله ـ بيد أن له طريقة فذة ، تعتمد على التحليل الأدبي المتفلسف ، الدقيق العميق ، دون التزام بمعايير البلاغة العربية أو موازين النقد القديم .

ولقد سعدت حين رأيت بحثًا جامعيًا في مكتبة كلية اللغة العربية للدكتور محمد أحمد بيومي «سيدنا محمد في إبداعه الأدبي» لكنني وجدت له وجهة

غير ما أبغي ، تدور حول النقد الأدبي بمفهوماته الفضفاضة المتنوعة من فكرة وعاطفة ، وخيال ، وصدق فني ، وما إلى ذلك من مفاهيم النقد المعاصر ، وليس هذا هدفي ، إنني أريدها بلاغة متأدبة عصرية يلتقي فيها تراثنا البلاغي القديم بنقدنا العربي الحديث ، بلاغة تعالج النص تفصيلاً وإجمالاً ، وتوضح أثر البلاغة وأسرارها وإشراقات مفاهيمها على النص كله بما يستوفي المقاصد والأغراض ، ويقوم بالأحوال والمقامات .

وهكذا وجدت البلاغة النبوية حقلاً طيبًا ، وثروة فنية لم تنل حظها من الدرس والفحص .

وبدأت ـ مستعينًا بالله ـ أقرأ البيان النبوي متأنيًا ، باحثًا فاحصًا مسجلاً ما أراه جديرًا بالتسجيل جديدًا في بابه ، خاصًا بالبيان النبوي .

وأثناء ذلك ظهر كتاب للدكتور عز الدين السيد ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م بعنوان «الحديث النبوي من الوجهة البلاغية» ولقد أفدت من هذا الكتاب ، وإن كانت إفادة محدودة ؛ ذلك أن المؤلف أخضع البيان النبوي لما أسماه الطريقة التقريرية وجعلها لفظية ومعنوية ، وتناول أمشاجًا غير منتظمة من المعاني والبيان والبديع ، دون التزام بالتراث البلاغي ، أو استيفاء لمعالم البلاغة ، كما لم يهتم ببيان السمات التركيبية أو البيانية أو اكتشاف ظواهر أسلوبية نابعة من الأساليب ، مقتصرًا على إزجاء قاعدة ، ثم ضرب أمثلة مشروحة بأسلوب مبين ، وإنها لمحاولة ـ كما أوضح المؤلف ـ تغري بمواصلة البحث ، وتفتح العين على جانب من الجمال والجلال في البيان الكريم .

وبادئ الرأي كان لابد من التثبت من أمر له خطره ينبني عليه درس البيان النبوي على بصيرة ، أو الصدوف عنه ، أعني (رواية الأحاديث بلفظها أو معناها) وتطلب هذا تطوافا شاملاً ، وقراءة واعية لما كتب قديمًا وحديثًا ونقدًا فاحصًا عادلاً لكل ذلك ليذهب الزبد جفاء ويبقى ما ينفع الناس ثروة أدبية ، وتراثًا فنيًا ، وهديًا نبويًا خالدًا .

وقضية أخرى أثارتني هي موقف العلماء من مشكل الحديث كيف تناولوه وعلى أية وجهة حملوه ، وهل للبيان من ذلك نصيب ، وكانت دراسة غنية بعديد التيارات ، ووافر الآراء البلاغية التي تلتقي أو تتعارض أو حتى تتصادم وكل ذلك مفضٍ ـ لا ريب ـ إلى قيم بلاغية لها قدرها ، وقد أدى البحث دوره ، مناقشًا ، رافضًا غث الآراء ، مبقيا على صوابها ، أو موجهًا إلى هذا الصواب ، ثم كان لابد من التعرض لمن تناول الأحاديث من علماء النقد والبلاغة ، وعلماء الحديث غريبه وشرحه على اختلاف مشاربهم ، ومنازعهم .

فكانت دراسة وصفية تاريخية ، نقدية تحليلية ، تسلط الأضواء على كل جديد ، وترد الآراء إلى مصادرها ، وتقر الحق وحده .

وجانب آخر جد خطير هو الدراسة الفنية لنصوص الأحاديث حسب معالم البلاغة المتعارفة هدفها : اكتشاف الجمال الكلي والجزئي ، وبيان الظواهر الأسلوبية الخاصة بالبيان الكريم ، ثم محاولة الاهتداء إلى الطريقة الفنية أو الروح الأدبي الذي كان يشع في كل الأساليب سواء .

وكم كان البيان النبوي خصبًا غنيًا ، فكم فيه من سمات منفردة ، وظواهر متميزة وخصائص جمالية تثري البلاغة والنقد والأدب .

ولا أدعي أنني بلغت من الكمال مبلغًا على طول العناء والمشقة ، فالكمال لله وحده ، بل إن الباحث لا يغنيه علمه ، ولا عناؤه عن لحظات من التوفيق تقرب القاصي ، وتنير السبيل ، وتحقق من الفلاح والإشراق ، ما لا يحلم به الإنسان ، والسائر في البحث العلمي سائر كما قال القائل :

في غابة عذراء تاهت مسالكها   لا يهتدي إلا الذي طابت نواياه

هذا وقد توزع البحث بعد المقدمة في خمسة أبواب متوالية وخاتمة :

الباب الأول : حول النبي ﷺ وسنته في فصلين :

الفصل الأول : في نشأة النبي ﷺ وأسباب فصاحته ونهجه البياني .

الفصل الثاني : السُّنَّة من حيث تدوينها والرواية بين اللفظ والمعنى .

الباب الثاني : البحث البلاغي في بيان النبوة في خمسة فصول :

الفصل الأول : الدراسات البلاغية حول المشكل من الحديث .

الفصل الثاني : الشريفان المرتضى والرضي وأثرهما في البلاغة النبوية .

الفصل الثالث : الاتجاه الأدبي عند ابن الأثير وابن أبي الإصبع والعلوي .

الفصل الرابع : علماء الحديث بين علماء غريب الحديث كالزمخشري ومجد الدين أبي السعادات ابن الأثير ، وبين شراحه كالإمام العيني ، وابن علاّن الصديقي .

الفصل الخامس : عن مصطفى صادق الرافعي وأثره في البيان النبوي .

الباب الثالث : من أسرار المعاني في الحديث النبوي :

في مقدمة وفصول خمسة :

دارت المقدمة حول فصاحة الكلمة المفردة ، وعلاج الغريب في الحديث .

الفصل الأول : الإيجاز وأسراره . . وقسماه :

القسم الأول : الإيجاز بالحذف وأسراره .

والقسم الثاني : الإيجاز بالقصر وجوامع الكلم .

وتناول البحث الإطناب في البيان النبوي .

الفصل الثاني : من أسرار التقديم في البيان النبوي .

ولحق به : مقتضى النظم ، والاستفهام في بيان النبوة .

الفصل الثالث : القصر في بيان النبوة .

الفصل الرابع : الفصل والوصل .

الفصل الخامس : الألفاظ ومعانيها في بيان النبوة .

الباب الرابع : من أسرار البيان في البلاغة النبوية . . في فصول ثلاثة :

الفصل الأول : في التشبيه والتمثيل في البيان النبوي .

الفصل الثاني : المجاز في البيان النبوي وشمل الاستعارة والمجاز المرسل والمجاز العقلي .

الفصل الثالث : الكنايات النبوية .

الباب الخامس : البديع في البيان النبوي . . في فصلين :

الفصل الأول : المحسنات المعنوية .

الفصل الثاني : المحسنات اللفظية .

وذيل البحث بخاتمة موجزة لنتائجه وغاياته . . ثم ثبت بأسماء المصادر والمراجع .

والله أرجو أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم وهو سبحانه الهادي إلى سواء السبيل .

أستاذ دكتور

صبّاح عبيد دراز

الباب الأول

محمد رسول الله وسنته

الفصل الأول

النبي ﷺ : نشأته ـ وأسباب فصاحته

كان العالم قبل ميلاد النبي ﷺ ، يموج في ظلمات من الفوضى ، والجهل والتأخر ، والانحطاط الخلقي والعقلي ، حتى أذن الله تعالى لهذه الظلمات أن تنقشع ، فكان ميلاده ﷺ ، إعلانًا خطيرًا بفجر جديد للبشرية ، ولقد كان ميلاده ﷺ ـ على أصح الآراء ـ يوم الاثنين ـ الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، عام الفيل ، لما رواه مسلم في صحيحه عن أبي قتادة أن أعرابيًّا قال : يا رسول الله : ما تقول في صوم يوم الاثنين ؟ : «قال ذاك يوم ولدت فيه ، وأُنْزِل عليَّ فيه»[1] : وروى جابر وابن عباس قالا : ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ، يوم الاثنين ، الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، وفيه بُعِثَ ، وفيه عرج إلى السماء ، وفيه هاجر ، وفيه مات[2].

وقد ولد ﷺ يتيم الأب فلما علم جده عبد المطلب فاض قلبه سرورًا وسماه «محمدًا» ثم أتت المراضع من البادية ، فأخذته حليمة السعدية ، فأقام سنتين في الصحراء ترضعه حليمة ، وتحضنه ابنتها «الشيماء» ويجد هو ﷺ في هواء الصحراء وخشونة البادية ، ما يسرع به إلى النمو ، ويزيد في وسامة خلقه ، وحسن تكوينه ، فلما أتم السنتين ، وآن فصاله رجعته حليمة إلى أمه ، لكنه خوفًا عليه من وباء «مكة» عاد مع حليمة ليبقى في ديار بني سعد بن بكر

---

(١) انظر : البداية والنهاية ابن كثير ٢/٢٥٩ ، وانظر :السيرة النبوية ـ لابن هشام تحقيق : مصطفى السقا١/١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢) انظر : البداية والنهاية ٢/٢٦٠ .

سنتين أخريين يمرح في جو باديتها الصحو ـ الطلق لا يعرف قيدًا من قيود الروح ولا قيدًا من قيود المادة [1].

ونمضي مع الزمن في سيره ، حتى يبلغ محمد أشده ويزيد على الأربعين فيختاره الله رحمة للعالمين ، : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ (الأحزاب:٤٥،٤٦). ويتنزل عليه القرآن الكريم ، وحيًا من السماء تعنو لفصاحته الأعناق ، ويسجد لبلاغته البلغاء معجزة خالدة بنمط من البلاغة فريدة ، فما قاموا له ، بل لقد بلغ من ثقة القرآن أن حكم عليهم بالعجز عن معارضته ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ (الإسراء:٨٨).

ويتكلم محمد بينهم بأسلوبه هو فيجدونه أفصحهم منطقًا ، وأبلغهم بيانًا ، ومع أن القوم الذين أرسل إليهم قوم لدّ ، أرباب بيان وجدل « وقد نعتوا الرسول بما شاءوا كيدا لكنهم لم يستطيعوا أن يصفوه بما ينال من فصاحته ، لأن الواقع يُكذِّب ، وبلاغة النبي ﷺ من الشهرة بمكان» [2].

قال الدكتور محمد عبد الله دراز ـ رحمه الله ـ « هذا القصور الذاتي الذي قعد بهم عن مجاراته في عامة كلامه هو الذي قعد بهم عن معارضة قرآنه ، أما أن محمدا ﷺ وعلى آله وسلم كان هو أفصح العرب ، وكان له في هذه الفضيلة البيانية المقام الأول غير مزاحم ، فذلك ما لا يمار ، بل لا يمتري فيه نحن

---

(١) انظر : حياة محمد الأدب في موكب الحضارة الإسلامية ، محمد حسين هيكل ص ٢١١ ، ومناهل العرفان في علوم القرآن للزرقانى ، والشفا : للقاضي عياض ٤٤/١ ، وانظر : الفن ومذاهبه في النثر العربي دكتور شوقي ضيف : ص٥٢ .

(٢) انظر : الحديث النبوي ، الأستاذ الصباغ ص ٤٣ .

ولا أحد ممن يعرف العربية»[1] ، وقال الجاحظ : «كان إذا احتاج إلى بلاغته كان أبلغ البلغاء ، وإذا احتاج إلى الخطابة كان أخطب الخطباء»[2].

صاحب الدعوة والبلاغة :

ولما كانت معجزة القرآن معجزة بيانية ، في المقام الأول ، وقد بعث في أمة بليغة ، صناعتها حياكة القول والتفنن فيه لا عجب أن يحتاج إلى التأثير ، وشدة الأخذ ، ودعوة العرب إلى الدين ، وتأديبهم بأدبه ، ودفعهم لمحاربة أعدائه ، فكان من الله أن أيده بمعجزة أخرى هي بلاغة لسانه ، وقوة بيانه ، فكان على غير ما يعهد العرب في فصحائهم ومناطقهم لا عجب أن يؤخذوا بحديثه الجامع ، وبيانه الساحر وبلاغته المتدفقة ، وفصاحته المتمكنة[3] ، وتلك حقيقة يقررها النبي ﷺ ، اعترافًا بنعمة الله «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش»[4] ويمكننا أن نرد أسباب هذه الفصاحة إلى هذه الأمور :

١- هذه النشاة اللغوية النقية في أحضان البادية ، وبين أفصح القبائل فكان مولده في بني هاشم ، وأخواله في بني زهرة ، ورضاعه في بني سعد ابن بكر ، ومنشؤه في قريش ، ومتزوجه في بني أسد ، لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة ، ولقد كان في قريش ، وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة ، ولذا قال ﷺ «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر» فكان له من اللسان العربي أفصحه ، وأبلغه بهذه النشأة البدوية القرشية الخالصة[5] .

---

(١) النبأ العظيم ، دكتور محمد عبد الله دراز ٨٨ ، وانظر : حياة محمد الأدب في موكب الحضارة الإسلامية ص ٢١١، ومناهل العرفان في علوم القرآن : ٢٩٨/١ ، والشفا : للقاضي عياض ٤٤/١ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ٢٣١/٣ ، وانظر : الفن ومذاهبه في النثر العربي دكتور شوقي ضيف : ص ٥٢ .

(٣) انظر : في الأدب الإسلامي والأموي : دكتور سليمان ربيع ص ٥٣ .

(٤) انظر : المزهر للسيوطي ص ١٢٦ .

(٥) انظر : إعجاز القرآن : للرافعي ص ٣١٨ ، وعبقرية محمد للعقاد : ص ٢٠ ، ٢١ ، والحديث النبوي ص ٤٣١ .

٢- موهبته ﷺ التي تتمثل في فطرة صافية ، ونفس مجتمعة فاضلة ، مع صفاء الحس ، ونفاذ البصيرة ، واستقامة الأمر كله . ولقد أذكى هذه الموهبة دوام الفكر ، وطول السكوت ، وحب الخلوة التي كانت له أعظم مربٍ ، فقد صَفَّت قلبه من كل مشاغل هذا العالم ، لذلك أطلقت عليه الآثار « صفاء الصفاء » وفي الصحراء اتصلت أسرار الطبيعة بأعماق نفسه ، وغمرته في قوة ، فانطلقت شفتاه بهذه الحقائق الخالدة التي انتزعت من « كارليل » المفكر الإنجليزي المشهور صيحة الإعجاب التي يقول فيها « حقًا إن أحاديث هذا الرجل قد صدرت مباشرة عن قلب الطبيعة ومن الطبيعي أن تجتذب أفئدة بني البشر فيستمعوا إليها ويجب أن يستمعوا إليها أكثر مما يستمعون إلى غيرها ، فكل ما عداها هباء ، إذا قورن بها »[(١)] .

٣- الإلهام والتعليم والتلقي من الله تعالى ، ذلك أن الله ابتعثه في العرب ، وهم قوم يقادون من ألسنتهم ثم هم مختلفون فصاحة وبيانًا ومناهج قول إلى ما كان من اشتراك اللغات وانفرادها ، وتخصيص بعض القبائل بأوضاع وصيغ مقصورة عليهم ، فكان من تمام البلاغة وكمال الحجة ، أن يخاطب كل قوم بلحنهم ، وعلى مذهبهم ، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابًا ، وأشدهم لفظًا وأبينهم عبارة ، قال الرافعي ـ رحمه الله ـ « ومثل هذا لا يكون إلا عن تعليم ، وتلقين أو رواية عن أحياء العرب ، حتى يفلي لغاتهم ، ويتبع مناطقهم ، وقد علمنا أنه ﷺ لم يتهيأ له شيء من ذلك ، ولا أحد من قومه ، فليس إلا أن يكون ما خص به النبي ﷺ من ذلك ، فله كان توفية ، أو إلهامًا من الله ، أو ما هذه سبيله ، فقد علمه الله من ذلك أشياء كثيرة ما لم يكن يعلم[(٢)] ، وهذا رأي مشتهر عن الأقدمين كمجد الدين بن الأثير ، والقاضي عياض ، والسيوطي وغيرهم ، من قول الرسول ﷺ نفسه « كانت لغة إسماعيل قد درست فجاء بها جبريل عليه السلام

---

(١) انظر : « محمد رسول الله » : اتين دينيت ، ترجمة دكتور عبد الحليم محمود ص١٠٦ .

(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ٣١٧ .

فحفظنيها فحفظتها»[1] ، وقوله «أدبني ربي فأحسن تأديبي ، وربيت في بني سعد»[2].

وسواء كان مصدر السنة وليد تفكير ، وروية ومشاورة كشئون الحرب والسلام أم كان وحي الخاطر وإرسال البديهة كالعديد من شئون الحياة ، أم كان بعد تلبث يسير انتظارا للوحي كما في قصة الرجل المتضمخ بالطيب وعليه جبة جاء ليسأل عن العمرة ، فقد جاءه ﷺ الوحي فقال : «أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات ، وأما الجبة فانزعها ، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك» رواه الشيخان ، فكل ذلك يجري على نمط واحد ، وهو أرقى الأساليب البيانية ، وقلما نلحظ فيه تفاوتًا[3] ، وهذا المتبادر من قوله ﷺ «أوتيت الكتاب ومثله معه» وقد تكررت الحكمة بمعنى السنة مقرونة بالكتاب في القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (آل عمران:١٦٤)، (الجمعة:٢) [4] ، وأنزل الله عليك : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (النساء:١١٣)[5].

٤- أمر آخر يلحق بسابقه وهو تأثر النبي ﷺ بالقرآن الكريم في بيانه المعجز ، وهذا التأثر في الواقع ـ خط مشترك بين الأدباء والشعراء العرب إلا أنه أبين وأظهر في الرسول ﷺ ، لأنه أبلغ الناس ، فهو أقدرهم على فهم الوجوه البلاغية في أسرار الإعجاز الإلهي ، ثم إن القرآن معجزته هو التي نزلت عليه يرتله ترتيلا ، متعبدًا متأثرًا يزن كل آية بميزان دقيق ، بحيث يشرق له من الدلائل وآيات الإعجاز وما يهز وجدانه ، ويصير

---

(١) انظر : الشفا للقاضي عياض ص ٤٧١١ ـ والمزهر للسيوطي ص ٢٢ .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ص ٤١١ ، وانظر : عبقرية محمد للعقاد ص ٧٥ ، وإعجاز القرآن للرافعي ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(٣) انظر : النبأ العظيم هامش ٩٠ وما بعدها ، ومناهل العرفان ٨٣١/١ .

(٤) انظر: الكشاف للزمخشرى : ١٨٩/١ ، ٣٣٦/١ ، وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٣٤٥ .

(٥) انظر : الكشاف وأيضًا في آية الجمعة : ٤٢٣/٤ .

خشوعه حين يتلوه، وحين يسمعه من سواه، أخرج البيهقي قال: قال رسول الله ﷺ في يوم دجن: «كيف ترون بواسقها؟ قالوا: ما أحسنها، وأشد تراكمها، قال كيف ترون قواعدها؟ قالوا: ما أحسنها، وأشد تمكنها، قال: كيف ترون جونها؟ قالوا: ما أحسنه وأشد سواده، قال: كيف ترون رحاها استدارت؟ قالوا نعم: ما أحسنها وأشد استدارتها، قال: كيف ترون برقها أخفيًا أم وميضًا أم يشق شقا؟ قالوا: بل يشق شقا. قال: الحياء، فقال رجل: يا رسول الله: ما أفصحك ما رأينا الذي هو أعرب منك. قال: حق لي، فإنما أنزل القرآن عليَّ بلسان عربي مبين»[1]. وعن عبد الله بن عمر قال: قال النبي ﷺ «أنا محمد النبي الأمي، لا نبي بعدي، أوتيت جوامع الكلم وخواتمه، وعلمت خزنة، وحملة العرش[2]». قال الرافعي: «إذا كان فن العبقريين هو أس الكلام الإنساني لما خصوا به من هذه التهيئة (تهيئة الجهاز العصبي للاتصال بعالم ما فوق الطبيعة) فإن فنه ﷺ يكون ولا جرم من باب الأكبر، مما هو أكبر في إلهام الإنسانية كلها»[3]. وهذا حق فالنبي الكريم مع ربه دائمًا، والوحي متصل بين السماء والأرض، والنبع المشرق يتفجر دائمًا بالبيان العظيم.

الوضع اللغوي:

بهذا كله كان للنبي ﷺ القدرة على التشقيق البياني فاقتضب ألفاظًا كثيرة، وتعابير جمة، وكلها قد صار مثلاً لحسنه البياني، ولم يقتصر الأمر - وهو جد عظيم - على جوامع الكلم، والتراكيب الفذة التي لم يسبق إليها بل تناول الألفاظ بالزيادة، وأجرى فيها اشتقاقات، وتوسع في معاني بعض ألفاظها كالأسماء الشرعية والأحكام الدينية مما هو معلوم[4] ومن ذلك على سبيل

---

(١) المزهر ١/٢٢، ٢٣.
(٢) الشفا للقاضي عياض ١/١٠١.
(٣) وحي القلم لأحمد حسن الزيات ٣/٢٠.
(٤) انظر: البيان والتبيين ٢/٣٠، والمزهر ١/٢٣، إعجاز القرآن، الرافعي ص ٣٤٧ وما بعدها.

المثال قوله ﷺ : الآن حمى الوطيس ، ومات حتف أنفه ، وتسميته صفر الأول محرمًا ، مما نبه إليه الأقدمون والمحدثون .

موازنة عاجلة :

من بدهيات النقد الحديث أن الأسلوب هو الرجل بمعنى أنه ينبئ بصدق عن طبيعته ، وفكرته ، ونفسه وفطرته ، بيد أن الطباع البشرية لا تتوافى في كل أثر أدبي ، ولا تتعادل العاطفة والفكر دائمًا . والنفوس البشرية كتب عليها النقصان عن الكمال ، من هنا فإن النقاد أحصوا سقطات ونبوات لكل شاعر وأديب ، بل رأينا من عمالقة الشعر ـ من هو كالمتنبي يحلق في أجواء البيان ثم إذا به وقد خذله الطبع والْتَوَت به الصنعة فيهوى ، ويعقد الكلام تعقيدًا ، وهذه العيوب ـ كما يقول الرافعي ـ كتبت على الفصحاء فما يكاد يسلم منها أحد ، ذلك أنهم يؤتون من جهة النفس في ضعفها أو اضطرابها ، أو غفلتها ، أو ما أشبه ذلك من حال تعتري ، وعرق ينزع ، وهي خصال لا تكون لأنفس الأنبياء صلوات الله عليهم [1] . فإذا أضيف إلى ذلك أن نبينا ﷺ كان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة وإذا تكلم لا يسرد سردًا ، بل فصل ورتل ، وأبان وأحكم ، بحيث تخرج كل لفظة وعليها طابعه من النفس ، علمنا أن هذا المنطق وذاك البيان النبوي لا يشاركه منطق ، ولا يساميه بيان [2] . وكما قال الجاحظ : لم تسقط له كلمة ، ولازلت له قدم ، ولا بارت له حجة ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المواربة ، . . . لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا ولا أصدى لفظًا ، ولا أعدل وزنًا ،

---

(١) إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعى ص ٣٣٠ وما بعدها ، وانظر : عبقرية محمد للعقاد ص ٧٥ .

(٢) انظر : التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول، للشيخ منصور على ناصف ٣/٢٣٦ .

ولا أجمل مذهبًا ، ولا أكرم مطلبًا ولا أحسن موقعًا ، ولا أسهل مخرجًا ، ولا أفصح عن معناه ولا أبين في فحواه من كلامه ﷺ [1].

المنهج النبوي البلاغي :

تكاثرت الأخبار الصحيحة التي تكشف نهج النبي ﷺ وموقفه من البيان ، فكان يكره التكلف في كل شيء وبخاصة التكلف في الكلام فقال : « هلك المتنطعون » [2] والتنطع في الكلام : التعمق فيه ، والتفاصح ، وقال « إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها » [3] وقال :

« أمرت أن أتجوز في القول فإن الجواز هو خير » [4] . وقال : « إن أبغضكم إليّ ، وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون » [5] ، كما عرف عنه إنكاره على من يتكلفون السجع في الكلام [6] ، أما كلامه ﷺ فهو الطبع الخالص لا يتكلف القول ، ولا يعمد إلى تزيينه ، بل هو عفو البديهة ، ووحي الفطرة ولسان الطبيعة ، اتفق على ذلك من كتب في الأدب العربي ، ونظر في الحديث النبوي [7] ، فلا حرج علينا أن نسمي هذا منهج النبي البلاغي أو مذهبه البياني ـ كما أطلق عليه الدكتور « سيد نوفل » [8] ومن هنا فقد كان يقدس الكلمة ويدعو إلى صدقها وصوابها ، سئل ، ما الجمال؟ فقال : في

---

(١) البيان والتبيين بتصرف ٢٩١/٢ .

(٢) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ٦١/٥ .

(٣) المرجع السابق ٢٨٥/٥ .

(٤) المرجع السابق ٢٨٥/١٥ .

(٥) المرجع السابق ٦٤/٥ .

(٦) المرجع السابق ١٣/٣ .

(٧) انظر في ذلك : البيان والتبيين ٢٩/٢ ، ٢٢٩/٣ ، إعجاز الرافعي ص ٣١٣ ، ٣٦٢ وما بعدهما ، وعبقرية محمد ص ٧٥ ، والنبأ العظيم ص ٦٢ ، والفن ومذاهبه في النثر العربي للدكتور شوقي ضيف ص ٥٢ ، وثورة الإسلام وبطل الأنبياء ، محمد لطفي جمعة ص ٥٨ .

(٨) انظر : البلاغة العربية في دور نشأتها ، للدكتور سيد نوفل ص ٥٨-٦٠ .

اللسان ، وقال «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا ، أو ليصمت» ، بل كان ينفر من بعض الكلمات التي لا تـوائـم الـذوق الفطـري ، قـال لصحابتـه «لا تقولوا : دع ، دع ، ولا لع لع ، ولكن قولوا : اللهم ارفع وانفـع»[1] وقـال : «لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقصت نفسي» كأنه كره أن يضيف المؤمن الطاهر إلى نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجـوه ، كمـا كـره للمسـلم أن يقول : كسلت ، لأن المنافقين وصفوا بالكسل في القرآن الكريم[2].

أسلوب عصري :

والرسول ﷺ نبي ورسـول ، يصـوغ الحقـائق الإنسـانية ، ويقررهـا شـريعة ، وعاطفة ، وعملاً ، ويتعمق النفس البشرية ، ويرسم لهـا مـا يبصـرها ، ثـم هـو متصل بمصدر الطبيعة الأزلي ، لا يستملي منها ، وإنما يملي فيهـا[3] ، هـو إذن طبيب البشرية أينما كانت ، وأسلوبه يتنزل بـردًا وسـلامًا عليهـا ، متـى كانـت ، وهو بهذا المفهـوم أسـلوب عصـري ، لأن الأسـلوب الـذي يخـرج مـن الفطـرة المستقيمة ـ كما يقول العقاد ـ هو أسلوب عصري في جميع العصور[4].

ثقافة النبي ﷺ :

عنوان غريب ، وأغرب منه أن نجد بعض المستشـرقين يخبطـون علـى غيـر هدى ، بعـد أن بهـرهـم مـا قـرأوا مـن سـنته ﷺ تلـك الـتي فاضـت بكـل القيـم الإنسانية والإلهية الخالدة ، في إطار ونظام من البلاغة مكن لهـا الخلـود فراحـوا ينسبون اتصالات وهمية له بالأحبار والرهبان ، والأمم والشعوب تلمذة وتعلمًا ولانلقي بالاً لأمثال هذه الترهـات ، فقـد يفيـد البرهـان مـن يريـد صـوابًا ، أمـا

---

(١) انظر : المزهر ١/٤٣ .

(٢) انظر : الحيوان للجاحظ ١/٣٣٥ ، والكشاف للزمخشري ٢/٢٢٥ .

(٣) انظر : وحي القلم للرافعي ٣/٢٧ وما بعدها .

(٤) انظر : عبقرية محمد ص ٧٨ .

الحقد والضغينة فليس لهما من دواء . فهذا التاريخ مفتوح يثبت أن ثقافته ﷺ مرجعها إلى ربه ، ووحيه ، وكفى بالقرآن دليلاً على أنه النبي الأمي الذي علم البشرية ، يقول الأستاذ محمد لطفي جمعه : « إذا كان العلماء أمثال الجاحظ لم يصلوا إلى شيء من آداب هذه الأمم بعد قهرها ، وفتح بعضها ، واندماجها في ملتهم ، فلشد ما كان جهلهم بها في الجاهلية ، وفي أثناء حياة النبي ، قبل الرسالة ، وبعدها ، وإذن يكون أدب محمد وبلاغته ، وفصاحته شخصية فطرية لم تستند إلى علم أجنبي ولا إلى مثال عربي ، ولكنها كانت مصوغة بصيغة جديدة لا عهد للعرب بها ، يتضح الفرق بينها وبين كل ما سبقها ، فكان ﷺ نسيج وحده بين الناطقين بالضاد ، كما كان القرآن نسيج وحده بين الكتب ، فراع كلام النبي معاصريه بما أتى من حكمة وبيان وصواب رأي ، ولم يفرغ الناس من الجدل في محاسن كلمه ، وجمال نثره ، وصدق فراسته ، وسرعة بديهته ، واستكمال مواهبه »[1].

كل ما سبق يصل بنا إلى حقيقة لا لبس فيها ، هي أن الله تعالى قد شاء لسنة نبيه ـ بما لها من سمات خاصة خالدة ـ أن تبقى أبدًا مشعة مشرقة ، يقول الرافعي ـ رحمه الله ـ « ولأمر ما كان كلام النبوة خالدًا ، كأنه قيل في كل عصر لأهله وقبيله ، وكأن هذا الزمان إنما هو شاهد يجيء بالبينة على صحة تأويله »[2].

* * *

(١) ثورة الإسلام وبطل الأنبياء للأستاذ محمد لطفي جمعة ص ٥٨١.

(٢) إعجاز القرآن للرافعي : ص ٧٣ .

الفصل الثاني

السنة النبوية

الباحث في البلاغة النبوية لابد أن يتثبت من قضية لها خطرها بل إلى أس ركين يقوم عليه بحثه ، ألا وهو النظر بدقة في قضية الرواية للأحاديث أباللفظ كانت أم بالمعنى ، وينبني على ذلك بيان فصاحته ، وبلاغته ﷺ ، من أساليبه الذاتية ، ثم الوقوف مع هؤلاء الأعلام الذين جردوا أقلامهم ، لاستلهام البلاغة النبوية أسرارها ، وفنون سحرها قديمًا وحديثًا ، ويلزم هذا التعرض لقضية أخرى هي تدوين السنة ، لأهميتها الكبرى في تبرير الحكم على القضية الأولى .

تدوين السنة :

خطط المستعمر ـ حينما وضع مناهج التعليم ـ أن تبتعد أجيالنا عن دراسة السنة النبوية ، الدراسة التي تصلنا إلى المستوى الرفيع من الحياة الفاضلة ، وقد حشد لذلك طاقاته ، وإمكاناته ، فغذى حركة الاستشراق التي هدفت إلى تدمير التراث ، وبتر الصلة بين حاضر المسلمين وماضيهم مثل « جولد تسهير » القائل « إن القسم الأكبر من الحديث ليس إلا نتيجة للتطور الديني والسياسي والاجتماعي في القرنين الأول والثاني ، وأثرًا من آثار جهود الإسلام في عصر النضوج » ويحمل على علماء الحديث لأنهم لم يحكموا بزيف الحديث كله ، وما اعتبروه صحيحًا محل نظر عنده ، ولقد أصبح هذا الرأي من مسلمات البحث في الشرق والغرب عند المستشرقين[1] ، وقد وجدت حركة الاستشراق

(١) راجع : نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ، دكتور علي حسن عبد القادر ، ص١٢٦، ١٢٧، السنة قبل التدوين للدكتور محمد عجاج الخطيب ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠، والباعث الحثيث ، الأستاذ أحمد محمد شاكر ص ٧ ، ٨ .

أتباعًا لها من العرب ينفثون سمومها، وعظم الخطب بمن أفتى في علوم السنة وهو أبعد الناس عنها، يقول أحدهم «لولا ما فعله أبو بكر وعمر لتبدد القرآن وعدنا لا نجد منها إلا شذرات مختلفة لا تطمئن إليها النفس، كما هو الحال في الأحاديث التي دونت أخيرًا، بعد إذ مات الحفاظ الأولون»[1].

ويقول صاحب «حياة محمد» «ولعل الحديث لم يجمع في الصدر الأول من الإسلام لما كان يروى عن النبي ﷺ أنه قال «لا تكتبوا عني شيئًا غير القرآن، ومن كتب شيئًا غير القرآن فليمحه»، على أن أحاديث النبي كانت متداولة على الألسن. من يومئذ وكانت الروايات تختلف فيها، ولقد أراد عمر ابن الخطاب - أثناء خلافته - أن يتدارك الحال في ذلك بأن يكتب السنن، فاستفتى أصحاب النبي في ذلك فأشاروا عليه بأن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله شهرًا، ثم أصبح يومًا وقد عزم الله له فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبدًا وعدل عن كتابتها، وكتب في الأمصار «من كان عنده شيء فليمحه» وظلت الأحاديث تتوالد وتتداول حتى جمع ما صح لدى جامعيه في عصر المأمون»[2].

ولا يحتاج التثبت في ذلك إلى أمور خارقة إنما يكفي «كتاب العلم» عند البخاري مثلاً، ومراجعة كتاب في علوم السنة لتحرير هذه الأقوال.

الكتابة في عهد الرسول ﷺ:

تدل الدراسات العلمية الحديثة أن العرب كانوا يعرفون الكتابة قبل الإسلام، واكتشفت آثار تحمل كتابات عربية تنتمي إلى القرن الثالث الميلادي، وقد اشتهر من كتاب الجاهلية «عدي بن زيد العبادي» (٣٥ق. هـ) الذي تعلم في «الكتاب» وكان أول عربي يدخل إيوان كسرى ويكتب فيه بالعربية، كما انتشرت الكتاتيب في الجاهلية وكان يشرف عليها معلمون لهم مكانة سامية مثل «أبي سفيان بن أمية» و «بشر بن عبد الملك» «وعمرو بن زرارة المسمى

---

(١) النثر الفني، دكتور زكي مبارك ١/٥٨.
(٢) حياة محمد ص ٤٩، ٥٠.

بالكاتب» ، وقد استقدم «أبو جفينة» إلى المدينة ليعلمهم الكتابة ، مع قيام بعض اليهود بتعليم الصبيان في الزمن الأول ، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون [1].

ولقد اشتهر بالكتابة من أهل مكة ، عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، ويزيد بن أبي سفيان ، وأخوه معاوية ، واشتهر من أهل المدينة سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، وزيد بن ثابت ، ولذا فند ثقاف الباحثين المعاصرين قول المؤرخين القدامى : إن الإسلام دخل وبمكة بضعة عشر رجلاً يكتبون [2].

لكن لا يباح لنا أن نغالي في انتشار الكتابة فلم تصل إلى مرتبة الشمول ، ولذا أطلق على العرب «أميين» وقال ﷺ : «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» [3] ، ثم جاء الإسلام فحث القرآن الكريم على التعلم ، وحض الرسول عليه ، حتى لقد جعل فداء الأسرى في غزوة بدر ممن كانوا يعرفون القراءة والكتابة أن يعلم الواحد منهم عشرة من أبناء المسلمين [4] ، واقتضت طبيعة الرسالة أن يكثر المتعلمون القارئون الكاتبون للوحي أولا ، ولما تقتضيه علاقات الدولة الجديدة بما حولها من معاهدات ومراسلات ومواثيق ، ولقد بلغ كُتَّاب الوحي وحدهم أربعين كاتبًا غير كُتَّاب الصدقة والمداينات والمعاملات ، ثم انتشرت الكتاتيب على نطاق واسع ، بل شملت الذكور

---

(١) انظر : مصادر الشعر الجاهلي ، دكتور ناصر الدين الأسد ص ٢٤ وما بعدها ، والسنة قبل التدوين ص ٢١٥ وما بعدها .

(٢) انظر : تدوين السنة ، محمد الطيب النجار ص ١٢ ، ١٣ ، والحديث النبوي ، محمد الصباغ ص ١١٧ .

(٣) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ، الشيخ منصور على ناصف ٥٤/٢ ، وعليه «غاية المأمول» شرح أحاديث الرسول للمؤلف .

(٤) انظر : تدوين السنة ، ص١٢ ، ١٣ ، دراسات تاريخية في رجال الحديث ، عبد الحميد بخيت ص ٨ .

والإناث جميعًا ، فقد دخل النبي ﷺ على الشفاء بنت عبد الله وهي عند حفصة رضي الله عنهما فقال : «ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة»، وقال عثمان بن عبيد الله «رأيت أبا هريرة يصفر لحيته ، ونحن في الكُتَّاب»[1].

مما سبق ، يتضح لنا أن نرفض قول ابن قتيبة ، وكان غيره - يعني عبد الله ابن عمرو بن العاص - من الصحابة أميين لا يكتب منهم إلا الواحد ، والاثنان وإذا كتب لم يتقن ولم يصب التهجي[2].

لكن على فرض قلة الكتابة بين الصحابة ، فهل تعتبر مانعًا محترمًا من تدوين السنة؟

نجد السيوطي ، ومحمد عبد العظيم الزرقاني ، وعبد الحكيم بلبع يجعلون من عدم إحسان الكتابة من الصحابة ، وندرة أدواتها ، وبعد فكرة التدوين والكتابة عن أذهانهم لبداوتهم سببًا من الأسباب المباشرة في النهي عن التدوين[3] ، ولا نعتقد أن ذلك على فرض صحته - وهو غير صحيح - مانع من التدوين للسنة - لو أذن لهم بادئ الرأي - ألم يتسابقوا إلى تدوين القرآن الكريم؟ ألم يكتبوا قسطًا من الحديث حتى نهوا عنه أولاً ؟ بل ألم يستمر بعضهم في الكتابة كابن العاص؟ إن حبهم لصاحب الرسالة ﷺ جعلهم يبذلون أرواحهم ، فهل يعجزهم أن يكتبوا بيانه ، ومنهم من كان يعرف غير العربية ، ومن تعلم السريانية - كزيد بن ثابت - في سبعة عشر يومًا حين أمره النبي ﷺ بذلك؟ ويقول الدكتور محمد حميد الله الحيدرآبادي : «لا يقال إن الرواية الشفوية هي وحدها التي اعتمد عليها في أوائل الإسلام ، إذ إن المسلمين قد أمروا أن يكتبوا جميع ما فيه حقوق العباد ويستشهدوا عليه فإن «ذلك أقسط

---

(١) انظر : السنة قبل التدوين ص ٢٩٨ ، ٣٠٠ .

(٢) تأويل مختلف الحديث : ص ٣٦٦ .

(٣) انظر : تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي ٨٨/١ ، مناهل العرفان للزرقاني ٢٨٥/١، ٢٨٦، والنثر الفني وأثر الجاحظ فيه ، عبد الحكيم بلبع ص١١٧.

عند الله وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا» ومن ثَمَّ كتب النبي ﷺ جمع المحالفات ، والمعاهدات مع القبائل والملوك ، سوى ما كتب إليهم من المراسلات[1] ، والواقع أن ثَمَّ أحاديث وردت يفهم من ظاهرها النهي عن تدوين الحديث ، بينما صحت أحاديث تأذن بالتدوين أكثر من الأولى .

أحاديث النبي ﷺ [2] :

١- روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : «لا تكتبوا عني ، ومن كتب غير القرآن فليمحه» .

٢- قال أبو سعيد «جهدنا بالنبي ﷺ أن يأذن لنا في الكتابة فأبى» .

٣- عن أبي هريرة قال : «خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نكتب الأحاديث فقال : ما هذا الذي تكتبون؟ قلنا : أحاديث نسمعها منك ، قال : كتاب غير كتاب الله ، أتدرون ما ضل الأمم قبلكم إلا بما كتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى».

أحاديث الأذن :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص «كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه ، فنهتني قريش ، وقالوا : تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الرضا والغضب؟!! فأمسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بإصبعه إلى فيه ، وقال اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق» .

٣- قال أبو هريرة : ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثًا مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب .

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ، جمعها دكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى «المقلمة ى».

(٢) مع توزع هذه الأدلة آثرت نقلها من كتاب السنة قبل التدوين لتوثيق المؤلف لها ص ٣٠٣-٣٠٥ .

٤- روي أبو هريرة : شكا رجل قلة حفظه إلى الرسول ﷺ فقال له النبي ﷺ : «استعن على حفظك بيمينك» .

٥- روي عن رافع بن خديج أنه قال : قلنا يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها قال : «اكتبوا ولا حرج» .

٦- روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : «قيدوا العلم بالكتاب» .

٧- عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال عام فتح مكة لمن سأله الكتابة «اكتبوا لأبي شاة» .

٨- عن عبد الله بن عباس قال : لما اشتد بالنبي ﷺ وجعه : قال إيتوني بكتاب ، أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ، قال عمر : إن النبي ﷺ غلبه الوجع ، وعندنا كتاب الله حسبنا ، فاختلفوا ، وكثر اللغط . قال : قال : «قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع»[1] .

وقد حاول «ابن قتيبة» الجمع بين الأحاديث المتعارضة ، فجعله من منسوخ السنة بالسنة بمعنى أن الإذن ناسخ للنهي ، أو أن ذلك خاص بعبد الله ابن عمرو لانتشار الأمية بين الصحابة[2] ، والاحتمال الثاني مردود بما سبق . وأبرع من جمع الآراء في التوفيق بين متعارض الأحاديث «السيوطي» فقال في الإتقان : «والجمع بينهما أن النهي خاص بوقت نزول القرآن ، خشية التباسه بغيره ، والإذن في غير ذلك ، أو أن النهي خاص بكتابة غير القرآن مع القرآن في شيء واحد والإذن في تفريقهما ، أو أن النهي متقدم والإذن ناسخ له عند الأمن من الالتباس ، وهو أقربهما مع أنه لا ينافيهما ، وقيل النهي خاص بمن خشي منه الاتكال على الكتابة دون الحفظ والإذن لمن أمن منه ذلك؟ ومنهم من أعلى حديث أبي سعيد ، وقال : الصواب وقفه على أبي سعيد ، قال البخاري وغيره : قال العلماء : كره جماعة من الصحابة والتابعين كتابة الحديث

---

(١) انظر في هذا الأحاديث : التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ١/٦٦-٧٣ ، تدريب الراوي ٢/ ها من ٦٥/٦٦ ، وتدوين السنة ص ١٥ ، ١٦ والحديث والمحدثون ، دكتور محمد محمد أبو زهو ص ١٢٢-١٢٥ .

(٢) انظر : تأويل مختلف الحديث ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

واستحبوا أن يؤخذ عنهم حفظا ، كما أخذوه حفظا ، لكن لما قصرت الهمم أوخشى الأئمة ضياع العلم دونوه»[١].

والرأي السائد بين العلماء أن النهي منسوخ بالإذن ، قال : الأستاذ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ «وكل الإجابات غير صحيحة ، والرأي النسخ»[٢].

ومما يؤيد القول بالنسخ أن بعض أحاديث الإذن متأخرة التاريخ ، ذلك أن أبا هريرة راوي حديث النهي عن الكتابة أسلم في السنة السابعة للهجرة ، وقصة «أبي شاة» كانت في السنة الثامنة عام الفتح ، وكذلك حديث ابن عباس «إيتوني بكتاب» يعتبر إذنًا عاما وإباحة مطلقة[٣].

وصفوة القول : أن الرسول ﷺ لم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا وكتابة الحديث مأذون فيها ، ولقد استقر الرأي وانعقد الإجماع على جواز كتابة العلم ، واستحبابه ، بل على وجوبه على من خشى النسيان ممن يتعين عليه تبليغ العلم[٤] ، وقد ترك عدد من الصحابة ، والتابعين صحفًا أشهرها :

١- صحيفة عبد الله بن عمرو ـ وسماها الصحيفة الصادقة ، وهي التي أقره الرسول عليها ، وعدد أحاديثها ألف حديث كما ذكر ابن الأثير[٥].

٢- صحيفة أبي هريرة لهمام بن منبه ، وقد عثر عليها الدكتور محمد حميد الله في دمشق وبرلين ، وقد جاءت هذه الصحيفة برمتها في مسند الإمام أحمد ، وعدد أحاديثها ثمان وثلاثون ومائة ، وسماها : الصحيفة الصحيحة[٦].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطى ١/١٨٥ .

(٢) الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث لابن الأثير ص ١٤٨ وانظر : دراسات تاريخية في رجال الحديث للدكتور عبد الحميد بخيت ص ٩ .

(٣) انظر : السنة قبل التدوين ص ٣٠٧-٣٠٩ ، والحديث النبوي ، الصباغ ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ودفاع عن السنة ، أبو شهبة ص ٢٠ ، ٢١، والسنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى السباعى ص ٧٤ ، ٧٥.

(٤) انظر : الحديث والمحدثون للدكتور محمد أبو زهرة ص ١٢٥ ، ومصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد ص ١٤٦ .

(٥) السنة ومكانتها في التشريع ص ٧٦ ، ٧٧ ، والسنة قبل التدوين ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٦) انظر : مصادر الشعر الجاهلي ص ١٤٦ ، والحديث والمحدثون ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

٣- صحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري ، ويقول عنها قتادة بن دعامة «لأنا لصحيفة جابر أحفظ مني لسورة البقرة»[١].

٤- ما كتبه عبد الله بن عباس ، فقد ذكر موسى بن عقبة قال : وضع عندنا كريب حمل بعير من كتب ابن عباس ، فكان على بن عبد الله بن عباس إذا أراد الكتابة كتب إليه ابعث بصحيفة كذا وكذا ، فينسخها ، ويبعث بها[٢].

٥- روى ابن هبيرة بن عبد الرحمن أن أنس بن مالك كان إذا حدث فكثر عليه جاء بمجال من كتب فألقاها ثم قال : هذه أحاديث سمعتها ، وكتبتها عن رسول الله ﷺ وعرضتها عليه ، وكان أنس يحض بنيه على كتابة الحديث[٣].

٦- كان سعيد بن جبير يسائل ابن عباس ، وابن عمر ، فيكتب ما يسمع منهما من الحديث ، وكانت للحسن البصري كتب حديث وفقه ، وكان بعض أصحابه يأخذها فينسخها ثم يردها[٤].

من كل هذا نصل إلى هذه الحقيقة الناصعة ، هي أن حديث رسول الله ﷺ قد دون في عهده تدوينًا فرديًا ، من الصحابة ، لا تدوينا عامًا ، واستمر الصحابة والتابعون في كتابته ، وأن ما يقال من أن الحديث بقي مائة سنة أو تزيد يتناقله الناس ، ولم يدون إلا في منتصف القرن الثاني للهجرة رأى لا يعتد به ولا يعول عليه .

التدوين في عصر الراشدين :

وجد من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من أكثر الحديث عن رسول الله ﷺ

(١) انظر : السنة قبل التدوين ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

(٢) انظر : مصادر الشعر الجاهلي ص ١٤٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٥ (أ) المرجع السابق ص ١٤٥ وانظر : السنة قبل التدوين ص ٣٥٣ .

(٤) مصادر الشعر الجاهلي ص ١٤٦ ، وانظر الحديث والمحدثون ص ١٢٥ بهامشها .

واستكثر منه : منهم أبو هريرة ، وعبد الله بن عمر - وعبد الله بن عباس - وعروة بن الزبير وغيرهم[1] .

ومع ذلك ، كان التحديث قليلاً في عصري الشيخين أبي بكر وعمر ، إذ كانت خطتهما حمل المسلمين على التثبت من الحديث من جهة ، ثم حملهم على العناية بالقرآن أولاً من جهة أخرى .

ثم إن موضوع نسخ القرآن في الصحف شغل بال الأئمة الثلاثة ، ثم جاء علي في فتنة شغلت الناس ، وكان من رأيه إباحة الكتابة للسنة ، وكان معه صحيفة علقها في سيفه فيها : أسنان الإبل ، وأشياء من الجراحات ، وحرم المدينة ، ولا يقتل مسلم بكافر[2] ، وتابعه أنس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن عمرو ، وابن عباس ، ومعاوية الذي كان يراسل الصحابة[3] .

التدوين في عصر التابعين :

وقد سار التدوين سيرا ذاتيًا أول الأمر ، حتى حدث أمران عظيمان : ألهبا النشاط وحشدا جهود التابعين لتدوين الحديث :

أولاً : ظهور الفرق ، والفتن والطوائف من الخوارج ، وغلاة الشيعة ، مع كثرة الكذب وتخوف علماء التابعين من اختلاط الحديث الصحيح بالموضوع المدسوس ، خاصة بعد انتشار الفتوحات وعدم ثبات الإيمان في قلوب محدثي الإسلام .

ثانيًا : تبني الدولة رسميًا للتدوين ، وذلك عندما قام الخليفة الصالح عمر ابن عبد العزيز بالعزم على تدوين السنة ، فكتب إلى أبي بكر بن حزم ، قاضيه على المدينة « انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فإني خفت دروس العلم ، وذهاب العلماء ». والذي يظهر أنه لم يخص ابن حزم بهذا العمل

---

(١) انظر : السنة قبل التدوين ص ٣١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٥ .

(٣) السنة قبل التدوين ص ٣١٨ ، وانظر : الحديث النبوي للصباغ ص ١٢٠ ، والسنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ٧٦ ، ٧٧ .

الجليل، بل أرسل إلى ولاة الأمصار كلها، وكبار علمائها يطلب منهم مثل هـذا.
ولقد أنفذ ابن حزم ما عنده، من حديث وجده عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية (٩٨هـ) والقاسم بن محمد بن أبي بكر (١٢٠هـ) ولم يدون كل ما في المدينة من سنة، وإنما فعل هذا الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (١٢٤هـ). ويذكر الرافعي أنه صاحب اليد البيضاء على فن الرواية، لأنه أول من قرر شروطها، فدون الحديث تدوينًا مراعيًا فيه شروط الرواية الصحيحة[1]. ثم شاع التدوين في الجيل الذي يلي جيل الزهري، وكان أول من جمعه بمكة عبد الله بن جريج (١٥٠هـ) وكذلك ابن إسحاق (١٥١هـ) وبالمدينة سعيد بن أبي عروبة (١٥٦هـ) والربيع بن صبيح (١٦٠هـ) والإمام مالك (١٧٩هـ) ونسب إليه تدوين الحديث لأنه أودع كتابه «الموطأ» أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه وجاء به مع ذلك على شروط الرواية، وبالبصرة حماد بن سلمة (١٧٦هـ) وبالكوفة سفيان الثوري (١٦١هـ)، وبالشام أبو عمرو الأوزاعي (١٥٦هـ)، وبواسط هيثم بن بشير (١٨٣هـ) وبخراسان عبد الله بن المبارك (١٨١هـ) - وباليمن: معمر بن راشد (١٥٣هـ) وبالري: جرير بن عبد الحميد (١٨٨هـ)، وكذلك فعل سفيان ابن عيينة (١٩٨هـ)، والليث بن سعد (١٧٠هـ)، وسعيد بن الحجاج (١٦٠هـ)، وهؤلاء جميعًا كانوا في عصر واحد، ولا يعلم على وجه التحقيق أيهم الأسبق، وما أن جاء القرن الثالث الذي يعتبر العصر الذهبي لتدوين السنة - حتى هب جهابذة أفذاذ، أصحاب طاقات جبارة، يقفون حياتهم على طلب السنة، والرحلة من أجلها، فتوالت الكتب الصحاح وهي مجموعة البخاري (٢٥٦هـ)، ومسلم (٢٦١هـ)، وأبو داود (٢٧٥هـ)، والنسائي (٣٠٣هـ)، وابن ماجه (٢٧٥هـ)، والترمذي (٢٧٩هـ)، وغيرهم[2].

---

(١) راجع في هذا: تاريخ آداب العرب للرافعي ١/٢٨٠-٢١٤ والسنة ومكانتها ص١٢٢، ١٢٣، والحديث النبوي للصباغ ص١٢٢، والسنة قبل التدوين ص٣٢٨ وما بعدها.
(٢) انظر: تاريخ آداب العرب للرافعي ١/٢٨٨.

ثـم انصـرفت العناية بعـد ، إلى تمحيص مـا يـروى ، وتصـحيح الأمهـات المكتوبـة كالموطـأ وصـحيحي البخـاري ومسـلم ، وضـبطهما بالرواية عـن مصـنفيها ، والنظـر في أسـانيدها إلى مؤلفيهـا ، وانصـرف جماعـة مـنهم إلى الاتساع في الإسناد فطلبوا الحديث الواحد من طرق مختلفـة قـد تبلـغ عشـرين طريقًا بأسـانيدها ، وكـان مـن ذلـك أن استبحروا في الحفـظ ، واستقلوا بـه ، وتبسطوا في فنون الرواية وجهاتها ، مما لا تتعلق بقليله أمة من الأمم[1].

والعجيـب كـل العجـب ذلـك الأسـلوب النقـدي الصـارم الـذي ادرعـوا في تمحيص الأحاديث ونقدها ، ومحاكمتها إلى العقل والتـاريخ والنظريـة فرفضـوا ملايين من روايـات توافـق أسـاليبهم ، وأثبتـوا الحـق ، وخلصـوا الحـديث نقيًّـا صافيًا . قال الأستاذ محمد الغزالي : « أما أحاديـث الرسـول فقـد نهـض علمـاء المسلمين إلى حياطتهـا ، وذود الـدخيل عليهـا ، ونقـدوها كمـا ينقـد الصيارفة الصحـــاح ، والـزيــوف ، والحـــق أن الوضاعيـــن والمتساهلين روجـوا علـى رسول الله ﷺ ما لم يقله ، ولكن الحق ، أيضًا أن أحـدًا مـن العظمـاء لم تغربـل آثاره بموازين أدق مما صنع علماء المسلمين مع نبيهم ، ولو رفضنا السـنة بعـد هذا الفحص العلمي العادل لوجب أن نرفض التاريخ الأدبي ، والسياسي لساسـة الدنيا ، وقادتها ، وشعرائها ، وفلاسفتها »[2].

الرواية بين اللفظ والمعنى :

وهي أمر يجب تحريره ، والتثبت منه لمن يريد البحث في البلاغة النبويـة ، إذ لو كانت الأحاديث التي بـين أيـدينا مرويـة بـالمعنى لكانـت كـل الدراسـات البلاغية حول بيان النبوة قـديمًا كالشـريفين ، وابـن الأثـير وابـن أبـي الإصـبع ،

---

(١) انظر : الحديث النبـوي للصبـاغ ص ١٢٠ ، ١٢٢ ، دائرة معارف القرن العشرين ص ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ومناهل العرفان في علوم القرآن ، الزرقاني ١/٢٨٦-٢٩٢ .

(٢) نظـرات في القـرآن : الشيخ محمـد الغزالـي ص١٥، ط ثانيـة : دار الكتـب الحديثـة ١٣٨٠هـ- ١٩٦١م .

والعلوي وغيرهم ، وحديثًا كالرافعي غير ذات موضوع ، ولذا ينبغي التريث والبحث عند إصدار حكم بهذا الصدد ، بيد أنه قد ظهر حديثًا على مسرح الأدب العربي ، من أعطى نفسه الحق في إصدار أحكام حول القضايا المتعلقة بأبحاث السنة دون تمحيص ، أو دراسة ، فكانت آراؤهم غريبة نافرة ، ونورد بعض الآراء لأصحابها :

- أحمد حسن الزيات : قال «أما الحديث فلم يدون إلا حوالي القرن الثاني الهجري وكان قبل ذلك إنما يروى من الذاكرة ، والذاكرة كثيرًا ما تخون ، فناله من تغيير الكلمات واختلاف الروايات أكثر مما نال الشعر الجاهلي ، لاستحالة المحافظة على اللفظ في نقله مشافهة طوال هذه السنين»[1].

شوقي ضيف قال : «لن نعرض للحديث النبوي ؛ لأنه روى لنا في أغلب نصوصه بالمعنى ، ومعروف أن الرواية بالمعنى لا يصح أن تتخذ أصلاً لدراسة تعني بالفن والصياغة»[2] .

- عمر فروخ قال :«أما الحديث فالغالب أنه روى بمعانيه لا بألفاظه»[3].

- أنيس المقدسي قال : «لو دققنا النظر في سائر ما ورد في الصحيحين لرأينا كثيرًا من الأحاديث التي مع صحة إسنادها يجمل بمؤرخ الأدب عدم اعتمادها ، في تقرير ما كان عليه النثر أيام النبي ، ومن ذلك كتاب فضائل الأنبياء ، والصحابة ، ومناقب قريش ، والمدن المقدسة ، وتفسير الآيات ، وأحاديث الجن ، واستماعهم للقرآن ، وما قالوا وما فعلوا ، وحديث القرآن وداود إلى غير ذلك مما قد لا يستسيغه النقد الدقيق ، ونظيرها الأمثال والقصص المماثلة لما هو في التوراة والإنجيل[4]. وإنكاره لكل ذلك أو ريبة

---

(١) تاريخ الأدب العربي للزيات ص ٩٥ .

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي للدكتور شوقى ضيف ص ٣٥ .

(٣) تاريخ الأدب العربي لفروخ ٢٤٢/١ .

(٤) انظر : تطور الأساليب النثرية ، المقدسى ٢١/١ ، ٢٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٧ ، ٦٨.

فيه إنكار لأصل الرسالة المحمدية ؛ لأن مثل ذلك وارد في القرآن الكريم ومثلها الأمثال والقصص . والقضية أساسًا قضية اقتناع بكل ما جاء به الدين - كما نجد في الميدان الديني من يطلق أقوالاً شبيهة غريبة ، ومنهم «محمود أبو رية» فقد اضطرب في توضيح رأيه ، فمرة يذكر أن الأحاديث لم يعن أولا بتدوينها ، وأنها رويت بالمعنى لنسيان أصلها وأن الأمر جرى على رواية الحديث بالمعنى باتفاق[1] ، ومرة يذكر الخلاف وأنه خلاف الأولى[2] ، وللأستاذ سليمان ربيع رأي هنا ، يقول «ليس من هم الأديب أن يعني بما نال الحديث من الاختلاف والتبديل ، ولا بما نال المحدثين من الجرح والتعديل ، فإن الأدب إنما يعتبر الأحاديث صادقها وكاذبها مذهبًا من مذاهب القول له التأثير البالغ ، والأخذ الشديد»[3].

ولعمري إذا كان الأسلوب هو الرجل معبرا عن روحه ، ونبضه ، وشخصه ، ووجدانه ، فكيف تقدم الأحاديث المبدلة أو المكذوبة الشائهة صورة صادقة لأفكار النبي وأحاسيسه ، وكيف تكون برهانًا للحكم على بيانه ، والقيم الفنية في بلاغته .

ولاشك أن اتباع الطريقة النفسية - على الأقل - في تمييز الأساليب مما نبه إليه ابن أبي الحديد «قديمًا» ، والنقد الأدبي - حديثًا يرد هذه المزاعم ، يقول ابن أبي الحديد : «متى فتحنا هذا الباب (الشك في نسبة النص إلى صاحبه) وسلطنا الشكوك على أنفسنا في هذا النحو لم نثق بصحة كلام منقول عن رسول الله ﷺ أبدًا ، وساغ للطاعن أن يطعن ويقول : هذا الخبر منحول ، وهذا الكلام مصنوع»[4].

---

(١) انظر : دفاع عن السنة ، الأستاذ محمود أبو رية ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٨١ ، ٨٢ .

(٣) في الأدب الإسلامي والأموي ، سليمان ربيع ص ٥٧ .

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١٠/١٢٨ ، ١٢٩ .

ونحمد الله أن وجدنا من عمالقة الفكر من هب للدفاع عن الحق ، ونكتفي بالأستاذ الشيخ : أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ قال في مقدمة « الباعث الحثيث » : « ابتدع بعض المتقدمين بدعة سيئة ، هي عدم الاحتجاج بالأحاديث ، لأنها تسمى في اصطلاحات بعض الفنون ظنية الثبوت ، أي أنها لم تثبت بالتواتر الموجب للقطع في النقل ، وكان هذا اتباعًا لمصطلح لفظي لا أثر له في القيمة التاريخية لإثبات صحة الرواية ، فما رواية صادقة يثق بها العالم المطلع المتمكن من علمه ، بواجب في صحتها ، والتصديق بها ، واطمئنان القلب إليها ، أن تكون ثابتة بثبوت التواتر الموجب للعلم البديهي ، وإلا لما صح لنا أن نثق بأكثر النقول في أكثر العلوم والمعارف ، وكانت هذه الفئة التي تذهب هذا المذهب الردىء فئة قليلة محصورة مقصورة لا أثر لقولها في شيء من العلم ، ولكن نبغ في عصرنا هذا بعض النوابغ من اصطنعتهم أوربا وادخرتهم لنفسها من المسلمين ـ فتبعوا شيوخهم ـ من المستشرقين ، وهم طلائع المبشرين ، وزعموا كزعمهم أن كل الأحاديث لا صحة لها ولا أصل ، وأنه لا يجوز الاحتجاج بها في الدين ، وبعضهم يتخطى القواعد الدقيقة المصححة ، ثم يذهب يثبت الأحاديث وينفيها بما يبدو لعقله وهواه ، من غير قاعدة معينة ولا حجة ولا بينة ، وهؤلاء لا ينفع فيهم دواء إلا أن يتعلموا العلم ويتأدبوا بأدبه ، ثم الله يهدي من يشاء »[1]. ثم يقول : « فإن معنى الشك والطعن أنه حكم على جميع الرواة والثقات من السلف الصالح رضي الله عنهم بأنهم كاذبون مخادعون مخدعون ، ورمى لهم بالفرية والبهتان ، أو بالجهل والغفلة ، وقد أعاذهم الله من ذلك ، وهم يعلمون يقينًا أن رسول الله ﷺ قال : « من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار » وقال : « من حَدَّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » فالمكذب لهم في روايتهم إنما يحكم عليهم بأنهم يتقحمون في النار تقحمًا ، وأنهم لم يكونوا على شيء من الخلق

---

(١) الباعث الحثيث ، هامش ص ١٦٨ .

أو الدين ، فإن الكذب من أكبر الكبائر ، وقد كان أهل الصدر الأول أشرف الناس نفسًا ، وأعلاهم خلقًا وأشدهم خشية»[1].

مسلمات :

قبل أن ندلف إلى الخلاف في الرواية بين اللفظ والمعنى نثبت هذه المقدمات المسلمة ، حتى ممن يجيز الرواية بالمعنى :

١- من الأحاديث ما اتفقت الرواة على لفظها كجوامع كلمه ﷺ والأذكار والأدعية المتعبد بلفظها ، أو المتبرك بها ، أو المتشابه ، أو القصيرة الجامعة التي تعيها الذاكرة ، ولا يشك متذوق البلاغة في أنها صادرة من مشكاة النبوة ، ومن هنا ألفت الكتب في البلاغة النبوية[2].

٢- الرواية بالمعنى لا تجوز في الكتب المدونة والصحف المدونة ، قال ابن الصلاح إن هذا الخلاف لا نراه جاريًا ، ولا أجراه الناس ـ فيما نعلم ـ فيما تضمنته بطون الكتب ، فليس لأحد أن يغير لفظ شيء من كتاب مصنف ، ويثبت بدله لفظًا بآخر بمعناه[3].

٣- تدوين الحديث وقع على نحو ما في القرن الأول ، وفي حياة النبي ﷺ ، وأن التدوين العام كان في أوائل القرن الثاني ، ثم إن الصحابة والرواة أعلم الناس بمواقع الخطاب ، ومحامل الكلام ، وأن الكذب في الحديث من أقبح الجرائم[4].

٤- اتفق على أن الراوي إذا لم يكن عالمًا بالألفاظ ، ومدلولاتها ، ومقاصدها ولا خبيرا بما يحيل معانيها ولا بصيرًا بمقادير التفاوت بينها لم تجز له

---

(١) الباعث الحثيث ، هامش ص ١٦٨ .

(٢) انظر : المستصفى للغزالي «حجة الإسلام» ١٦٩/١ ، وتدريب الراوي في شرح تقريب النواوى للسيوطى ١٠٢/٢ ، والحديث والمحدثون ص ٢٠١-٢٠٦ .

(٣) دفاع عن السنة ص ٥٢ ، ٥٣ ، وانظر : الباعث الحثيث ص ١٦٥-١٦٨ .

(٤) انظر : الحديث والمحدثون ص ٢٠٦ .

رواية ما سمح بالمعنى ، هكذا نقل «ابن الصلاح» والنووي والحافظ ابن كثير وغيرهم الاتفاق عليه ، كما لا خلاف في أن المحافظة على لفظ الحديث ، أمر جليل يحرص عليه ، وأنه الأولى بكل راوٍ ، وناقل[1].

٥- من نقلوا القرآن الكريم ، هم أنفسهم ناقلوا الحديث النبوي ، مع تواتر النقل في القرآن ، وأن الحديث رواه ـ كما يقول السيد سليمان الندوي رجال معدودون ، ولكنهم ليسوا مجاهيل ، بل هم رجال مشهورون وأحوالهم معلومة ، وأسانيدهم محفوظة ، وهذا الفرق يقتضي التفاوت في درجات اليقين ، والوثوق لا في نفس القبول ، والاعتبار ، وهذا الفرق مسلم عند كل مسلم ، فلا يقول أحد بأنهما متساويان من كل جهة [2].

وفيما عدا ذلك جرى الخلاف على الوجه التالي :

من أجاز الرواية بالمعنى :

قالوا : الأصل في الرواية أن تكون عن اللفظ المسموع منه ﷺ فإذا أتى اللفظ جاءت الرواية بالمعنى على سبيل التخفيف ، والرخصة ، وقد نسب هذا الجواز إلى جمهور السلف ـ والخلف من الطوائف ونسب من الصحابة إلى : علي ، وأنس ، وأبي هريرة ، ومن التابعين : الحسن البصري والشعبي ، وعمرو ابن دينار ، وإبراهيم النخعي ، ومجاهد ، وعكرمة ، ومن العلماء إلى أبي حنيفة ، والشافعي ، بل أجاز الزهري التقديم ، والتأخير في الحديث ، والجواز مقيد عندهم بما إذا قطع بأداء المعنى ، كذلك فإن الرواية بالمعنى رخصة تقدر بقدرها ، وقد أجازوا النقل بالمعنى لأن الصحابة الذين نقلوا الحديث اجتمع فيهم أمران عظيمان أحدهما : البلاغة إذ جبلتهم عربية ، ولغتهم سليقة ، والثاني : أنهم عقلوا المعنى واستوفوا المقصد لمشاهدتهم أفعال النبي ﷺ وأقواله ، وليس من أخبر كمن عاين[3].

---

(١) انظر : المستصفى من علم الأصول ، للإمام الغزالي ١٦٨/١ ، والحديث النبوي للصباغ ص ١٠٩ .

(٢) دفاع عن الحديث النبوي ، جمع زكريا يوسف ص ٢٧ .

(٣) الباعث الحثيث ص ١٦٦، ١٦٧ ، والحديث والمحدثون ص ٢٠٤ .

ومن أدلتهم :

١- حديث عن سليمان بن أكيمة الليثي قال : قلت : يا رسول الله : إني سمعت منك الحديث لا أستطيع أن أرويه كما سمع منك ؟ يزيد حرفًا أو ينقص حرفًا ، فقال : « إذا لم تحلوا حرامًا ، ولم تحرموا حلالا . . وأصبتم المعنى فلا بأس »، فذكر ذلك للحسن ، فقال « لولا هذا ما حدثنا »[1].

٢- أجمع المسلمون على شرح الشرع للعجم بلسانهم ، فإذا جاز إبدال العربية بعجمية ، فلأن يجوز إبدال عربية بعربية أولى ، وقد احتج بهذا المعنى : الحسن والشافعي ، وهذا لأنَّا نعلم أنه لا تعبد في اللفظ ولا تحدي ، وإنما المقصود فهم المعنى ، وإيصاله إلى الخلق[2].

٣- القصة الواحدة ، والخطبة الواحدة رواها الصحابة بألفاظ مختلفة ، ولم ينكر بعضهم على بعض ، فدل ذلك على الجواز ، وأورد القرطبي عن واثلة ابن الأسقع « ليس كل ما أخبرنا به رسول الله نقلناه إليكم ، بحكم المعنى »، وقال قتادة عن زرارة بن أوفى قال : لقيت عدة من أصحاب النبي ﷺ ، فاختلفوا على اللفظ ، واجتمعوا في المعنى[3].

وعن ابن مسعود أنه كان يقول بعد رواية الحديث : قال رسول الله ﷺ كذا أو نحوه ، أما الحديث نضر الله امرأ سمع مقالتي فأداها كما سمعها ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه « فالمراد أدى حكمها ، لا لفظها ، لأن اللفظ غير معتد به ، بدليل ما بعده ، ثم إن الجواز بعد ذلك مشروط بالمطابقة ، والمساواة ، فإن عدمت لم يجز لاسيما أن الرواية بالمعنى أمر يضطر إليه المحدث اضطرارًا في أحيان كثيرة ، لأن الضبط الدقيق مطلب عزيز لا يتقنه إلا القليل »[4].

---

(١) انظر : توجيه النظر إلى أصول الأثر ، طاهر بن أحمد الجزائرى ص ٢٩٨ ، والحديث النبوي ص ١١٢ ، وقد حكم المحدث الشامي الشيخ ناصر بتضعيف الحديث (هامش الحديث النبوي ص ١١٢).

(٢) راجع : تدريب الراوي ص ٩٩-١٠١ ، والسنة قبل التدوين ص ١٣٠ وما بعدها .

(٣) انظر : الحديث والمحدثون ص ٢٠٥ .

(٤) راجع : تدريب الراوي ص ٩٩-١٠١، وقد عالج ذلك باستيفاء البغدادي ... في الكفاية في علم الرواية ص ٢٠٥ وما بعدهما ، وانظر : السنة قبل التدوين ص ١٣٠ وما بعدها .

المانعون :

لاشك أن الصحابة والتابعين كانوا يحرصون على اللفظ النبوي ، وبعضهم كان يحجم عن رواية الحديث إذا نسى لفظه تورعًا خشية ألا يصيب المعنى ، ويرى أنه تزحزح من إثم كتمان العلم ، أو أوردوا عقب الحديث لفظًا يفيد التصون والاحتياط وهم أعلم الناس بمعاني الكلام ، لتأكدهم أن الحديث شأنه شديد ، فقد روى ابن ماجه ، وأحمد ، والحاكم عن ابن مسعود أنه قال يومًا «قال رسول الله ﷺ فاغرورقت عيناه ، وانتفخت أوداجه ، ثم قال : «أو مثله أو نحوه ، أو شبيه به» وذلك لحرصهم على اللفظ النبوي المسموع منه ﷺ أشد الحرص وأبلغه ، لأن رسول الله ﷺ أفصح العرب ، ولأن أحاديثه دين «وما ينطق عن الهوى»[1].

وهؤلاء المانعون كثيرون منهم ابن سيرين ، وثعلب ، وأبو بكر الرازي ، وروى عن مالك ، وابن عمر والخليل بن أحمد ، قال وكيع «كان ابن القاسم ابن محمد وابن سيرين ، ورجاء بن حيوة يعيدون الحديث على حروفه ، وممن كان يشدد في الألفاظ الإمام مالك رحمه الله ، فقد منع الرواية بالمعنى في الأحاديث المرفوعة ، وأجازها فيما سواه ، وروى عنه أنه كان يتحفظ من الباء والتاء ، والياء في الحديث» وروى عن الخليل بن أحمد أنه قال ذلك أيضًا ، واستدل بقوله «رب مبلغ أوعى من سامع» فإذا رواه بالمعنى فقد أزال عن موضعه معرفة ما فيه ، وقال القاضي عياض : ينبغي سد باب الرواية بالمعنى ، لئلا يتسلط من لا يحسن ممن يظن أنه يستحسن[2]. وقد نقل هذا المذهب أيضًا عن كثير من المحدثين والفقهاء ، وأهل الأصول ، وهو مذهب الظاهرية ، ونقل عن عبد الله بن عبد الله بن عمر وجماعة من التابعين ، وبه قال الأستاذ

---

(١) انظر : السنة قبل التدوين ص ١٢٨ ، ودفاع عن السنة ، أبو شهبة ص ٣٦ ، ٣٧ ، والحديث والمحدثون ص ٢٠٥ .

(٢) تدريب الراوي ٢/١٠٠، ٢٠١ ، والحديث النبوي للصباغ ص ١١٠.

أبو إسحاق الأسفراييني وأبو بكر الرازي ، قال الإمام مالك : لا أكتب إلا عن رجل يعرف ما يخرج من رأسه «وذلك في جواب من قال له : لِمَ لِمْ تكتب عن الناس وقد أدركتهم متوافرين»؟ وقد شدد بعض المانعين للرواية بالمعنى أعظم تشديد ، حتى لم يجيزوا أن يبدل حرف بآخر ، وإن كان معناهما واحد ، ولا أن تقدم كلمة على أخرى ، بل زاد بعضهم في التشديد فمنع من تثقيل خفيف ، أو تخفيف حرف ثقيل ، وذلك لما في تبديل اللفظ المروي من خوف الدخول في الوعيد ، حيث نسب إلى النبي ﷺ ما لم يقل ، ولأنه ﷺ أوتي جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصارا ، ولأن الرسول الكريم قد رد على من علمه ما يقول إذا أخذ مضجعه ، إذ قال : ورسولك ، فقال ﷺ : «لا ونبيك» ولأنه ﷺ قال : «نضر الله امرأ سمع مني حديثا ، فأداه كما سمعه» وقد عنى الإمام مسلم في صحيحه ببيان الاختلاف حتى في حرف من المتن ، ربما لا يتغير به المعنى[(1)].

وروى الإمام الحافظ الخطيب البغدادي بسنده قال «لم يكن من أصحاب رسول الله ﷺ أحد إذا سمع من رسول الله ﷺ لا يزيد فيه ولا ينقص»، وعن محمد بن علي قال : «كان ابن عمر إذا سمع الحديث لم يزد فيه ، ولم ينقص ، ولم يجاوزه ، ولم يقصر عنه» هكذا قال ، وقد رواه غير واحد ، وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : قلنا لزيد بن أرقم : يا أبا عمرو ألا تحدثنا؟ فقال : قد كبرنا ونسينا ، والحديث عن رسول الله ﷺ شديد . وعن حبيب ابن عبيد أن أبا أمامة كان يحدث بالحديث كالرجل الذي يؤدي ما سمع ، وعنه قال ﷺ «من حدث حديثا كما سمع فإن كان صدقًا وبرًا فله وإن كان كذبًا فعلى من ابتدأه» ، وقال عمر بن الخطاب ﷺ : «من سمع حديثا فحدث به كما سمع فقد سلم» ، بل لقد ذكر الحافظ المحدث الخطيب البغدادي في كتابه «الكفاية في علم الرواية» أبوابًا مطولة في ذكر الرواية عمن لم يجز إبدال

---

(١) انظر : توجيه النظر ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، وتدريب الراوي ٢/١٠٠، ١٠٢ .

كلمة بكلمة ، أو تقديم كلمة على الأخرى ، أو لم يجز إبدال حرف بحرف ، وإن كانت صورتهما واحدة ولا تقديم حرف على حرف ، بل اتبعوا المحدث على لفظه ، وإن خالف اللغة الفصيحة ، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ « إذا قلت لأخيك يوم الجمعة ـ والإمام يخطب ـ أنصت فقد لغيت» قال أبو الزناد : هذه لغة أبي هريرة ، إنما هو لغوت[1].

القول الفصل :

هذان رأيان متقابلان أحدهما يجيز الرواية بالمعنى بشروط حاسمة ، والآخر يمنع وينكر وقد يبالغ في المنع والنكير ، وقبل الإدلاء برأي أحب أن أمهد له حتى ينبني الحكم على رأي سديد .

أولاً : حرص الصحابة على الالتزام بالحديث النبوي بلفظه ، وقد أعان على ذلك أمور :

١- حوافظهم القوية ، وأذهانهم الصافية ، وطبائعهم الذكية ، وقد سجل لهم التاريخ من ذلك العجب العاجب ، فقد كانوا يحفظون القصائد ، والخطب الطوال بسماعها مرة أو مرتين ، ثم تبقى في أذهانهم ما بقوا ، لأن دواوينهم صدورهم ، وكتبهم حوافظهم ، وهذا مع ما فيهم من ملكة الحفظ السريع[2].

٢- لم يعتمد أكثرهم على الحفظ وحده ، بل أكدوه بتدوين كثير منهم لأحاديثه ﷺ ـ كما سبق ـ خشية أن يضيع منها شيء سهواً أو خطأ أو تقدمًا في السن ، وكانت الكتابة في التابعين أكثر منها بين الصحابة فكان هذا التدوين الشخصي إلى جانب الحفظ في الصدور من أكبر العوامل على صون الحديث كما سمع منه ﷺ .

---

(١) انظر : الكفاية في علوم الرواية ، للخطيب البغدادى ص ١٧١-١٨٣ ، والتاج الجامع ٢٦/١ ، ودفاع عن السنة ص ٣٧ ، والحديث النبوي ص ١١٦ ، والسنة قبل التدوين ص ١٣٦ .

(٢) انظر : السنة قبل التدوين ص ١٣٦ .

٣- تلك المجالس التي كانوا يعقدونها لتحمل الأحاديث وروايتها ، وتلك الرحلات إلى الأمصار التي تعاملت في كتب التاريخ والسيرة ، وذلك التشدد من بعض الصحابة كمعمر الذي كان لا يجيز حديثًا إلا بشاهدي عدل ، وعليّ الذي كان يستحلف من يحدثه ، وعبد الله بن عمر الذي كان يتقيد بأدق الأمور في رواية الحديث ، وأهل الصفة ، أضياف الإسلام الذين كانوا يزيدون على السبعين ، ومنهم أبو هريرة ، وملازمتهم الدائمة للرسول ﷺ ثم هذا الشغف بحديث النبي وأقواله ، وتشربها بنهم ، مع ما لهذه الأحاديث من صياغة خاصة ، وطريقة عالية في التعبير تفرض نفسها[1].

ثانيًا : إن الذين نقلوا الحديث من الصحابة ، ومن بعدهم من ثقات الرواة كان لهم من الخصائص الدينية ، والنفسية والخلقية ما يعصمهم من التغيير والتبديل والتساهل في الرواية مع عقدهم للحلقات يتذاكرون فيها ما سمعوا من الرسول ﷺ ، وإذا أشكل عليهم أمر رجع الصحابة منهم إلى النبي الكريم أو إلى فقهاء الصحابة بعد موته ﷺ [2].

ثالثًا : إن القواعد التي أخذ بها جامعو الحديث أنفسهم عند تدوينها أدق وأرقى ما وصل إليه علم النقد في تمييز المقبول من المردود ، والحق من الباطل من المرويات .

رابعًا : ترغيب النبي ﷺ في حفظ سنته وتبليغها حين قال : «بلغوا عني ولو آية»، وقال : «ألا أني أوتيت الكتاب ومثله معه» وغير ذلك كثير ، فصدعوا بما أمر ، وتفانوا في القرآن والحديث أخذًا وتحملاً[3]. قال الإمام الغزالي : «وقول رسول الله ﷺ حجة لدلالة المعجزة على صدقه ، ولأمر الله إيانا باتباعه ،

---

(١) انظر : السنة قبل التدوين ص ١٣٦ .

(٢) انظر : دفاع عن السنة ص ٧٣ ، ومناهل العرفان ٣٠٥/١ .

(٣) انظر : الحديث والمحدثون ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

ولأنه لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، لكن بعض الوحي يتلى فيسمى كتابا وبعضه لا يتلى وهو السنة وقول الرسول ﷺ حجة على من سمعها شفاها»[1].

خامسًا : اتفاق الصحابة ، والناس جميعًا على أنه صلوات الله عليه أفصح من نطق بالضاد ، وفي تراكيبه أسرار ودقائق لا يوقف عليها إلا بها ، كما هي ، فإن لكل تركيب معنى بحسب ما فيه من فصل أو وصل ، وتقديم أو تأخير لو لم يراع ذلك لذهبت مقاصد الكلام ، بل لكل كلمة مع صاحبتها خاصية مستقلة ، يقتضيها النظم ، ومن ثَمَّ قال صلوات الله عليه «نضر الله عبدًا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[2].

سادسًا : الرواية بالمعنى قد أحس بضررها كثير من العلماء ، وقد نسب لبعضهم أقوال بعيدة عن السداد ، ثم تبين بعد الفحص براءتهم ، وإنما نشأت النسبة من أقوال رواها الراوي عنهم بالمعنى ، فقصر في التعبير عما قالوا ، قال العلامة نجم الدين أحمد بن حمداني الحراني الحنبلي : «أعلم أن أعظم المحاذير في التأليف النقلي إهمال نقل الألفاظ بأعيانها ، والاكتفاء بنقل المعاني مع قصور الناقل عن استيفاء مراد المتكلم الأول بلفظه»[3].

أما ظاهرة اختلاف الروايات ، والألفاظ في حديث واحد فسرها يسير ، ولا يرجع إلى الرواية بالمعنى ، فقد ورد أن بعض الصحابة أكد أنه سمى حديثًا سبع مرات ، ومعلوم أن البيان النبوي مناسب لمقتضيات الأحوال ، فهو يختلف إيجازا وإطنابًا وزيادة ونقصانًا ، وإرسالاً وتأكيدا ، ووضوحًا وخفاء ،

---

(1) المستفيض ١٢٩/١ .

(2) التاج الجامع ٦٨/١ .

(3) انظر : توجيه النظر ص ٣١٢ وما بعدها .

فقد يسأل أكثر من سائل عن أفضل الأعمال ، فيجيب كل سائل بجواب مناسب لحاله ، غير جواب صاحبه ، أو عن أفضل الجهاد ، فيذكر لكل مستفتٍ ، نوعًا من أنواع البر غير ما يذكر للآخر ، فهناك إذن حالات يتفق فيها السائلون ، وتتعدد فيها الإجابات الملائمة ، مع تعدد الأزمنة والأمكنة والحوادث والأحوال والسامعين والمستفتين ، والمتخاصمين ، والوافدين تنوعًا إنسانيًا عامًا في المنازع ، والمشارب ، والطباع والسمات ، فيظن من لا علم عنده أنه من باب التعارض ، أو من عدم ضبط الرواة ، والواقع ما سلف ، فقد كان ﷺ طبيب النفوس والخبير بها ، فيصف لكل ما يعالجه ، ويجيب عن كل سؤال بما يناسبه[1] ، هذه المقدمات وملحقاتها تسلمنا إلى نتيجة صادقة هي أن الأحاديث النبوية ، لاسيما قصيرها ، ومتوسطها وصلت إلينا بمحكم ألفاظها ، دون تغيير في روايتها ، وأن قلة من الأحاديث الطويلة كقصص السابقين ، ربما يدخل فيها تغيير الكلمة والكلمتين والثلاث ، مع التحيز البالغ من التغيير المخل بالمعنى الأصلي ، وأن ما عسى أن يكون قد دخل الأحاديث بسبب الرواية بالمعنى ، شيء يسير قد نبه له العلماء ، وبينوه ، وإذا علمنا أن موطأ الإمام مالك بلغت عدة أحاديثه ثلاثمائة حديث ـ على رأي ابن خلدون ـ وألفا وسبعمائة وعشرين على ما ذكره الهوريني نقلاً عن شرح الزرقاني ، مع التزام الإمام بالضبط الدقيق والتشدد فيه[2] ، وأن صحيفة عبد الله بن عمرو بلغت ألف حديث على رأي ابن الأثير ، وأن باقي الصحف كصحيفة جابر بن عبد الله ، وصحيفة همام بن منبه ، وكتب عبد الله بن عباس التي دونت جميعها الأحاديث على اللفظ ، ثم صحيح الإمام مسلم الذي كان يلتزم بذلك أيضًا ، خرجنا بهذا

---

(١) انظر : توجيه النظر ص ٣٤٠ ، والحديث والمحدثون ص ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، والسنة قبل التدوين ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٢) انظر : المقدمة لابن خلدون ص ٣٧٢ .

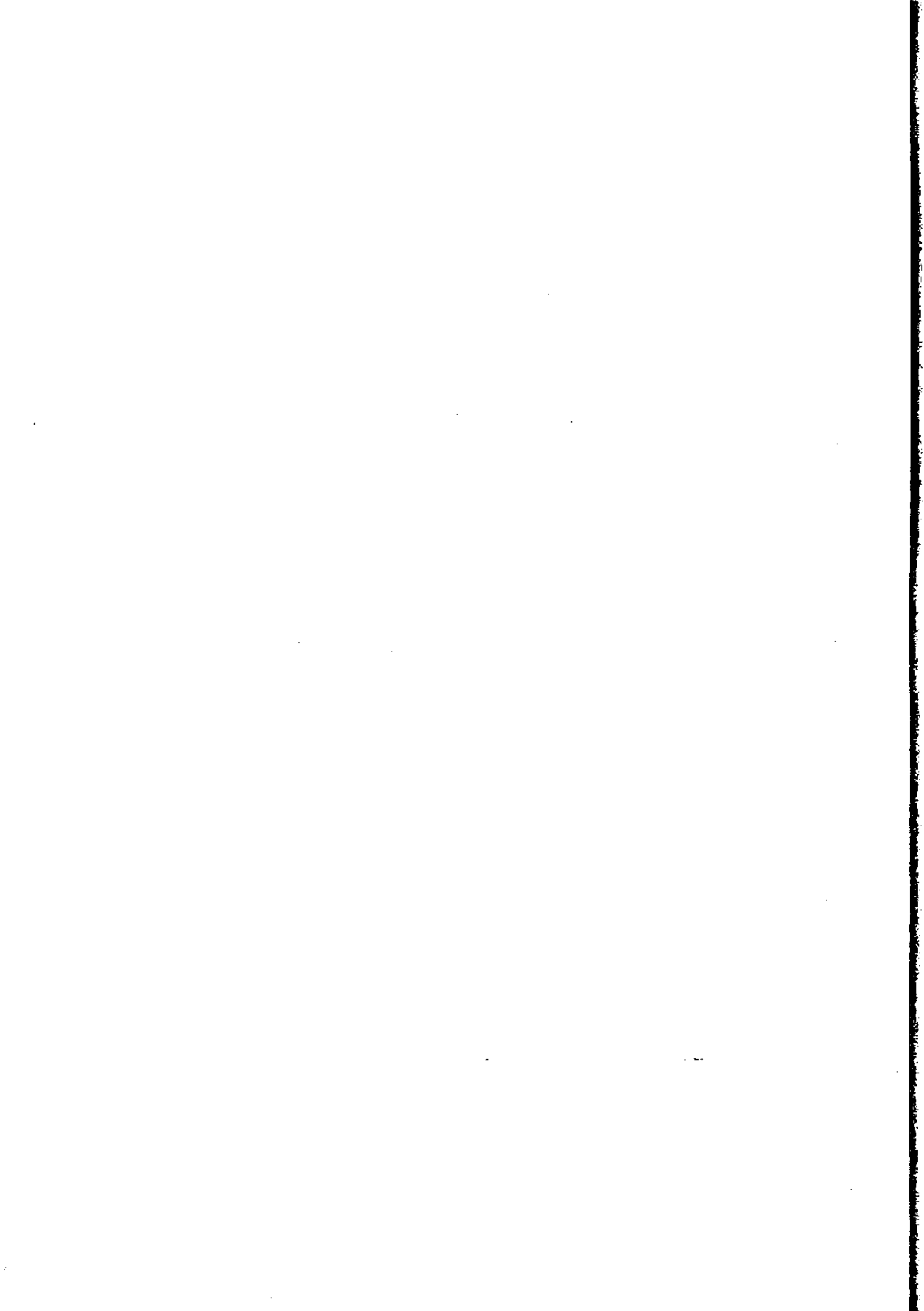
الحق الذي يدفع كل باطل ، وهو أن اهتمام المسلمين الأوائل بالسنة المطهرة حفظًا وتدوينًا ، ودقة ونقدًا ودفاعًا وشرحًا جعل من هذه القضية أعني - الاختلاف حول الرواية - ضربًا من الجدل الذهني - والحوار العقلي ، والافتراضات التي صاحبت النهضة العلمية ، وصاحبت نشأة المذاهب الفقهية والكلامية ، وقويت في العصر العباسي حيث الأخذ والرد والجدل والرفض والافتراض والمنطق ، قال الشيخ شاكر في مقدمة «الباعث الحثيث» ، «إن هذا الخلاف لا طائل تحته الآن فقد استقر القول في العصور الأخيرة على منع الرواية بالمعنى ، وإن أخذ بعض العلماء بالجواز نظرًا»[1].

* * *

(١) الباعث الحثيث ، هامش ص ١٦٨ .

الباب الثاني

المبحث البلاغي في بيان النبوة



الفصل الأول

الدراسات البلاغية حول المُشْكِل من الحديث

من المتعالم في أصول العقيدة الإسلامية أن الله عز وجل ، منزه عن مشابهة الحوادث فلا شريك له في ملكه ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، والعقول البشرية عاجزة عن إدراك ذاته ، فلا يعرف الله تعالى ، ولا كُنه صفاته ، إلا الله ، وهذا معلم واضح ، لا ريب فيه ، وما وافقه من نصوص القرآن والحديث ، فهو المحكم الذي لا لبس فيه ، وما جاء موهمًا خلافه فهو المتشابه ، قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (آل عمران:٧)، وكذلك أخبار الرسول ﷺ : فمنها الكلام البيِّن المستقل في بيانه بذاته ومنها المفتقر في بيانه إلى غيره [(١)].

موقف العلماء من التشابه :

أما موقف العلماء من الأحاديث التي يوهم ظاهرها تشبيه الله سبحانه بمخلوقاته ، أو بتعطيل صفاته ـ تعالى الله ـ فيمكن بادئ ذي بدء أن نصنفهم نوعين أو مذهبين :

١ - مذهب السلف : ويسمى : «المفوضة» ، وهو تفويض معاني هذه المتشابهات إلى الله وحده ، بعد تنزيهه ـ تعالى ـ عن ظواهرها المستحيلة ، ولهم دليلان : عقلي : وهو أن تعين المراد من هذه المتشابهات ، إنما يجري

---

(١) انظر : مشكل الحديث وبيانه ، الحافظ أبو بكر محمد بن فورك ص ٤ ، ٥ .

على قوانين اللغة ، واستعمالات العرب ، وهي لا تفيد إلا الظن ، والظن لا يغني من الحق شيئًا ، والثاني : نقلي : لحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله ، فاحذرهم»، مع جملة من الأحاديث ، وقد ثبت أن رجلاً سأل الإمام مالكًا ﷺ عن تأويل قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) فقال : الاستواء معروف ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، وأمر به فأخرج من مجلسه[1].

٢- **مذهب الخلف** : ويسمى مذهب «المؤولة» وهم المتكلمون ، وعلماء البيان ، ومنهجهما مختلف ، قال : العلوي : «والتفرقة بينهما ظاهرة ، فإن المتكلمين حملوها على تأويلات بعيدة ، واعتقدوا بعدها ، حذرًا من مخالفة الأدلة العقلية ، وكان بعدها عندهم أوهن من مخالفة العقل ، حيث كان دالاً على التنزيه دلالة قاطعة»[2].

أما علماء البيان ، فإنهم وضعوها على معانيها اللغوية ، في كونها دالة على هذه الجوارح ، لكنهم قالوا : إن الجارحة خيالية غير متحققة ، ويزكي صاحب الطراز هذا المنحى جاعلاً ، «تأويلهم لها أقرب ، لما كانت دالة على ما وضعت له في الأصل من غير عدول ، ولا مخالفة ، وإن جاءت المخالفة من جهة أن الجارحة خيالية ، دون أن تكون حقيقية ، فهذه التفرقة بين التأويلين»[3].

والواقع أن في هذا التقسيم تجوزًا ، فإن ثمة تداخلا ، بين المتكلمين وعلماء البيان ، ويكفي أن الإمام الزمخشري المتكلم المعتزلي من أساطين البيانيين ، وينهج نهج الإمام عبد القاهر في إخراج الكلام على التخييل والتجوز كما سيأتي ، ولا أرى ـ بعد ـ مسوغًا لفصل المتكلمين عن دائرة البيانيين ، فإن

---

(١) راجع : مناهل العرفان ١٨٣/٢ وما بعدها .

(٢) الطراز ، يحيى بن حمزة العلوى ٩/٣ .

(٣) المرجع السابق ١٠/٣ .

تأويلهم لابد أن يكون له سند من العربية ، ووجه مقبول من سنن البيان ، وتعجبني محاولة «العز بن عبد السلام» في تنويع مذاهب المتكلمين ، تنويعًا بيانيًا ، فيقول : «إذا وصف الباري ، بشيء من ذلك ـ (صفات العباد) لم يجز أن يكون موصوفًا بحقيقته ، لأنه نقص ، وإنما يتصف بمجاوزه ، ولمجاوزه أسباب : أحدها : أن يعبر بذلك عن إرادته ، فيكون من مجاز الملازمة ، وهذا مذهب الشيخ «أبي الحسن الأشعري» وأكثر أصحابه ، فعلى هذا يعود إلى صفة الذات ، وهي الإرادة .

الثاني : أن يعود إلى مجاز التسبب فيكون مجازًا عما يصدر عن هذه الصفات من الآثار ، وعلى هذا يكون من صفات الفعل .

الثالث : أن يعود إلى مجاز التشبيه ، من جهة أن معاملته لعباده بآثار هذه الصفات مشبهة لمعاملة من قامت به هذه الصفات ، كتشبيه الرحمة والمحبة ، والود ، والرضى ، والشكر»[1].

أثر المشكل في إنماء الدراسات البلاغية :

لاشك أن هذا الجدل الطويل حول التشبيه والتجسيم في صور السنة النبوية ، ومتشابهها ، والكلام في المجاز بين أهل السنة ، وأصحاب الكلام من المعتزلة ، دعا إلى إطالة الوقوف أمام هذه الفنون ، ومن ثَمَّ دراستها بعمق لاستشفاف مراميها البعيدة ، وعلى أيهما تحمل الأساليب ، وعندما طال الحوار ، وتقارعت الحجج بطل الزيف واستقرت الحقيقة ، وبقيت الآراء السليمة ، وتفتحت مكنونات الأسلوب القرآني والنبوي[2].

وسنرى ما ثار من دراسات بيانية حول المتشابه ، لنرى إلى أي حد أثرت هذه الدراسات البحث البلاغي ، ودفعت بعجلته إلى الأمام ، ذلك أن العلماء

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، العز بن عبد السلام ص ١٠٤، ١٠٥ .
(٢) انظر : أثر القرآن في تطور النقد العربي ، دكتور محمد زغلول سلام ص ١٥٧ وما بعدها .

وقفوا طويلاً أمام النصوص المتشابهة ، يحاولون استجلاء كنهها ، وإدراك مغزاها ، وتأويلها ولم يطل بهم الوقوف ، ألم يتكلم النبي ﷺ بلسان عربي مبين؟ حسن ، ففي اللغة وطبيعتها يكمن السر ، ولقد حفلت اللغة بضروب من الاتساع والتجوز بين مشترك لفظي ، أو تأويل مجازي ، أو تشبيه ، أو كناية ، وإذا كان نفر من العلماء قد لجأ إلى المشترك يخرج عليه ما يوهم التشبيه ، أو التجسيم ، فقد نفر الأكثرون إلى علم البيان ، يجدون فيه ضالتهم ، ويخرجون عليه أحاديث نبيهم ، واطمأنوا إلى ذلك ، وسكنت نفوسهم ، ففي البيان العربي ـ زيادة على حل مشكلة التجسيم والتشبيه ـ تصوير فني ، وتخييل مبدع ، وتقوية للمعنى ، وتأكيد للغرض من مثل هذه الأساليب ، بل نجد من العلماء ـ كالزمخشري ـ من ينعي على المتناولين لتفسير هذه الآثار دون أن تكون لهم قدم راسخة في علم البيان ، من هنا كان نصيبهم الزلل ، فيقول «ولا ترى بابا في علم البيان أدق ، ولا أرق ، ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشبهات من كلام الله تعالى ، وسائر الكتب السماوية ، وكلام الأنبياء ، فإن أكثره وغلبته تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديمًا ، وما أتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير ، حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علمًا ، لو قدروه حق قدره لما خفي عليهم أن العلوم كلها مفتقرة إليه ، وعيال عليه ، إذ لا يحل عقدها المورية ، ولا يفك قيودها المؤكدة إلا هو ، وكم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول ، قد ضيم ، وسيم الخسف ، بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة ، لأن من تأول ، ليس من هذا العلم في عير ولا نفير ، ولا يعرف قبيلا من دبير»[1].

وإذن فقد وجد الزمخشري حلاً ـ لمشكلة المتشابه ـ في علم البيان ، والواقع أنه لم يكن أبا عذر هذا الرأي بل اتبع فيه عبد القاهر ، وسار على هداه ، وإن فاقه بيانًا وتطبيقًا ، يقول عبد القاهر ، ناعيًا على من فسر الكف ـ في الحديث

(١) الكشاف للزمخشري : ٤/١١١ .

النبوي ـ «إن أحدكم إذا تصدق بالتمرة من الطيب . . ولا يقبل الله إلا الطيب ـ جعل الله ذلك في كفه ، فيربيها كما يربي أحدكم فلوه حتى يبلغ بالثمرة مثل أحد» ـ بالسلطان ، والملك ، والقدرة أو بالنعمة فيقول «ما يظن بمن نظر في العربية يومًا أن يتوهم أن «الكف» يكون على هذا الإطلاق ، وعلى الانفراد بمعنى السلطان ، والقدرة ، والنعمة ، ولكنه أراد المثل فأساء العبارة»[1].

بهذا نستطيع القول بأن تأويل المتشابه بيانيًا ، قد صار مذهبًا سائدًا عند البلاغيين .

التخييل :

حملت عليه كثرة من الأحاديث المتشابهة ، حتى صار مذهبًا راسخًا ، واستقرت دعائمه عند أمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوي ، يقول عن التخييل «كثير التداور في كتاب الله تعالى ، والسنة الشريفة ، لما فيه من الدقة ، والرموز ، واستيلائه على إثارة المعادن ، والكنوز ، ومن أجل ذلك ضل من ضل من الجهمية ، بسبب آيات الهدى والضلال ، وعمل من أجله على الانسلاخ على الحكمة والانسلال ، وزل من زل من المشبهة باعتقاد التشبيه ، وزال عن اعتقاد التوحيد باعتقاد ظاهرة الأعضاء ، والجوارح في الآيات فارتطم في بحر من التعمية ، فهو أحق علوم البلاغة بالإتقان»[2].

ونلاحظ أنه ينهل من ورد الزمخشري ، وبتأثره حتى في أسلوبه ـ هنا ـ ولنا هنا وقفة ، لتحرير معنى التخييل عند الزمخشري ، فقد فهم ابن المنير صاحب «الانتصاف» من التخييل عند الزمخشري : التمثيل الذي يرادف التشبيه عند الزمخشري ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الزمر:٦٧) . ذكر الزمخشري حديث جبريل . للنبي ﷺ ، إن الله

---

(١) أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني : ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .
(٢) الطراز : ٣/٣ .

يمسك السموات يوم القيامة على إصبع ، والأرض على إصبع ، والجبال على إصبع والشجر على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول : أنا الملك «فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال ، ثم قرأ الآية» قال الزمخشري : وإنما ضحك أفصح العرب ﷺ ، وتعجب ، لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان ، من غير تصور إمساك ، ولا إصبع ، ولا هز ، ولا شيء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول الأمر ، وآخره على الزبدة والخلاصة ، التي هي الدلالة على القدرة الباهرة ، وأن الأفعال العظام التي نتحير فيها هينة عليه هوانًا ، لا يوصل المبالغ إلى الوقوف عليه إلا جراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل[1] ، ثم تكلم عن أثر التخييل بما نقلناه آنفًا ، فهم ابن المنير من تخييل الزمخشري - كما قلت فقال في تعليقه : «عنى بما أجراه ههنا من لفظ التخييل : التمثيل»[2].

وما دعا ابن المنير إلى هذا الفهم ، ما وجده عند الزمخشري من استعمال لفظ التمثيل في بعض النصوص المشكلة ، كقوله تعالى في الآية : ١٨٦ من البقرة ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ : تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه ، وسرعة إنجاحه حاجة من سأله ، بحال من قرب مكانه ، فإذا دعى أسرعت تلبيته ونحو : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وقوله ﷺ «هو بينكم وبين أعناق رواحلكم»[3]، ثم قوله في الآيه ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ هو مجاز عن قبوله لها ، وعن ابن مسعود ﷺ «أن الصدقة تقع في يد الله تعالى ، قبل أن تقع في يد السائل» ، والمعنى : أنه يتقبلها ، ويضاعف عليها[4].

---

(١) الكشاف : ٤/١١ .

(٢) الانتصاف على الكشاف : ٤/١١ .

(٣) الكشاف : ١/١٧٢ .

(٤) المرجع السابق : ٢/٢٤٢ .

ذلك ومثله دعا «ابن المنير» إلى وجهته تلك، واعتقد أن الزمخشري يقصد التخييل بمفهوم خاص هو التصوير، تتبين ذلك حين دعا شرحه المقتضب إلى بيانه الواضح الذي تتضح فيه آراؤه على نحو مقنع، كما سبق في الآية ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ حين ساق الحديث: إن الله يمسك السموات على إصبع . . . «قال: والغرض من هذا الكلام إذا أخذته ـ كما هو ـ بجملته، ومجموعه: تصوير عظمته، والتوقيف على كنه جلاله، من غير ذهاب بالقبضة، ولا باليمين إلى جهة حقيقة، أو جهة مجاز، وقال عن الحديث «إنما ضحك أفصح العرب ﷺ وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك، ولا إصبع، ولا هز، ولا شيء من ذلك، ولكن فهمه وقع أول الأمر وآخره ـ على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة . . . . إلى آخر ما قال»[1].

وقال في الآية (١٢) من سورة الصافات ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾: قرئ بضم التاء ويكون العجب مسندًا إلى الله تعالى، قال: فإن قلت: كيف يجوز العجب على الله تعالى، وإنما هو روعة تعتري الإنسان عند استعظامه الشيء والله تعالى لا يجوز عليه الروعة؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن نجرد العجب لمعنى الاستعظام، والثاني: أن يتخيل العجب ويفرض، وقد جاء في الحديث: «عجب ربكم من أَلِّكُمْ، وقنوطكم، وسرعة إجابته إياكم»[2].

والتأويل الثاني هو الذي يعنينا هنا، وبه يمكن أن نقترب أكثر من الزمخشري ليتأكد فهمنا لما يريد من التخييل، وحمل ما ورد من لفظ التمثيل، عكس ما يرتئيه «ابن المنير» في ذلك.

على أن تأويل الآثار المتشابهة على طريقة التخييل، تتضح أكثر عند عالم بلاغي هو «العلوي» نأتي بما أورده، ثم نناقشه فيه، قال: بعد أن تكلم عن أثر التخييل في تأويل المتشابه من القرآن والسنة، وجعله من أولى علوم البلاغة بالإتقان قال «التخييل مصدر من قولك: تخيلت الأمر إذ ظننته على

(١) انظر: الكشاف ١١١/١ .   (٢) الكشاف: ٢٩/٤، وانظر: المطول ص٤٢٥ .

خلاف ما هو عليه ، أو من قولك : خيلت فيك أمرا : إذا ظننته فيك فهو مصدر لهذين الفعلين ، كما ترى ، ومنه الخيال : وهو خشبة توضع عليها ثياب سود ، تنصب للطير والبهائم ، فتظنه إنسانا فتبتعد عنه ، وتهابه»[1].

ثم عرفه هو بقوله :

هو : اللفظ الدال بظاهره على معنى والمراد غيره على جهة التصوير . وقوله : على جهة التصوير : يحترز به عن سائر المجازات كلها[2].

ومن أمثلته في السنة النبوية عند قوله ﷺ «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الله» ، وقوله ﷺ «يد الفقير يد الله ، فمن أعطى الفقير فكأنما يعطي الله»[3].

ولا بأس بهذا التعريف محددا للتخييل ومميزا مدركًا في ألوان البلاغة وهو في الوقت نفسه خير دليل لما لمحناه من منهج الزمخشري في تفسير النصوص المشكلة من الكتاب والسنة ، وليس مذهب التخييل البياني في تفسير هذه النصوص هو الرأي الأوحد ، بل للعلماء صولات وجولات ، وآراء واتجاهات نوردها ونناقشها ، والله المستعان ، ولا بأس ـ أن نصنف ما نسب إلى الله سبحانه ـ مما هو منزه عنه ـ إلى :

١- نسبة جارحة حادثة .　　　　٢- نسبة صفة للمخلوقين .

١- نسبة جارحة : أ ـ نسبة الإصبع إلى الصانع جلا وعلا .

وردت أخبار نبوية كثيرة منها : ما رواه عبد الله بن عمر قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن ، يصرفها كيف شاء» وما رواه أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ما من قلب آدمي إلا وهو بين إصبعين من أصابع الله تعالى فإذا شاء أن يثبته ثبته ، وإن شاء أن يقلبه قلبه ، وما رواه ابن حوشب قال : قلت لأم سلمة زوج النبي ﷺ : ما كان أكثر دعاء

---

(١) الطراز ٣/٣ .

(٢) المرجع السابق : ٦/٣ .

(٣) المرجع السابق : ٨/٣ ، ٩ .

النبي ﷺ؟ قالت : كان أكثر دعائه : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال : قلت : يا رسول الله : ما أكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؟ قال : «يا أم سلمة : ما من آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله عز وجل ، ما شاء أقام وما شاء أزاغ» وحديث جبريل السابق .

فماذا كانت وجهات العلماء تجاه هذه الأحاديث؟ نجد تنوعًا واختلافًا بين الآراء .

الأول : ذكره الإمام أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ، وأورده ـ الشريف المرتضى في أماليه والشريف الرضي في المجازات النبوية ، وموجزه : أن الإصبع في كلام العرب ، وإن كانت الجارحة المخصوصة ، فهى أيضًا : الأثر الحسن ، تقول العرب : لفلان على فلان إصبع حسنة ، ولفلان على ماله وإبله إصبع حسنة : أي قيام ، وأثر حسن واستشهدوا بقول الراعي :

ضعيف العصا بادي العروق ترى لـه ... عليها إذا ما أجدب النـاس إصـبعا

وقول لبيد :

مـن يبسـط الله عليـه إصـبعا ... بـالخير والشـر بـأي أوكعـا
تعـلا لـه منـه ذنوبـًا مترعـا[1]

وغير ذلك ، والمراد بالإصبع ـ في كل ما ورد ـ الأثر الحسن والنعمة المقصود بها : آثار إحسانه ، وامتنانه ، وألمح المرتضى إلى الوجه في تسميتهم للأثر الحسن بالإصبع هو : من حيث يشار إليه إعجابًا به ، وتنبيها عليه ، وهذه عادتهم في تسمية الشيء بما يقع عليه[2]. فهم ـ إذن ـ يخرجون أحاديث الإصبع على المجاز المرسل ـ وإن كان للمرتضى رأي آخر نناقشه بعد ـ أما هذا الرأي فقد رده الإمام ابن قتيبة ، ذلك أن القلب إذا كان بين نعمتين من نعم

---

(١) بأي نفسه : رفعها وفخر بها ، والبأو : العظمة : لسان العرب ٦٨/١٨ ، والذنوب : الدلو فيها ماء لسان العرب ٣٧٧/١ ، وكعا : جبن ، لسان العرب ٨٩/٢٠ .

(٢) انظر : مشكل الحديث وبيانه لابن فورك ، ص ١٩، وأمالي المرتضى ٤/٢ ، ٥ ، والمجازات النبوية للشريف الرضي ص٣٤٦ ، ٣٥٠ .

الله ، فهو محفوظ ، فلأي شيء دعا بالتثبيت ولِمَ احتج النبي على أم سلمة؟ وكان ينبغي ألا يخاف إذا كان القلب محروسًا بنعمتين [(1)] . ورد ابن قتيبة قوى دامغ يبطل رأي الشريفين وابن فورك ، أما رأي ابن قتيبة نفسه ، فقد تبع السلف هنا فقال : « لا نقول إصبع كأصابعنا ، ولا يد كأيدينا ، ولا قبضة كقبضاتنا ؛ لأن كل شيء منه ـ عز وجل ـ لا يشبه شيئًا منا »[(2)].

لكنه تأول على نهج البيانيين في اليمين على ما سنذكره .

أما الرأي الثاني عند المرتضى : فقد صححه ، بتخريج الأسلوب على الكناية عن تيسر تصريف القلوب وتقليبها ودخول ذلك تحت قدرته ، قال « ألا ترى أنهم يقولون : هذا الشيء في خنصري ، وإصبعي ، وفي يدي وقبضتي ، كل ذلك إذا أراد تسهله وتيسره ، ثم صرح بأنه كناية عن هذا المعنى .....[(3)].

وهذا الرأي مردود ، لأن الكناية ـ كما هو معلوم : ذكر اللفظ الذي يراد به لازم معناه مع جواز إرادته معه ، وهنا تمتنع إرادة المعنى الأصلي ، ومع أن المرحوم الشيخ أحمد مصطفى المراغي جعل قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » كناية عن الاستيلاء والملك ، و ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ كناية عن قوة التمكن ، وتمام القدرة [(4)] . يجب أن ننبه إلى أن الحدود في الألوان البيانية ـ ككل حد ـ يلزم أن تكون جامعة مانعة ، ولا يشذ عنها مثال ، بله مجموعات ضخمة من الأمثلة هي أبلغ الآثار قرآنًا وحديثًا ويزيد في ضعف هذا المنزع أنه يحرمها ، ويحرمنا براعة التخييل ، وروعة التصوير وقطع الطريق على الخيال أن يتمثل فيه عظمة الخالق ـ جل وعلا ـ وبهذا الملحظ الأخير نرد رأي العز بن عبد السلام في تأويل الإصبع حين قال « تجوز بذلك عن استيلائه واقتداره ، على تقليب القلوب من حال إلى حال ،

---

(١) انظر تأويل مختلف الحديث ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٤ .

(٣) انظر : أمالي المرتضى ٢/٢-٦ .

(٤) انظر : علوم البلاغة ، للمراغي ص ٣١٢ .

تشبيهًا لذلك بالكون بين إصبعين»[1]، ولعله يقصد بالتجوز هنا : الاستعارة التمثيلية ، لأن أصلها : التشبيه في الهيئات ، يدعم ذلك قوله في تأويل الخبر ، حتى يضع رب العزة قدمه أو رجله عليها ، يعني : جهنم : شبه استهانته بأهلها بشيء وضع تحت القدمين ، أو الرجلين ، استهانة به ، وتحقيرا له[2] ، وبهذا يلتقى مع الإمام عبد القاهر في تأويل «كف الرحمن» على سبيل المثال[3] ، والمثل يقتضي الجمع بين الطرفين في صفة أو علاقة هي الجامع ، وكفى بذلك سببًا في جمعهما في قرن واحد ، وهذا ـ في رأي ـ ينال من حقيقة التنزيه الكامل عن مشابهة الله ـ سبحانه ـ للحوادث ، وسنعرف وجه الحق في هذه الأساليب بعد قليل .

ب : اليمين ـ الساعد ـ اليد ـ الكف ـ القدم :

عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «الحجر الأسود يمين الله تعالى في الأرض صافح بها من شاء من خلقه[4]»، وفي الحديث «يمين الله سحاء لا يغيضها شيء»[5] ، وفي آخر عن النبي ﷺ «أن كلتا يديه يمين»[6]، وقال رسول الله ﷺ : «المقسطون عند الله يوم القيامه ـ على منابر من نور ـ عن يمين الرحمن»[7] ، وفي الحديث : «ساعد الله أشد من ساعدك ، وموساه أحد من موساك»[8] ، وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ : «فوضع يده بين كتفي ، فوجدت بردها بين ثديي ، فعلمت ما بين المشرق والمغرب»[9] . وفي رواية «فوضع كفه بين كتفي»[10] ، وفي حديث أبي هريرة ـ عن النبي ﷺ : «إن جهنم لن تمتلئ حتى يضع الجبار قدمه فيها فتقول : قط قط»[11] . ونلتقي بابن فورك وقد حكى رأيين :

(١، ٢) الإشارة إلى الإيجاز : ص ٨٠ .

(٣) انظر : أسرار البلاغة ص ٢٩١ ط رشيد رضا .

(٤، ٥) تأويل مختلف الحديث ص ٢٧١ . (٦) المرجع السابق ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٧) المشكل : ص ٣٢ . (٨) المرجع السابق ص ٨٥ .

(٩، ١٠) المرجع السابق ص ١٨ . (١١) المرجع السابق ٣٥ .

أولاً : الحذف والإضمار ، والمعنى : يمين عرش الرحمن كما قال القائل : « واستب بعدك يا كليب المجلس» .

الثاني : المراد : المنزلة الرفيعة ، كقول العرب : كان فلان عندي باليمين ، وقال الشاعر :

أقـول لنـاقتي إذ بلغـتني لقـد أصـبحت عنـدي بـاليمين

وهذان الرأيان في قوله «عن يمين الرحمن» أما اليمين في باقي الأحاديث فقد أولها : بالعطايا ، لأن العرب ، تعبر عن النعم ، والأفضال ، باليد واليمين كلتيهما : قال الشاعر :

وإن علـى الأوابـد مـن عقيـل فـتى كلتـا يديـه لـه يمـين

كما ذكر أن الكتف واليد بمعنى القدرة أو النعمة ، كما قال : الأخطل :

أعاذل إن الـنفس في كـف مالـك إذا ما دعت يوما أجابت بـها الرسلا

وقول العرب لي عند فلان يد بيضاء ، أما الساعد فعلى معنى القدرة ، كقول العرب : فعلت ذلك بساعدي[1].

ونبادر إلى القول بأن التأويل على حذف مضاف فيه من الضعف ما يذهب بروعة الكلام وقد كان اللجوء إليه ـ دائمًا ـ علامة عجز ، وأما تأويل اليد أو اليمين أو الكف ، بالقدرة أو النعمة ، فقد كفانا الإمام عبد القادر تكلف الرد قال «أما ما تكون اليد فيه للقدرة على سبيل التلويح بالمثل ، دون التصريح ، حتى ترى كثيرًا من الناس يطلق القول أنها بمعنى القدرة . . . فكقوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ تراهم يطلقون أن اليمين بمعنى القدرة ، ويصلون إليه قول الشماخ :

إذا مـا رايـة رفعـت لمجـد تلقاهـا عرابـة بـاليمين

كما فعل أبو العباس في الكامل ، فإنه أنشد البيت ، ثم قال : قال أصحاب المعاني : معناه القوة ، وقالوا مثل ذلك في قوله تعالى ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ

(١) المشكل : انظر : ص ١٨ ، ١٩ ، ٣٢ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٧، ١١٤.

بِيَمِينِهِۦ ﴾ . وهذا منهم تفسير على الجملة ، وقصد إلى نفي الجارحة بسرعة خوفًا على السامع ، من خطرات تقع للجهال ، وأهل التشبيه ـ جل الله وتعالى عن شبه المخلوقين ـ ولم يقصدوا إلى بيان الطريقة والجهة التي منها يحصل على القدرة ، والقوة ، وإذا تأملت علمت أنه على طريقة المثل . . . .[1].

وعن الآية قال « فكأن المعنى ـ والله أعلم : أنه عز وجل يخلق فيها صفة الطي ، حتى ترى كالكتاب المطوي بيمين الواحد منكم ، وخص اليمين لتكون أعلى وأفخم »[2] ، وقال عن البيت : « وهكذا شأن البيت إذا أحسنت النظر ، وجدته إذا لم تأخذه عن طريق المثل ، ولم تأخذ مجموع المعنى من مجموع التلقي واليمين على حد قولهم : تقبلته بكلتا اليدين . . رأيت المعنى يتألم ويتظلم »[3] ، ثم جعل هذا التأويل عندهم تخليطًا في المعنى أما التخليط في العبارة فبعضهم فسر الكف بمعنى السلطان والملك والقدرة في الحديث « إن أحدكم إذا تصدق بالثمرة من الطيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، جعل الله ذلك في كفه ، فيربيها ، كما يربي أحدكم فلوه حتى يبلغ بالثمرة مثل أحد »[4]. ويعقب بقوله : ما يظن بمن نظر في العربية يومًا ، أن يتوهم أن الكف تكون على هذا الإطلاق ، وعلى الانفراد بمعنى السلطان ، والقدرة والنعمة ، ولكنه أراد المثل فأساء العبارة ، إلا أن من سوء العبارة ما أثر التقصير فيه أظهر ، وضرره على الكلام أبين »[5].

ونستخلص من هذا كله أن التأويل بالقدرة والنعمة يعتبره عبد القاهر تخليطًا لا يليق بجلال الأساليب ، وأن عبد القاهر يخرج مثل هذه الأساليب على المثل ، ويعني الاستعارة التمثيلية ، وإذا كان ابن فورك قد نقل آراء سابقة أو معاصرة له ، فوجه المؤاخذة أنه سردها دون تحقيق ونقاش ، وقد نعثر له على نحو مخالف في التأويل ، ولعله يمثل رأيه الخاص ، في شرحه للحديث

---

(١) انظر : أسرار البلاغة : ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٢،٣) انظر : المرجع السابق ص ٢٨٧ .　　　(٤،٥) انظر : المرجع السابق ص ٢٩١ .

(وموساه أحدّ من موساك) قال : «فهذا تحقيق ما ذكرنا من التأويل في أن المراد به التمثيل ، وتحقيق الوصف بالقدرة ، لا إثبات الجارحة ، لأن الموسى ، لما كانت آلة للقطع ، وكان مراده ﷺ أن قطعه أسرع من قطعك ، عبر عن القطع بالموسى ، إذ كانت سببا له ، على مذهب العرب في تسميته الشيء باسم ما يجاوره ويقرب ويتعلق به ، وإذا كان كذلك كان تأويل الخبر محمولاً عليه»[1] . ولعله لا يقصد التمثيل الاصطلاحي وإلا فكيف يكون تمثيلا ومجازًا مرسلاً معًا كما يبدو من كلامه .

لقد توفي الإمام ابن فورك أول القرن الخامس (٤٠٦هـ) ، وعاصر أبا هلال العسكري ، وكان يمكن أن يكون أكثر بصرًا بالأساليب ، ولكن هذا جهده ، وهو خطوة ـ مهما كانت ـ على درب البحث البياني للبلاغة النبوية .

أما «ابن قتيبة» الإمام السني الذي تحاشى أن يخوض غمار البيان ، في شرحه لحديث ، «أصابع الرحمن» فنجده يقدم لنا رأيًا في الأحاديث السالفة ، مكتفيًا بشرح اللون البلاغي دون تسمية اسمه[2] ، غالبًا وإن كان نادرًا ما يوضح ولكنها ـ في الحق ـ كافية في بيان فكرته حيث عقب على حديث ابن عباس «الحجر الأسود يمين الله تعالى في الأرض يصافح بها من شاء من خلقه» ، قال : «ونحن نقول إن هذا تمثيل وتشبيه ، وأصله أن الملك كان إذا صافح رجلاً ، قبل الرجل يده ، فكان الحجر لله تعالى بمنزلة اليمين للملك ، تستلم ، وتلثم»[3] ، وهو يلتقي مع عبد القاهر وقد وضحنا ما فيه . وقد سبق رأي الزمخشري منذ البداية وتبعه العلوي في حمل هذه الأساليب على طريقة التخييل البياني بمعنى التصوير والفرض ، وهو في الواقع جدير بالإقرار ، وأجدر بهذه الأساليب ، ولقد وجد هذا الرأي من يؤيده ، ويتابعه من النقاد

---

(١) مشكل الحديث ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) انظر : تأويل مختلف الحديث ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٣) المرجع السابق ٢٧١ .

المحدثين كالأستاذ سيد قطب حيث ذكر آيات من المتشابهات في القرآن الكريم ، ثم عقب بقوله : «ثار ما ثار من الجدل حول هذه الكلمات ، حينما أصبح الجدل صناعة ، والكلام زينة ، وإن هي إلا جارية على نسق متبع في التعبير ، يرمي إلى توضيح المعاني المجردة وتثبيتها ، ويجري على سنن مطرد لا تخلف فيه ، ولا عوج ، سنن التخييل والتجسيم ، في كل عمل من أعمال التصوير . . . .[1] .

الصفات الحادثة :

ونوعها ـ تيسيراً ـ إلى مجموعتين :

١- الضحك والعجب والفرح .

٢- الهجاء ، والسأم والملل .

وأحاديث المجموعة الأولى : قوله ﷺ «عجب ربكم من أَلِّكُمْ ، وقنوطكم ، وسرعة إجابته إياكم ، وضحك من كذا»[2]، والحديث «يضحك الله تبارك وتعالى إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر ثم يدخلان الجنة»[3]. وحديث «لله أفرح بتوبة العبد من العبد إذا ضلت راحلته في أرض فلاة ..»[4]. ونلتقي بابن فورك ذي التطلع الأدبي والثقافة اللغوية فيقول في تفسير الضحك : «فالضحك عند العرب للضحك المعهود ، وضحكت الأرض بالنبات إذ ظهر فيها ، وضحك طلع النخل ، إذا نفق عنه كافوره ، وبدا منه البياض» ، وكذلك قول القائل : يضاحك الشمس منها كوكب شرق ، وقال ابن الأعرابي في الربيع :

وللسماء بكاء في جوانبها ... وللربيع ابتسام في نواحيها

والعرب تقول[5] للطريق الواضح : هذا طريق ضاحك ، وكل من أبدى أمراً كان يستره يقال له : ضحك ، فمرجع الضحك إلى البيان والظهور وعلى هذا

---

(١) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص ٧٣ .
(٣،٢) المشكل : ص٤٣
(٤) المرجع السابق : ص ٥٣ .
(٥) الطريق مذكر ومؤنث ـ القاموس المحيط ٢٦٦/٣ .

فتأويل الخبر : يضحك الله : أي : يبدي عزّ وجل من فضله ونعمه ، وتوفيقه ، لاستحالة وصفه بالجوارح[1] . كما يرى أن الفرح منسوبًا إلى الله تعالى معناه : إظهار الأفعال المرضية فيمن يتوب عليه من المعاصي ويوفقه للطاعة تشبيهًا بحال أحدنا إذا ظهر ما يسره ويؤنسه[2]. ثم يجعل هذا من الاستعارة قائلاً : «إن وجوه الاستعارات وتحقيق المعاني صحيح ثابت عند أهل المعرفة بها»[3].

ويرى ابن قتيبة : أن العجب والضحك ليس على ما ظنوا ، وإنما حل عنده بمحل ما يعجب منه ويضحك ، لأن الضاحك إنما يضحك لأمر معجب له[4].

ونأخذ من هذا أن الضحك بمعنى البيان حقيقة عند ابن فورك ومن المجاز المرسل عند ابن قتيبة . ومثله العجب عند الأخير ، كما أن الفرح من الاستعارة عند ابن فورك .

وليس بنا حاجة لرد المشترك ، لعدم وجود القرينة الدالة ، فلا يدخل تحت حقيقة أو مجاز ، ولا تحمل عليه أساليب ، كما أن القول بالمجاز المرسل والاستعارة تجوز على اللفظ يومئ إلى أصله وفيه ظلال من التشبيه الذي نفر منه المؤولون . والوجه ما ارتآه الزمخشري في تأويل العجب المسند إلى الخالق - تعالى - في الآية : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ والحديث «عجب ربكم من أنكم وقنوطكم ، وسرعة إجابته إياكم»[5]. ، حين قال : «أن يتخيل العجب ويفرض ، أعنى التأويل على التصوير والتخييل» .

(١،٢) المشكل ص ٤١ ، ١٩١ .

(٣) المرجع السابق ٥٣ ، ٥٤ .

(٤) انظر : تأويل مختلف الحديث ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(٥) انظر : الكشاف ٢٩١٤ .

المجموعة الثانية :الملل ، والسأم ، والهجاء .

قال رسول الله ﷺ : «خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا» وجاء : «لا يسأم حتى تسأموا»[1].

وقال رسول ﷺ : «إن فلانًا هجاني ، وهو يعلم أني لست بشاعر ، فاهجه اللهم ، والعنه عدد ما هجاني»[2].

ويرى ابن قتيبة في تفسير الملل : أن المعنى أن الله سبحانه لا يمل إذا مللتم ، ومثله في الشعر المنسوب إلى ابن أخت تأبط شراً ، ويقال إنه لخف الأحمر :

صليت مني هذيل بخرق ... لا يمل الشر حتى تملوا[3]

لم يرد أنه يمل الشر إذا ملوه ، ولو أراد ذلك ، ما كان فيه مدح لأنه بمنزلتهم ، وإنما أراد أنهم يملون الشر ، وهو لا يمله[4] .

غير أنا لو وازنا بين الحديث ، وبين البيت لخرجنا بهذه النتائج :

١- بيت الشعر يمثل النزعة الجاهلية ، البدوية ، فهم ميالون إلى الشر بطبيعتهم ، كما قال الآخر .

كانوا إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا

فالشاعر يفتخر أنه سعر حرب ، وقرين شر إذا مله القوم ، فلا تجد لديه مللاً . أما الحديث فهو توجيه بالاقتصاد في الطاعة ، دون إفراط أو تفريط ، على أن الإفراط فيه ، قسر للنفس ضد هواها ، فيدركها الملل وتموت روح الإخلاص والطاعة فتفقد الأعمال ثوابها ، والمعنى المراد : لا يقطع الله عنكم ثوابه وفضله حتى تمل نفوسكم الطاعات ، وهكذا يتبين لنا اختلاف المعنى والغرض والمناسبة وهى أسس الموازنة ، ويترتب عليه عدم جدوى هذا الرأي .

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٤٥٠ ، ٤٥١ ، وأمالي المرتضى ٤١/١ .

(٢) المشكل ص ١١٩ .

(٣) صلى النار : قاس حرها ، والخرق : من قولهم مخراق حرب : صاحب حرب ، القاموس المحيط ٢٣٣/٣ .

(٤) انظر : تأويل مختلف الحديث ص ٤٥٠ ، ٤٥١ .

أما الشريف المرتضى ، فقد أورد وجوهًا ثلاثة :

١- أنه لا يمل أبدًا ، فعلقه بما لا يقع على سبيل التعبير ، كما قال الله تعالى :

﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ .

وقال الشاعر :

فإنك سوف تحكم أو تناهى ... إذا ما شبت أو شاب الغراب

أراد : أنك لا تحكم أبدًا ، والمرتضى يعني هنا الكناية ، وإن لم يذكرها ، لكن هذا الوجه غير مرضٍ ، للفارق الواضح بين الحديث ، وبين الآية ، وبيت الشعر ، إذ المعلق عليه فيهما مستحيل الوقوع ، بينما هو في الحديث جائز الحصول إذ ملل الإنسان صفة له قد يتفاوت فيها الناس ولكنها كامنة فيهم .

٢- أن يكون المعنى : أنه لا يغضب عليكم ويطرحكم حتى تتركوا العمل له ، وتعرضوا عن سؤاله ، والرغبة في حاجاتكم إلى وجوده فسمى الفعلين مللاً ، وإن لم يكونا في الحقيقة كذلك على مذهب العرب في تسمية الشيء باسم غيره إذا وافق معناه من بعض الوجوه ، وهو يقصد المجاز المرسل ، بيد أن التجوز في الفعل الثاني وهو الملل المنفي تمحل لاداعي له ، إذ وصف العباد بالملل ، أو نفيه عنهم وصف لحقيقة منظورة ، وليس ثَمَّ سر بلاغي يقتضيه المقام لهذا التجاوز ، أما التجوز في الفعل الأول «لا يمل» مقصودا به الغضب فغير مقنع إذ لا تلازم لغة بين الملل والغضب .

٣- أن يكون المعنى : أنه تعالى ـ لا يقطع عنكم رضاه ، وإحسانه حتى تملوا من سؤاله ، ففعلهم ملل على الحقيقة ، وسمى فعله مللاً للمشاكلة في الصورة كقوله تعالى : «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه»[1] ، ومثل هذا الرأي الثالث رأي ـ ابن فورك ـ في نسبة الهجاء إلى الله تعالى يريد : جازاه على الهجاء ، تسمية للجزاء باسم الشيء[2] .

---

(١) انظر : أمالي المرتضى ١/٤١-٤٣ .

(٢) انظر : مشكل الحديث ١١٩ .

وقد وفق كل من العالمين في تقديم لون بلاغي «المشاكلة» خرجا عليه بعض الأحاديث ، أما العز بن عبد السلام فقد جعل حديث الملل مجازًا من وجهين .

الأول : التجوز عن قطع المزيد من ثواب الله ، والثاني : أن يكون من مجاز التشبيه ، شبه قطع المزيد من الأجر والثواب ، بقطع الملل ما مل منه [1] .

ولا أدري كيف يجتمع مجازان في لفظ واحد ، مع أن البلاغة تقتضي لونًا واحدًا ، فله أسرار يوجهها المقام ، ومهما يكن فإن مجاز التشبيه هذا مرفوض لضعف العلاقة بين الطرفين ، أما الأول : فيمكن قبوله تحت المشاكلة على أنها مجاز لغوي عند بعض البلاغيين[2] .

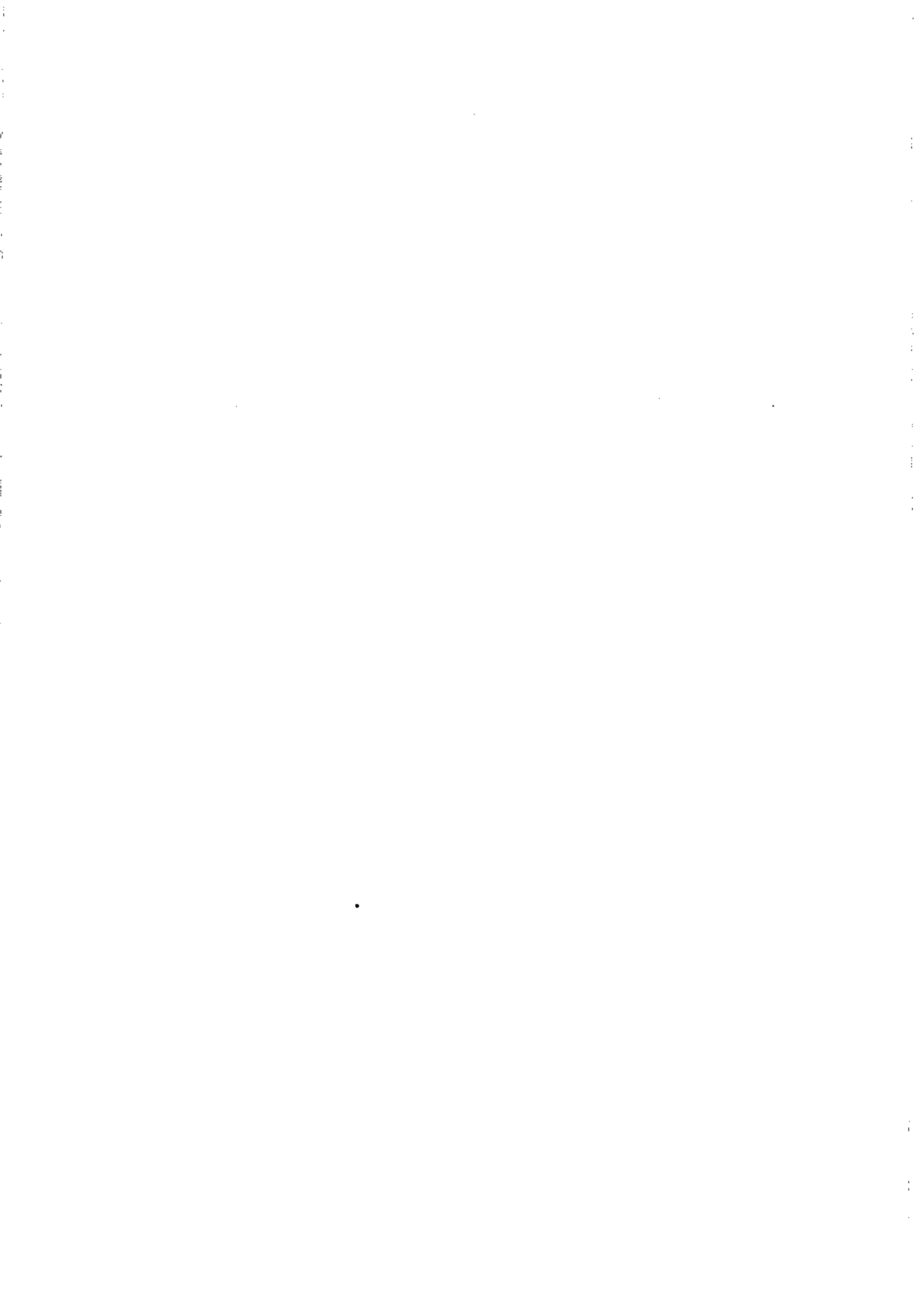
الخلاصة أن الرأي المختار في تأويل مشكل الحديث ذو شقين : التخييل البياني ثم المشاكلة ، وبالله التوفيق .

* * *

---

(١) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ١١١ .

(٢) انظر : علوم البلاغة ، المراغي ٣٣٥ .



الفصل الثاني

الشريفان : المرتضى ـ الرضي

الشريف المرتضى : ٣٥٥- ٤٣٦هـ

هو علي بن الحسين بن موسى بن إبراهيم من نسل الحسين بن علي ـ عليهم السلام ـ ولد سنة : خمس وخمسين وثلاثمائة ، ومات سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، وهو أكبر من أخيه الرضي قال : أبو جعفر الطوسي : « توحد المرتضى في علوم كثيرة ، مجمع على فضله ، مقدم في العلوم ، مثل علم الكلام والفقه ، وأصول الفقه ، والأدب ، والنحو ، والشعر ، ومعاني الكلام ، واللغة وغير ذلك ، وله ديوان شعر ، وتصانيف ، رسائل البلدان ، وغرر الفوائد وغير ذلك »[1].

منهجه :

كتابه « غرر الفوائد » الذي اشتهر بأمالي السيد المرتضى هو ما يهمنا في دراستنا ، وهو على هيئة مجالس ، مختلفة الأغراض ، يبدؤها بآية قرآنية أو حديث نبوي ، ثم يشرح الألفاظ الغريبة مستدلاً بالنصوص الأدبية من قرآن ، وحديث ، وشعر ، ويكثر من الشعر ، ثم يبدأ في التفسير ذاكرًا الأشباه والنظائر من أدب العرب وقد كان يهتم بتحرير المعنى كاملاً ، والاستئناس بأحوال العرب ، وكلامهم ، وأحوالهم ، ومناقشة المتقدمين عليه ، وتحليل آرائهم ورد الخطأ منها ، كما تتضح ثقافته الواسعة المتنوعة ، وانتهاج الطريقة الأدبية في التحليل ، ولكنه مثل أخيه الرضي يسير على طريقة البلغاء ، من الاقتصار على

---

(١) انظر : معجم الأدباء : ياقوت الحموي ١٣/١٤٦-١٤٩ .

موطن الشاهد ، دون النظر إلى النص كوحدة فنية ، وقد يتأثر بالمتكلمين فيرد سؤالاً ثم يجيب عليه ، والمجلي عنده يدور حول مقصد خاص شرعي ، أو كلامي ، وهو قوي الحجة ، نافذ البصيرة .

منهجه في الحديث :

لعل الأحاديث التي عالجها بيانًا لا تتجاوز اثنى عشر حديثًا ، ثلثها فيما أشكل مما اختص بالله تعالى ، وصفاته ، ولعل هذا يوضح غلبة النزعة الكلامية عليه ، لكنه كان يلجأ إلى البيان العربي ، يجد فيه حلاً لما أشكل وردًا لما قاله سابقوه ، ولقد كان يأتي بالحديث ويدخل في جدل ونقاش وأخذ وردّ ، وافتراض سؤال وجوابه ، مع استقصاء عجيب ، وحماسة علمية قد تستغرق أكثر من ثلاث صفحات للحديث الواحد ، كالحديث : «من نسي القرآن لقى الله وهو أجذم» فقد أورد رأي أبي عبيد بن سلام ، ودليله من الشعر ، بأن الأجذم : المقطوع اليد ، ورأي ابن قتيبة ، وأدلته ، واستشهاده في أن الأجذم المجذوم ، لأنه مرض يقطع الأعضاء ، ثم هو ذكر معنى الخبر فقال : «إنما أراد عليه الصلاة والسلام بقوله «يحشر أجذم» المبالغة في وصفه بالنقصان عن الكمال وفقد ما كان عليه بالقرآن من الزينة ، والجمال ، والتشبيه له بالأجذم من حسن التشبيه ، وعجبه ، لأن اليد من الأعضاء الشريفة ، التي لا يتم كثير من التصرف ولا يوصل إلى كثير من المنافع إلا بها» ، وبعد تقرير ذلك يقول : «وهذه عادة للعرب في كلامهم معروفة ، يقولون فيمن ناصره ، ومعينه : فلان بعد فلان أجدع ، وقد بقي بعده أجذم ، وقال الفرزدق يرثي مالك بن مسمع :

تضعضع طول مالك بعد وائل ... وأصبح منها معطي العز أجدعا

وإنما أراد المعنى الذي ذكرناه ثم يعود إلى رأي ابن سلام ، وابن قتيبة يبطلها بحجج عقلية قوية ، مع الرجوع إلى البيان العربي يدعم به أقواله[1].

---

(١) انظر : أمالي المرتضى : ١/٤-٧ .

ونلاحظ هنا : أنه سمى ما في الحديث من لون بلاغي ، وهو التشبيه وبين أثره الأسلوبي مع تأكيد رأيه بما ورد عن العرب .

وقد يحشد آراء مختلفة ، يستدل عليها من فصيح الشعر ، دون ترجيح أو موازنة ذاكراً أثر اللون البلاغي ، دون تسميته غالبًا كالحديث « إن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل ، فعليكم من الأعمال بما تطيقون فإن الله لا يمل ، حتى تملوا» ذكرنا ثلاثة منها في «المشكل» ونحن نوجزها هنا :

١- نفي الملل عنه سبحانه ، لتعليقه على مستبعد كما قال الشاعر :

فإنك سوف تحكم أو تناهى إذا ما شبت أو شاب الغراب

أراد أنك لا تحكم أبدًا .

٢- أن يكون المعنى : أنه لا يغضب عليكم ، ويطرحكم حتى تتركوا العمل له ، وتعرضوا عن سؤاله والرغبة في حاجاتكم إلى وجوده ، فسمى الفعلين مللاً ، وإن لم يكونا في الحقيقة كذلك على مذهب العرب في تسمية الشيء باسم غيره ، إذا وافق معناه من بعض الوجوه :

قال عدي بن زياد العبادي :

ثم أضحوا لعب الدهر بهم وكذلك الدهر يودي بالرجال

وقال عبيد بن الأبرص :

سائل بنا حجر بن قطام إذ ظلت به السمر الذوابل تلعب

فنسب اللعب إلى الدهر ، والقنا تشبيها .

٣- أن يكون المعنى : أنه تعالى لا يقطع عنكم فضله وإحسانه حتى تملوا من سؤاله ، ففعلهم ملل على الحقيقة ، وسمى مللا للازدواج ، ومشاكلة اللفظتين في الصورة ، وإن اختلفتا في المعنى .

٤- أن يكون الراوي ، وهم وغلط ، من الفتح إلى الضم وأن يكون قوله «يمل» بالضم لا بالفتح وعلى هذا يكون له معنيان ، أحدهما لا يعاقبكم بالنار حتى تملوا من عبادته ، وتعرضوا عن طاعته ، لأن «الملة» هو مشتوي الخبز ، وقيل إن الجمر لا يقال له ملة حتى يخالطه رماد .

والمعنى الثاني : أن يكون أراد أنه لا يسرع إلى عقابكم بل يحلم عنكم رفقًا ، وحتى تملوا حلمه وتستعجلوا عذابه بركوبكم المحارم ، وتتابعكم في المآثم[1].

ونلاحظ هنا :

- ولوعه بذكر المعاني التي يمكن أن يحتملها التعبير ـ لو على تكلف وتعسف في التأويل ـ مع افتراض التحريف والتصحيف في لفظ حديثي والاقتصار على موطن الشاهد دون نظر إلى باقي الحديث كوحدة معينة على الفهم ، ودون بحث في مناسبة الحديث وغرضه مما قد يوضح المراد .
- انتهاج الطريقة التحليلية وحشد الأمثلة وبعضها متعالم عند البلاغيين .
- خرَّج المعنى الأول على الكناية ، والثاني على الاستعارة ، والثالث على المشاكلة ، والرابع على الحقيقة ، واكتفى بتسمية اللون البلاغي في الثالث ـ وأشار إلى الثاني ، وباقي شرحه يدل على ما ذكرت ، لكن كيف يحتمل تركيب واحد أكثر من لون بلاغي يحمل على كل مرة مما لا يتفق والنظرة البلاغية ، ومعلوم أن سياق الحديث يعين الرأي الثالث وهو «حمله على المشاكلة» وقد سبق في «المشكل».
- قد يوفق في تقديم اللون البياني ، وبيان أثره كالحديث : «تقيء الأرض أفلاذ كبدها مثل الأسطوان من الذهب والفضة» ، فقد خرج تقيء على التشبيه والاستعارة قال : «وكذلك تسمية ما في الأرض من الكنوز كبدًا تشبيهًا بالكبد التي في بطن البعير وغيره» فسماه تشبيها فقط[2]، وكما في الحديث : «لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار» ، حيث ذكر أنه على طريق المثل والمبالغة ، ويؤيد ذلك بالشواهد الأدبية الكثيرة [3].

---

(١) انظر : أمالي المرتضى : ١/٤١-٤٣ .

(٢) المرجع السابق ١/٦٥ ، ٦٦ .

(٣) المرجع السابق ٢/٨٧ .

- قد نجده يجمع الأحاديث المتماثلة في الغرض ، ليعالجها دفعة واحدة وهي طريقة طيبة لو كان اتبعها ، فقد جمع أحاديث الإصبع المنسوبة إلى الله سبحانه منسوبة إلى رواتها ، ثم بدأ في تأويلها ، وقد تعدد أوجه التأويل عنده ، بين مجاز مرسل بتأويل الإصبع بالأثر الحسن ، وإن لم يصرح باسمه ـ أو كناية للدلالة على كمال التصرف ، وقد صرح بها ـ وقد يغرب ، فيجوز وجود جسمين حول القلب يحركه الله بهما ، تصويرا لهما بإصبعين ، من حيث الشكل[1] . ونلاحظ هنا : استعماله ثقافته الواسعة في اللجوء إلى الأدب العربي وطرائق التعبير الفصيح ، وهو ملحظ لا نجده عند كثير ممن يدرسون أدب النبوة .

- ولقد أثار دهشتي ما وجدت من تشابه تام في علاج بعض الأحاديث بين المرتضى ، وأخيه الرضي في المجازات النبوية ، كحديث «ما من آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله»[2] ، وحديث «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة»[3] ، بل اتفقا في الألفاظ تقريبًا في حديث «من تعلم القرآن ثم نسيه لقى الله ـ سبحانه ـ وهو أجذم» فإن رأيي ابن سلام ، وابن قتيبة ودفعهما ، وطريقة الرد عليهما ، وذكر الصواب في الحديث هو بنفسه بنصه المذكور في المجازات النبوية[4] ، وليس ثَمَّ رأي حاسم يوضع الآخذ عن الآخر ، وأرجح أن الشريف الرضي هو الناقل ، ذلك بأنه الأصغر ، ثم إن أسلوب الأخذ والرد بطريقة عقلية منطقية ، يناسب المرتضى كما في مجالسه التي كان يديرها حول فكرة واحدة في التفسير ، أو الحديث أو الكلام أو البلاغة ، وهذا الحديث له مجلس كامل في أماليه[5].

---

(١) انظر : أمالي المرتضى ٢/٢-٦ .

(٢) انظر : المجازات النبوية ص ٢٤٦ .

(٣) المرجع السابق ٣٠٥-٣٠٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٤٤ ، ٢٤٧ .

(٥) المرجع السابق ١/٤-٧ .

صفوة القول : أن المرتضى اهتم بالبيان النبوي ، محللا بارعا ، مستشفا للقيم الأدبية والاسترسال الأدبي الممتع مع الميل أحيانًا إلى نهج المتكلمين ، وانتهج فكرة طيبة تقوم على جمع النظائر من القرآن ، والحديث ، والشعر التي تدور حول معنى أو غرض واحد ، ثم إنه لم يعن ـ كأخيه الرضي ـ بتسمية الألوان البلاغية ، كثيرًا بل وجه عنايته إلى أسرارها في الأساليب ، وأثرها في توجيه المعاني ﷺ .

ب ـ الشريف الرضي : ٣٥٩-٤٠٦هـ

هو أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد ، ينتهي نسبه إلى الإمام الحسين بن على عليهم السلام ، ولد سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وتوفى سنة ست وأربعمائة كان عالمًا فذًا وشاعرًا فحلاً أديبا عفيفًا ، ملتزما بالدين وقوانينه : شارك في التأليف العلمي مشاركة الفحول ، فألف كتاب « حقائق التأويل في متشابه التنزيل » وكتاب « مجازات الآثار النبوية »، وكتاب « تلخيص البيان عن مجازات القرآن » ، وكتاب « الخصائص » ، وكتاب « أخبار قضاة بغداد »[1].

ويرى الدكتور زكي مبارك بأن الرضي مهد السبيل بعد القاهر الجرجاني فهو تلميذه في الميادين البيانية وليس كتاب « دلائل الإعجاز » إلا خطوة ثانية بعد كتاب « المجازات النبوية » وإن كان الجرجاني أقدر من الشريف على الإفاضة والاستقصاء[2] ، والحق أن المنهجين مختلفان ، وليس إثبات التلمذة بالأمر اليسير .

---

(١) انظر : مقدمات المجازات ص ٥-٧، وعبقرية الشريف الرضي ، زكي مبارك ١/٢٦٩.
(٢) انظر : عبقرية الشريف الرضي ١/٢٧١ .

منهج الشريف في المجازات :

عمد إلى الإشارة ـ كما قال « إلى مواضع النكت ، ومواقع الغرض بالاعتبارات الوجيزة والإيماءات الخفيفة » وعلل ذلك بأن القلوب في هذا الزمان ضعيفة عن تحمل أعباء العلوم الثقيلة ، والإجراء في مسافات الفضائل الطويلة ، ثم نبه إلى مصادره : بأنها كتب غريب الحديث المعروفة ، وأخبار المغازي المشهورة ، ومسانيد المحدثين الصحيحة ، وما أتقنه هو رواية وحصله إجازة وخرج بعضه تصفحًا وقراءة[1].

وقد حمله الإيجاز ذكر الحديث كاملاً إذا كان قصيرًا تستوعبه الصورة البيانية ، وإلا اقتطف من الحديث ما يمثل اللون البلاغي ، وهي نظرة جزئية كان ينبغي لها الشمول ، ثم هو لم يتبع خطة في سرد الأحاديث مرتبة على نمط من الأغراض أو الأنواع البلاغية أو أبجدية خاصة بل ذكر الأحاديث كيفما اتفق .

الاصطلاحات البلاغية :

يطلق التشبيه على ما ذكرت فيه الأداة ، ويجعل التشبيه البليغ من الاستعارة وهو رأي سائد عن بعض الأقدمين كالقاضي والحاتمي . قال في الحديث « كلكم بنو آدم طف الصاع » لو قال ﷺ : أنتم بنو آدم كطف الصاع : خرج الكلام عن أن يكون مستعارا لأن دخول كاف التشبيه في الكلام يخرجه عن باب المجاز ، مثل قوله ﷺ « خرجت حين بزغ القمر كأني فلق جفنة » ومثل قوله ﷺ في حديث : « فإن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ، ليلا أو نهارا » ، ولو قال : والقمر غلق جفنة ، والساعة حامل متم ، كان الكلام من حيز الاستعارة [2].

---

(١) راجع مقدمة المجازات ص ١٠-١٢ ، تحقيق دكتور طه الزيني ط مؤسسة الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٦٧م .

(٢) انظر : المجازات النبوية ص ٢٨١-٢٨٣ .

أما اصطلاح المجاز فقد تناول العقلي منه والمرسل والاستعارة ، وإن كان في الأسلوب استعارة سماها ، أو قال مجازا ، وهذا في الأعم الأغلب ، ونادرا جدا ما يطلق على غير الاستعارة من المجاز المرسل استعارة كما في الحديث «ما من أمير عشرة ، إلا وهو يجيء يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه حتى يكون عمله الذي يطلقه ، أو يوبقه» قال : وهذه استعارة ، وإنما أضاف ﷺ الإطلاق والإيباق للعمل ، لأنه سببها وصلاحه وفساده مؤثر فيهما[1] . ونلاحظ أنه شرح علاقة المجاز ومع ذلك سماه استعارة وهذا كما قلت نادراً ما يحدث ، كما ننبه إلى أنه كان يفطن إلى علاقة المجاز وإن لم يسمه كما في الحديث ، «ونهيتكم عن الشرب في الأوعية ، فاشربوا ما شئتم» إلا من أوكى سقاءه على إثم» قال : إلا من أوكى سقاءه على مشروب يؤدي إلى الإثم ، فأقام الإثم مقامه لأنه عاقبة أمره ، ووبال فعله[2] .

وقد يخطئه التوفيق في تأويل الحديث وبيان ما فيه كما في الحديث عن «أحد» هذا جبل يحبنا ، ونحبه ، قال «وهذا القول محمول على المجاز ، لأن الجبل على الحقيقة لا يصح أن يحب ، ولا يحب إذ محبة الإنسان لغيره ، إنما هي كناية عن إرادة النفع له ، أو التعظيم المختص ، وكلا الأمرين لا يصبح على الجماد» ، ثم قال «فالمراد أن أحدًا جبل يحبنا أهله ونحب أهله ، وأهله هم أهل المدينة من الأنصار»[3] .

والواضح أنه يخرجه على المجاز المرسل ، ولا تثريب عليه في هذا الخلط بين المصطلحات البلاغية الفنية .

فلم تكن بعد قد أخذت صيغتها النهائية ، ولكن جعله حب الرسول ﷺ واقعًا على الجبل مجازا سهو منه ، بل وقوع الحب وصفًا للإنسان حقيقة ، لأن الحب ميل غرزي ملازم للإنسان يتناول كل ما في الحياة قال تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ

---

(١) المجازات النبوية ص ٢٩٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ .
(٣) المرجع السابق ص ١٥ ، ١٦ .

﴿ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ وقال ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ أما وقوع الحب من الجبل ، فهو استعارة بالكناية - لا كما ذهب محقق الكتاب على أنه مجاز عقلي[1] ، ولا ما ذهب إليه الدكتور زكي مبارك من رأي غريب ، قال عن رأي الشريف هنا « وهذا خطأ من الشريف ، ساقه إليه خضوعه للحرفيات في بعض الأحوال ، فالرسول - في رأيي - أراد - الحقيقة لا المجاز ، وسر ذلك لا يدركه غير من يطمئن إلى فكرة وحدة الوجود[2]. والرسول ﷺ عربي يخاطب عربا ، يعيشون واقعهم ويميزون بين الحي والجامد ولا يتعمقون فلسفات وثنية زائفة ، على أن هذه الفكرة إن راجت في عالم الفلسفة فلن ترج في دنيا البيان ، وإلا صار كل كلام حقيقة وألبس الأمر ، وجن العقل ، ولن يخاطب نبى الله الناس إلا بما يعرفون ، ثم إن الصحابة فهموا الحديث ، ولم يعتبروه من المتشابه الذي وقفوا عنده .

أما موقفه من علم المعاني والبديع ، فلن نتوقع منه خوضا فيهما ، حسب ما رسم لنفسه من منهج ، فلم يتعرض للبديع ، وما أكثره ، ولم يتوقف عند المعاني إلا على حد الندرة التي لا تمثل موقفًا خاصًا ، كقوله في الحديث « جبرائيل ناموس الله » فذكر لبعضهم أن الناموس من أسماء العلم ، وتأول بأن في الكلام - على هذا - تقدير مضاف حذف لدلالة الكلام عليه فكأنه ﷺ قال « جبرائل حامل علم الله » أو صاحب علم الله والحذف إنما يحسن في الكلام إذا كان فيما يتبقى دليل على ما يلقى : كقوله تعالى ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ فلما كانت القرية والعير لا تسألان ، ولا تجيبان علم أن المطلوب غيرهما ، وأنه المضاف إليهما ولا يجوز على هذا « جاء زيد » وأنت تريد : غلام زيد ، لأن المجيء قد يكون من الغلام ، كما يكون من صاحب الغلام[3]. ولقد أخطأ في حمل الحديث - موافقًا - والآية على الحذف ،

---

(١) انظر : المجازات هامش ص ١٦ .
(٢) عبقرية الشريف الرضي ص ٢٨٤ .
(٣) انظر : المجازات : ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

لذهابه بالسر البلاغي للمجاز المرسل ، وإن ذكر شرط الحذف ـ وقرينته . . مما كان يلم به قليلا أو نادرا خارج علم البيان .

شدة فطنته وتمكن موهبته الأدبية ، فيما يذكر من معنيين ، أو معانٍ للحديث قد يرجع بعضها إلى ما يسمى في النقد بوفرة التأويلات ، ودلالة اكتناز الأسلوب وقوته كما في الحديث « هذه مكه قد رمتكم بأفلاذ كبدها » فقد ذكر معنيين ، أما صميم قريش ومحضها ولبابها وسرها ، فالمراد بالكبد كالمراد بالقلب لتقاربهما في لغة العرب ، وأما أن يراد أعيان القوم ، ورؤساؤهم ، فكأن مكة قد قامت مقام الحشا ، بما يجمع من أعضاء شريفة وقريش منها كشعب الكبد التي تحتوي عليها الأضالع [1].

وقد يكون اللفظ نفسه من المشترك المحتمل لأكثر من معنى لغة كما في الحديث : « اللهم أربينهما » لمن جاء يشكو خلق زوجته ، فقد ذكر الشريف أنه إما مأخوذ من « الآري » وهي الآخية التي تربط الدابة إليها ، فكأنه ﷺ دعا لهما أن يكونا كالدابتين على الآري ، في المقاربة والملازمة ، وعدم النفار والمباعدة ، وقد يجوز أن يكون مأخوذا من قولهم « أريت العقدة » إذا أحكمت عقدها ، فكأنه ﷺ دعا لهما بأن يكون عقد الود بينهما ، فتكون أخلاقهما متوافقة وأحوالهما متلافقة ، وقد يجوز أيضًا أن يكون من قولهم : « أرى فلان بالمكان » إذا قام به فكأنه ﷺ دعا لهما بأن يثبتا على الألفة ويدوما على المودة ، والتأري أيضًا : التوقع للشيء والانتظار له[2].

وواضح أن مادة اللفظ تحتمل هاتيك المعاني لكنها تحتاج العقلية اللغوية التي تلم بأطرافها ، وقد كانت عقلية الشريف مثلا شرودا قد يطغى عليه الجانب اللغوي كما في الحديث « كل هوى شاطن في النار » قال : وهذا مجاز لأنه وصف الهوى بالشطون وهو البعد ، وأراد به تباعد صاحبه عن الرشد ، وترامية

---

(١) انظر : المجازات النبوية : ص١٤،١٥ .　　　(٢) المرجع السابق ص ١٦٣، ١٦٤.

إلى الغي ، ثم بدأ في ذكر ما قال أبو عبيد عن الشاطن ، والشيطان وما ورد عن العرب في وصف النبي بالشطون والحبل كذلك[1].

وكنا نأمل ـ مع الموهبة اللغوية ـ والأدبية والتذوق ـ أن يوازن بين ما يذكر ثم يرجح ما يختار مستعينا بالقرائن وبثقافته العميقة المتنوعة ـ كما كان يفعل أحيانًا وإن لم يتخذه طريقًا ولا بأس من أن نذكر حديثا أورد فيه معنيين لم يرجح أحدهما مع تعالمه وشهرته كما في الحديث « إياكم وخضراء الدمن » فقد ذكر له : معنيين مشهورين وهما : النهي عن نكاح المرأة على ظاهر الحسن ، ومنبتها سيئ ، والثاني : النهي عن مظاهر النفاق بأن يلقى الرجل أخاه ، بظاهر جميل ، وباطن ذميم[2] ، ورجح الثاني بحماسة الدكتور محمد أحمد البيومي ، لعدم تسبب المرأة في اختيار منبتها[3] ، وهذا حسن لو لم ينص الحديث على المقصود من خضراء الدمن ، والحديث بتمامه « إياكم وخضراء الدمن » : قالوا : وما خضراء الدمن؟ قال : « المرأة الحسناء في المنبت السوء » من حديث أبي سعيد مرفوعا ، وقد ذكره صاحب تمييز الطيب من الخبيث مرفوعا ، وعزاه للدارقطني في الأفراد وللعسكري في الأمثال[4] ، ثم إن الحديث قرره غير واحد من أئمة البلاغيين وبينوا ما فيه من تشبيه الحسناء بخضراء الدمن كأبي هلال العسكري[5] ، وعبد القاهر الجرجاني[6] ، على أن الكفاءة في الزواج مطلوبة شرعًا وقد أمر المسلم بالظفر بذات الدين ، والتخير للنطف فإن العرق دساس فليس الزواج حقل تجارب ، إنما هو حياة فيها السكن النفسي والإعانة على طاعة الله .

---

(١) انظر : المجازات النبوية ص ٩٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٩ - ٧٥ .

(٣) انظر : سيدنا محمد في إبداعه الأدبي للدكتور محمد أحمد بيومى ص ٣٢٢ .

(٤) انظر : تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة للناس من الحديث الإمام عبد الرحمن بن علي الشيباني ص ٤٨ ط صبيح ١٩٦٣ .

(٥) انظر : الصناعتين للعسكرى ص ٣٤٤ .

(٦) انظر : أسرار البلاغة ص ٤٧، ٢٢٠ .

وقد نرى الشريف يرجح بين معنيين ويوفق ، كما في الحديث عن رسول الله ﷺ «الولد للفراش وللعاهر الحجر» فذكر أن العاهر لا شيء له فعبر بذلك لعدم الانتفاع بالحجر ، أو أنه ليس له إلا إقامة الحد عليه ، وهو الرجم بالأحجار ، أو العفيف إذا كان غير محصن ، وأيد الأول برواية ابن عمر للعاهر الأثبت ، والأثبت : التراب المختلط بالحجارة ، وبما ورد عن العرب ثم ذكر أن الثاني فيه تعسف واستكراه ، لأن الغلظة على من لا يرجم لا يعبر عنه بالحجر لبعده عن سنن الفصاحة [1] .

الموازنات :

قد يتجه أحيانًا إلى الموازنة بين حديث وبين بيت من مأثور الشعر ، في دقة وتذوق وبراعة ، توقف المطلع على منابع الجمال في الحديث النبوي كما في قوله ﷺ لسلمان الفارسي ﷺ :«سلمان ابن الإسلام ، سلمان جلدة بين عيني» قال : وجلدة بين العينين ، هاهنا كناية عن الأنف ، فكأنه عليه الصلاة والسلام جعله في العزة والقرب منه كالأنف الكريم على صاحبه ، وهذا القول أصح من معنى قول الشاعر :

وجلدة بين العين والأنف سالم

لأنه لا جلدة بين العين والأنف ، يقصد قصدها ، ويشار نحوها[2].

وقد قامت عنده هذه الموازنات ـ ولو سار عليها ـ وعنده ما يؤهله ـ لأتى بالعجيب الطريف في ميدان النقد والبلاغة ..

ويلحق بهذه الموازنات ، ما كان يذكره من أثر الحديث في أدب الصحابة ، كما في قوله ﷺ ، وقد كسا أسامة بن زيد قبطية ، فكساها امرأته ، فقال له ﷺ : «أخاف أن تصف حجم عظامها» قال بعد تحليله «وهذا من أحسن

---

(١) انظر : المجازات النبوية ص ٣٣٩-٣٤١ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

العبارات عن هذا المعنى ، وهذا الغرض رمى عمر بن الخطاب في قوله : « إياكم ولبس القباطي فإنها إلا تشف تصف» فكان رسول الله ﷺ أبا عذر هذا المعنى ، ومن تبعه فإنما سلك وطلع فجه [1].

والشريف أديب شاعر عالم كثير الاستشهاد من شعر العرب ، وأدبهم ولغتهم ، ومع ذلك كان يسوق ذلك ـ لا للموازنة ، أو توضيح أثر البيان النبوي أو تأثره ـ بل دليلا على لفظه ، أو تقوية لجانب معنى ارتآه .

ونحمد له أنه لحظ تأثير العرف في التعبير الأدبي كما في الحديث « أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم ، فإن أحدهم ليعثر ، وإن يده بيد الله يرفعها» قال : لما جاء بلفظ العثار أخرج الكلام بعده على عرف العادات ، لأن العادة جارية أن يكون المنهض للعاثر ، والمقيم للواقع ، إنما يستنهضه بيده ، ويستعين عليه بجلده [2].

وقد ينهج نهج أخيه في جمع الأحاديث التي تدور في فلك واحد ثم يؤولها مرة واحدة كما في الحديث « أجد نفس ربكم من قبل اليمن» فقد ذكر حديثين « لا تسبو الريح فإنه من نفس الرحمن» و « الريح من روح الله»[3]. بيد أنه لم يلتزم ذلك .

بعض المآخذ :

١- كان يتعرض أحيانًا لما هو خارج عن البلاغة من مسائل فقهية خلافية أو كلامية أو لغوية كما في الحديث عن الشارب في آنية الذهب والفضة « إنما يجرجر في بطنه نار جهنم» فقد ذكر آراء للخوارزمي والشافعي ، والأصفهاني [4]، وقد علل ذلك الدكتور زكي مبارك بأنه تعمد الكتابة في الشئون اللغوية والعلمية ليصد عن مجده الأدبي والسياسي عدوان خصومه ،

---

(١) المجازات النبوية ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٤) المرجع السابق ص ١٤٤-١٤٦.

ومنافسيه[1] ، لكن الأقرب أن يقال لعل ذلك كان نهج المؤلفين في زمانه فلم يكن التخصص بمعناه المعروف سائدا لا محيص عنه ، والمأخذ هنا مخالفته للإيجاز الذي جعله جزءًا من خطته التي رسمها في المقدمة .

٢- لم يعالج قضية الشعر بعمق ، مع أنه شاعر مفلق ، له ديوان شائق ومع أن السابقين واللاحقين عالجوا هذه القضية بعمق وقدرة ، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه ، خير له من أن يمتلئ شعرا» ، ذكر رأيا هو أن النهي فيما هجى به النبي ﷺ ، ثم ضعفه وانتهى إلى أن المقصود : النهي عن استيلاء الشعر على القلب لشغله عن الدين[2].وهي نظرة لا تليق بعالم متخصص وشاعر موهوب له ديوان كبير.

٣- قد يظهر تشيعه لآله ـ عليهم السلام ـ وله الحق في ذلك ولكن لا بتأول بعيد كما في الحديث عن رسول الله ﷺ من قوله لعلي كرم الله وجه «إن لك بيتا وإنك لذو قرينها» فقد جعل عليا ﷺ أفضل الناس بعد النبي ﷺ كما روى عن ثعلب أنه ذو اقتباس العلم الظاهر واستخراج العلم الباطن في قوله[3] ذو قرينها» كما قد يحمله التشيع أحيانًا على عدم التثبت من الحديث فقد ذكر حديثًا «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[4] وحديثًا آخر «ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة»[5]، والأول أنكره الترمذي والبخاري وقال «ابن معين»: إنه كذب ، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات[6]، والحديث الثاني نسبه البخاري للإمام علي فهو من أقواله[7] ، ومع هذا فتلك المآخذ لا تنقص هذا العملاق الذي كان أول من درس البلاغة النبوية دراسة منهجية أدبية جديرة بكل تقدير وإعجاب .

* * *

---

(١) عبقرية الشريف الرضي ص ٢٧٤ .

(٢) انظر : المجازات النبوية ص ١١١ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٥) المرجع السابق ص ١٩٨-٢٠٠ .

(٦) انظر: تمييز الطيب من الخبيث ص٣٣

(٧) التاج الجامع ٥/١٧٠ .

الفصل الثالث

الاتجاه الأدبي عند «ابن الأثير - ابن أبي الإصبع - العلوي»

أ- ضياء الدين المعروف بابن الأثير :

هو : نصر بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري أبو الفتح ضياء الدين المعروف بابن الأثير ، الكاتب العالم أصغر الثلاثة الأخوة الذين عرفوا ببني الأثير ، وقد نقل إلى مصر في عهد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٧هـ فعمل بالديوان ، ثم عمل وزيرا للملك الأفضل نور الدين ، بمملكة دمشق ، وقد تنقل وزيراً بين دمشق ، والموصل ، وحلب وعلى الرغم من اضطلاعه بأعباء وزارات مختلفة ورث اللغة ثروة لا تنفد ، أجلها شأنًا «كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» ، وهو كتاب جمع فأوعى فيما يتعلق بفن الكتابة ، والقريض ، وعلوم البلاغة[١].

ثقافته :

اهتم كثيرا بدراسة القرآن ، والحديث ، وما انتهى إليه من تراث ، وقد استعان بالقرآن والحديث في دراساته البيانية ، وفي كتابته وتتلمذ على أخيه الأكبر مجد الدين صاحب الكتب المشهورة في الحديث ورجاله[٢].

موقفه من الحديث :

جعل حفظ الأحاديث النبوية من أسباب جعل الأدب مطبوعا . .[٣]

---

(١) انظر : تاريخ علوم البلاغة ، أحمد مصطفى المراغى ص ١٢٢-١٢٥

(٢) انظر : ضياء الدين بن الأثير ، محمد زغلول سلام ص ٤٦

(٣) انظر : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٧٢/١ ، ٦٤/١ ، ١٠/١ ، ١٩٦

وقد طبق ذلك على نفسه فجرد من الأحاديث كتابا اشتمل على ثلاثة آلاف خبر حفظه وأفاد كثيرا منه ، مستلهمًا أسلوبه ، متتبعًا مناسباته ، كاشفًا النقاب عن جلاله ، وجماله . .

منهجه :

يهمنا ـ هنا ـ معالجة البيان النبوي ، وهل كان له منهج ؟ وكيف تقدمت الدراسات البلاغية للبيان النبوي على يديه ؟

موازنة :

تكلم عن اللفظة المفردة تروق في كلام ، ولا تروق في آخر وإن كان ناقلاً عن عبد القاهر[1]. وقد اختار لفظة «تؤذى» وقد جاءت في الآية : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ ﴾ (الأحزاب:٥٣) وفي بيت شعر لأبي الطيب المتنبي

تلذ له المروءة وهي تؤذى ... ومن يعشق يلذ له الغرام

وهي قوية في الآية ، ضعيفة في البيت ، ذلك أن هذه اللفظة ينبغي أن تكون مندرجة مع ما يأتي بعدها ، متعلقة به ، ثم يبين أن هذه اللفظة بعينها قد جاءت في الحديث النبوي وأضيف إليها كاف الخطاب ، فأزال ما بها من العنف ، والركة ، وذلك أنه اشتكى النبي ﷺ ، فجاءه جبريل ورقاه فقال : باسم الله أرقيك ، من كل داء يؤذيك ، فإنه لما زيد على هذه اللفظة حرف واحد أصلحها[2].

ومثل هذه الموازنات يثري البلاغة والنقد بالكشف عن القيم الجمالية في الأساليب

---

(١) انظر : دلائل الإعجاز ص ٤٢ ، ٤٣ ط ثانية تحقيق العراض

(٢) انظر : المثل السائر ٣١٦/١

غريب الحديث :

وقد قسم الألفاظ إلى ثلاثة أقسام : ما تداول استعماله الأول والآخر أو الأول دون الآخر ، ومنه غريب القرآن والحديث : ويسمى الوحشي وهما حسنان ، ومنه حديث : طرفة بن أبي زهير النهدي ، وكتابه ﷺ إلى بني نهد ، ويذكر أن فصاحته ﷺ لا تقتضي استعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد في كلامه إلا جوابا لمن يخاطبه بمثلها على أنه كان في زمنه متداولاً بين العرب ، ولكنه ﷺ لم يستعمله إلا يسيرا ، لأنه أعلم بالفصيح والأفصح[1] .

وقد وضحنا عند الحديث عن الغرابة أن فصاحة النبي ﷺ اقتضت مخاطبة كل قوم بما يتكلمونه ويفهمونه تفننًا ، وإلهاما وإعجازًا .

السجع النبوي :

عرف السجع ، وقسمه ، ومثل له من الحديث ، ثم رد على من أنكره وتأول الحديث « أسجعًا كسجع الكهان » بأن الإنكار منصب لا على السجع ، فقد ورد في القرآن والحديث - بل على حكم الكاهن الوارد بالسجع لما فيه من التكلف : ويكفي - دليلاً على جواز السجع - أنه ﷺ غير الكلمة عن وجهها اتباعًا لأخواتها فقال « أعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة » وإنما أراد ملمة لأن الأصل فيها من ألم فهو ملم ، وكذا قوله « ارجعن مأزورات غير مأجورات » وإنما أراد موزورات من الوزر ، وذلك طلبًا للتوازن والسجع وفي علاجه لقضية السجع أخطأ في موضعين من كلامه :[2]

أولاً : شك في الحديث « أسجعًا كسجع الكهان » وقال : عندي فيه نظر ، فإن الوهم يسبق إلى إنكاره ، ولم نعرفه متضلعًا في علوم الحديث حتى ينكره ، وهذا تسرع دون مبرر ، فالحديث رواه الأئمة الخمسة : البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه كما ذكر صاحب التاج .

---

(١) انظر : المثل السائر ١/٢٢٨-٢٣٤

(٢) انظر : السجع فى المثل السائر ١/٢٧٠-٢٧٥

ثانيا : قال : إن السجع الذي أتى به الرجل لا بأس به لأنه قال : «أأدى من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك بطل» وهذا كلام حسن من حيث السجع وليس بمنكر في نفسه[1] ذلك أن التكلف باد في هذا القول ـ فقد غير الترتيب الطبيعي بين الألفاظ فقدم الشرب على الأكل والمعهود عكسه قال تعالى ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ (الأعراف:٣١) وقدم النطق على الاستهلال ، والمعهود تقديم الاستهلال لأنه أول صراخ الصبي حين يولد ، والنطق بعد ذلك.

ولعل السر في اهتمامه بالدفاع عن السجع ، ومحاولة إنكار الحديث والتكلف في تأويله أنه كان من أصحاب القلم المتقنين في صناعة الكتابة التي اعتمدت السجع ، وغيره من ضروب البديع تقليدًا عامًّا في عهده ، فدفاعه عن السجع دفاع عن أدبه ورزقه وحياته . .

الحكم على المعاني :

قسم تأويل المعنى إلى ثلاثة أقسام : إما أن يفهم منه شيء واحد لا يحتمل غيره ، وإما أن يفهم منه الشيء وغيره ، وتلك الغيرية إما أن تكون ضدًّا أو لا تكون ضدًّا ، ثم أدخل أكثر الأشعار تحت القسم الأول ، وقال إن القسم الثاني قليل الوقوع جدا وهو من أظرف التأويلات ، ثم صدر الأحاديث بالذكر قبل الشعر ـ على غير عادته ـ قال : ومما جاء منه قول النبي ﷺ : «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة في غيره من المساجد ، إلا المسجد الحرام»، فهذا الحديث يستخرج منه معنيان ضدان : أحدهما أن المسجد الحرام أفضل من مسجد الرسول ، والثاني عكسه[2]. والواقع أن هذا التأويل غير مسلم لمخالفته للوارد في صحاح الأحاديث ، بل إن بقية الرواية فيما رواه ابن ماجه : «وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه» ، وللبيهقي

---

(١) المثل السائر ٢٧٥/١

(٢) المرجع السابق ٧٦/١ ، ٧٧ .

«صلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، وصلاة في مسجدى بألف صلاة، وفي بيت المقدس بخمسمائة صلاة»[1].

وكذا ذكره للحديث «إذ لم تستح فاصنع ما شئت» فقد خرجه على المدح، والذم، والمعلوم أنه تهديد، ووعيد مثل قوله تعالى ﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾[2]..

والحديث لحوقا في قوله ﷺ في أحد صحابته «لا يتوسد القرآن»، وهو محتمل المدح بعدم نومه الليل عن القرآن، فيكون القرآن متوسدًا معه، والذم: أنه لا يحفظ منه شيئًا ..[3] والواقع أن ابن الأثير قد يفصل الأحاديث عن مناسباتها ومقاماتها، وعن مثيلاتها، ثم يجردها لينظر إليها نظرًا عقليا تتعدد احتمالاته، مع أهمية المناسبة والمقام والثقافة «الحديثية» لتحديد المراد من الحديث، ثم إن احتمال الحديث النبوي للمعنى، وضده مدحًا وذمًّا لا يتلاءم مع البيان العربي من النبي العربي الذي لا يتصنع القول أو المواربة وكذا أعوزته الدقة في القسم الثالث وهو ما يحتمل معنين غير ضدين - إلى حد ما - ففي الحديث عن النبي ﷺ لأزواجه: «أطولكن يدا أسرعكن لحوقا بي» فلما مات صلوات الله عليه جعلن يطاولن بين أيديهن، حتى ينظرن أطولهن يدا، ثم كانت زينب - رضي الله عنها - أسرعهن لحوقًا به، وكانت كثيرة الصدقة، فعلمن أنه يريد الصدقة، فهذا القول يرد على المعنيين المشار إليهما ..[4]

والواقع أن المعنى الأول غير مقصود، وأن المبادرة جاءت على طريق المجاز كما نبه إليه الإمام عبد القاهر فقال «لو حاولت - في قول النبي ﷺ - وقد قالت له نساؤه ﷺ - أيتنا أسرع لحاقا بك يا رسول الله فقال: أطولكن يدًا، يريد السخاء، والجود، ومد اليد بالبذل: أن تضع موضع اليد شيئا مما أريد بهذا الكلام خرجت عن المعقول، وذلك أن الشبه مأخوذ من مجموع الطول واليد مضافا ذلك إلى هذه، وطلبه من اليد وحدها طلب الشيء على غير

---

(١) انظر: التاج الجامع ٢٣٤/١

(٢) انظر: المثل السائر ٧٧/١

(٣) المرجع السابق ٧٧/١

(٤) المرجع السابق ٨١/١

وجهه[1] كما أن القرينة في المجاز تمنع من إرادة المعنى الحقيقي ، أما في الحديث الذي دعا فيه النبي ﷺ على رجل ، فقال : «اللهم اقطع أثره» ، فقد بين احتمال الحديث للدعاء بالزمانة أو ألا يكون له نسل يعقبه ، أو لا يكون له أثر مطلقا وهو أعم . .[2]

وحبه للتقسيم ألجأه إلى ذلك ، فالحديث يشمل هاتيك المعاني وسواها ؛ لأنه دعوة تؤذن بالانتقام الشامل ممن أغضب الله ورسوله . . . .

وقد نجده يصيب التقعيد ثم يخطئ في التطبيق ، فقد أورد في تعدد الوجوه والمعاني في فهم اللفظ ما يكون فيه المعنيان حقيقيين كقول النبي ﷺ «التمسوا الرزق في خبايا الأرض» فذكر معنيين : الكنوز المخبوءة في بطون الأرض ، والآخر الحرث والضراس ، ثم أبطل الأول لأن مواضع الكنوز مجهولة والنبي ﷺ لا يأمر بمجهول ولا يحيل عليه .[3] وكذا الحديث الآخر «إذا ابتلت النعال فالصلاة في الرحال» والنعال إما ما غلظ من الأرض أو الأحذية ، والوجه الثانى هو الراجح عنده في الدلالة على المعنى .[4]

ولم يأت ابن الأثير بشيء ذي بال هنا في التطبيق لكنه يحمد له التنبيه على احتمال تعدد المعاني للفظ الواحد والعبارة الواحدة ، ولا بأس أن نعتبر ما نبه إليه هنا ـ من جوامع الكلم الآتية مما سمي في النقد الحديث ، بوفرة التأويلات ، بمعنى أن الأسلوب يعطي معاني وإيحاءات وظلال جمة دليل الفن البارع والأدب الفني الخالد . .

التجنيس :

جعله قسمًا واحدًا ، هو الحقيقى ، وألحق به أقساما ستة جعل أحدها من لزوم ما لا يلزم ، فالحقيقي كقول النبي ﷺ «خلو بين جرير والجرير»[5]

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٨٥
(٢) انظر : المثل السائر ٨١/١ ، ٨٢
(٣،٤) المرجع السابق ٨٩/١
(٥) المرجع السابق ٣٤٣/١

والقسم الأول ما يشبهه : «اللهم كما حسنت خلقي ، حسن خلقي»[1]

القسم الثاني بالحديث : «الخيل معقود بنواصيها الخير»[2]

القسم الثالث بالحديث : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[3]

القسم الرابع بالحديث : «جار الدار أحق بدار الجار»[4] في قسمه الأول وهو عكس الألفاظ.

القسم الخامس : ألحقه بلزوم ما لا يلزم[5].

السادس : الحديث : «يقال لصاحب القرآن اقرأ ، وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا»[6] فقوله ﷺ «اقرأ ، وارتق» من هذا النوع.

المجاز :

قسمه إلى توسع وتشبيه ، واستعارة ، والتوسع الحسن : ما ورد على غير وجه الإضافة ، ومثل له ، بقول النبي ﷺ : في أحد «هذا جبل يحبنا ، ونحبه» فإضافة المحبة إلى الجبل ، من باب التوسع ، إذ لا مشاركة بينه ، وبين الجبل الذي هو جماد[7]. وهذا التوسع الذي أشار إليه إنما هو الاستعارة بالكناية ، ويبدو أنها لم تتضح له وإلا فإن نظائر لها سلفت عند السابقين لاسيما بيت لبيد المشهور :

وغداة ريــح قــد كشــفت وقــرة ... إذ أصبحت بيد الشمال زمامهــا[8]

الاستعارة :

ذكر حديثين لها : قوله ﷺ : «لا تستضيئوا بنار المشركين» ، فاستعار النار للرأي والمشورة أي لا تهتدوا برأي المشركين ولا تأخذوا بمشورتهم (وروى

---

(١) المثل السائر ٣٤٩/١
(٢) المرجع السابق ٣٥٠/١
(٣) المرجع السابق ٣٥١/١
(٤) المرجع السابق ٣٥٧/١
(٥) المرجع السابق ٣٦٠/١
(٦) المرجع السابق ٣٦١/١
(٧) المرجع السابق ٨/١٢
(٨) انظر : أسرار البلاغة ٣٣/٣٢ ، دلائل الإعجاز ص ٥٤ وهما للإمام عبد القاهر

عنه ﷺ) أنه دخل يومًا مصلاة فرأى أناسًا كأنهم يكثرون ، فقال «أما إنكم لو أكثرتم من ذكر هازم اللذات لشغلكم عما أرى» وهازم اللذات أراد به الموت وهو مطوي الذكر[1]

التشبيه :

مثل للتشبيه المضمر الأداة بقول الرسول الكريم «الكمأة جدرس الأرض»[2] على أنه قد يمثل بالحديث الواحد في أكثر من موطن كالحديث «هل يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم» فقد ذكره في النوع الثالث من تقسيماته وهو أن يقع موقع المبتدأ والخبر ـ جملتين كأنه قال : كلام الناس كحصائد المناجل[3] ثم ذكره في التشبيه المركب ، وقال «شبه الألسنة وما تمضى فيه من الأحاديث التي يؤاخذ بها بالمناجل التي تحصد النبات من الأرض[4] والاستعارة واضحة في الحديث ، ويذكر الحديث : «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر» ثم بين التشبيه فقال : ألا ترى أن النبي ﷺ : شبه المؤمن القارئ وهو متصف بصفتين هما الإيمان والقراءة بالأترجة ، وهي ذات وصفين هما الطعم والرائحة ، وكذلك يجري الحكم في المؤمن غير القارئ وفي المنافق القارئ ـ والمنافق غير القارئ[5] ونأخذ من منهجه أنه كان يقصد إلى الأحاديث النبوية يستشهد بها ، ويوضح ما بها من لون بلاغي ، وإن لم يسترسل على طريقته الأدبية المعتادة فيبين أسرار الأساليب وآثارها في المعاني ، لكنه قد ينفعل بالجمال البياني فيترك لنفسه العنان كقوله في التشبيه مضمر الأداة كقول النبي ﷺ وقد سئل عن

---

(١) انظر : المثل السائر ٢/٩٧ ، ٩٨

(٢) المرجع السابق ٢/١١٦ ، ١١٧

(٣) المرجع السابق ٢/١٣٨

(٤) المرجع السابق ٢/١٣٩

(٥) المرجع السابق ٢/١٤٥

العزل فقال : «هو الوأد الخفي» وهذا تشبيه بليغ ، والوأد هو ما كانت العرب تفعله في دفن البنات أحياء فجعل العزل في الجماع كالوأد ، إلا أنه خفي ، وذلك أنهم كانوا يفعلون بالبنات ذلك هربا منهن ، وهكذا من يعزل في الجماع فإنما يفعل ذلك هربًا من الولد ، وكذلك قال النبي ﷺ ، هو الوأدة الصغرى «وهذا من الحسن إلى غاية تغض لها العيَن طرفها ، ولا ينتهي الوصف إليها ، فيكون ترك وصفها كوصفها»[1]

التقديم :

ذكر قول النبي ﷺ «وقد سئل عن البحر «هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته» وتقدير الكلام : هو الذي ماؤه طهور ، وميتته حل ، لأن الألف واللام هنا بمعنى الذي[2]

جوامع الكلم :

عالجها بدقة وعمق وموضوعية ، فقد قسمها قسمين :

الأول : ألفاظ تتضمن من المعنى ما لا تتضمن أخواتها ، وليس الغرض فيها الإيجاز وإنما مكانها من الحسن الذي لا نظير له كقوله ﷺ «الآن حمى الوطيس» و «بعثت في نفس الساعة» هذا على سبيل المجاز ، وقد يأتي هذا النوع الآن على سبيل الحقيقة ولم يمثل له .

الثاني : الإيجاز الذي يدل به بالألفاظ القليلة عن المعاني الكثيرة أي أن ألفاظه صلوات الله عليه جامعة للمعاني المقصورة على إيجازها ، ثم يقول وحل كلامه جار هذا المجرى . .[3]

وإذا كان يكتفى بذكر الأحاديث والتنبيه على ما بها من لون بلاغي دون شرح فإنه قد يشرح بإسهاب كقوله في الإيجاز بالتقدير : ومن هذا الضرب ورد

---

(١) انظر : المثل السائر ٢/١٥١ (٢) المرجع السابق ٢/٣٤١

(٣) المرجع السابق ٢/٣٣٦ ، ٣٣٧

عن النبي ﷺ لأبي سلمة عند موته فقال : «اللهم ارفع درجته في المهتدين ، واخلفه في عقبه في الغابرين لنا وله يارب العالمين» وهذا دعاء جامع بين الإيجاز وبين مناسبة الحال التي وقع فيها ، فأوله مفتتح بالمهم الذي يفتقر إليه المدعو له في تلك الحال وهو رفع درجته في الآخره ، وثانيه مردف بالمهم الذي يؤثره المدعو له من صلاح حال عاقبة من بعده في الدنيا ، وثالثه مختتم بالجمع بين الداعي والمدعو له [1]

مع الأحاديث :

وقد يلتفت كلية إلى الحديث النبوي مفتونًا به يذكر بعضه ، ويشرح بعضه وإن كان قد يخطئه التوفيق حين يعقد موازنة بين حديثين ، فبعد أن ذكر الأحاديث : الحلال بين والحرام بين ، وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، الضعيف أمير الركب ، أو سيراً بسير أضعفكم قال «وأحسن من هذا كله ما ورد عنه ﷺ في حديث مطول يتضمن سؤال جبريل عليه السلام ، فقال من جملته : ما الإحسان ؟ قال : «أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك» ، فقوله : تعبد الله كأنك تراه من جوامع الكلم ، لأنه ينوب مناب كلام كثير كأنه قال : تعبد الله مخلصًا في نيتك ، واقفًا عند أدب الطاعة من الخضوع والخشوع آخذًا أهبة الحذر منه ، لأن العبد إذا خدم مولاه ناظراً إليه استقصى في آداب الخدمة بكل ما يجد إليه السبيل وما ينتهي إليه الطوق[2]

وهذا كلام طيب ، ولكن إطلاقه الحكم بالأحسنية والتفضيل لحديث على أحاديث دون اتفاق في المعنى والغاية والموضع ، ودون رجوع في القيم الفنية البلاغية فيها تسرع لا داعي له ، فكل حسن في بابه وعلى مقتضى مقامه .

وتقسيمه هنا لجوامع الكلم فيه سعة وبسط لما أجمله في الجزء الأول عن جوامع الكلم ، بيد أنه وفق هنا في شرح حديثين ذكرهما هنا دون بسط أو إحالة على ماقدم ، والأول حديث رسول الله ﷺ يوم حنين «الآن حمي الوطيس» ،

---

(١) انظر : المثل السائر ٣٣٧/٢

(٢) المرجع السابق ٣٤١/٢

قال ، وهذا لم يسمع من أحد قبل رسول الله ﷺ ، ولو أتينا بمجاز غير ذلك في معناه فقلنا : استعرت الحرب لما كان مؤديا من المعنى ما يؤديه حمى الوطيس ، والفرق بينهما أن الوطيس هو التنور وهو موطن الوقود ومجتمع النار ، وذلك يخيل إلى السامع أن هناك صورة شبيهة لصورته في حميها وتوقدها ، ولذا لا يوجد في قولنا استعرت الحرب أو ما جرى مجراه .

وكذلك قال ﷺ : « بعثت في نفس الساعة » فقوله في نفس الساعة من العبارة العجيبة التي لا يقوم غيرها مقامها لأن المراد بذلك أنه بعث والساعة قريبة منه ، لكن قربها لا يدل على ما دل عليه النبي وذلك أن النفس يدل على أن الساعة منه بحيث يحس بها كما يحس الإنسان بنفس من هو إلى جانبه . .[1]

ولعله أفاد من الرضي الذي سبقه إلى ذلك خاصة الحديث الثاني حين قال « قال : بعثت في وقت أحس فيه بنفسها وقربها كما يحس الإنسان بنفس الإنسان إذا قرب من شخصه ، وسمع مجرى نفسه »[2]

أما الحديث الأول فقد فاته الشريف بتفصيل الجامع بين النار والحرب حين ذكر وجهين : حر مواقع السيف وحمى المعترك لشدة العراك وكثرة الحركات ، والآخر أن الحرب تأكل رجالها كما تأكل النار شعبها ، وتحرق حطبها . .[3]

ولاشك أن إقباله بهذه الروح الأدبية على تحليل الحديث مما يحمد له في البلاغة النبوية . .

الإيجاز بالحذف :

في الاكتفاء بالسبب ذكر الحدث « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليتوضأ » يعني أراد القيام[4]، وفي حذف الكلمة أورد الحديث « فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك » يريد فهلا تزوجت[5].

---

(١) انظر : المثل السائر ٩٧/١

(٢) المجازات النبوية ص ٣٥

(٣) المرجع السابق ص ٤٦ ، ٤٧

(٤) انظر المثل السائر ٢٨٦/٢ .

(٥) المرجع السابق ٢٩٨/٢ .

الكناية :

ذكر في الإرداف منها قول الأعرابية في حديث «أم زرع» في وصف زوجها، له إبل قليلات المسارح، كثيرات المبارك إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك، قال : وغرض الأعرابية أن تصف زوجها بالجود والكرم إلا أنها لم تذكر ذلك باللفظ الصريح : وإنما ذكرته من طريق الكناية على وجه الإرداف الذي هو لازم له . . [1] ولقد أورد كنايات من الحديث النبوي مثل : حكاية النبي ﷺ عن قول المرأة المحتاجة لابن عمها «لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه»[2] وقول النبي ﷺ «رويدك سوقك بالقوارير»[3] لكنه لم يتعرض لبيان أثر الكناية في المعنى أو الأسلوب . .

التعريض :

وهنا نجده يدقق في فهم الحديث، والتماس مناسبات خارجية لتوضيح النوع البلاغي قال «ومن خفي التعريض وغامضه ما ورد في الحديث الشريف وهو أن النبي ﷺ خرج وهو محتضن أحد ابني بنته وهو يقول «والله إنكم لتجبنون وتبخلون وتجهلون، وإنكم من ريحان الله، وإن آخر وطأة وطئها الله بوج»[4] يقول : اعلم إن وجا بالطائف والمراد به غزوة حنين، وحنين واد قبل وج لأن غزوة حنين آخر غزوة أوقع بها رسول الله ﷺ مع المشركين، ثم قال «ووجه عطف هذا الكلام على ما قبله من الحديث هو التأسف على مفارقة أولاده لقرب وفاته، لأن غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان، ووفاته ﷺ كانت في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة، وبينهما سنتان ونصف، فكأنه قال : إنكم من ريحان الله أي من رزقه، وأنا مفارقكم عن قريب، إلا أنه غاير قوله «وأنا مفارقكم عن قريب» بقوله «وإن آخر وطأة وطئها الله بوج» وكان ذلك تعريضًا بما أراده أو قصده من قرب وفاته ﷺ[5] وهذا ـ لاشك ـ من لمحات ابن الأثير النافذة الفريدة . .

---

(١) انظر : المثل السائر ٣/ ٦٠

(٣،٢) المرجع السابق ٣/ ٦٤

(٥،٤) المرجع السابق ٣/٧٤

بعض الهنات :

ويمكن أن نأخذ عليه : عدم الدقة ـ أحيانًا ـ في فهم بعض الأحاديث وقطعها عن مناسباتها وأغراضها كما في « الحكم على المعاني » . .

لم يوفق في معالجة حديث السجع وقد فسرنا ذلك سلفًا ، وكذلك ما سماه بالتوسع في باب « المجاز » وإنما هي الاستعارة بالكناية ، كما لم يوفق في مفاضلته بين أحاديث مختلفة المعاني والأغراض .

إيراده الحديث الواحد ـ أحيانًا ـ أكثر من مرة ، وقد كان المجال الحديثى أمامه واسعًا ، صفوة القول : أن ابن الأثير ـ كبلاغي متخصص فتح الباب لمن جاء بعده على كنز من بلاغة النبوة تثري البلاغة العربية وتزودها بطاقات من الفن الرفيع في ميدان التطبيق ، وقد أتت ـ طريقته ـ أكلها ـ فتأثر به « ابن أبي الإصبع ـ ويحيى العلوي » في هذا الاتجاه الأدبي الثري .

ب ـ ابن أبي الإصبع

التعريف به

هو الإمام الأديب : أبو محمد عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله المعروف بابن أبي الإصبع ، الشاعر المصري المشهور المتوفى بمصر في الثالث عشر من شهر شوال ٦٥٤ هـ ، بعد أن نيف على الستين ، فقد ألف كتابا في البديع على حده ـ سماه ـ البديع في صناعة الشعر ، وقد عرف هذا الكتاب باسم تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن الكريم ، وحققه وقدم له الدكتور حفني شرف القاهرة عام ١٣٨٣هـ ، وقد ألفه « ابن أبي الإصبع » ليدرس فيه الألوان البلاغية التي وجدت في عصره ، ويستشهد لها بالمنظوم والمأثور ، ليثبت ـ من ذلك ـ إعجاز القرآن الذي هو الغاية من الدراسة البلاغية ، ولم يقف على آراء السابقين ، وشواهدهم ، وتعديد ألوان البديع عندهم ، بل اعتمد على النقد والفحص ، وأضاف إلى الألوان ـ من عنده

- ثلاثين - سلم له منها عشرون ، وقد جعل الكتاب : من : ثلاثين لونا من أصول الأبواب في البديع ، سردها ، ثم أضاف إليها ستين من الفروع ، ثم ألحق بها ما اخترعه ، فصارت عدة أبواب الكتاب مائة وعشرين بابا[1].

منهجه وأسلوب تأليفه :

كان لثقافته الواسعة ، وذوقه الصافي ، وشاعريته العالية أثر كبير في أسلوبه في التأليف لذا كان بعيدًا عن التعقيد ،لا يميل إلى حوشى الكلام ولا إلى التكلف تغلب عليه السهولة والرقة والانسجام بوجه عام ، وكان يحسن اختيار الشواهد ويحللها حتى يضع القارئ على موطن الجمال فيها مع ميل إلى الاستقصاء في خفايا التعبير ، والوقوف على نكاته البلاغية ، والعناية بالجانب التطبيقي ، جامعًا بين قضايا البلاغة والنقد الأدبي[2].

والحق أنه يمثل مع غيره - كابن الأثير - اتجاهًا أدبيًا صافيًا يميل كثيرًا إلى الدراسة التطبيقية البعيدة عن الفلسفة التجريدية ، لقد اعتمد على ابن الأثير في اتجاهه الأدبي العام الذي يعنى بالاتجاه الوجداني ولا يعنى بالتعريفات عنايته بالشواهد والإكثار منها وتحليلها بالذوق الأدبي وحاسة الجمال[3]، إلا أنه أنشأ اتجاهًا مصريًا ، يأخذ من الاتجاه العقلي تحديد الأنواع وتعريفاتها ، ومن غير مغالاة ، كما يأخذ من الاتجاه الوجداني العاطفي الإكثار من الشواهد القرآنية والشعرية والنثرية ، وتحليلها تطبيقيًا بما يربي الذوق وينمي العاطفة ويرهف الحس ، ويوقف على أماكن الجمال ، وبذلك لم يهمل هذا الاتجاه العقلي وقوى جانب العاطفة والذوق[4].

---

(١) انظر في هذا : علوم البلاغة ، المراغي ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، الجمع البديعي في اللغة العربية دكتور أحمد موسى ص ٢٧٦-٢٨٠ ومقدمة تحرير التحبير دكتور حفني شرف ص٥٤ ، ٥٥

(٢) انظر : ابن أبي الإصبع المصري بين علماء البلاغة دكتور حفني شرف ص ٣٥٣ ، مقدمة تحرير التحبير ص ٣٤٥

(٣) انظر : ابن أبي الإصبع المصري بين علماء البلاغة ص ٤٧٠-٤٧٣

(٤) انظر : مقدمة تحرير التحبير ص ٣٤٠ ، ابن أبي الإصبع المصري ص ٣٧٣

منهجه في معالجة بيان النبوة :

الواقع أنه لم يلتزم منهجًا واضحًا يسير عليه إزاء الحديث النبوي ، ويمكننا أن نبين موقفه من معالجة الحديث النبوي في كتابه الكبير .

الاستشهاد بالحديث :

في قسم كبير يشفع اللون البديعي بالأثر النبوي ــ وغالبًا ما يقول : ومن أمثلة ـ كذا ـ في السنة النبوية ـ أو في السنة ، أو جاء منه في السنة ما لا يحصى كثرة[1] وقد مثل لكثير من ألوانه البديعية من البيان الكريم كالاستعارة والتجنيس بأنواعه ، والطباق ، والتصدير ، والتتميم في الحشو والكناية والمبالغة ، وصحة التقسيم ، والتمثيل ، والإشارة ، والإرداف والاحتراس ، والموازبة والمغايرة والتعليل ، والتوشيع ، والتلفيف ، والتوهيم ، والمناسبة اللفظية والمعنوية والتامة والناقصة ، والتذييل ، والانسجام ، وسلامة الاختراع من الاتباع ، وحسن الاتباع ، والالتزام ، والبسط ، والتهكم ، والفرائد ، والسلب والإيجاب .

وفي استشهاده ، لم يسر على وتيرة واحدة فقد يذكر حديثًا واحدًا ـ يحلله بدقة واقتدار كقوله «ومن أمثلة الاستعارة في السنة النبوية قوله عليه الصلاة والسلام «ضعوا مواشيكم ، حتى تذهب فحمة العشاء» فاستعار ﷺ للعشاء الفحمة لقصد حسن البيان ، لأن الفحمة هاهنا أظهر للحسن من الظلمة ، فإن الظلمة تدرك بحاسة البصر فقط ، والفحمة تدرك بحاستي البصر واللمس لأنها جسم ، والظلمة عرض ، فكأن ذكرها أعني الفحمة أحسن بيانا من ذكر الظلمة»[2]

وكقوله عن المبالغة وقد جاء منها في سنة الرسول ﷺ ما لا يحصى كثرة ولا يلحق بلاغة ، كقوله عليه السلام مخبرًا عن ربه سبحانه «كل عمل ابن آدم له إلا

---

(١) انظر : تحرير التحبير ٩٩/١ ، ١٢٨ ، ١٥٣ .

(٢) المرجع السابق ٩٩/١-١٠٠

الصوم فإنه لي وأنا أجزي به» وقوله في بقية هذا الحديث، «والذي نفسي محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» ففي هذا الحديث مبالغتان ، إحداهما : كون الحق سبحانه أضاف الصيام إلى نفسه دون سائر الأعمال لقصد المبالغة في تعظيمه وتشريفه ، ثم يذكر بعد تقرير ذلك المبالغة الثانية وهي إخبار الرسول ﷺ : بعد تقديم القسم لتأكيد الخبر بأن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، ففضل تغيير فم الصائم بالإمساك عن الطعام والشراب على ريح المسك الذي هو أطيب الطيب ـ على مقتضى ما يفهم من ريح المسك ـ وريح تغير فم الصائم ، وأتى المعنى بصيغة «أفعل» للمبالغة ـ فجمع في هذا الكلام بين قسمي المبالغة المجازي والحقيقي»[1].

ونلاحظ هنا :

أنه خلط بين الحديث القدسي ، والنبوي ، إذ الأول ـ من عند الله لفظا ومعنى ، ولا ينسب إلى النبي ﷺ ـ إلا من حيث إنه ناطقه ، كما نلاحظ أنه أشار بقوله «قسمي المبالغة المجازي والحقيقي». إلى المعروف من أن المبالغة منها : استعمال اللفظ في غير ما وضع له مجازًا أو كناية ، أو ما وضع له ولكن ألحق بغيره مبالغة كالتشبيه[2].

وكذا اهتمامه بالتحليل الأدبي وأثر اللون البديعي في الأسلوب وأسرار التعابير في دقة وذكاء . .

وقد يذكر حديثًا أو أكثر نبه فيه على اللون دون بيان أثره البلاغي ، أو يشفعه بما يدل على تأثره به ، وانفعاله نقدًا ذاتيًا لا يعني في الحكم على النص الأدبي فالأول كقوله عند التتميم في الحشو ، ومن هذا القسم قول الرسول ﷺ «ما من عبد مسلم يصلي ـ لله ـ اثنتى عشر ركعة ـ من غير

(١) انظر : تحرير التحبير ١/١٥٣

(٢) انظر : الطراز للعلوى ٣/١٢٢-١٢٤

الفريضة ـ إلا بنى الله له بيتًا في الجنة» ، أوقع التتميم هنا في هـذا الحـديث في أربعة مواضع منه قوله ـ مسلم ـ وقوله كل يوم ـ وقولـه مـن غـير الفريضـة»[1] والثاني كقوله في التوشيع : «وقد جاء من ذلك في السنة مـا لا يلحـق بلاغـة ـ هو قوله ﷺ «يشب ابن آدم ويشب معه خصلتان : الحرص وطول الأمل»[2]

وكقوله في «الانسجام» بعد أن ذكر حديث القرآن «فانظر إلى انسجام هذه العبارة ، وما جاء فيها من بديع غير مقصود ، وتشهد الخواطر السليمة أنه كلام مسترسل غير معكر ، فصلوات الله وسلامه عليه بُعث بجوامع الكلم ، وأوتي الفصاحة الرائقة ـ وعلى آله وصحبه وسلم»[3]

وقوله في باب الفرائد في الحديث «استذكروا القرآن فإنه أشد تفصيًا من صدور الرجال من النعم من عقلها» فالمح لفظتي استذكروا وتفصيا ، لـترى ما يذهل عقل السامع فصاحة وروعة جزالة وحلاوة ، وكذلك قوله ﷺ : «إذا ذكر الصالحون فحى هلا بعمر» فإن لفظة حي وهلا من الفرائد العجيبة وفيها من الفصاحة ما يعجز عن مثله كل[4] فصيح وقد يجمع بين أكثر من حديثين بين اللون البلاغي دون شرح له ولأثره ، كما في التجنيس فقد ذكر الأحاديث «عصية عصت الله ورسوله وغفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله» و «الظلم ظلمات يوم لقيامة»و «أسلم تسلم»[5] وفي سلامة الاختراع من الاتباع ذكر أحاديث النبي ﷺ «حمى الوطيس» ـ و «مات حتف أنفه» و «لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين» ـ و«السعيد من وعظ بغيره» وعقب بقوله «في أشياء كثيرة مما اخترعه النبي ﷺ ولم يتبع فيه إلى الآن»[6]

وقد نراه يذكر جملة من الأحاديث يحلل بعضها بطريقته الأدبية الفذة ويترك الباقي عطلاً كما في باب التمثيل ، فقد شرح باستقصاء قول الرسول ﷺ حكاية

---

(1) تحرير التحبير ١/١٢٨
(2) المرجع السابق ٣/٤٢٩-٤٣٢
(3) المرجع السابق ٣/ ٣١٦
(4) المرجع السابق ٤/٥٧٨
(5) المرجع السابق ١/١٠٤-١٠٥
(6) المرجع السابق ٣/٤٧٤

عن بعض النسوة في حديث أم زرع : زوجي ليل تهامة لا حر ولا برد ، ولا وخامة ولا سآمة ، ثم يقول ـ وما جاء من ذلك في السنة قوله ﷺ « الحلال بين والحرام بين» وقوله ﷺ «لا ضرر ولا ضرار» وقوله ﷺ « خير الأمور أوسطها» وكقوله ﷺ «المؤمنون تتكافأ دماؤهم» ثم يشير من طرف خفي إلى مصدره فيقول «وقد طوى كتاب» أبي أحمد العسكري رحمه الله تعالى من هذا الباب على بدائع من جوامع الكلم التي لا يشق غبارها ، ولا يقتحم تبارها فمن أراد ذلك فعليه به[1].

موازنة فنية :

قال « من أمثلة المناسبتين الناقصة والتامة الشعرية ، قول أبي تمام

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس   قنا الخط إلا أن تلك ذوابل

فناسب حبيب بين « مها » و « قنا » ، مناسبة تامة ، وبين الوحش و « الخط » و « أوانس »و« ذوابل» مناسبة غير تامة ، وهذا البيت من أفضل بيوت المناسبة ، لما انضم إليها فيه من المحاسن.... ثم قال ويقرب من هذا البيت قول البحتري :

فأحجم لما لم يجد فيك مطعما   وأقدم لما لم يجد عنك مهربا

وبعد أن بين المناسبة فيه ووازن بينه وبين بيت أبي تمام يقول : «وإذا رفت ما بين البيتين بما قدمت من كلام الرسول ﷺ ، يعني الحديث « اللهم إني أسألك رحمة تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتلم بها شعثي ، وتصلح بها غائبي وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي . . الحديث» . .

سقطا دون كل جملة منه إذ كل جملة فيه يلي بعضها بعضا ، ومفردات الألفاظ تسير إلى معاني شتى ، وإلا فانظر إلى قوله ﷺ : « تهدي بها قلبي» وما يحصل بها من منافع الدنيا والآخرة ، ويتوقى من مضار الدنيا والآخرة بهداية القلب ، وإلى قوله « وتجمع بها أمري» وما يكون من اجتماع الأمر من

---

(١) تحرير التحبير ٢١٨/١

عدم التذبذب في كل شيء ، وحصول التثبيت ، وإلى قوله ﷺ « وتصلح بها غائبي » وما تشير هذه الجملة إليه من إصلاح الباطن ، وما يكون في ذلك من الإخلاص ، وكذلك قوله « وترفع بها شاهدي » فإن من أصلح الله سبحانه باطنه ، أصلح الله ـ سبحانه ـ ظاهره ، وما وقع في ضمن هاتين الجملتين ـ مع المناسبة ـ من المطابقة بين غائبي وشاهدي .

وبذلك فاعتبر بقية الدعاء ، ثم يمضي في تحليل باقي الحديث على هذه الوتيرة إلى أن يقول « فالحظ بدقيق النظر ما اشتملت عليه الألفاظ من المعاني تجدها لا تدخل تحت الإحصاء ، إلى سلاسة هذا النظم ، وعذوبة هذا اللفظ ، وعلوه مع كونه مستعملاً ، معروفا وفصاحته ـ على كونه متداولا مألوفا ، ووضح معانيه ، وحسن البيان فيه ، بحيث لا يفتقر أحد إلى السؤال عن لفظ فيه قد استوى في فهمه الذكي ، والبليد ، والقريب من العلم والبعيد ، وما فيه من الماء ، والديباجة التي لا توفي العبارة بها ، ولا يقدر البليغ على أن يصفها وهذا أمر يدركه كل ذي ذوق سليم ، وذهن مستقيم »[1] ونلاحظ هنا أن الموازنة شملت جانب اللفظ والمعنى بالخفة والعذوبة ، والانسجام في الأول وبأنه محكم من جوامع الكلم ، يثير إيحاءات شتى ، ومعاني متولدة مفيدة في الثاني .

موازنة غير معللة :

« وقد يضع النصوص الأدبية نبوية وشعرية ثم يحكم دون تحليل ، أو تعليل ولعله يريد أن يقف القارئ بنفسه على الجمال الفني ليخرج بما أصدر المؤلف من حكم ، ثم نرى لديه تتبع المعنى الأدبي عند الشعراء وجعلهم جانبا والقرآن والسنة الجانب الآخر ، فقد مثل في « حسن الاتباع » بقول النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

(١) تحرير التحبير ٣٦٩-٣٧١

وقول الأخطل :

وإن أمير المؤمنين وفعله كالدهر لا عار بما صنع الدهر

وقول علي بن جبلة :

وما لامرئ حاولته عنك مهرب ولو رفعته في السماء المطامع

بل هارب لا يهتدي لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

وقول : سلم الخاسر :

فأنت كالدهر مبثوثًا حبائله والدهر لا ملجأ منه ولا هرب

ولو ملكت عنان الريح أصرفها في كل ناحية ما فاتك الطلب

والبحتري :

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجيهم من خوف بأسك مهرب

وكل هذه المعاني متلاشية في جنب قول الله تعالى :

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ (الرحمن:٣٣) وقد جاء من ذلك في السنة المحمدية قول رسول الله ﷺ : «نصرت بالرعب»، «وجعل رزقي تحت ظل رمحي» «وليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل»[(١)]

وقد يتتبع المعنى حتى يرده إلى نبعه الأصيل كأن يقول في قول الشاعر

أقول وقد ستروا لساني بنمه أطلقوا من لسانها

وكل هذا من قول رسول الله ﷺ وقد لمح العباس بن سردا

أتجعل نهبي وتهب العبيد . .

فقال : يا اقطع لسانه عني «فأخذ علي بيده فأخرجه فقال : أقاطع لساني يا أبا الحسن» فقال «إني لمحصد فيك ما أمر» وكل هذا من قوله تعالى : ﴿ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:١٧٥)[(٢)]

---

(١) تحرير التحبير ٤٨٦/١ ، ٤٨٧

(٢) المرجع السابق ٢٠٦/١

والحق أن الموازنات الفنية بين كلام النبي ﷺ وكلام سواه لا تكثر عنده ، وكذلك أثر الحديث في بيان الشعراء ، والحق أيضا أنه باب خصب يعود على الأدب بالخير .

عناية خاصة :

كان يقصد إلى الحديث ـ أحيانا ـ منفعلاً به ، مشدودًا إليه بقوة الذوق في أعماق الشاعر ، فكان يذكر اللون البديعي مقتصرا على الاستشهاد من القرآن والحديث كما فعل في التلفيف فقد عرفه ومثل من القرآن ثم من الحديث بقول الرسول ﷺ وقد سئل عن البحر هل تجوز بمائه الطهارة فقال «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»[1]

كل ما سبق يوضح جهوده في إيجاد اتجاه أدبي مصري أثـرى البلاغة والأدب ، بعميق التحليلات ، وفاحص النظرات وعزيز الاستشهادات بالحديث الشريف مع إيضاح لخصائصه البيانية ، واستشفاف لمراميه التركيبية ، ونهل من ورد البلاغة النبوية الفياض .

العلوي : ٧٤١هـ

التعريف به :

هو : أمير المؤمنين : يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي السني أمير المؤمنين ببلاد اليمن من سنة ٧٢٩هـ إلى سنة ٧٤٩هـ

له كتاب :«الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز» مع كتب أخرى تشهد بغزارة علمه ، وعمق ثقافته ، مات سنة تسع وأربعين وسبعمائة[2] .

---

(١) انظر : تحرير التحبير ٢/٣٤٣

(٢) انظر : تاريخ علوم البلاغة ، المراغى ص ١٣٨

منهجه في البلاغة النبوية :

لعله امتاز ـ من بين أصحاب الاتجاه الأدبي ـ بالاعتماد على الحديث كمصدر هام بعد القرآن الكريم ، ثم هو ـ في الأغلب ـ مفتون بالتحليل والكشف عن معالم الصور التركيبية والبيانية في الأساليب النبوية ، بل كان يعقد فصولا خاصة للاستشهاد بالحديث ، مع روح أدبية عالية ، وعقلية علمية قادرة على الاستنباط والتبسيط .

وإذا كان الباحث لا يماري في أنه استلب كثيرا مما ذكره ابن الأثير في تقسيماته ، وتعليلاته ، وأحاديثه ، فإنه لا يماري كذلك في أنه لم يقتصر على ذلك ، بل برع في جمع المتماثلات من الأحاديث في الأبواب المختلفة والتعرض لأحاديث لم يعرض لها كثير من البلاغيين ، مع إفاضة مبتكرة في الشرح والبيان . .

الموضوعات التي شفعها بأحاديث

الجزالة والرقة : بمعنى مناسبة الألفاظ لمعانيها ، وأغراضها وإن كان مسبوقًا بابن الأثير فقد حشد كثيرًا من الأحاديث، فيها من مواعظ وحكم وأدعية نبوية .[1]

الفصاحة : أفضى إلى الحديث فأفاض فيه ، ولنلتقط مثالاً لبيان طريقته : في الخطب والمواعظ : قال ﷺ : «لا تكونوا ممن اختدعته العاجلة وغرته الأمنية ، واستهوته الخدعة ، فركن إلى دار سريعة الزوال ، وشيكة الانتقال ، إنه لم يبق من دنياكم هذه في جنب معنى إلا كإناخة راكب أو صر حالب ، فعلام تفرحون ، وماذا تنتظرون ، فكأنكم بما قد أصبحتم فيه من الدنيا لم يكن ، وبما تصيرون إليه من الآخرة لم يزل ، فخذوا الأهبة ، وأعدوا الزاد لقرب الرحلة ، واعلموا أن كل امرئ على ما قدم قادم ، وعلى ما خلف نادم . .»

---

(١) انظر : الطراز ١/١١٧ ، ١١٨

فليعمل الناظر نظره في هذا الكلام ، فما أسمى ألفاظه على الألسنة وما أوقع معانيه في الأفئدة ، وما احتوى عليه من التنبيه البالغ ، والوعظ الزاجر والنصيحة النافعة : فصدره بالتحذير أولاً عما يعرض من مصائب الدنيا من الانخداع والغرور والاستهواء ، وعقبه ثانيا بالتحذير من الركون إلى الدنيا ونبه بألطف عبارة وأوجزها على زوالها وانقطاعها ، وأردفه ثالثا بالحث على عمل الآخرة وأخذ الأهبة للزاد ، ونبه على سرعة زوالها وانقطاعها ، وختمه بتحقيق الحال في الإقدام على ما فعله من خير وشر ، وأنه نادم لا محالة على ما خلقه من الدنيا وأنه غيرنافع ولا مجد ، ومن عجيب أمره أنه مع إغراقه في البلاغة فإنه قد اشتمل على أنواع أربعة من علم البديع :

أولها : السجع في قوله ﷺ : «العاجلة والأمنية والخدعة والزوال والانتقال»

وثانيها : التجنيس في قوله ﷺ : «كإناخة راكب وصر حالب»

وثالثها : الاشتقاق في قوله : «كل امرئ على ما قدم قادم»، ومنه قوله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ .

ورابعها : الائتلاف ، وهو أن تكون الألفاظ لائقة بالمقصود . . فحيث كان المعنى فخما فإن اللفظ يكون جزلا ، كقوله : «لا تكونوا ممن اختدعته العاجلة ، وغرته الأمنية ، واستهوته الخدعة» وإن كان المعنى رشيقا كان اللفظ رقيقًا ، كقوله ﷺ : «فكأنكم بما قد أصبحتم فيه من الدنيا لم يكن ، وما تصيرون إليه من الآخرة لم يزل»[1]

ونلاحظ هنا :

١- الطريقة الأدبية المسترسلة بتحليل النص والانفعال به ، وربطه بأغراضه وبيان أفكاره ، ومدى التسلسل بينهما .

٢- التنبيه على الألوان البلاغية كالإيجاز وما ذكره من بديع .

٣- جعله الائتلاف كالانسجام عند «ابن أبي الإصبع» بمعنى ارتباط الألفاظ بمعناها عند «ابن الأثير» وهو جانب هام في صدق الأديب في التعبير عن معانيه .

---

(١) انظر : الطراز ١/١٥٨-١٦٢

الاستعارة :

ذكر بعض أحاديث «ابن الأثير» كالحديث «اكثروا من ذكر هـازم اللـذات» والحديث «لا تستضيئوا بنـار المشـركين» مـع الشـرح نفسـه ، أو مـا يماثلـه ، وكثير من الأحاديث سبقه إليها الشريف الرضي . .[1] ولم يسلم لـه إلا حـديث واحـد قولـه ﷺ «ماذئبـان ضـاريان في زريبـة أحـدكم بأسـرع مـن الحسـد في حسنات المؤمن» قال : فاستعار الذئبين في إفساد الغنم بمفرداتهما لما يحصـل من عقوبة الحسد ، في إحبـاط الحسـنات المسـتحقة علـى الأعمـال الصـالحة : يريد أن إسراعه في الإحباط بمنزلـة إسـراع هـذين الـذئبين فـي إهـلاك الغـنم وقتلها ،[2] وواضح أن الحديث من التشبيه لذكر الطرفين فيه . .

التشبيه :

وقع التشبيه بجمع من الأحاديث ، ذكرها في ثمرة التشبيه ، وأقسامه من مفرد ومركب ومرسل ومضمر ، بل عقد فصلاً كاملاً للتشبيه من الأخبار النبوية أدارها على التشبيه المفرد والمركب ، وتقدير الأداة ـ وخفاء تقديرها وفي رعاية وجه الشبه ، يحلل بعضها ، ويومئ إلى التشبيه في بعضها ، ويترك البعض ثقة بالقارئ ، كل ذلك ببراعة منقطعة النظير .[3]

ونورد هذا النموذج في خفاء التقدير لأداة التشبيه ، قال : ومن هذا قوله ﷺ : «ما سكن حب الدنيا قلب عبد إلا التاط منها بثلاث شغل لا ينفك عناؤه ، وفقر لا يدرك غناؤه ، وأمل لا ينال منتهاه» ، فانظر إلى ما اشتمل عليه هذا الكلام من بالغ الحكمة ، وعظيم الزجر ، ونافع الوعظ ، وقدرته على تقرير التشبيه فيه بنوع احتيال ولطف ، كأنه قال : إذا تمكن حب الدنيا من قلب العبد ،

---

(١) انظر : المجازات النبوية ص ١٥٢ ، والطراز ١/٢١٤ وما بعدها

(٢) الطراز ١/٢١٥

(٣) المرجع السابق : الصفحات : ١/٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ١٨١، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠- ٢٩٤ ، ٣١٣-٣١٦ ، ١/ ٣٣٠-٣٣٣ ، ٣٥٦-٣٥٨ ، الجزء الأول .

فكأنه كالحال الساكن فيه ، ثم إذا كان ساكنًا فيه فهذه الخصال الثلاث كالمعتادة الملتاطة لعظم شغفهم بها ، وتمكنها من سويداء قلوبهم .[1]

والواقع أن الحديث لا تشبيه فيه بل به استعارتان : مكنية في قوله : مكن حب الدنيا قلب عبد ، وتبعية في الفعل التاط : حيث صور قوة التأثير بالالتياط والاختلاط مبالغة في أثر هذه الصفات وتمكنها من القلب ، وفي القاموس المحيط : التاط بقلبه لصق واللويطة طعام اختلط بعضه ببعض .[2]

ولا يخفى نقله كثيراً عن «ابن الأثير» كالحديث : «العزل هو الوأد الخفى» فقد نقل نفس التعليق لابن الأثير فقال «وعبر عنه بهذه العبارة التي تغض لها العيون طرفها ، ولا ينتهى الوصف إليها ، فيكون ترك وصفها كوصفها».[3]

ونلاحظ : اضطرابه في أمرين : أولا : مثل بالحديث «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب . .» الحديث في التشبيه المفرد ، ثم مثل به في التشبيه المركب ، قائلاً : وسائر تلك الأحاديث التي أسلفناها تمثيل للمفرد ـ صالحة للتمثيل للمركب بالمركب في شيئين بشيئين ، فإن كانت الإضافة إلى الموصوف فقط فهو من باب المفرد بالمفرد وإن كان بالإضافة إلى الموصوف صفته ، فهو من باب المركب بالمركب ، والأمر فيه قريب[4] . ولعله يقصد إلى الطرفين أما الوجه فقد قصد فيه إلى التركيب بين المظهر والمخبر وبين الرائحة والطعم ، فالوجه مركب من شيئين أما القول بقطع الصفة عن الموصوف فنظرة جزئية لا تستقيم .

ثانيا : قال : أما التشبيهات الواردة في القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، فإنها كلها قريبة ، وما ذاك إلا لأنها أدخل في تحقيق ، وأقرب إلى التيقن مما لا يكاد يقع ، فلهذه كانت مختصة بهما [5]، والقرب المزعوم ضرب من الادعاء لا يقوم

---

(١) الطراز ١/١٣٣
(٢) القاموس المحيط ٢/٣٩٨
(٣) الطراز ١/٢٣٩-٢٩٤
(٤) المرجع السابق ١/٢٩٠
(٥) المرجع السابق ١/٢٨١

على أساس ، ذلك أن من دواعي الغرابة ، والاستظراف ليس تحقق الصورة ، أو عدمه ، وإنما كما يقول الإمام عبد القاهر «إنك ترى الشيئين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض ، وفي خلقة الإنسان ، وخلال الروض ، ويقول أيضًا : فسواء في إثارة التعجب ، وإخراجك إلى روعة المستغرب ، وجودك الشيء في مكان ليس من أمكنته ووجود شيء لم يوجد ولم يعرف من أصله في ذاته وصفته»[1] وسنجد في فصل التشبيه ، كيف دق المسلك إلى المشابهات الخفية ، والعلاقات الغامضة والصور الطريفة وكيف عبر التشبيه النبوي عن متخيل غير ماثل ، وعن متوهم غير مظنون كجعله البيان سحرا ، والشياطين حذفًا ، صغار الغنم السود ، والفتى مثل الشراك ، بل العلوي نفسه ذكر من هذا البعيد الغريب كقول الرسول ﷺ «البدعة شرك الشرك»[2] ونضيف هنا أنه مع تمكنه من الأحاديث ينسبها إلى رواتها ـ أحيانًا ـ بدقة ، ومهارة ، كان يذكر حديثا خاصًا بأهل البيت ـ عليهم السلام ـ صحيح المعنى ولكن نسبته إلى الرسول ﷺ مشكوك فيها كالحديث «مثل أهل بيتي كسفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق وهوى»[3] ذلك لأنه من الشيعة ويهم الباحث هنا توثيق الحديث المثير للأوهام .

التمثيل : مثل ـ ولم يشرح

التقديم : مثل بحديث «ابن الأثير»

الإبهام والتفسير : بقسميه ، وقد اجتمع في تعليله وبيانه النقد الذاتي مع تحليله الموضوعي ، بيد أنه كان يكثر أحيانًا من الأحكام العامة كقوله حين علق على الحديث «عش ما شئت ، فإنك ميت ، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك ملاقيه» فهذا الإبهام إذا نظر فيه حاذق بصير ،

---

(١) أسرار البلاغة :١٠١ ، ١٠٢

(٢) الطراز ١٩٦١٣

(٣) المرجع السابق ٣٣٥/١

وفكر فيه ألمعي نحرير وجده قد حاز من البلاغة مشتملا على معان جمة ونكت غزيرة ، ومواعظ زاجرة على تقارب أطرافه ، وكثرة محاسنه وأوصافه[1] ثم استدار إلى البلاغة النبوية يورد الأحاديث تارة ، يشرح ببيان مبين ، وتارة يسرد ، وقد أوفى على الغاية دقة ، وعمقًا ووصفًا ، وأدبا ، ثم عقب هنا كتعقيبه في باب المجاز بقوله «وهذا باب واسع الخطو في القرآن ، والسنة النبوية فإن أمرها مبني على البلاغة ، ولهذا الباب موقع عظيم في الدلالة عليها»[2]

ونلاحظ أن القسم الثاني من الإبهام هو نفسه التوشيع الذي ذكره في البديع كالحديث «ألا أنبئكم بأمرين خفيفة مؤنتهما ، عظيم أجرهما ، لن يلق الله بمثلهما ثم قال : بعد ذلك تفسيرًا لهما : الصمت ، وحسن الخلق»[3].

فهنا مثنى فسر بمعطوف ومعطوف عليه كالتوشيع[4]

الإيجاز وجوامع الكلم :

تأثر بابن الأثير في أمثلته ، وتقسيماته ، وفي مواضع الاستشهاد من السنة غالبًا مع عدم الالتزام بشرح ما يذكر من أحاديث ، ونأخذ عليه أنه أورد حديثًا فيه شك وهو : «المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، وعودوا كل جسم ما اعتاد» قال : فهذه الألفاظ الثلاثة قد جمعت من المعاني الحكيمة والأسرار الطبية مالا يحيط بوصفه إلا الله[5]، وهو من كلام الحارث بن كلدة وقال العراقي : لم أجد له أصلا ، وقال الشيباني : «لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ»[6].

---

(١) الطراز ٣/٢

(٢) المرجع السابق ٢/٨٣-٨٧

(٣) المرجع السابق ٢٠/٨٧

(٤) المرجع السابق ٣/٨٩

(٥) المرجع السابق ٢/١٢٨

(٦) تمييز الطيب من الخبيث ، عبد الرحمن الشيبانى الشافعى ١٥٢

التكرير الفائق :

تبع «ابن الأثير» في حديث يوسف بن يعقوب «وجعله من التكرير وقد ذكره البلاغيون في باب : الاطراد»[1].

الإطناب :

أورد ما أورد ابن الأثير ، وأضاف كثيرًا من الأحاديث شرحها بإفاضة .

المبادئ والافتتاحات :

أورد خطبة الحاجة عن عبد الله بن عمر ، ونقلها باسترسال ثم نقل دعاء النبي ﷺ «لأبي سلمة» بما لا يخرج عما ذكره «ابن الأثير» ثم قال : ومن أنس بالأحاديث النبوية ، وكان له مطالعة لها ، فإنه يجد فيها ما يكفي ويشفي[2].

الاستدراج :

نقل عن «ابن هشام» في سيرته كتابًا للنبي ﷺ إلى أخبار اليهود ثم أشبعه تحليلاً في خمس صفحات كاملة ، ذكاء ، واقتدارًا وافتنانًا[3].

الاقتصاد :

سار على نهج «ابن الأثير» في مصطلحاته ، الاقتصاد ، والإفراط والتفريط ، وفي شرحه أيضا ، وختمها بقوله «فليتأمل المتأمل في كلامه ﷺ من الاقتصاد في الوعظ ، وفي وصف المحبة والبغض ، وغير ذلك من كلامه ، فإنه لا مرية في كونه سالكًا فيها طريقة القصد ، وناهجًا منهج العدل ، لا يغلو فيفرط ، ولا يحيف فيفرط»[4].

---

(١) انظر : الطراز ١٨١/٢

(٢) المرجع السابق ٢٧١/٢

(٣) المرجع السابق ٢٨٨/٢-٢٩١

(٤) المرجع السابق ٣٠٤/٢

الإرصاد :

عرفه ، وذكر عديدًا من الأحاديث نذكر منها واحدًا حتى تكتمل الفكرة عن منهجه : قال رسول الله ﷺ «فما بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار» فإن السامع إذا وقف على قوله «فما بعد الدنيا من دار» فإنه يتحقق لا محالة أن ما بعده إلا الجنة والنار لما بينهما من شدة الملائمة وعظيم المناسبة[1]، وعلى هذه السبيل يسير في التخلص والاقتضاب ، والتوشيع والتجنيس ، ويمثل لبعضه والطباق والمقابلة ، واللف والنشر وبرده ـ على الحقيقة إلى الجمع والتفريق[2] ويذكر الحديث : «إنما يؤتى الناس يوم القيامة من إحدى ثلاث إما من شبهة في الدين ارتكبوها ، أو شهوة للذة أثروها ، أو عصبية أعملوها فإذا لاحت لكم شبهة فأجلوها باليقين ، وإذا عرضت لكم شهوة فأقمعوها بالزهد ، وإذا عنت لكم عصبية فادرأوها بالعفو»[3] ونلاحظ هنا كيف اختلط عنده التفسير بعد الإبهام مع اللف والنشر ، والجمع والتفريق على ما بيناه في علم البديع .

التخييل :

جعله من البديع ، وذكر تعريفين له للسابقين ثم عرفه هو بقوله «أن يقال : هو اللفظ الدال بظاهره على معنى ، والمراد غيره على جهة التصوير ، وقوله : على جهة التصوير ، يحترز به عن سائر المجازات كلها»[4]

والواقع أن تعريفه تعريف لتخريج عديد من الأحاديث المشكلة الخاصة بالله تعالى وصفاته ، مما ارتضاه بعض النقاد المحدثين على ما فصلناه في «المشكل» ثم ذكر الألوان : الاستطراد ، التشجيع ، الموازنة ، التلميح ومثل لها من السنة ، ومع هذا الحب القوي للبيان النبوي المتمثل في الإقبال على نبعه ، والتقاط شوارده ، بحس صادق ، وتتبع فذ لم يمثل لبعض ألوان بلاغية أكثرها بديعى كرد العجز على الصدر ، والتوضيح ، والتتميم ، والاستيعاب والإكمال والتذييل ، والتفسير ، والمبالغة ، والإيغال ، والتفريع ، والتوجيه ، والائتلاف والإدماج ، والتعليق .

---

(١) الطراز ٢/٣٢٤، ٣٢٥

(٢) المرجع السابق ٢/٢٦٤-٢٦٦

(٣) المرجع السابق ٣/٤٠٤-٤٠٦

(٤) المرجع السابق ٣/٤-٦

الموازنة بين القرآن والحديث :

سار على فكرة الموازنة البيانية بين القرآن الكريم والسنة المطهرة في غرض واحد ، وكانت النتيجة معلومة مؤكدة مقدما[1]، وهي فكرة سار عليها الأستاذ مصطفى الزرقا في مجلة «لواء الاسلام»[2] والدكتور البيومي في رسالته «سيدنا محمد في إبداعه الأدبي»[3] والأستاذ محمد الصباغ في كتابه «الحديث النبوي»[4] وأعتقد أن هذه الموازنات لبيان حقيقة هامة هي اختلاف مصدر القرآن الكريم عن مصدر السنة بتفاوتهما عرضا ، ومنهجًا وإعجازًا بيانيًا وإلا فإن الموازنة البيانية الأسلوبية هنا تزجية فراغ ، ذلك أنه إذا جاز لنا أن نوازن بين الخالق والمخلوق ـ أستغفر الله ـ جاز لنا أن نوازن بين كلامه تعالى وكلام النبي ﷺ وغيره من صفوة البشر ، إن الأسلوب القرآني ـ بما له من سمات خاصة ـ نسيج وحده ، يسبق كل حديث ، وما مثله ومثل غيره إلا كما يقول الدكتور عبد الله دراز ـ رحمه الله ـ في النبأ العظيم : «نحن نرى الأسلوب القرآني فنراه ضربًا وحده تجري محلقات الطير في جو السماء ، لا نستطيع إليها صعودًا ، ثم نرى أساليب الناس فنراها على اختلافها ضربًا واحدًا ، لا تعلو عن سطح الأرض فمنها ما يحبو حبوًا ، ومنها ما يشتد عدوًا ، ونسبة أقوالها إلى القرآن كنسبة هذه «السيارات» الأرضية إلى تلك السيارات السماوية[5]. ولذا فإني أسمح لنفسي أن أقول إن هذه الموازنات لا تتسم بالواقعية وليس فيها سبق علمي،أو كشف أدبي لأن المقارنة غير معقودة أصلا،

---

(١) انظر : الطراز : ٣/٣١٧

(٢) عدد شعبان : رمضان سنة ١٣٧٩هـ

(٣) انظر : ص ٣٠٢-٣٠٧

(٤) انظر : ص ٩٥ : ١٠٢ وأول من أثار هذه الموازنة الباقلاني في إعجاز القرآن ص١٢٧ وما بعدها : لإثبات توحد القرآن بالإعجاز وأنه من الله تعالى .

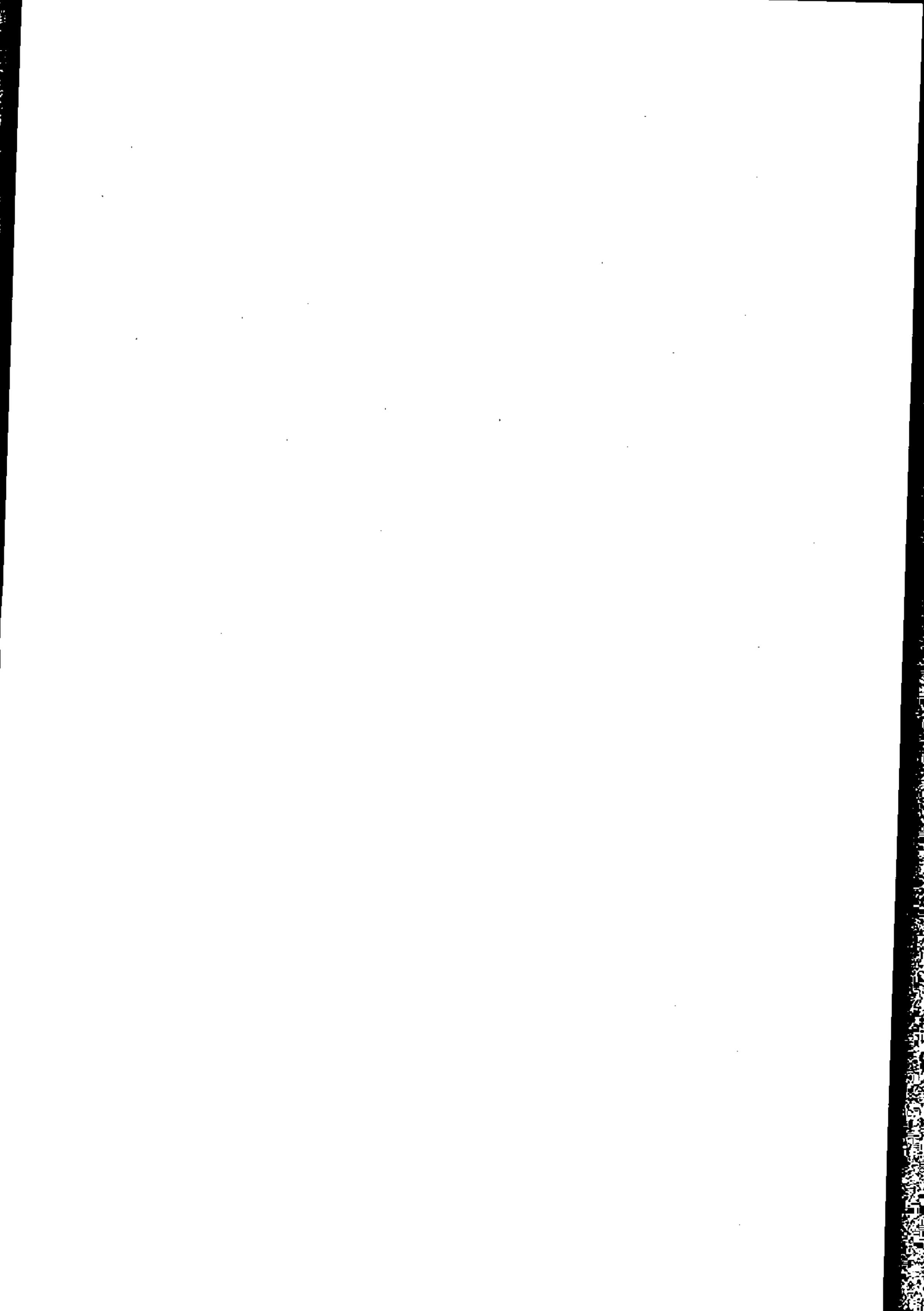
(٥) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز : ص ٩٠-٩٢

وما تفيد إلا توكيد صفة القهر لأسلوب القرآن كما اتصف الله سبحانه بالقهار العظيم .

صفوة القول :

أن ابن الأثير ، وابن أبي الإصبع ، والعلوي يمثلون اتجاهًا أدبيًا مسترسلاً في تناول الحديث الشريف يتسم بالدقة ، وعمق النظرة ، والأسلوب الأدبي الكاشف عن القيم البلاغية وأثرها في الصياغة والمعاني ، وهو اتجاه أفاد البلاغة والأدب على سواء ، ونبه إلى نبع أدبي ثر لا يغيض ، وقد بلغ هذا الاتجاه منزلة يحمد عليها عند العلوي فأكثر من الأحاديث مناقشًا ، محللاً مفتونًا مقبلاً إقبال العالم الجاد والأديب الشاعر المأخوذ .

* * *



الفصل الرابع

علماء الحديث

أولا : علماء غريب الحديث

تمهيد :

كثر المؤلفون في علم «غريب الحديث» يشرحون ألفاظه ، ويوضحون معانيه ويؤكدون أقوالهم بما ورد من صريح اللغة ، بيد أن من أولى البلاغة عناية منهم الزمخشرى ، ومجد الدين بن الأثير ، الأول في كتابه «الفائق» والثانى في «كتابه: «النهاية في غريب الحديث والأثر» ونقدم عنهما هذه الدراسة الموجزة . .

أ- الزمخشرى في «الفائق»

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى الملقب بجار الله ، وبفخر خوارزم ولد بزمخشر ، يوم الأربعاء ، السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وأربعمائة ، وتوفى ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، وقد ترك تصانيف بديعة أجلها الكشاف ، والفائق في غريب الحديث ، وأساس البلاغة ، وله تآليف في النحو والأصول والمواعظ ، والفرائض .[1]

منهجه في كتابه الفائق :

قال مصححاه : الأستاذان : على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم «التزم الزمخشرى أن يورد الكلمات الغريبة من الأحاديث أو الآثار التي لم تذكر في المادة بعدها ، ويدل على مواضعها من أبواب الكتاب ، فكأنه بما

---

(١) انظر : تاريخ علوم البلاغة ، المراغي ص ١٠٢-١٠٥

صنع مكملاً للترتيب ، وميسرا للانتفاع ، وقد رتبه على حروف المعجم وكل باب رتبه على الحرف الأول مع الثاني ، فهو يذكر الهمزة مع الباء ، ثم مع التاء وهكذا [١] والواقع أننا دهشنا حين رأينا الكتاب فقد توقعنا منه ، وهو فارس من فرسان البلاغة أن يأتي منها بكل عجيب لكنه التزم منهجًا يشرح غريب الألفاظ ، التي كثيرًا ما يستشهد عليها من كلام العرب ، ويعالجها لغويا بذكر اشتقاقاتها ، ولا يذكر البلاغة إلا في الفينة بعد الفينة ، وعندئذ قد يذكر اللون البلاغي شارحًا محللاً كما في الحديث عن رسول الله ﷺ : «إذا أراد الله بعبد خيرا عسله ، قيل يا رسول الله : وما عسله ؟ قال يفتح الله له عملاً صالحًا بين يدى موته ، حتى يرضى عنه من حوله».

قال : هو من عسل الطعام يعسله ويعسله : إذا جعل فيه العسل ، كأنه شبه ما رزقه الله من العمل الصالح ، الذي طاب به ذكره بين قومه بالعسل الذي في الطعام فيحلولى به ويطيب[٢].

وكما في حديث أم زرع فقال : كنت عن ارتفاع بيته في الحسب «برفع عماده» وعن طول قامته : «بطول نجاده» وعن إكثاره القرى «بعظيم رماده» وإنما قرب بيته من النادي ، ليعلم الناس بمكانه فينتابوه[٣].

وكما في الحديث «إياكم وعطرة الناس فإنها تدفن الغرة ، وتظهر العرة» قال : أصل الغرة البياض في جبهة الفرس ، ثم استعيرت فقيل في أكرم كل شيء غرته ، كقولهم : غرة القوم لسيدهم ، والعرة : القذر فاستعيرت للعيب ، والدنس في الأخلاق وغيرها ، فقالوا : فلان عرة من العرر ، والمعنى : أنهم إذا نالهم منك مكروه كتموا محاسنك ، ومناقبك وأبدوا مساويك ومثالبك[٤].

---

(١) الفائق في غريب الحديث ، للزمخشرى : ط أولى القاهرة ١٩٤٥ مطبعة عيسى الحلبى : ص ج من المقدمة

(٢) المرجع السابق ٧٤/٢

(٣) المرجع السابق ١٠٥/٢

(٤) المرجع السابق ١١٠/٢

ونلاحظ أنه يسمي الألوان البلاغية بمصطلحاتها الفنية التي أسهم هو في إقرارها في تفسيره «الكشاف»

وقد يشرح اللفظة دون إشارة إلى ما في الحديث من بيان كما في الحديث عن رسول الله ﷺ «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» قال فمن ربطها عدة في سبيل الله فإن شبعها وجوعها وريها وظمأها ، وأرواثها وأموالها فلاح في موازينه يوم القيامة[1]

صفوة القول : أنه لم يتخذ موقفًا تجاه البلاغة النبوية وما يحمد له هذه القطرات والشذرات التي كانت تعن له عرضًا وكيفما اتفق في بيان القيم البلاغية وتسميتها بأسمائها الاصطلاحية دون اضطراب أو عوج ثم يمضي إلى غرضه من الكتاب .

ب ـ ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث والأثر» :

هو الإمام : مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير (٥٤٤-٦٠٦ هـ) .

منهجه :

لم يلتزم ذكر الحديث بتمامه ، بل يذكر العبارة التامة المشتملة على اللفظة الغريبة ، وقد تستوعب هذه العبارة الحديث إذا كان قصيرًا كقول الرسول ﷺ «الناس كإبل مائة ، لا تجد فيها راحلة» ، قال ، يعني أن المرضي المنتخب من الناس في عزه وجوده كالنجيب من الإبل القوي على الأحمال والأسفار الذي لا يوجد في كثير من الإبل فقال الأزهري «الذي عندي فيه أن الله ذم الدنيا ، وحذر العباد سوء مغبتها ، وضرب لهم فيها الأمثال ، ليعتبروا ويحذروا ، كقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (يونس:٢٤)..الآية. وما أشبهها من الآي ، وكان النبي ﷺ يحذرهم ما حذرهم الله ، ويزيدهم فيها فرغب أصحابه بعده ، وتنافسوا عليها ، حتى كان الزهد في النادر القليل منهم

---

(١) الفائق في غريب الحديث للزمخشري : ١٤٥/٢

فقال : «تجدون الناس بعدى كإبل مائة ، ليس فيها راحلة» أي أن الكامل في الزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة قليل ، كقلة الراحلة من الإبل ، والراحلة : هي البعير القوي في الأسفار والأحمال ، والنجيب : التام الخلق والحسن المظهر ، ويقع على الذكر والأنثى والهاء فيه للمبالغة[1].

ونأخذ منه : سلاسة الأسلوب في معالجة النص البلاغي ، والاسترسال الأدبي ، والإشارة إلى اللون البلاغي وبيان أثره ، مع الاستئناس بالمأثور والنقل عن السابقين . .

قد يذكر اللون البلاغي أو يذكر أثره في المعنى ولا يسميه : كما في الحديث «القرآن مأدبة الله في الأرض» شبه القرآن بصنيع صنعه الله للناس لهم فيه خير ومنافع[2].

وفي حديث أنس أنه ﷺ قال له : ياذا الأذنين : قال : قيل معناه : الحض على حسن الاستماع والوعي لا السمع بحاسة الأذن ، ومن خلق الله أذنين ، فأعقل الاستماع ولم يحسن الوعي لم يعذر ، وقيل : إن هذا القول من جملة مرحه ﷺ ولطيف أخلاقه كما قال للمرأة من زوجها «ذاك الذي في عينه بياض»[3] وهذا الأسلوب السمح ، والاهتمام بذكر الأقوال في معنى الحديث . . مع البسط في الشرح مسلك لعله تأثر به شراح الحديث حتى في إشارتهم إلى النوع البلاغي باقتضاب ، ويؤكد ذلك هذا الحديث بتعليقه «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» قال : ويقال : استحى يستحي واستحيا يستحي والأول أعلى وأكثر ، وله تأويلان : أحدهما ظاهر وهو المشهور أي : إذا لم تستح من العيب ولم تخف العار مما تفعله ، فافعل ما تحدثك به نفسك من أغراضها حسنًا كان أو قبيحا ولفظه أمر ، ومعناه : توبيخ وتهديد ، وفيه إشعار بأن الذي يردع الإنسان عن مواقعة السوء هو الحياء .

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير تحقيق الأستاذين طاهر الزاوى ، ومحمود محمد الطناحى ط أولى عيسى الحلبى بالقاهرة ١٦/١ ، ١٣٢٨ هـ ١٩٦٣م

(٢) المرجع السابق ٣٠/١

(٣) المرجع السابق ٣٤/١

والثاني أن يحمل الأمر على بابه يقول : إذا كنت في فعلك آمنًا أن تستحي منه ، فجريك فيه على سن الصواب وليس من الأفعال ، التي يستحيا منها فاصنع منها ماشئت[1]

. . . .

ولعله بذلك ـ وهو فضل عنايته بالحديث ـ يمتاز على الزمخشري تحليلاً ، وبيانًا أدبيًا لأثر الألوان البلاغية ، وأسرارها ، واستقصاء للأقوال المختلفة في معنى الأثر ، مع الإشارة أحيانًا إلى تسمية اللون أو بيان أسراره في التعابير ، وفعله هذا ـ قد لا يحمد عليه في عالم اللغويات ـ ولكنه جد محمود في دنيا الأدب والبلاغة ، على أن هذه اللفتات كانت قليلة جدًا في كتابه الكبير ، وإن كانت مفيدة .

ثانيًا : شراح الحديث

تمهيد :

اهتم شراح الحديث بتفسير مفرداته ، وشرح معانيه وأغراضه ، وبيان أحكامه وإرشاداته ، وتنوعوا في ذلك حسب ميولهم وثقافاتهم ، وكانت البلاغة النبوية تأتي في ثنايا كلامهم عرضا غير مقصودة أحيانًا وبصورة عفوية غير أننا وجدنا ـ منهم ـ من عني بالبلاغة عناية خاصة تكاد تدخل ضمن منهجه في تناول الحديث ، وإبراز من وضح لديه هذا الاتجاه الإمام بدر الدين العيني ، والعلامة محمد بن علان الصديقي رضي الله عنهما .

أولا : الإمام بدر الدين العينى :

التعريف به : هو الإمام : بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ في كتابه « عمدة القاري شرح صحيح البخاري »

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٤٧٠ ، ٤٧١

منهجه العام :

يمكننا القول ـ دون مبالغة ـ إن هذا الكتاب موسوعة علمية هامة ذلك أن الرجل متعدد الجوانب بالغ التعمق فيها يذكر الحديث ويوضح تعلقه بما ساقه البخاري من قرآن صدر الباب ، ثم يترجم الحديث ببيان رجاله ، وضبطهم وأنسابهم وفوائد تتعلق بهم ، وفي نوع الحديث ، ولطائف إسناده ، وتعدده في الصحيح ، وبيان من أخرجه غيره ، واختلاف لفظه ، ثم بيان اللغة والإعراب ، والمعاني والبيان ، والبديع والأسئلة والأجوبة ، والسبب والمورد ، وعلى هذا فحديث واحد مثلا ، « إنما الأعمال بالنيات » استغرق عشرين صفحة من القطع الكبير .

منهجه البلاغي :

(١) انتهاز الفرصة ـ أحيانا ـ لوجود لون بلاغي ليوضحه أولا ، وشرح اللون ذاته معرفًا ، ومقسمًا له ، بالتفصيل ذاكرًا أوجهه ، والخلافات التي نشبت حوله مجرد سرد دون ترجيح ، وقد يدخل إلى الخلافات الدقيقة والمجازات البلاغية التي اشتهرت عند المتأخرين ، وقد يسرف فتلمح « شروح التلخيص » بمنطقها الحاد .

(٢) عدم استيعاب كل ما يوجد من ألوان بلاغية ، وإنما ينبه على الأشهر وقد لا يهتم كثيرًا بأسرار اللون البلاغي ، مع توجيه العناية إلى علم البيان أما المعاني والبديع فلم يلقيا منه ـ دومًا ـ ما لقيه البيان وإن كان القصر قد نال منه هذه العناية . .

(٣) له لمحات خاصة في أسرار التراكيب ، ومقتضى النظم ، وهذا ما امتاز به على متأخرى البلاغيين وقد خصص لذلك ما سماه « الأسئلة والأجوبة » سواء كان منقولا أم عن اجتهاده هو .

(٤) هو ـ لاشك ـ ضليع عن علوم الحديث والفقه ، وأصوله ، أما البلاغة فقد كان أحيانًا يوفق بأسلوب سمح يعالج البلاغة وكأنه نسي ما عداها ،

وغالبا ما تستعجم الألفاظ ، وتمتزج بأمشاج من أصول الفقه ، والمنطق فتتحجر تحجر العلوم الجامدة ، ونورد ما يؤكد ما سبق :

الحديث الأول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» في بيان المعاني قال « إنما : للحصر ، وهو إثبات الحكم للمذكور ، ونفيه عما عداه وقال أهل المعاني : ومن طرق القصر إنما والقصر تخصيص أحد الأمرين بالآخر ، وحصره فيه ، وإنما تفيد إنما معنى القصر لتضمنه معنى ما إلا من وجوه ثلاثة : الأول قول المفسرين في قوله تعالى : « إنما حرم عليكم الميتة» بالنصب ، معناه : ما حرم عليكم إلا الميتة . . . يكمل بقية الأوجه الثلاثة المعلومة ثم يذكر أدق الخلافات قائلاً «وهذا الذي ذكرناه هو قول المحققين ، ثم اختلفوا فقيل أفادته له بالمنطوق وقيل بالمفهوم ، وقال بعض الأصوليين أنها لا تفيد التوكيد ، ونقل صاحب المفتاح عن أبي عيسى الربعى : أنه لما كانت كلمة « إن» لتأكيد إثبات المسند للمسند إليه ، ثم اتصلت بها ما المؤكدة التي تزاد للتأكيد كما في « حينما » ـ لا النافية ـ على ما يظن من لا وقوف له في علم النحو ـ ضاعفت تأكيدها ، فناسب أن يضمن معنى القصر ، أي معنى ما ، وإلا ، لأن القصر ليس إلا لتأكيد الحكم على تأكيد[1] ويسير على هذا النمط ـ بلا ملل ـ في اعتراض ، ودفعه ـ شوطا طويلا ، وعلى نمطه يوضح القصر التالي « وإنما لكل امرئ ما نوى» وحين يأتي إلى البيان في قوله « إلى دنيا يصيبها» يقول « تشبيه» وهو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى ، أو في وصف من أوصاف أحدهما ، كالشجاعة في الأسد والنور في الشمس ، وأركانه أربعة : المشبه ، والمشبه به ، وأداة التشبيه ، ووجهه ، وقد ذكرنا أن المراد بالإصابة الحصول ، فالتقدير « فمن كانت هجرته إلى تحصيل

---

(١) انظر : عمدة القارى شرح صحيح البخارى ، للعينى ١/ ٢٥ ، ٢٦

الدنيا فهجرته حاصلة لأجل الدنيا ، غير مفيدة له في الآخرة فكأنه شبه تحصيل الدنيا بإصابة الغرض بالسهم ، بجامع حصول المقصود وفي بيان البديع يقول عن الحديث فيه من أقسامه : التقسيم بعد الجمع والتفصيل بعد الجملة ، وهو قوله «فمن كانت هجرته إلى دنيا . . . إلخ ، لاسيما في الرواية التي هي ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها . . . إلخ»[1]

وعلى هذا النمط يعالج الاستعارة وأنواعها وقرينتها واحتمال تعددها دون ترجيح في حديث الرسول ﷺ «بني الإسلام على خمس»[2]

والإمام العيني - رحمه الله - ابن عصره الذي شغل أغلب البلاغيين فيه بالتشقيق والمنطق وتحكم الجدل والنظرة العقلية في المعارف ، وقد تأثر بعلماء القرن التاسع أمثال «السيد الشريف الجرجاني ٨٢٦ هـ وعز الدين ابن جماعة ٨٢٠ هـ وقبلهم السبكي ٧٧٣ هـ والتفتازاني ٧٩٢ هـ وغيرهم من عمد المدرسة السكاكية ،لكنه - والحق يقال قد يتأثر من ناحية أخرى بالأسلوب النبوي فله لمحات بلاغية واعية في الحديث «فهجرته إلى الله ورسوله» : لم يقل في الجزاء فهجرته إليهما «بأن ذلك من آدابه عليه الصلاة والسلام في تعظيم اسم الله عز وجل أن لا يجمع مع ضمير غيره ، وأجاب ، بأن الدنيا نكرة وهي لا تعم في الإثبات ، أو زيادة تحذير فيكون من ذكر الخاص بعد العام»[3] وفي الحديث «آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار» ويقول «المطابقة تقتضي أن يقابل الإيمان بالكفر ، لكن البحث في الذين ظاهرهم الإيمان وهذا البيان ما يتميز به المؤمن الظاهري عن المؤمن الحقيقي فلو قيل «آية الكفر بغضهم» لا يصح إذ هو ليس بكافر ظاهرًا»[4] وقد استعان بسبب ورود الحديث لفهم المراد وذلك هام في فهم الأساليب .

---

(١) انظر : عمدة القارى ١/٢٥-٢٧

(٢) المرجع السابق ١/١١٢-٢٢٠

(٣) المرجع السابق ١/١٨

(٤) المرجع السابق ١/١٥٢

والعينى أولا وأخيرا موسوعة علمية ضخمة في فروع شتى من المعرفة ، وكتابه مرجع فذ على رأيه ومنهجه ، وفيه محاولة للكشف عن أسرار البلاغة النبوية تحكمت فيها ظروف بيئته ، وثقافته ، عليه رحمة الله . .

ثانيا : العلامة ابن علان الصديقي الشافعي

هو العلامة محمد بن علان الصديقي الشافعي المكي المتوفى ١٠٥٧ هـ ، في كتابه «دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين» للإمام أبي زكريا يحيى ابن محيي الدين النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ .

منهجه العام :

الشرح الوافي لمفردات الحديث ، وبيان معانيه ، وذكر إعرابه ، ودلالة أدواته وإظهار ما فيه من بلاغة وبيان ، كل ذلك ممتزج بعضه ببعض ، فهو يذكر لفظة الحديث ويتبعها بما يتعلق بها من لغة وأصول ونحو وبلاغة ومعنى . .

منهجه البلاغي :

يعتبر كتابه ـ بحق ـ أوفى الكتب الشارحة للحديث بحق البلاغة ، وأبرعها في كشف أسرارها ، وأجمعها في التنبيه على ألوانها ، ويمكن اعتباره خطوة في إثراء البلاغة النبوية دراسة وبحثا ، فهو معني بها ، حريص عليها بأسلوب يتفاوت سهولة وصعوبة ـ وأدبا ومنطقا .

سمات هذا المنهج :

(١) الاهتمام بعلم المعاني ، خاصة الفصل ، والوصل ، والاستئناف ، والإيجاز ، والقصر ، ففي الحديث ، « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ مانوى» يقول : إنما هي لتقوية الحكم المذكور بعدها اتفاقا ، ولذا وجب كونه معلوما للمخاطب أو في منزلته ، ولإفادة الحصر وضعًا حقيقة على الأصح عند جمهور الأصوليين خلافا لجمهور النحاة ، والحصر وبمعناه القصر إثبات الحكم لما بعدها ، وتنفيه عما عداه ، لورودها لذلك في كلامهم غالبا ، والأصل الحقيقة ، وجواز غلبة المجاز خلاف الأصل

والقصر في الخبر من قصر المسند إليه ، ويعبر عنه بالموصوف ، على المسند ، ويعبر عنه بصفته ، وهو إضافي لخروج بعض الأعمال عن اعتبار النية فيه[1]

ونلاحظ هنا الدقة وعدم الخروج عن دائرة الأسلوب النبوي ، والتعرض لذكر الخلافات بين الأصوليين والنحاة ، دون الإلماع للبلاغيين أصحاب البحث الأصيل ، وفي الحديث « إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض» قال : قوله حبسهم المرض : استئناف بياني ، جوابا عن السؤال المقدر من حصول مثل ثواب المجاهد لهم مع قعودهم وقد جاء السؤال مصرحا به في رواية أبي داود ، قالوا يا رسول الله : وكيف يكونون معنا ، وهم بالمدينة قال : ﷺ « حبسهم العذر »[2]

جوامع الكلم :

اهتم بها كثيرا ، تارة ينقل كلام السابقين ، وأخرى ينفعل هو بما بها من بيان وفصاحة ، ففي الحديث «اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» قال : أي حاصلة بها ، قال : القرطبي : وهذا من الكلام النفيس البديع الذي جمع ضروب البلاغة من جزالة اللفظ ، وعذوبته وحسن استعارته وشمول المعاني الكثيرة مع الألفاظ المقبولة الوجيزة بحيث تعجز الفصحاء اللسن البلغاء عن إيراد مثله وأن يأتوا بنظيره وشكله ، فإنه استفيد ـ مع وجازته ـ الحض على الجهاد والإخبار بالثواب عليه ، والحض على مقاربة العدو ، واستعمال السيوف والاعتماد عليها ، واجتماع المقاتلين حين الزحف ، بعضهم ببعض ، حتى تكون سيوفهم بعضها يقع على العدو ويرتفع عليهم ، وحتى كأن السيوف أظلت الضاربين بها ويعني أن الضارب بالسيف في سبيل الله يدخل الجنة بذلك[3].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، لابن علان الشافعي ١/٣٨ ، ٣٩

(٢) المرجع السابق ١/٥٣ ، ٥٤

(٣) المرجع السابق ١/٢٤٧

وفي الحديث «أن تعبد الله كأنك تراه» قال أصله كأنك تراه ويراك فحذف الثاني لدلالة الأول عليه، وهذا من جوامع كلمه ﷺ لأنه جمع مع وجازته بيان مراقبة العبد ربه، في إتمام الخضوع والخشوع - وغيرهما في جميع الأحوال، والإخلاص له في جميع الأعمال، والحث عليهما، مع بيان سببهما الحامل عليهما، والثاني «فإن لم تكن تراه، فإنه يراك» من لا ينتهي إلى تلك الحالة، لكن يغلب عليه، أن الحق مطلع عليه ومشاهد له وقد بينه ﷺ بقوله «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهذا من جوامع الكلم أيضا، أي فإن لم تكن تراه فلا تغفل فإنه يراك، ثم هذان الحالان هما ثمرتا معرفة الله تعالى وخشيته[1].

والحق أنه وفق هنا في تعمق الأساليب وبيان أسرار البلاغة النبوية مع بيان اللون البلاغي الذي احتواه النظم وأسهم في براعة الكلام واكتنازه بأسلوب تحليلي منسق فيه يسر وبساطة.

البيان:

وهو يكثر من النقل فيه، ويسمي الألوان البيانية - ويشير إلى علاقات المجاز المرسل أحيانا ونلتقط هذه النماذج الدالة:

في حديث أنس عن رسول الله ﷺ «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يسقط على بعيره، وقد أضله بأرض فلاة» يقول أفرح: أشد فرحا، والمراد هنا منه - لاستحالة قيام حقيقية - التي هي اهتزاز، وطرب يجده الإنسان من نفسه عند ظفره بعرض يستكمل به نقصانه، أو يسد به خلته أي حاجته أو يدفع به عن نفسه ضررا أو نقصا - بالباري سبحانه - غايته من الرضى لأن السرور سيقربه من الرضى، أو تشبيه مركب عقلي من غير نظر إلى مفردات التركيب بل تؤخذ الزبدة من المجموع، فتكون غايته، ونهايته، وفائدته إبرازه في صورة التشبيه، وتقرير المعنى في ذهن السامع، أو تمثيلي بأن يتوهم للمشبه الحالات التي للمشبه به وينتزع له منها ما يناسبه، فالحاصل أن المراد بقوله أفرح: أرضى[2].

---

(١) دليل الفالحين ١/٢٧٥

(٢) المرجع السابق ١/٩٦

ونأخذ عليه أنه ميز بين المركب العقلي ، والتمثيلي وهو بعضه دلالة على عدم التمكن من التشبيه البلاغي وقد سبق أن العلوي خرج أمثال هذه الأحاديث المشكلة على التخييل التصويري تنزيهًا وتفننًا .

وقد يشير إلى علاقة المجاز المرسل كما في الحديث «أن رسول الله ﷺ رأى خاتما من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه ، وقال : يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده» قال : فهنا مجازان مرسلان ثم بين علاقة الأول بقوله «يئول لابسه - لعظيم إثمه - إلى أن يجعل النار في محله» والثانى ، في يده ، أي في أصبعه مجاز مرسل من إطلاق الكل وإرادة الجزء[1].

وقد نبه إلى المجاز العقلي كما في الحديث «أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم» قال «وإسناد الإهلاك إليها مجاز عقلي من باب الإسناد إلى السبب ، إذ التنافس فيها سبب قد يجر لفساد الدين ، وهلاكه»[2]

البديع : السجع

نبه على السجع في الحديث «اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم» واشترط مثل غيره عدم تكلفه كما جاء هنا مطبوعا،[3] لكنه لم يلتزم التنبيه عليه دائمًا في الأحاديث .

التجريد :

قال في الحديث «وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور» قال : قوله فيه الهدى والنور تجريد كقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ «والتجريد : أن ينتزع من متصف بصفة آخر مثله لأجل المبالغة في كمالها فيه»[4] وتعريفه التجريد موجز للغاية بالقياس إلى المشهور[5].

---

(١) دليل الفالحين ٣٨٣/٩١
(٢) المرجع السابق ١٣٤/٤
(٣) المرجع السابق ٣٤٨/١
(٤) المرجع السابق ٢٦٤،٣٦٣/٣
(٥) تاريخ علوم البلاغة ، المراغى ص ٣٤٦

القلب :

أشار إليه في الحديث «حتى يستقل الظل بالرمح» في تحديد الوقت لصلاة الظهر قال «وهذا من باب القلب كطينت الطين بالقصر ، وعرضت الناقة على الحوض أي حتى يستقل الرمح بالظل أي يبلغ ظله أو في غاية النقص فحسن القلب من المبالغة المولدة منه ، لإفادة كون الرمح صار بمنزلة الظل في القلة والظل صار بمنزل الرمح في عدم وجود شيء في الأرض إلا بمقدار مركزه»[(١)]

ومع ما قدمنا من أمثلة بديعية نقول إنه لم يول البديع عناية كافية وإنما كان يشير إليه في الأقل من الأحيان ، وما نسجله من هذا الأقل .

أسرار التعابير :

كانت له لمحات فنية ذكية كقوله في الحديث : «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا . . الحديث» و «في التعبير بالغيث دون المطر لطيفة» «إذ الغيث يحتاج إليه الناس عند قلة المياة»[(٢)]

وقوله في الحديث «عضوا عليها بالنواجذ» لأن النواجذ محددة فإذا عضت على شيء نشبت فيه فلا يتخلص[(٣)].

وفي الحديث «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» قال : «لو هنا بمعنى إن ، إذ المعنى على الاستقبال ولكنه العدول إن اجتماعهم على الإمداد من المستحيلات ، بخلاف اجتماعهم على الأذى فإنه ممكن ، وفي قول الرسول «وإن اجتمعوا» عبر بها بدل لو تفننًا في التعبير[(٤)].

خلاصة القول : إن الصديقي كان من منهجه الاهتمام بالبلاغة النبوية ومحاولة تحليلها ، على قدر طاقته ، وعلمه في البلاغة ، ولما لم يكن متعمقا

---

(١) دليل الفالحين ٨٣/٤

(٢) المرجع السابق ٢١٢/٢

(٣) المرجع السابق ٢٠٣/٢

(٤) المرجع السابق ٢٨٨/١

في علوم البلاغة فقد كان كثير النقل ، كما كان يخطئه التوفيق أحيانًا ، وننبه إلى اهتمامه بذكر أقوال عدة ، واحتمالات قد تختلف في العبارة الواحدة تأثرًا من اتجاه عصره ، ويهمنا أيضا أن نسجل ما أسهم به علماء الحديث من إثراء البحث البلاغي في بيان النبوة حسبما أوتوا من علم وموهبة وطاقة فاندفعوا يبينون أسرارها في شروحهم ، وهو جهد يشكره ويقدره العالمون . .

* * *

الفصل الخامس

الرافعي والبلاغة النبوية

عالج المرحوم مصطفى صادق الرافعي البلاغة النبوية في بحث خاص أردف به البحث في إعجاز القرآن الكريم مع مقالة له في مقدمة الجزء الثالث من «وحى القلم» ، وقد ولد الرافعي في «بهتيم» من قرى مديرية القليوبية في يناير سنة ١٨٨٠ م ومات في العاشر من مايو سنة ١٩٣٧م ، وقد أورث الأدب العربي عديدًا من الآثار الجادة منها «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية الذي يهمنا[1].

منهجه :

لم يسر الرافعي على الطريقة المعهودة عند البلاغيين ، بل عالج البلاغة النبوية بطريقته الأدبية التي تهتم بإيحاءات الألفاظ ، وفلسفة التراكيب وأسرار العبارات ، وإشعاع المعاني ثم تقدير ذلك بميزان النقد الأدبي . .

(ويمكن إيجاز منهجه في معالجة البيان النبوي على النمط التالي :)

فصاحته ﷺ :

أثبت أنها توفيق من الله وإلهام ، مع قوة الفطرة ، ونفاذ البصيرة وساعد على ذلك النشأة اللغوية والوراثة ، فكان مولده ﷺ في بني هاشم أخواله في بني زهرة ورضاعه في سعد بن بكر ، ومنشؤه في قريش ، ومتزوجه في بنى أسد ، ومهاجرته إلى بني عمرو ، كل ذلك مكن له من التصرف في اللغة والوضع

---

(١) انظر : حياة الرافعى ، الأستاذ محمد سعيد العريان الصفحات ١٥ ، ٧٨١-٢٨٣ ، ٢٨٥-٢٩٠ ط أولى ١٣٥٨ م مطبعة الرسالة

والتشقيق ، وليس للرافعي جديد هنا ـ كما سبق أن أوضحنا في أسباب فصاحته ﷺ .

ثم جعل أسلوبه ﷺ من الأساليب العجيبة في اللغة وأشدها وأحكمها ، لا يغلب على النفس ، وأنما تتحكم فيه وتغلب عليه ، ويضبطه العقل ويحكمه الرأى ، وهذا مالا نظير له في اللغة ، ثم تكلم عن أحكام منطقه واجتماع كلامه ، وقلته وعلل ذلك بغلبة فكره ﷺ وكمال نفسه وطول صمته عادة ، وطبعا وخلقا ، ولذا كثرت جوامع كلمه مما لم يعرف في هذه اللغة لغيره ﷺ[1].

قضية الشعر :

عالج هذه القضية ، وبين أن النبي ﷺ منزه عنه ، فكان لا يتهدى إلى إقامة وزن إذا هو تمثل بيتًا ، وسبب ذلك ، أنه لو استقام له ﷺ وزن بين واحد لغلبت عليه فطرته القوية فمر به الإنشاء وخرج بذلك إلى القول والاتساع ، وإلى أن يكون شاعرًا يذهب مذاهب الشعراء ، وما يضطربون فيه ، وينصرف عن الدعوة ، كما هو أزكى بالنبوة ، و أشبه بفضائل القرآن ، ولذا قال الله تعالى ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ﴾ فهو تأديب من الله حول به فطرته ﷺ عن الشعر وقوله[2]، وقد سبق الجاحظ إلى هذا الرأي بإفاضة في « البيان والتبين »[3]

تأثيره ﷺ في اللغة :

بين أنه ﷺ كان على حد الكفاية في قدرته على الوضع والتشقيق من الألفاظ ، وانتزاع المذاهب البيانية ، ووضح أن تأثيره في اللغة يتمثل في أمرين التراكيب البيانية كقوله ﷺ «مات حتف أنفه» وقوله في الحرب «الآن حمى الوطيس» والثاني الأوضاع المفردة ، بالاشتقاق والمجاز « كالمخيلة » والأسماء والمصطلحات الشرعية مما لم يرد في القرآن الكريم ، واستطرد إلى معالجة

---

(١) انظر : حياة الرافعى ص ٣٣٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٣٣٧ وما بعدها .

(٣) انظر : البيان والتبيين ٣/٣٢٨

الغريب في بيان النبوة المتمثلة في مخاطبته ﷺ - للوفود - وكتبه التي كان يبعث بها إلى قبائل العرب بلجوئهم ولا يعدو ألفاظهم ، وعبارتهم ، مع الطبع المتمكن ، ورد ذلك إلى قوة فطرته اللغوية المتميزة بالإلهام والوحي من الله جلا وعلا .[1] ورأيه في الغريب مسبوق إليه بأبي البركات بن الأثير في مقدمة النهاية وابن الأثير في «المثل السائر» والقاضي عياض في الشفا - مما سبق توضيحه - وإن كان سبق إلى تنسيق التأثير النبوي في اللغة بين أوضاع تركيبته ، وأوضاع مفرده .

نسق البلاغة النبوية :

أوضح أنها جمعت بين الكمال في ناحيتين اللغوية والبيانية ، مع الحكمة النبوية العالية وتعبير الوحي ، وأمر في الإنسان من فوق الإنسانية .[2]

ثم حلل ماأسماه «الأوضاع التركيبية» تحليلاً أدبيًا فلسفيًا ، وإذا كان استلهم الشرف الرضي في شرح الحديث «بعثت في نفس الساعة» فلا بأس أن نورد مثلا لما انفرد به بيانًا لطريقته : قال : «وقوله في حديث الفتنة : «هدنة على دخن» والهدنة : الصلح والموادعة ، والدخن : تغير الطعام إذا أصابه الدخان في حال طبخه ، فأفسد طعمه ، وهذه العبارة لا يعدلها كلام في معناها فإن فيها لونا من التصوير البياني لو أذيبت له اللغة ما وفت به ، وذلك أن الصلح إنما يكون موادعة ، ولينًا وانصرافًا عن الحرب ، وكفًا عن الأذى ، وهذه كلها من عواطف القلوب الرحيمة ، فإذا بني الصلح على فساد وكان لعلة من العلل ، غلب ذلك على القلوب ، فأفسدها حتى لا يستريح غيره من أفعالها ، كما يغلب الدخن على الطعام فلا يجد آكله إلا رائحة هذا الطعام ، والطعام من بعد ذلك شوب مفسد ، فهذا في تصوير معنى الفساد الذي تنطوي عليه القلوب

---

(١) حياة الرافعي ص ٣٦٠

(٢) انظر : المجازات النبوية ص ٣٤ ، ٣٥ وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، الرافعي ص٣٦٤ ، ٣٦٥

الواغرة ، وثَمَّ لون آخر في صفة هذا المعنى وهو اللون المظلم الذي تنصبغ به في النيـة السوداء ، وقد أظهرته في تصوير الكلام للفظه الدخن ، ثم معنى ثالث : وهو النكتة التي من أجلها اختيرت هذه اللفظة : بعينها ، وكانت سر البيان في العبارة كلها ، وبها فضلت كل عبارة تكون في هذا المعنى ، وذلك أن الصلح لا يكون إلا أن تطفأ الحرب فهذه حرب قد طفئت نارها ، بما سوف يكون فيها نار أخرى كما يلقى الحطب الرطب على النار تخبو به قليلا ، ثم يستوقد فيستعر فإذا هي نار تلظى وما كان فوقه الدخان فإن النار ولا جرم من تحته ، وهذا كله تصوير لدقائق المعنى يمكن أن يتصور في العقل إلا إذا وجدت اللون البيانى بصورة في تلك اللفظة ، لفظة« الدخن»[1] وهو يقصد الاستعارة التي عناها الرضي بقوله « شبه الهدنة التي تؤذن بالفتنة والمسلم الذي ينكشف عن المحاربة بالدخان الذي تؤذن سواطعه بالنار الموقدة وتجلى عن الجواحم المتضرمة »[2]

ولكنه فاق الرضي دقة واستشفافا ، واستقصاء لما تحتمله العبارة من معانٍ إضافية أو متولدة مع نقل الدخان أولا إلى الطعام ، وأخذه من الدخان لونه الأسود - وإيذانه بنار بعده ، بأسلوب أدبي عال[3].

ثم نبه إلى ضرب آخر من الأوضاع التركيبية يكون مجتمعًا بنفسه منفردًا في الكلم القليلة ، وهذا الضرب يتفق في بعض الكلام المبسوط ، فتقوم اللمحة منه في دلالتها بأوسع ما تأتي به الإطالة ، من ذلك حديث الحديبية ، حين جاءه ﷺ بديل بن ورقاء يتهدده ويحذره ، فقال له : إني تركت كعب بن لؤي ابن عامر معهم العوذ المطافيل ، وهـم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت ، فقال له النبي ﷺ : « إن قريشًا قد نهكتهم الحرب فإن شـاءوا ماددناهم مـدة ، ويـدعـوا ما بينى وبين الناس ، فإن أظهر عليهم وأحبوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ،

---

(١) انظر : إعجاز القرآن ص ٣٦٤ ، ٣٦٥

(٢) المجازات النبوية ص ٢٤٨

(٣) إعجاز القرآن ، الرافعي ص ٣٦٣ ، ٣٦٤

وإلا كانوا قد جمعوا ، وإن أبوا فو الذي نفسي بيده لأقتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتى هذه ، ولينفذن الله أمره»[1] وإذا كان ابن الأثير والعلوى علقا على هذا الحديث نقدًا تأثريًا بأن هذا مما لا يقضي منه المرء عجبًا من الفصاحة ، فإن الرافعي تناوله بطريقة موضوعية أدبية فقال : «فتأول قوله ﷺ «حتى تنفرد سالفتي هذه» وكيف تصور معنى الانفراد الذي لا يستوحش منه ، لأنه الثقة فيه بالله والقلة التي لا يخاف منها ، لأن الكثرة فيها من الله ، والاستماتة التي لا تردد معها لأن الأمر فيها إلى الله ، وانظر : كيف يصف العزيمة ، وكيف تفرع بالوعيد والتهديد ، وكيف تغني في جواب القوم ما لا تغنيه من عزم أمره ووثاقة عقده ، فكأنهما صورة واضحة لما استقر في نفسه من كل ما عسى أن يرجعه جوابا ، وما عسى أن يتهيأ له في باب الجذم ، وإنها لكلمة بمعركة»[2].

مبنى النسق في البلاغة النبوية :

عقد فصلا بنى فيه نسق البلاغة النبوية على ثلاثة : الخلوص ، والقصد ، والاستيفاء .

ويعني بالخلوص : النفاذ في اللغة وأسرارها ، وضعًا وتركيبًا والإحاطة بعتيق اللغة ، وبلوغ صميمها مع الأسلوب العصبي الجامع ، المجتمع على توثيق السرد ، وكمال الملاءمة .

والقصد : وهو الإيجاز ، والاقتصار على ما هو من طبيعة المعنى في ألفاظه ، ومن طبيعة الألفاظ في معانيها ، ومن طبيعة النفس في حفظها من الكلام وجهته اللفظية ، والمعنوية ، فالكلام لا يعدو في البلاغة النبوية حركة النفس .

---

(١) إعجاز القرآن الرافعي ص ٣٧١

(٢) المرجع السابق ص ٣٧١ ، ٣٧٢

والاستيفاء : الذي يخرج به الكلام ـ على حذف فضوله ـ وأحكامه ووجازته ـ مبسوط المعنى بأجزائه ، ليس فيه نقص ولا إحالة ، ولا اضطراب[1]

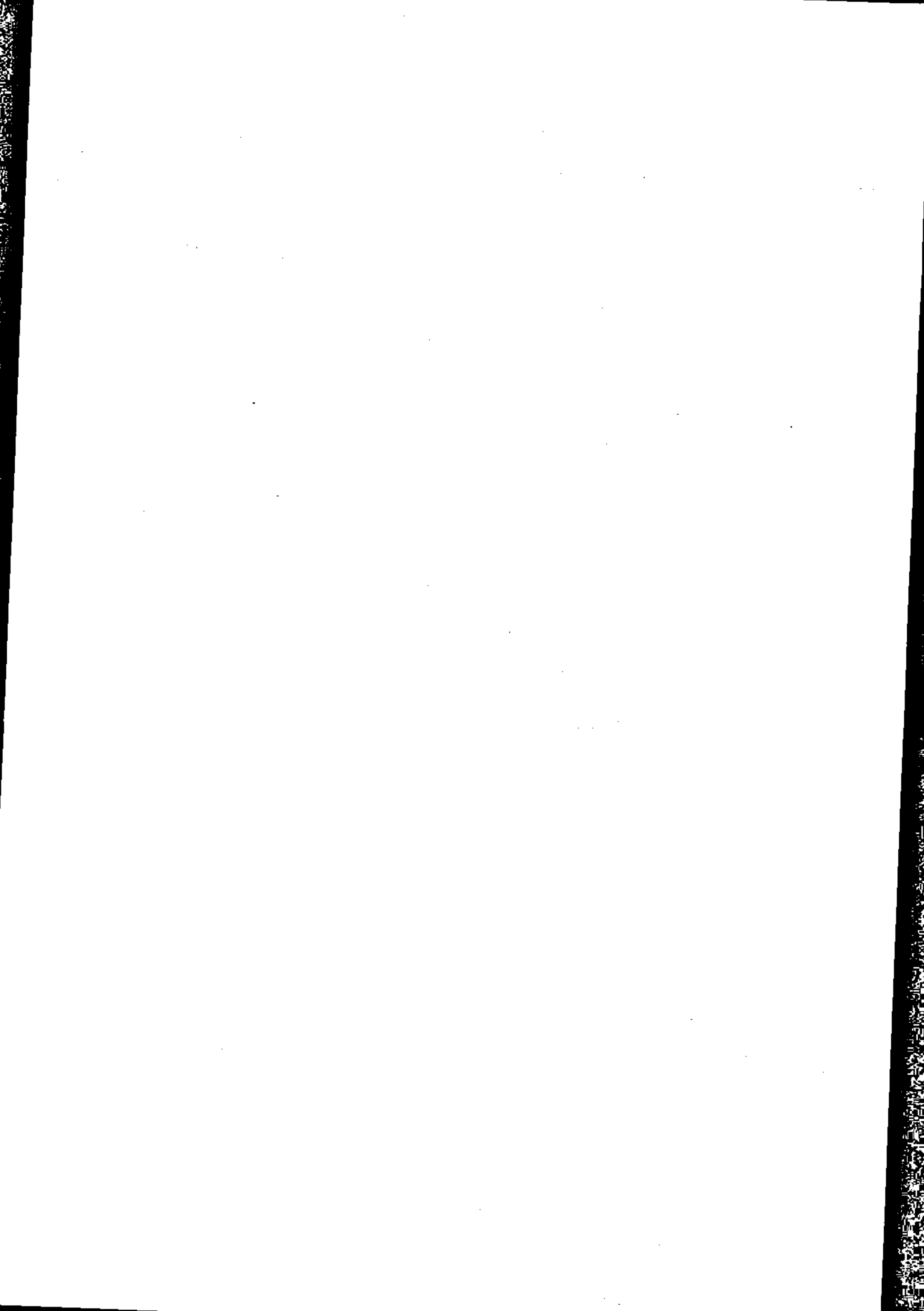
ولقد وفق الرافعي ـ رحمه الله ـ في هذه المعالم النقدية ـ وجعلها سببًا لكثرة الجوامع المحكمة في بيانه ﷺ وسلامته من كل عيب لفظي أو معنوي في اللفظ أو التركيب ، ومع هذا يحق لنا أن نقول : إن مبادئ الرافعى تلك وصف للأسلوب كله بعد اكتماله ، أسباب البلاغة والفصاحة التي حددها البلاغيون المنهجيون ، وهو وصف ـ مهما يكن من أمره ـ لا ينفذ إلى صميم النص بوضع قيمه البيانية التصويرية ، أو صياغته الفنية التركيبية أعني المعاني والبيان عدا الإيجاز الذي جعله أصلاً مكينًا .

* * *

(١) راجع إعجاز القرآن للرافعي ص ٣٧٣-٣٧٨

الباب الثالث

من روائع المعاني في البيان النبوي



تمهيد في فصاحة الكلمة

وضع علماء البلاغة شروطًا لحسن الكلمة وفصاحتها ، هي خلوصها من تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوي[1] ، ولما كانت هذه النعوت لا ترد على الكلمة المفردة في البيان النبوي للاتفاق على بلوغها غاية الفصاحة ، ثم لما كان هناك في البيان الكريم بعض ألفاظ غريبة ، آثرنا غريب النبوة بهذه الكلمة الموجزة .

والواقع أن ما تكلم به النبي ﷺ أو أمر بكتابته شديد التنوع فبينما هو مع أصحابه وقومه يسيل رقة في بيانه ، وسلاسة ووضوحًا ، وعذوبة إذ به في مخاطبة القبائل الضاربة في أعماق الصحراء التي كانت لها لهجاتها الخاصة الغريبة على الآذان القرشية ، أو في مكاتباتهم ينهج أسلوبهم ، وتعابيرهم وكأنما هو رجل منهم عاش بينهم ، وتربى تربيتهم ولكنه يفوقهم سلامة فطرة ، وصفاء ذوق ، وجمال أسلوب وتركيب .

ومن ذلك رده ﷺ على طرفة بن أبي زهير النهدي حين خاطبه بهذا اللون من التعبير ، قال ﷺ : «اللهم بارك لهم في محضها ومخضها ومذقها وفرقها[2] وابعث راعيها في الدثر[3] بيانع الثمر ، وافجر له الثمد[4] وبارك له في المال والولد ، إلى أن يقول :

لكم يا بني نهد ودائع الشرك[5] ، ووضائع الملك[6] ، ولا تلطط[7] في الزكاة ولا تلحد[8] في الحياة ، ولا تثاقل عن الصلاة»..

---

(١) انظر : الإيضاح للخطيب القزويني ص٤ ط صبيح ١٩٦٤

(٢) المخض : اللبن الخالص ، والمذاق : اللبن الممزوج بالماء ، والفرق : القطيع من الغنم

(٣) الدثر : المال الكثير (٤) الثمد : الماء الذليل

(٥) ودائع الشرك : غنائم المشركين تودع في بيت المال

(٦) وضائع الملك : ما يأخذه السلطان من الخراج والعشور

(٧) تلطط : تجحد (٨) تلحد : تجادل

وكتابه ﷺ إلى بني نهد «من محمد رسول الله إلى بني نهد : السلام على من آمن بالله ورسوله : لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة ، ولكم الفارض[1] ، والفريض[2] وذو العينان الركوب[3] والفلو النميس[4] لا يمنع سرحكم[5] ولا يعضد طلحكم[6] ولا يجبس دركم[7] ولا يؤكل أكلكم مالم تضمروا الإماق[8] وتأكلوا الرياق»[9] إلخ[10].

وغير ذلك مما أورده القاضي عياض[11] ، وألف فيه العلماء كتبا ومجلدات ضخمة رتبوا فيها هذه الألفاظ على نظام المعاجم ، وكان من أشهر هذه الكتب الفائق للإمام الزمخشري ، والنهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات ابن الأثير .

ولقد اتفق الناس قدماء ومعاصرين على أن ذلك من كمال فصاحته ﷺ ، وخاصة الرافعي الذي وضح انفراده عليه السلام عن قريش بمعرفة اللهجات العربية ، والأوضاع الغريبة ، واستعمالها في التخاطب والكتابة دون تعليم أو تلقين أو رواية ، مع أن قريشا مشتق اسمها من التجارة وهي تضرب في الأرض للتجارة ثم لا تعلم من ذلك الغريب بعض ما علمه حتى كان هذا الباب فيه ﷺ بابًا على حدة ، وحتى أثار دهشة أصفيائه والناس جميعا[12] ، ومرد ذلك إلى الإلهام والوحي من الله تعالى ، والطبع والفطرة العربية التي بلغت حد الكمال المطلق فيه عليه السلام[13].

---

(١) الفارض والفريضة : السنة

(٢) الفريض : التي وضعت حديثا

(٣) الفرض الذلول

(٤) المهر الصغير

(٥) المواشي : السائمة

(٦) لا يقطع شجركم

(٧) المواشي ذوات الدر وهو اللبن

(٨) الأماق : نكث العهد

(٩) الرياق : حبال في أعناق الدواب . والاستعارة في الأكل بمعنى القطع

(١٠) انظر : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لابن الأثير ٢٣٣/١ ، ٢٣٤

(١١) انظر : الشفا للقاضي عياض ٤٥/١ ، ٤٦

(١٢) انظر : اعجاز القرآن للرافعى ص٣٤٩-٣٥١.

(١٣) المرجع السابق ص٣٥٤،٣٥٥.

ولقد فطر الله نبيه على البلاغة العربية فكان صورة كاملة لهذه الفطرة العربية الذكية ، لا يتروى ولا يتلبث في اختيار كلامه ، وإنما هي قوة في أعماقه تندفع تلقائيًا ، سأله رجل : أيداين (يماطل) الرجل امرأته يا رسول الله ؟ قال « نعم إذا كان مفرحا » (مثقلا بالديون) يقول قدامة بن جعفر : « فهذا كلام من السائل والمسئول والقائل والمجيب حسن مأثور ، لأنه مفهوم بين من يخاطب به ، وإنما يستنكر من ذلك الموضوع غير موضعه والمخاطب به غير أهله »[1] .

وهناك نوع من الغريب روته كتب الأحاديث ، كانت اللفظة تأتي عرضًا فكان الصحابة يستفسرون عنها كلفظ « المتفيهقون » بمعنى المتكبرون[2].

ونهي الرسول ﷺ عن المخيلة ، فسئل عنها فقال سبل الإزار[3] .

ولو أطلنا النظر في هاتين اللفظتين ، نظائرهما ، مما ورد في السنة المطهرة لأرجعنا سبب ذلك إلى أمرين :

الأول : قدرة النبي ﷺ بفطرته وكمال طبعه على الوضع اللغوي والتشقيق اللفظي ، فيضيف ألفاظا سعة في اللغة ، وزيادة في نمائها[4] .

الثاني : الإتيان باللفظة الغريبة ، لأنها التي تفي بحق المعنى ، وتوفر له إيحاءاته المطلوبة ، فهذا المتكبر الممتلئ كبرا يكاد ينفجر به ، لا تعبر عنه بصدق إلا كلمة : « المتفيهق » ، لأن أصله من الفهق وهو الامتلاء ، فكأن اللفظة ترسم صورة نابضة ساخرة لهذا البغيض الثقيل ، بثقل حروفها وتنافر مخارجها ، وهذا ما استوحاه علماء النقد العربي من كلمة « ضيزي » في القرآن ، وكيف حسنت مع غرابتها ، لأنها أشد الألفاظ ملاءمة لهذه القسمة التي أنكرها الله تعالى على العرب ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾[5]

---

(١) نقد النثر المنسوب إلى أبى الفرج بن قدامة ص ١٢٠

(٢،٣) انظر : رياض الصالحين ص١١٦

(٤) انظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، الرافعي ص ٣٥٤ وما بعدها

(٥) انظر : المثل السائر ٢٣٠/١

وما قرره أيضا علماء النقد الغربيون ، من لجوء الأدباء أحيانا إلى اللفظ الغريب زيادة في قوة التأثير خاصة إذا كانت الصورة المرسومة مما لا يألفه الناس في الحياة الجارية[1] .

وقد عد ابن الأثير غريب الحديث كغريب القرآن من الفصيح الحسن ، وسماه وحشيًا وإن لم يكن وحشيًا عند العرب .

ثم يقول :« إن فصاحة رسول الله ﷺ لا تقتضي استعمال النوع الثاني (الوحشي الحسن) من الألفاظ ، ولا تكاد توجد في كلامه إلا جوابا لمن يخاطبه « ثم يردف» على أنه قد كان في زمنه متداولاً بين العرب ، ولكنه ﷺ لم يستعمله إلا يسيرا لأنه أعلم بالفصيح والأفصح »[2] .

والتداول الذي ذكره ابن الأثير غير محدد ، ذلك أن اللهجة القرشية فيها من الغريب بمفهومنا الشيء الكثير ، وكانوا يتفاهمون بها جميعا ، وذلك لا يعنينا إنما الذي يعنينا غير المتداول بين كافة العرب بل ما يخص لهجة من لهجات القبائل التي لها معجم خاص بها ، وكانوا يفدون على النبي الكريم فيرد على خطابهم بلهجتهم وأسلوبهم .

وعلى هذا يحمل ما قاله علي رضي الله عنه تعجبا : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ؟

فقال : « أدبني ربي فأحسن تأديبي »[3] ويبطل هذا زعم ابن الأثير في أن غريب النبوة كان متداولاً معروفًا . ولما كان تعريف البلاغيين للغرابة « بأن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها ، فيحتاج في معرفتها إلى من ينقر عنها في كتب اللغة المبسوطة »[4] .

---

(١) انظر : فنون الأدب : هوب ، تشارلتن ، ترجمة د .ي زكي نجيب محمود ص ١١

(٢) المثل السائر ٢٣٤/١

(٣) انظر : إعجاز القرآن للرافعي ص ٣٥١

(٤) الإيضاح : القزويني ٤ ط صبيح ١٩٦٤

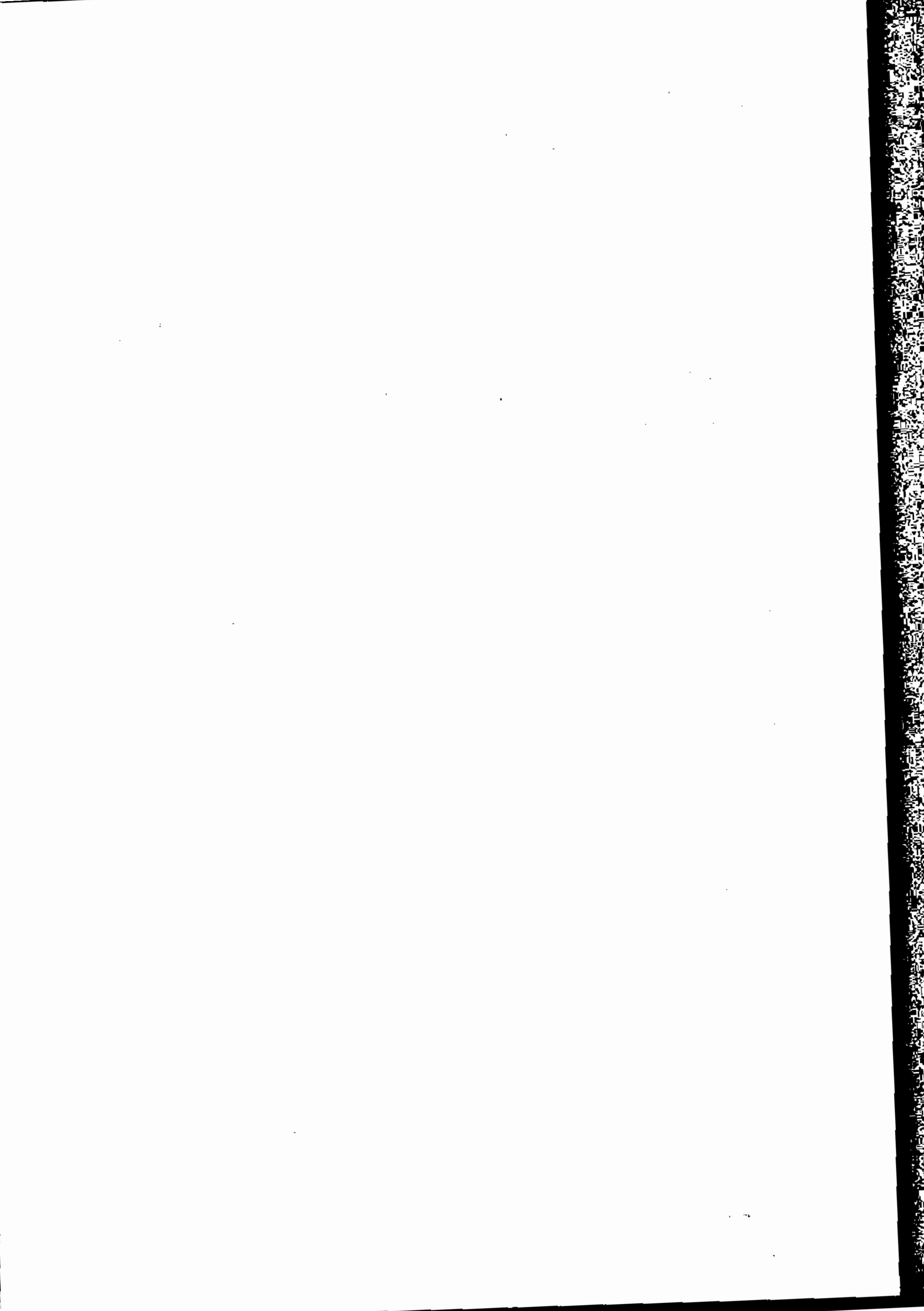
لما كان هذا التعريف موهما بإخراج الفصيح العربي غير المتداول وهو كفل عظيم من تراثنا القديم ، وعلى هامته غريب القرآن ، وغريب الحديث ، عدل بعض المحدثين التعريف السابق إلى آخر جامع مفيد وهو «كون الكلمة غير ظاهرة المعنى ، ولا مألوفة الاستعمال عند خلص العرب (لا عند المؤولين لأن كثيراً مما في المعاجم غريب عندهم)[1].

نخلص إلى القول :

بأن ورود الغريب في بيان النبوة كان لابد منه نزولاً على طبيعة البلاغة من مراعاة مقتضيات الأحوال ، أو توفير للتأثير برسم صور معبرة للمعنى بظلاله تمشيا مع أغراض الدعوة ، وتعبيرا عن مشاعر النبي ﷺ وكفى به أبلغ البلغاء .

* * *

(١) علوم البلاغة ، المراغي ، ص ١٦



الفصل الأول

الإيجاز

الإيجاز في عرف البلاغين : تأدية المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة ، ولاشك أن العرب ـ لأنهم فرسان البيان : وأمة البلاغة ـ قد فضلوا هذا النمط الأسلوبي ، فهم يكتفون بالإشارة الدالة واللمحة الخاطفة ، ثقة بذكاء السامع ، بل اعتبروه البلاغة الحقة ، قيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ فقال : الإيجاز ، قيل وما الإيجاز ؟ قال : حذف الفضول وتقريب البعيد[1] ، ولذا كان طبعًا عندهم لاعتمادهم على الذاكرة .

أسراره :

والواقع أن للإيجاز أسرارا في الفن الكلامي ، ومواطن التخاطب ،فهو دال على امتلاء اللفظ ، وقوة الحبك ، وشدة التماسك ، ثم إنه يزيد في الكلام عن طريق الإيحاء ، لأنه يترك على أطراف المعاني ظلالا خفيفة يشتغل بها الذهن ، ويعمل بها الخيال ، ويفتح آفاقًا للفكر تتشعب وتتلون بمعانٍ أخرى يتحملها اللفظ بالتفسير أو بالتأويل ، كما أنه دال على طواعية الألفاظ ، ومرونتها ، فهو يتطلب جهدًا وروية لأنه تصفية وتنقية ، وتصعيد وتركيز ، ولا يتهيأ ذلك إلا بطول النظر والتعهد ولذا كان للكلمة الموجزة سحر يأخذ بالقلوب وشعر يجرى في الشعور[2]، ومن هنا كان لا ينبغي أن يواجه به إلا الخاصة ذوو الأفهام الثاقبة والعقول الراجحة[3].

---

(١) انظر : الصناعتين ص ١٦٧

(٢) انظر : دفاع عن البلاغة : أحمد حسن الزيات ص ١٠٥ وما بعدها

(٣) انظر : سر الفصاحة ، لابن سنان الخفاجى ص ٢٠٣

لكل هذه الأسباب مجتمعة نجد نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام يمتدح الإيجاز ، ويوجه إليه ويعجب به ، ويتخذه في أكثر أحاديثه نهجًا شديدا ، سمع رجلاً يقول لآخر : « كفاك الله ما أهمك» فقال :«هذه البلاغة» وسمع آخر يقول «عصمك الله من المكاره» فقال : « هذه البلاغة»[1] وتكلم رجل عنده ، فقال له ﷺ : « كم دون لسانك من حجاب»؟ فقال شفتاى وأسناني فقال له : « إن الله يكره الإنعاق في الكلام ، فنضر الله وجه رجل أوجز في كلامه ، واقتصر على حاجته» ، وسئل : فيم الجمال ؟ فقال : « في اللسان» وقال :« إن من البيان لسحرًا» وقال عن نفسه « أوتيت جوامع الكلم وخواتمه»[2].

وقد قسم البلاغيون الإيجاز إلى إيجاز بالحذف ، وإيجاز بالقصر ، وفيهما سنرى كيف كان النبي ﷺ بحق أبلغ البلغاء ....

أولا : الإيجاز بالحذف

لقد نال القرآن الكريم حظًا جديرًا به ـ على الأقل ـ في بيان حذفه وأسراره قديما وحديثا ، وهذا بعض ما يجب على المسلمين نحو القرآن نهوضًا بالدين والأدب ، أما البيان المحمدي فلم نعلم أحدًا عالج حذفه ، وخاض غماره ، واستلهم البلاغة النبوية شيئا من مكنوناتها ، وإن هي إلا شذرات ، لا تؤلف منهجا ولا تغني غناءً ، ومنهجنا : إصدار أحكام على هدى بصيرة ، بعد ما يشبه الاستقصاء من حشد ما يمكن من أساليب نبوية صحيحة بحثًا علميًا وأدبيًا .

أولا : حذف حرف أو أداة

١- قال رسول الله ﷺ لأنجشة : « يا أنجش رويدك سوقك بالقوارير »[3].

---

(١) انظر : العمدة لابن رشيق ٢٤١/١ ط السعادة

(٢) انظر : العمدة ٢٧١/١ ، والبيان والتبيين ١٢٧٨/١ ، والشفا للقاضي عياض ١٠١/١

(٣) التاج الجامع ٢٧٩/٥

٢- وعنه ﷺ : «من أنفق زوجين في سبيل الله ، دعاه خزنة الجنة ، لكل خزنة باب : أي فل هلم»[1]

٣- عن أبي ليلى أن النبي ﷺ : سئل عن حيات البيوت فقال : «إذا رأيتم منهن شيئا في مساكنكم ، فقولوا : أنشدكن العهد الذي أخذ عليكن نوح ، أنشدكن العهد الذي أخذ عليكن سليمان ألا تؤذونا، فإن عدن فاقتلوهن»[2]

٤- عن عبد الله بن عمرو أن رجلا سأل النبي ﷺ : أي الإسلام خير ؟ قال : «تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[3]

وقال ﷺ :«والذي نفسي بيده ، لتأمرون بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله يبعث عليكم عقابًا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»[4] ونجد هنا : تنوع الحذف ، بين حرف قد حذف من بنـية الكلمة ترخيمًا في الأول «يا أنحش» والثاني :«أي : فل» ترقيقًا في الأول ، ولطفًا ، لأن المقام رحمة النساء في السفر ، فبنى الأسلوب على هذا الشعور ، من اختيار ألفاظ دالة وزاد الترخيم استرحاما وترقيقا ، وافتراضا ، لتلبية التوجيه بالرفق والرأفة ، والثاني : مقام سار يزف فيه البشرى لأهل الجنة ، ففيه دلال وتهنئة ومحبة ، دلالة على الامتزاج بالشعور المبهج ينهل نبيل العطاء والثواب .

وفي باقي الأحاديث جاء الاستعمال عربيا محضًا ، حبكا في الأسلوب وطلبًا للإيجاز فالأول : أنشدكن العهد ، والأصل : أنشدكن بالعهد ، و«أي الإسلام خير تطعم الطعام»، والجملة في موقع الخبر ، فلابد من تقدير «أن» المصدرية ، ونجد إخراج الأسلوب على المضارع الحالي افتراضا لوقوع الصفة وامتثالها والإخبار عنها ، وكذا في الحديث :«ليوشكن الله يبعث عليكم عقابًا» والمقام تهديد لترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ولما كانت أن

---

(١) التاج الجامع ٣٣٧/٤
(٢) المرجع السابق ١٠٠/٣
(٣) المرجع السابق ٢٧/١
(٤) المرجع السابق ٢٥٥/٥

المصدرية تمحض الفعل للاستقبال حذفها ، ليجعل العقاب النازل من الله كائنا حالاً ، تهديدًا وتأكيدًا .

حذف أداة النداء :

١- عن أبي مسعود قال : بعثني النبي ﷺ ساعيا ثم قال «انطلق أبا مسعود ، لألقينك يوم القيامة تجيء وعلى ظهرك بعير من الصدقة له رغاء قد غللته رفاء قد غلته ، قال : إذًا لا أنطلق ، قال ، إذًا لا أكرهك»[١].

٢- قال ﷺ لأبي بن كعب : يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قال : قلت : الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، قال : فضرب في صدري وقال : «ليهنك العلم أبا المنذر»[٢].

٣- قوله ﷺ لمن هاجر إلى الحبشة «لكم أهل السفينة هجرتان»[٣]

٤- قال ﷺ «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته ، حلت له شفاعتي»[٤].

٥- عن عائشة رضي الله عنها كان مما يعوذ به النبي ﷺ أهله «اللهم رب الناس مذهب الباس ، اشف أنت الشافي ، لا شافي إلا أنت شفاء لا يغادر سقمًا»[٥].

٦- عن خالد بن الوليد عن رسول الله ﷺ علمه أن يقول «وقت نومه» اللهم رب السموات السبع وما أظلت ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت كن لي جارا من شر خلقك كلهم»[٦]

وهذه الأحاديث تدور حول حذف أداة النداء مع نيتها ، وبقاء أثرها ، والواقع أن هذه ـ ظاهرة أسلوبية ـ لم تلق عناية ممن تكلم في النظم البلاغي وهي

---

(١) التاج الجامع ٨٩٢/٤
(٢) المرجع السابق ١٣/٤
(٣) المرجع السابق ٢٧٤/٣
(٤) المرجع السابق ١٦٦/١
(٥) المرجع السابق ٢١٤/٣
(٦) المرجع السابق ١٣٨/٥

ظاهرة اقتضتها بلاغة الأسلوب المعبر عن حال صاحبه المناسبة للمقام وحال المخاطب دلالة على قوة البيان(1).

والملاحظ في الحديث الأول «انطلق أبا مسعود» أن المقام نصح وتخويف من غل أموال الصدقة، والخوف الممتزج بالرحمة، فضيق المقام هنا يقتضى حذف الأداة.

والثاني: «ليهنك العلم أبا المنذر»، وقد ذكرت الأداة: (يا) صدر الحديث لأنه اختبار واستخبار، وتلطف بالمسئول، تلقيًا له بما يحبه، فلما وفق للإجابة زاد تقريبا واقتضى هذا حذف الأداة مبالغة في القرب، وإظهار الحب، وفيه ترغيب في الآية المباركة، ونفس المقتضى في الحديث «أهل السفينة»، وقد زاد على التقريب والمؤانسة، إشهار فضلهم، بإظهار عملهم الجليل، وجعلهم أهل السفينة ملازمين لها، إشارة إلى هجرتهم إلى الحبشة في سبيل الله.

وباقي الأحاديث: ابتهالات وتضرعات ذاتية، أو تعليمية، وقد حذفت في جميعها الأداة وحين يتوجه النداء «بيا» إلى رب العزة، وهي موضوعة على الأرجح لنداء البعيد والله أقرب إلى الإنسان من نفسه يكون الغرض استقصار الداعي لنفسه، واستبعاده عن مرتبة المدعو نحو «يا الله»(2) تعظيما وتقديسا، وهنا ملاحظة يشار إليها هي اتباع المنادى وهو صفة الله ـ تعالى ـ للفظه «اللهم» قد اطرد فيه حذف أداة النداء «اللهم رب هذه الدعوة» و «اللهم رب الناس» اللهم رب السموات السبع(3)، والسبب في هذا:

أن لفظه: اللهم: فيها إخلاص النداء، وإحساس بالقرب الإلهي، وبترقي الأسلوب بالشعور مصوراً غلبة الانفعال الإنساني، وصدق الحس بزيادة القرب

---

(1) قلنا إنها ظاهرة لوفرة أمثلتها وإلا فقد ورد منها العديد في القرآن

(2) انظر: المطول على التلخيص للتفتازاني: ص ٣٤٤

(3) ومثله في القرآن ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ (آل عمران:٢٦)

من الله مع الوصف بصفة كبرى تناسب وتهز الوجدان الإنساني «رب السموات، رب هذه الدعوة، وهي الآذان يسري في الآفاق وضينا، أو بالربوبية رب الناس» ومتعلقات الصفات محسوسة لها ظلالها العميقة، وهذا يؤكد القرب، ويوجب حذف الأداة، دلالة القرب الرتبي، والحسي ادعاء، وبقية أحاديث التضرع فيها مع القرب ورجاء الإجابة ـ ملمح نفسي خاص يدعو إلى الحذف، ففي حال المرض والبلاء نازل بالمؤمن نجد صدق الابتهال، وضيق المقام، واهتزاز الضعف البشري، فهنا الاندماج والوجازة، «اللهم رب الناس مذهب الباس» تصور النغمة نفسها حالة الحزن وصدق التضرع عند المتكلم، وفي التفويض إليه من الأرق: اللهم رب السموات وما أظلت، ورب الأرضين وما أقلت، ورب الشياطين وما أضلت بإضافة الربوبية إلى مخلوقات ضخمة جبارة، ونلاحظ أن القرب غرض عام قوته الحالات النفسية الخاصة التي هي أثر المقامات والأحداث والانفعال بالحياة بما يعتبر مقتضى حال يمكن أن ينفرد بسر الحذف، كما لا يخفي شدة التلاؤم بين الأساليب ونظمها واختيار كلماتها، وبين الحالات العامة أو الشعورية الإنسانية.

حذف الفعل:

التحذير:

١- قال رسول الله ﷺ «إياكم وكثرة الحلف في البيع فإنه ينفق ويمحق»[(١)]

٢- وقال عليه الصلاة والسلام «إياكم وسوء ذات البين فإنها الحالقة»[(٢)].

٣- وقال «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»، «إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[(٣)]

٤- قال ﷺ في الصوم «إياكم والوصال، إياكم والوصال»[(٤)].

---

(١) التاج الجامع ١٩٦/٢

(٢) المرجع السابق ٢٥/٥

(٣) المرجع السابق ٢٩/٥

(٤) المرجع السابق ٧٠/٢

الإغراء :

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما : كان آخر كلام النبي ﷺ « الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم » [١]

٢- من حجة الوداع قوله ﷺ : « أيها الناس السكينة السكينة » [٢]

٣- قال النبي ﷺ لمسلمة :« يا بني مسلمة دياركم تكتب آثاركم » [٣]

٤- « يا أنجش رويدك سوقك بالقوارير » [٤]

٥- قال ﷺ لأبي ذر ، وقد خرج إلى حرة المدينة ، « مكانك حتى آتيك » [٥].

ونجد هنا القصد إلى المُغْرَى به مباشرة حثًا عليه وترغيبًا فيه ، ودفعا به إلى القلوب مرة واحدة فالصلاة صلة روحانية تجعل المرء بحضرة الله دوما ، وفي حجة الوداع يدعو المشهد إلى الوقار والاعتبار وخوفا مما يسببه التدافع في الزحام ، و« دياركم » حث على لزومها ، والإقامة بها لتكثير الثواب بكثرة الخطا إلى المسجد ، والأنجشة حادي الإبل بالزوجات الطاهرات و « رويدك » رفقًا وحدبًا ، ولأبي ذر « مكانك » ، فهو بشر لا يطيق لقاءات النبي ، والملائكة فكأن المقام لا يتحمل بسطًا ، وذكرا للفعل ، وأن هي إلا كلمة مركزة جامعة للشعور ، قاصدة إلى ما عمت فائدته ودعت الحاجة إليه ترسيبًا في الوجدان وتثبيتا في الأذهان .

التهديد :

من حديث حذيفة عن النبي ﷺ في الفتن « إن السعيد لمن جنب الفتن (ثلاثا) ولمن ابتلي فصبر ، فواها » [٦]

---

(١) التاج الجامع ٢/٢٧٦
(٢) المرجع السابق ٢/١٠٧
(٣) المرجع السابق ٢/٢٣٢
(٤) المرجع السابق ٥/٢٧٩
(٥) المرجع السابق ٥/٢١٨
(٦) المرجع السابق ٥/٣٠٣

جاء رجل إلى النبي ﷺ يوم الفتح ، فقال : يا رسول الله إني قد نذرت لله إن فتح الله عليك مكة أن أصلي في بيت المقدس ركعتين فقال : «صل ههنا ، ثم أعاد عليه فقال : صل ههنا ، ثم أعاد عليه فقال شأنك إذًا»[1]

من حديث الحوض عن رسول الله ﷺ «ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال ، أناديهم ، هلم فيقال إنهم قد بدلوا فأقول سحقا سحقا»[2]

عن اللقطة : «اعرف عفاصها ووكاؤها ثم عَرِّفْهَا سنة فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها»[3]

والحديث الأول فيمن ابتلي بالفتن فباشرها وسعى فيها ، فكأن التقدير : فواهًا لمن سعى فيها ولم يصبر على أذاها ، فحذف الفعل ومتعلقه ولم يبق إلا «واها» بمعنى حسرة من الجملة وكما تبقى الحسرة وحدها لمن اندفع في الفتن ، ونلاحظ مع التهديد والتحذير ، الإشفاق لمصيره المؤلم ، بيد أن الكلمة تعطي مالا تعطي كلمة حسرة أو هلاكا ، لأنها معبرة بصوتها عن التأوه وإنه لصوت يوحي بفيض الألم والحزن وهذه الكلمة تضم أمشاجا من انفعالات شتى فهناك التهديد والوعيد والتحسر والرحمة وتفخيم الفتن ببيان أثرها المدمر .

ثم نجد كلمة واحدة ، شأنك ، جاءت في مقامين مختلفين فأعطت مدلولين متغايرين قيلت في الحديث الثاني لمن نذر صلاة في المسجد الأقصى إذا فتحت مكة ولم يقبل الإرشاد فلم يبق إلا التهديد ، فشأنك إذًا ، أي اعرف شأنك إذا ذهبت ، يعني أنت حر طالما انفردت برأيك ، وحذف الفعل هنا فيه مع التهديد التبرم بمن لم يتقبل الإرشاد ، وهذا المقام أخذ لفظتين من جملتين لينهي حديثا غير مثمر مع من ركب رأسه .

---

(١) التاج الجامع ٢١٨/٥

(٢) المرجع السابق ٢٧٩/٥

(٣) المرجع السابق ٢٤٧/٢

واللفظة ذاتها جاءت في الحديث الأخير جاءت تشريعا وتوجيها في أحكام اللقطة لمن يعرفها منه وقد حذف الفعل للإباحة : يعني أنت حر بعد تعريفها سنة ـ إما حفظتها وإما انتفعت بها ، وهذا من براعة النظم في البيان النبوي .

أما حديث الحوض : فهو لقطة من اليوم الآخر ، والكلمات هنا بقدر حفظا على الصورة ، فهنا : طرد لبعض من يرد الحوض المحمدي دون إبداء أسباب ، ثم هنا حوار يعرف منه النبي تبديل المطرودين ، وقد أهملت الصورة هؤلاء المطرودين فلا تنازع ولا جدل ، ولا صوت ، وقد حذف المفعول في « بدلوا » تعظيمًا وتمهيدًا للحكم ، سحقا سحقا ، الذي حذف فيه فعله وناب عنه مصدره مكررا لتفأجهم بالحدث المجدد وحده السحق والهلاك دلالة على الغضب ونذيراً للتهديد والوعيد الذي يبلغ مداه .

الابتهال والمناجاة :

١- كان رسول الله ﷺ يقول في القيام من الركوع « ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد »[١].

٢- استسقى رسول الله ﷺ للناس ، فمطروا من جمعة إلى جمعة ، فشكوا إليه الضرر ، فقال ﷺ للناس : « اللهم على رءوس الجبال والآكام وبطون الأودية ، ومنابت الشجر »[٢] وكان إذا رأى المطر قال « اللهم صببًا نافعًا[٣] » وقد قال ﷺ في مرة استسقى لقومه « اللهم حوالينا لا علينا »[٤] والتوجه بالخطاب إلى الله في حالة صفاء النفس وذوبان العاطفة في مقام الشكر والثناء ، لك الحمد حمدا يملأ السموات ، ويملأ الأرض ، ونجد تكرار « ملء » تأكيدًا لكثرة الحمد ، وإقرارا بالشكر ، والتمجيد ، بيد أن الملء مفعول لفعل من مادته فحذفه تنزيها للأسلوب عن الجمع بين

---

(١) التاج الجامع ١٩١/١ (٢) المرجع السابق ٣١٦/١

(٣،٤) المرجع السابق ٢٨٦/٣

الأمر ومصدره ومبالغة في هذا الملء المجازي صدقا في المناجاة والرغبة إلى الله .

كما نجد هذا الاهتزاز الوجداني الداعي إلى الحذف في مقام التضرع برفع البلاء والضر «اللهم على رءوس الجبال» اللهم حوالينا ، اللهم صببا نافعا ، ونلحظ البدء بلفظ الجلالة فخمًا قويًا دليلاً على الضعف واللجوء ، ثم المقصود مباشرة بعد حذف الفعل كأن مقام الكرب والبلاء لا يتحمله ، مبالغة في الدعاء وإخلاصا فيه وذكراً للأهم في مصالح العباد والبلاد .

الترغيب :

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول الله من أبر؟ قال : «أمك ثم أمك ثم أمك ،ثم الأقرب فالأقرب»[1].

١- جاءت الأنصار إلى الرسول الله ﷺ يوم أحد فقالوا : أصابنا جهد وقرح فكيف تأمرنا؟ قال : «احفروا وأعمقوا وأوسعوا ، واجعلوا الرجلين والثلاثة في القبر ، قيل : فأيهم يقدم ؟ قال : أكثرهم قرآنًا»[2]

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ يستأذنه في الجهاد ، فقال : ألك والدان قال : نعم : قال «ففيهما فجاهد»[3].

ونلاحظ في هذه المجموعة أن الفعل المحذوف وقع في كلام جوابًا عن سؤال سابق كما يلاحظ أهمية المقام وخطورته ، كمقام الإحسان إلى الوالدين ، وطريقة دفن الشهداء في موقعة أحد ، إن المقام لا يتحمل إيضاحا بل لقد أعفت القرينة من ذكر ركني الجملة وبقي المتعلق ، أو حذف الفعل وبقي نائب الفاعل ، لتوقف الفائدة على المهم شدة في التركيز ، وترغيبا في بر الأقارب ، وإن كنا نلمس في حديث «أحد» جو الحزن والانقباض وهو يستدعي الوجازة وإن كانت فياضة بالشعور ، ونلمح في الحديث الثاني ما اقتضاه مقام الترغيب

---

(١) التاج الجامع ٣٤٢/٤ (٢) المرجع السابق :٥٨٠/١

(٣) المرجع السابق : ٣٨/٣

من التأكيد الشديد في قوله «ففيهما فجاهد» بتكرار الفعل لزومًا ثم حذف أحدهما فصاحة فرارا من الجمع بين المفسر والمفسر له ، وقد اقتضى المقام تقدير الفعل قبل الفاء (فجاهد) لأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها فحذف من كل منهما ما تدل الأخرى عليه اعتمادا على الفعل ، ولهذا ماله من تأكيد واختصاص يدعم الغرض العام وهو بر الوالدين ، ولا بأس هنا : أن نشير إلى أن فاء الفصيحة دلت على شرط محذوف بأداته ، ولم يبق إلا جوابه أعنى : إذا كان لك والدان ففيهما فجاهد ، وقد حذف كل هذا ، واقتصر على الجواب مقدما فيه التعلق مكررا فيه الإسناد ليمكن للترغيب ويصل به إلى حد لا نزيد عليه وكفى به أن يسمي البرجهادا مجازا ، فالعبارة من أية جهة نظر إليها طغت المحاسن وأوجه البيان المعجز .

حذف المبتدأ :

١- قال رسول الله ﷺ «تعوذوا بالله من جب الحزن ، قالوا يا رسول الله وما جب الحزن ؟ قال : فإنه وادٍ في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة ، قلنا يا رسول الله ومن يدخله ؟ قال : القراء المراءون بأعمالهم»[١].

٢- قال ﷺ لرجل سأله عن الصدقة : «ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك ، فإن فضل عن ذى قرابتك فهكذا وكذا»[٢].

٣- عن رافع بن خديج قلت يا رسول الله إنا لآتوا العدو غدا وليست معنا مدى قال : «اعجل أو أرن ما أنهر الدم ، وذكر اسم الله عليه فكل ليس السن والظفر ، وسأحدثك : أما السن فعظم ، وأما الظفر فمدى الحبشة»[٣]

٤- قال ﷺ : «الطيرة شرك (ثلاثا) وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل»[٤]

---

(١) التاج الجامع : ٥٨٠/١

(٢) المرجع السابق ٣٨/٣

(٣) المرجع السابق ١٠٤/٣

(٤) المرجع السابق ٢٢٢/٣

هذه جملة من الأحاديث حذف فيها المبتدأ ، ولا يخفى أن البلاغيين ذكروا افتقار الحذف إلى أمرين : قابلية المقام وهو معرفة لسامع لوجود القرائن ، والثانى : الداعى الموجب لرجحان الحذف على الذكر لأنه الأصل[1].

وتجد هنا حذف المبتدأ وقد وقع جوابا عن سؤال سبق ، وهو قرينة تنافي ذكره وهذا ما يقصده البلاغيون بقولهم الاحتراز عن العبث في الظاهر لدلالة القرينة[2].

كما في الحديث الأول ماجب الحزن ؟ «واد في جهنم» وإن كنا نلاحظ أن المقام هنا : التخويف والتفظيع ، ثم الاقتصاد في التأثير على النفس بعدم تكراره اكتفاء بذكره لاسيما أنه لفظاعته قدمه الحديث على دفعات ساعد الحوار على تصعيدها وجو الرعب مسيطر على الحديث كله ، وحذف بعض الأصول هنا كالمبتدأ ، والفعل في «من يدخله» والقراء المراءون ملائم لحالات المخاطبين النفسية وإظهار النفور والضيق من هذا العذاب المهين .

وفي حديث التصدق : وقع المبتدأ المحذوف صدر جملة الجزاء ، ومع ظهور القرينة في الشرط السابق «فإن فضل شيء» وافتراض العبث وتخييل الاعتماد على العقل في معرفته تأكيدا ، نلاحظ القصد مباشرة إلى الخبر ، المتصدق عليه ، لأنه الأهم عند السائل لتعيين جهات الإنفاق ، ثم افتراض ما يفضل عن حاجة السامع ومن كان مثله وحاجة أهله ، وذوى قرباه ، والمبتدأ في كل ذلك ملحوظ عقلا مفهوم من السياق مقررًا واقعًا ، أما حديث السن والظفر ، فهما مذكوران في الشرط صريحًا ، وقد حذفا من صدري الجملتين أنفة ونفورًا ، خاصة أن الخبر هو المبتدأ في المعنى ، فذكره ـ تأكيدًا ـ لا داعي له فهو ساقط في الحكم والاعتبار ساقط في الأسلوب تلاؤما بينهما .

أما حديث الطيرة فجمال كله «الطيرة شرك ، ومامنا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل» وهو يصدر الطبع البشري ووقع ما يتشاءم منه ويقبح في النفس ، وقد

(١،٢) انظر : المطول على التلخيص ص ٦٧ .

ظهر في معرض القصر ، والمقصور عليه محذوف ، وهذا غريب ، لكن عندما ندرك أن المبتدأ وهو من يتشاءم أو من يتأثر بمثل الضعف البشري ، وينافي قوة اليقين ، ستره بالحذف كما تستر العورات ، وأخفاه كما يخفي الرذل من الطبائع ، رغبة عنه ، ونفورًا ، ثم يصحو الأسلوب بعد ذلك قويا عند الالتجاء إلى الله « ولكن الله يذهبه بالتوكل» وحديثنا هذا لا يقضي منه المرء عجبا كلما زاده نظرا طغى جمالا .

ترك الخبر :

قال رسول الله ﷺ :« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا بلى يا رسول الله : قال : إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة »[1]

سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار قال : « الفم والفرج »[2]

عن سفيان الثقفي ﷺ قال : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليَّ ؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال « هذا »[3]

عن سعد بن عبادة أنه قال : « يا رسول الله إن أم سعد ماتت ، فأى الصدقة أفضل ؟ قال : الماء ، فحفر بئرا ، وقال : هذه لأم سعد »[4]

وفي هذه المجموعة وقع الكلام جوابا لسؤال محقق دل على المحذوف ، وعلى هذا فليس من الفصاحة ذكر الخبر مع الدليل القوي عليه ، وقد اتخذت هذه المجموعة أسلوب التفضيل ، وجاء الجواب بالمفضل المذكور : إصلاح ذات البين ، هذا (اللسان) ، الماء ، وحذف المفضل عليه مع أفعل التفضيل الواقع خبرا ، حبكا للكلام ومبالغة في أثر هذه المبتدآت ، وأنها وصلت إلى منزلة لا تلحق ترغيبا في إصلاح ذات البين ، وحفر الآبار ووقف العيون في سبيل الله ، وترهيبا من آثار الفم والفرج ، واللسان وهو أخص من سابقه .

---

(١) التاج الجامع ٧٥/٥
(٢) المرجع السابق ٦٢/٥
(٣) المرجع السابق ١٨٣/٥
(٤) المرجع السابق ٣٨٣/١

دلالة الشرط على الخبر :

قال ﷺ في تنظيم أمراء الجيش في غزوة «إذا كان القتال فعليٌّ»[1]

عن معيقيب رضي الله عنه قال : ذكر النبي ﷺ المسح في المسجد (يعني الحصا) قال : «إن كنت لابد فاعلا فواحدة»[2]

وقد وقع الخبر ركنًا في جملة وقعت جواب شرط دل على المحذوف ، والتقدير : إذا كان القتال فعليٌّ القائد ، وإن كنت لابد فاعلاً فواحدة تكفي أو تجوز ، واقتضى المقام إفراد عليٍّ في القيادة ، والأسلوب أيضا ، وفيه مدح لعليٍّ ، وإشادة بكفاءته ، وترك الخبر لأنه معلوم عقلاً وواقعًا ، مع ما فيه من تكثير الفائدة ، فإن الخيال يذهب في المتروك مذاهب كالقيادة والسيادة والإمارة ، والكفاءة وكلها جائز يراد .

أما الثاني ففيه مع الاختصار الإجمالي والترك ، وعدم الاهتمام بالخبر لأنه الحد الفاصل بين جواز الصلاة وإبطالها مع ما فيه من منافاة الخشوع ، والتدبر والإقبال على الله كل هذا ينافيه العبث بالحصى .

تكثير الفائدة :

قال رسول الله ﷺ «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم قلنا يا رسول : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن؟»[3]

قال رسول الله ﷺ «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادي مناد يا أهل الجنة لا موت ، يا أهل النار لا موت»[4].

---

(١) التاج ٣/٣٣٦

(٢) المرجع السابق ١/١٦٠

(٣) المرجع السابق ٢/٤٣

(٤) المرجع السابق ٥/٤٢١

والاكتفاء بالمبتدأ دون الخبر له وقعه القوي في الوجدان شاغلاً عما سواه ، وهذا ما يرسخ المعنى ، ويقوي الغرض ، كالحديث « يا أهل الجنة لا الموت ، يا أهل النار لا الموت» ووقع هذه الكلمة على أهل الجنة حياة جديدة لهم ، وعلى أهل النار موت معنوي لهم ، وبقية الحديث : « فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم» رواه البخاري ، وزاد مسلم والترمذي ، « فلو أن أحدا مات فرحا لمات أهل الجنة ، ولو أن أحدا مات حزنا لمات أهل النار»[1] .

وهذا يفسر انفراد المبتدأ أو اسم لا بإيحاءات شتى يقلل منها ذكر الخبر فهنا تكثير الفائدة ، وزف البشرى والمبادرة بالتهنئة في جانب أهل الجنة وفي أهل النار الإسراع بالإساءة ومضاعفة الكمد والغم جزاءً لهم .

أما غرض الحذف في الحديث :« قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟» فنجد مع تكثير الفائدة باتساع التأويل في المحذوف ، « فمن غيرهما » ، أو قائدكم أو المضل لكم أو المتبعون لهم . . . سيطرة الأسف والألم على الأسلوب فاختزال الإجابة في ثلاثة أحرف لكنها تملأ الدنيا نفورًا وإنكارا ، مع أخذهما بأعناق كلام طويل ، إن لم تتبعوا اليهود والنصارى فمن غيرهما تتبعون ، فحذف فعل الشرط ، وأداته وخبر المبتدأ ؛ لأن المقام النفسي من الضيق والتحزن والإنذار لفترة من المستقبل مظلمة ـ لا يتحمل بسطًا في الألفاظ أو حتى ذكرها على طبيعتها كما أن حال المسلمين في تلك غير محبوبة وغير متفقة مع هدي الدين .

وقد نجد حذف الخبر اكتفاء كما في الحديث : قال رسول الله ﷺ لرجل سأله :

---

(١) انظر : التاج الجامع : ٥/٤٢١

«لا يمين عليك ، ولا نذر في معصية الرب ، ولا في قطيعة رحم ، ولا فيما لاتملك[1]»

وخبر لا الأولى «عليك» دل على خبر لا الثانية اكتفاء ثم استقباحًا لهذا الإلزام فيما يشذ عن الخلق ويغضب الله وإعراضًا عن الخبر في الأسلوب دلالة الإعراض عن هذا الإلزام وهذا من التلاؤم بين واقع الأساليب ، وواقع الحياة .

حذف الموصوف :

قال رسول الله ﷺ لمن رفع صوته بالدعاء «إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا»[2]

وعنه ﷺ «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا»[3]

من حديث «فتنة القبر» عن الكافر «ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد»[4].

عن معاذ بن جبل ﷺ قلت يا رسول الله : أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار قال : «لقد سألت عظيما ، وإنه ليسير على من يسر الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت»[5]

وقد حذف الموصوف في هذه الأحاديث ودلت عليه القرينة ، واقتضاه مقام نفسي أو لفظي ، ففي الأول : إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، حذف المفعول الموصوف هنا وهو «إلهًا أو ربًا» تأدبا وسموا خلقيًا ، وبالابتعاد عن إلصاق صفة غير الكمال بلفظ الموصوف ـ جل وعلا ـ لفتة نفسية دالة على كمال الخلق المحمدي صدقًا وتأدبًا وتعليمًا .

---

(١) التاج الجامع ٤٨/٣
(٢) المرجع السابق ١٠٢/٥
(٣) المرجع السابق ٢٠٤/٥
(٤) المرجع السابق ٢٠٩/٥
(٥) المرجع السابق ٤٩/٢ ، ٥٠

والحديث الثاني سبق في مقام التخويف ، فقد عرضت مشاهد من الملكوت الأعلى على نبي الله عليه الصلاة والسلام وهو مقام شديد يقتضي خطم الكلام واللمح فيه والاكتفاء بالإشارة الدالة ولو قال : لضحكتم ضحكا قليلا ، ولبكيتم بكاء كثيرا لكان العبث ومنافاة المقام الجاد ، فحذف الضحك لمنافاة تكراره للمقام ، وحذف البكاء اقتصادًا في التحزين ، وبعثا للأمل الواعي .

وفي فتنة القبر حذف الموصوف لدلالة السياق ، والأصل : ثم يقيض له من الزبانية واحد أعمى أبكم ، فذكر الصفة وحذف الموصوف مبالغة في التخويف والتنفير ويكفي أن يتصور الخيال مخلوقًا أعمى أبكم لا يتأثر ولا يستجيب قابضا على فريسته لا ملجأ لها ينزل بمقامع الحديد عذابا هائلا عليها ، بهذه الصفات المرسومة بدقة تثير الرعب ، والفزع ، وهذا ما يناسب الكافر ويقدم مشهدًا من فتنة القبر .

وفي حديث معاذ «لقد سألت عظيما ، وإنه ليسير على من يسرالله عليه» ، والأصل : لقد سألت أمرًا عظيمًا ، وإنه ليسير على من يسر الله عليه ، فاكتفى بالصفة مبالغة في الموصوف ، وبيانًا لشأن الأمر وعسرته وشدته وحين تأتي الشدة والعسرة إلى جانب الله بالتوكل عليه تذوب الشدائد ، ويسهل الصعب ، فصفة اليسر قصد إليها مباشرة بالذكر مبالغة في يسر الأمر وبيانا لعظمة الله ومزيد فضله ، ولعل في هذا الطباق - فوق التأكيد - بعث الإرادة لتسارع أهواء الحياة ، ونزعات النفس وهو أمر عسر ، وحتى لاتنهزم الإرادة أتى بالجانب الآخر وهو تيسير الله وهداه ، فكأنه الصراع المستمر يهون باللجوء إلى الله دفعة أخرى للتقوية والتثبيت .

حذف المضاف :

١- قال رسول الله ﷺ لابن عباس «احفظ الله يحفظ ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله»

٢- قال رسول الله ﷺ لمن أرادت أن تحج عن أمها «اقضوا الله فالله أحق بالوفاء».

٣- «اذبحوا لله في أي شهر كان وبروا لله وأطعموا»[١]

٤- قال ﷺ : «أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٢]

٥- من حديث المعراج قال إبراهيم عليه السلام «يا محمد أقرئ أمتك منى السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر»[٣]

٦- من دعاء النبي ﷺ «اللهم إني أعوذ بك من الهدم»[٤].

٧- وقال ﷺ «الماء من الماء» .

٨- وقال ﷺ «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم ينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله ، وعمله وشقي أو سعيد»[٥]

هذه الأحاديث تتنوع المقامات فيها بين ترغيب ، وإرشاد واعتبار ويمكن رد أسباب الحذف فيها إلى مايلي :

التفخيم والمبالغة :

كما في الأحاديث «احفظ الله يحفظك ، اقضوا الله ، بروا لله ، ليس مني»، لكنه أوقع الفعل مباشرة على لفظ الجلالة وأدخل من الجارة على ضمير المتكلم ﷺ ، ليوفر للترغيب في الثلاثة الأول ، والترهيب في الأخيرة القوة والمضاء بالتفخيم لهذه المحذوفات أعني : دين الله ـ حق الله ـ خلق الله ـ أمة ـ

---

(١) التاج الجامع : ١٠٩/٣ .

(٢) المرجع السابق ٤٨/١ .

(٣) المرجع السابق ١٠٠/٥

(٤) المرجع السابق ١٢٦/٥

(٥) المرجع السابق ١٠٩/١

أو دين ، لأنها اكتسبت الفخامة من المضاف إليه ، فكأن التعامل مباشرة مع الله ورسوله ، والحفظ والقضاء والبر له سبحانه والرهبنة انفصال عن ذات الرسول ليكون أوقع في النفس وأثبت للمعنى ، وآكد للغرض .

استحضار المضاف إليه :

كما نجد حذف المضاف لإحضار المضاف إليه وحده في الذهن تنبيهًا إليه ، وحشدًا له لأنه أقوى تعبيرا وأشد إيحاء ، وأثبت للغرض ، فغراس الجنة سبحان الله والحمد لله . . . فهذه الصيغ واقعة في الدنيا وأصل العبارة ، ثمن غرسها وسبب امتلاكه : فحذف المضاف مبالغة ، وإيهاما وتخييلاً ، لأن صيغ الذكر هي نفس الغراس ترغيبا فيه .

ونجد الاستعاذة « أعوذ بالله من الهدم » واقعة على الهدم ، ونلاحظ القوة في الدعاء والخطاب ، وقد حذف المضاف « موت الهدم » إحضارًا للهدم ، لأنه الأهم في إثارة المشاعر وتحريك الخيال ، تصويرا لجدر يقع ، وسقف تتقوض ، وغبار يثار ، وصرخات تطول بيانًا لحال الهدم وتفظيعًا له حتى يتم اللجوء إلى الله تعالى بصدق كبير .

كما نجد التفنن الأخاذ في الحديث « الماء من الماء » ، وقد كان منذ أول الدعوة تيسيرا ، فالاحتلام والجماع بلا إنزال لا غسل فيه ، ويهمنا هنا حسن العرض وإيجاز الحكم ، وحذف مضافين في العبارة : إنما استعمال الماء بالغسل من نزول الماء ، فحذف وأبقى دعامتي المعنى ـ الماء من الماء ـ فهذا سبب الجنابة وهذا مزيل النجس ، وهو الأخير وقوعا وأسلوبا فهو الغالب القوى ، وتكرار هذا اللفظ جعل للأسلوب نضارة وماء وصفاء ومخاتلة عما لا يحسن ـ تفننا وأدبا وجمالا .

أما حديث « خلق الإنسان » فنلتقي فيه بظاهرة : الاحتباك وهو الحذف من كل من الطرفين لدلالة الآخر عليه شدا لأسر الأسلوب ، وشغلا للذهن والخيال في الحرص على المعاني ليثبت بعد الوصول إليها فضل ثبات لاسيما أن

المعنى غريب نوعا في العقل والعادة ، ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، فهنا كلمات تكتب كلمة الرزق والأجل والعمل والشقاء أو السعادة ، ونلاحظ كيف بني الأسلوب ، على منواله تلاؤما بينهما جميعا ، وهذا من فن القول في الحديث .

المضاف إليه :

١- وقال ﷺ : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورًا ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[(١)].

٢- من دعائه ﷺ على قريش «اللهم اكفنيهم بسبع كسبع يوسف»[(٢)].

٣- قال ﷺ «لأن يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع ، ومن أعدادهن من الإبل»[(٣)].

ونلاحظ في جميعها حذف المعدود والاكتفاء بالعدد دالا عليه ، مذكرا أو مؤنثًا والأهم أن مع الإيجاز صرف الذهن عن المعدود ، وإحضار العدد ماثلاً في الخيال تأكيدا للمعدود ، ودعوة إليه ، وتسوية لأفراده في الأهمية ، مع إعطاء فرصة للخيال في الذهاب في تمثل المعدود كل مذهب ، وقد يحتاج الحذف إلى قرينة فيها معنى جديد كالحديث «اللهم اكفنيهم بسبع كسبع يوسف» ، وقد دل على المعدود ، سبع يوسف ، المتعالمة ، والتشبيه مع أنه قرينة يبين حال المشبه في قسوته ، وفي حذف السنين أيضًا تهويل وتفخيم لها ولما يكون بها من أحداث .

---

(١) التاج الجامع ٣٥/١ .

(٢) المرجع السابق ١٥١/٤ .

(٣) المرجع السابق ٥/٤ .

وفي حذف المعدود في حديث «القرآن خلابة وسحر» ، فالخيال يكاد يخلط من كثرة الحذف وسرعة الأسلوب بأربع محذوفات بين آيات «المشبه» وبين ناقات (المشبه به) قصدا إلى تأكيد الأفضلية والخيرية من الآيات على النياق ، استحضارًا للطرفين وتفخيمًا للمحذوف وترغيبًا فيه .

حذف المفعول :

القصد إلى أصل الصفة :

١- قال ﷺ «طعام أول يوم حق ، وطعام الثاني سنة وطعام يوم الثالث سمعه ، ومن سمع سمع الله به»[1] ، وقال ﷺ «من ضار ضار الله به ، ومن شاق شاق الله عليه»[2] ، وقال «ملعون من ضار مؤمنًا أو مكر به»[3].

٢- شاهد الأقرع بن حابس رسول الله يقبل أحد ابني بنته فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم ، فقال ﷺ «من لا يرحم لا يرحم»[4].

٣- قال ﷺ : «من أحب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان»[5].

٤- قال عليه الصلاة والسلام : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان»[6].

هذه الأحاديث قطع فيها الفعل المتعدي عن المفعول قصدا إلى أصل الصفة وإثباتها في ذاتها ، فهناك صفات التسميع والمضادة والشقاق والرياء وعدم الرحمة . . . ولأنها صفات نفسية لا يمكن أن تجزأ وإنما توجد أو لا توجد ، ولقد كان الجزاء من جنس العمل ترهيبا ، وإذا نظرنا إلى الحديث الأول : «من سمع سمع الله به» نجد الإنكار على هذه الصفة ذاتها قليلة أو كثيرة ، كما في الحديث «من ضار ضار الله به» والفعل ضار حذف منه المفعول لنفس الإنكار

---

(١) التاج الجامع ٢/٣٠٤ .

(٣،٢) المرجع السابق ٥/٢٣ .

(٤) المرجع السابق ٥/٧ .

(٥) المرجع السابق ٥/٧٨ .

(٦) المرجع السابق ٢/٤٤ .

والترهيب ، وحين نأتي إلى نفس الفعل واقعا على مفعول في الحديث «معلون من ضار مؤمنا» نجد تخصيصا ثم قصدا إلى ذكر المفعول بوصفه الباعث على الإشفاق لتقبيح المضارة ، والترهيب منها ، وأنها وقعت غير موقعها ظلما ، ولذا صدر الحديث بالدعاء باللعنة ، بينما الحديث الأول قصد إلى تقبيح الاتصاف بالصفة ذاتها ، ولا ريب أن الإطلاق في الجزاء سمع الله به يرائي الله به - لا يرحم مع نسبته إلى الله تعالى يمنح الوعيد قوة دافعة في النفوس .

وقد نجد العمد إلى أصل الفعل ، مع قرنه بعديد من الأفعال ، كشفا للأعماق وتهيئة للجزاء ، من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان ، وهذا ترغيب في التوجه بهذه الصفات مخلصة لله ، أما التنفير ففي الحديث آية المنافق ، فصفاته لازمة متأصلة في أعماقه لا يستطيع عنها حولا ، ولأنها بغيضة الأثر فقد قدم الحكم عليها بأنها من علامات النفاق .

البيان بعد الإبهام :

من قوله ﷺ يوم بدر «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد»[1] .

قال ﷺ «الوتر حق فمن شاء أوتر بسبع ومن شاء أوتر بخمس ومن شاء أوتر بثلاث ومن شاء أوتر بواحدة»[2].

ولقد حذف في الحديثين مفعول المشيئة إبهاما عند البلاغيين ، ثم دل عليه جواب الشرط الذي بينه ليقع في النفس أي موقع .

وإن كنا نلمح في الحديث الأول : ضيق المقام بالانفعال الخاص والابتهال الصادق والخوف الشديد من ضياع زهرة الإسلام الغضة ، إنها مخاوف نبي كريم ولكن لسانه الطاهر لا ينطق بها تأدبا مع الله ، وتشوفًا لأمل قريب في النصر .

---

(١) التاج الجامع ١٢٢/٤ .

(٢) المرجع السابق ٢١٣/١ .

حذفه نفورا :

من حديث أصحاب الغار من قول الثاني «اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء فطلبت منها . فأبت حتى آتيها بمائة دينار فبغيت حتى جمعتها»[1] .

وقال ﷺ «التثاؤب في الصلاة من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع»[2].

وقال ﷺ لمن تخطى الرقاب يوم الجمعة : «اجلس فقد آذيت»[3].

قال أعرابي بعد الصلاة ، من دعا إلى الجمل الأحمر ، فقال ﷺ : «لا وجدت ، إنما بنيت المساجد لما بنيت له»[4].

والمفعول في الحديث الأول : «طلبت منها فأبت» يعرض عنه الحديث حياء وأدبا وتعليما لهما ، وفي التثاؤب : نص أنه من الشيطان وقد ذكر مادة التثاؤب إحضارا له في الأذهان ثم جاءت معالجته ، ونلاحظ مادة الفعل كظم فيها مجاهدة ومعاناة مع حسن التخييل لأنه من كظم القربة إذا ملأها ثم أراد ربطها ، مع سبق الفعل بلام الأمر شحنًا للإرادة في المقاومة ، ثم حذف المفعول بعد هذه التهيئة النفسية ليكون الإعراض عنه (التثاؤب) ، والتنفير فيه قد وجدا استعداد من المخاطب للنفور والإعراض ، فالأحرى أن يسقط من الأسلوب مراعاة للحالة النفسية ، وأن يكظم فلا يخرج في الواقع ملاءمة وتفننا والحديث : «اجلس فقد آذيت» دل الحذف على النفور بشمول الإيذاء المؤكد بقد كما نجد ضيق المقام ، والضيق النفسي من هذا العمل في مسجد الله وعلى قرب من النبي ﷺ من تخط للرقاب وإهمال في التأخر ، فهنا تعانقت مقتضيات الحذف من ضيق المقام ، والإنكار ، وإرادة العموم ، ومثله : الحديث «لا وجدت» ، يعني الجمل فالحذف دل على نفور من الداعي والمدعو إليه ،

---

(١) التاج الجامع ٥٣/١

(٢) المرجع السابق ٢٠٧/١ .

(٣،٤) المرجع السابق ٢٨٩/١ .

والدعوة جميعا : ولا بأس أن نقدم هذا الحديث لأنه يثير الانتباه «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»[1] ، وقد ذكر مفعول به الفعل الثاني ترد وهو النار وإنه لتصوير يثير الخوف الإنساني حتى وهو غير واقع ، جزاء ، والنار هنا تقابل «الغيبة» المحذوفة التي ردها المسلم عن عرض أخيه ، ولم يذكرها أنفة وتقبيحًا ، وإنما ذكرها مقابلا رهيبا مبالغة في التنفير منها ، والجزاء من جنس العمل فكأن الغيبة نار وردها رد للنار ، وكما أن العرض غال فالوجه حساس ، والغيبة مردودة فهي ساقطة في الواقع فتركت في الأسلوب ملاءمة ، والحديث جامع بين الترغيب في نصر المسلم والترهيب من غيبة المسلم ، وبين الدنيا وبعض ما يقع فيها والآخرة ولون من مشاهدها .

المحافظة على السجع :

والمحافظة على السجع أو رعاية الموازنة ، وحده أو مع الاختصار غرض بلاغي قديم ، وسوف نرى أنه لا يقوم بالأساليب المسوقة لعلاج فكرة وتعبير عن عاطفة وإرادة ، ونقدم هذه الأحاديث :

من دعائه ﷺ «اللهم اغفر لي ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت»[2] ، ومن دعاء القنوت : «اللهم اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت»[3] ، ومن حديث الحياء : «استحيوا من الله حق الحياء ، قلنا يا رسول الله إنا نستحي والحمد لله ، قال : ليس ذاك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء : أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[4] .

والحديث الأول : دعا بالمغفرة ، ونلمس هذا الإلحاح الخائف ، والتموج الصادق ، والمغفرة ستر ومحو ، والتصريح بالذنب ينبو عن المقام ، وحذفه

---

(١) التاج الجامع ٥/٥٤ .
(٢) المرجع السابق ٥/١١٩ .
(٣) المرجع السابق ١/٢٠٠
(٤) المرجع السابق ٥/١٥٩ ، ١٦٠ .

أليق بالمناجاة حياء من ذكره ، وطلبًا لمحوه ، فهنا حذف للذنب من الأسلوب ، وطلب لمحوه من الصحف ملاءمة بين واقع الكلمة ، وواقع الحال النفسي .

والحديث الثاني : صلاة ونداء وطلب للآلام من صاحبها ، وصدق في النجوى بإلحاق الداعي فيمن هداهم الله وعافاهم ، وتولاهم ، ثم ليبارك في عطائه ويقي من قضائه ، ونلمح من أسرار الحذف التواضع النبوي ، والتذلل الكامل لله وحده ، ثم تعظيم من وقع ، وما وقع عليه الفعل المنسوب إلى الله تعالى ، هداية ومعافاة وتوليا ثم الاعتراف بالعطاء والدعاء بالبركة فيه ، والمفعول هنا محذوف للتعظيم ، أما مفعول الفعل « قضيت» فقد حذفه خوفا وإبعادًا عن تصوره في الخيال تضرعا في منعه وأملاً في دفعه .

أما حذف المفعول في حديث الحياء : « الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى» ، فقد حذف رغبة عنه ، وبترا لما يثيره ، وإعراضا عما يسببه ، أليس في الرأس اللسان والفم ومعظم الحواس ، وإضمارها كذكرها ، وشرورها أكثر من خيرها مع دلالة كلمة الحياء المكررة على المقصود من المفعول ، وكذا ما يحويه البطن ويتصل به من التطلع إلى أموال الناس وأعراضهم مما يحسن السكوت عنه . كل ذلك في الأحاديث من الإيجاز البارع والموسيقى الخاصة من ابتهالات تنساب في نغم شجي وإيقاع أخاذ يلائم اهتزازات المشاعر في نجواها ، ومن سجع يتزن في حديث الحياء ونلمح ثقل الحركات في « وعى ، حوى» ، تعبيراً بالصوت والحركة عن أثر ثقيل الوقع على النفس الطاهرة ، من مدلولات غير مستحبة ، ثم جاءت الألف لتطلق الحركة في الفعلين ذهابا بالخيال في مداها وتخليصا للوهم من أسرها ، ليحتويها الحس والعقل والذاكرة وهذا قمة الفن الأدبي .

التفخيم :

قال رسول الله ﷺ لابن عباس « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك» [١] .

---

(١) التاج الجامع ٢١٢/٥

وقال عليه الصلاة والسلام «اسمعوا وأطيعوا ، وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة»[1].

قال عليه الصلاة والسلام «من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين»[2].

والمحذوف في الحديث الأول «دين» مرتين ، واكتفي بلفظ الجلالة ، تفخيماً للمحذوف وترغيباً في حفظه ، لأنه اكتسى قداسة ونبلاً من إضافته ، وكأن حفظه حفظ لله سبحانه ، والثاني يدعو إلى جمع الكلمة ووحدتها والانقياد لحاكم مسلم بلا خروج أو نزاع وقد حذف مفعولي اسمعوا وأطيعوا يعنى قول الأمير وأمره ، تفخيماً لهما كأن ذكرهما يحد من نشاط العقل والخيال في توسيع دائرتهما فحذفهما لذلك ، ولتأكيد ما قصد إليه من تفخيم ما يقول الأمير أو يأمر به دعوة إلى السمع والطاعة .

والحديث الأخير : سر الحذف التعظيم ، والدفع الحثيث ، وتقدير المحذوف ، وبلغ فيه «مراده ومناه» إذ به يتحقق مصالح الناس ، ولما كان هذا المراد مدفوعاً إليه ـ ولم يبلغ بعد كان حذفه حثًا على بلوغه وإعظاماً لأمره .

التهويل والتعبير عن شعور الخوف :

قال ﷺ «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل»[3].

وقال عليه الصلاة والسلام في الكسوف «إن هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته ، ولكن الله يرسلها يخوف بها عباده ، فإذا رأيتم منها شيئًا فأفرغوا إلى ذكر الله ودعائه واستغفاره»[4].

وقد حذف مفعول خاف ، قصداً إلى تصور الخوف مع شيء من التعميم يقوي التهويل ، فالخيال بهذا الحذف يتصور في مداه الواسع والضياع والبيان

---

(١) التاج الجامع ٤٥/٣
(٢) المرجع السابق ١٠٥/٢
(٣) المرجع السابق ٢٠٤/٥
(٤) المرجع السابق ٣١٠/١

وأهوال الليل طوى ذلك لذلك ليترتب الإدلاج السريع والتنفيذ الحاسم علاجاً لبواعث الخوف ومدحاً للكيس الفطن ، وحذف ضمير الآيات في «يرسل الله» مع إسناد الفعل إلى لفظ الجلالة تهويلاً في هذه الآيات وهي ظواهر كونية مهولة حقًا تبعث الفكر على التأمل في نظامها وكنهها واختلاف مشاهدها ، ولا بأس بعد أن تم إعمال الفكر والجري شوطاً في سبب ظاهرة الكسوف وأن القهار تحكم في هذه الكائنات المهولة وفي ذلك ما فيه من خوف وهول ، لا بأس أن تذكر بعد «بضميرها» «ولكن الله يرسلها يخوف بها عباده» «تأكيداً لما عاشه الفكر واستشفه الخيال» .

وقد يلحق بهذا حذف المفعول ـ مع دلالة المقام عليه جنباً للانتباه لترتب أمر مهم عليه كالحديث : «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» من حديث ابن عباس السابق [1] ، فقد حذف المفعول من «سأل» : لما فيه من غرابة وكأنه تصريح بسؤال أحد ثم أقر الفعل ونقص المفعول بمفعول آخر تقوية في الحكم وترغيباً في الثاني بعد إهمال الأول ، وقد يجوز أن يضمن الفعل معنى اللازم ويقطع عن تعديته كأن المراد إذا نويت السؤال ، وأردت التبذل فالجأ إلى الله وإذا عزمت على قضاء أمر فاستعن بالله .

العموم مع الاختصار :

قال ﷺ «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر»[2] .

وقال ﷺ : «ألا وإنى قد وعظت وأمرت ، ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر»[3].

---

(١) التاج الجامع ٢١٢/٥

(٢) المرجع السابق ١٧/٥

(٣) المرجع السابق ٢٤١/٥

من تعليمه ﷺ لخالد بن الوليد «اللهم رب السموات وما أظلت ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت كن لى جاراً من شر خلقك كلهم» [1] .

وفي الأول نص على مفعولين «صغيرنا وكبيرنا» وحذف مفعولي «يأمر وينه» قصداً في الذكر إلى النفاذ إلى علاقة خاصة ونوع من المعاملة للصغار والكبار وهم أولى بالرحمة والتوقير وأدل على إيمان المؤمن ، وأما الحذف فلعموم المفعول ، أحد الناس تشديداً في الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن بهما بقاء الإسلام ثم تخفيفاً على الداعي فليأمر في حياته ولينه ولو كان قليلاً حسب طاقته ومواهبه .

ومع وضوح العموم في الحديث الثاني وهو : وعظت ، وأمرت ، ونهيت يعنى الناس أو المخاطبين ، يوجب المقام وهو الغضب النبوي إيجازاً شديد اللهجة لا يبدو مع التفصيل ، مع الحياء والبعد عن المن عليهم بالوعظ والأمر والنهى لأنه مكلف بذلك والله يهدى من يشاء .

وفي الثالث قد يمكن القول بأنه حذف المفعول إرادة العموم والاختصار والمحافظة على السجع ولكن أهم من ذلك ما نلمسه من صدق التعبير عن التضخيم والتفخيم والتكثير بهذا الأسلوب الرمزى الذي يكشف بعض الحقيقة عن عالم العظائم ويدع الباقي للفكر والخيال يجريان ، فماذا وكم أظلت السموات ، وماذا وكم أقلت الأرض ، وكم ضلت الشياطين ، إن الوجدان الإنساني ليتوه في هذه العوالم والمخلوقات الرهيبة التي سلسلها الحديث في نسق عجيب بدءاً من الأعلى إلى الأدنى إلى ما لا تراه العيون والأوهام مما قد يجري من الإنسان مجرى الدماء لا جرم أن يصدق الالتجاء إلى خالقها ومدبر أمورها .

---

(١) التاج الجامع ١٣٨/٥

الترغيب :

قال ﷺ «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» [1] .

وقال عليه الصلاة والسلام «من غسل يوم الجمعة واغتسل ثم بكر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام فاستمع ولم يلغ ، كان له بكل خطوة عمل سنة ، أجر صيامها وقيامها» [2] .

وفي حديث القرآن حذفت ثلاثة مفعولات «القرآن» - «الدرجات» - «القرآن» ، والحذف هنا يجعل الصورة قوية ملحوظة ، فهناك ارتقاء للدرج حسي معروف ، محفوف بالقراءة مسبوقة بها مصحوبة بالترتيل ، وجو القداسة والابتهاج والإعزاز ، سيطر على الحديث ترغيباً في القرآن وفي الجنة .

والحديث الثاني : فيه المفعول المحذوف متعين بدلالة الغسل المكرر يوم الجمعة إيماء إلى الترغيب في الغسل وتطهير الجسد لتكون الطهارة شاملة للروح ، وكذا حذف مفعول استمع لتعينها بالـ(الخطبة) ترغيباً في سماعها إذ هي من أهم شعائر الصلاة لآثارها الكبرى في نفع المؤمنين .

حذف الجملة :

١- حذف فعلي الشرط والجواب

قال ﷺ «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه ، فقد أوجب الله له النار فقال رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله قال وإن قضيباً من أراك» [3] .

وقال ﷺ : «تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر ، ولا تحقرن جارة لجارتها ولو شق فرس الشاة» [4] .

وقال ﷺ : «بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» [5] .

---

(١) التاج الجامع ٥/٤

(٢) المرجع السابق : ٢٨٠/١-٢٨١ .

(٣) المرجع السابق : ٨٠/٤ .

(٤) المرجع السابق ٣٩/٢

(٥) المرجع السابق ٦٦/١ .

وقال ﷺ : « إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لآتوهما ولو حبوا »[1].

ويلاحظ في هذه المجموعة أن الداعي لحذف فعلي الشرط والجواب : الاحتراز من العبث ظاهراً ، لوجود قرينة في الكلام سابقة على الأداة ، ونلمس دافعاً آخر نفسيًا وراء الحذف ، ففي الحديث الأول : نجد الترهيب واضحاً ، فما لا يخطر على بال لتفاهته ـ إن اقتطع من حق امرئ مسلم ـ أحبط العمل ، ترهيباً ، وتربية للأمانة وتخويفاً من الظلم ، والأصل : وإن كان المقتطع قضيبًا من أراك لا يحل له ، أو أدخله النار ، مع المبالغة في القليل الحسن .

كما نجد الترغيب في هذه الأحاديث : ولو شق فرس شاة ، ولو آية ، ولو حبوًا ، فالعقل يدرك المحذوف وبقيت لو بما فيها من معنى التعليق آخذة بأعناق جملتين ، وقد أكدت المنع والندرة ما صدرت به الأحاديث : لا تحقرن ـ بلغوا ـ لو يعلم ـ حثًا دافعاً ، ومبالغة في القلة والندرة ، وهو منطلق الترغيب الشديد .

حذف فعل الشرط وجواب شرط سابق :

قال رسول الله ﷺ « إذا غضب أحدكم ، وهو نائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع »[2].

وقال عليه الصلاة والسلام « من اكتحل فليوتر ، من فعل ، فقد أحسن ، ومن لا فلا حرج »[3].

وأصل الكلام: فإن ذهب عنه الغضب كان خيراً له وإن لا يذهب فليضطجع .

فاقتضب العبارة بحذف جملتين والاستغناء بلا النافية بدلالة القرينة إيجازاً ، وحسن سبك ، وملائمة لوصف شعور الغضب وعلاجه بسرعة يتطلبها الغضب

---

(١) التاج الجامع ٤٣٣/٥

(٢) المرجع السابق ٥٢/٥

(٣) المرجع السابق /٩٥

السريع ، وقفزاً إلى ما يترقبه الفكر من هذا العلاج المهم وفي هذا إثارة للانتباه ، وإعمال للقوى النفسية لمتابعة الأسلوب وفهم باطنه ، دفعاً للعمل بمقتضى الأمر النبوي .

وفي الحديث الثاني : اقتصر الحذف على فعل الشرط مع دلالة لا النافية عليه إيجازاً وتفنناً مع نصب قرينه لفظية تغني عن الذكر .

حذف جواب الشرط :

قال ﷺ: « لا يدخل أحد الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً. ولا يدخل النار أحد إلى أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون حسرة »[1].

والحديث يرسم صورة للنعيم ، والعذاب المعنوي فهذا داخل الجنة يكشف عنه الحجب ليرى لنفسه مقعداً باسمه ، لو كان أذنب في الدنيا لجلس عليه في النار .

وداخل النار يرى أيضاً مقعده في الجنة لو كان أحسن لدخل الجنة ، وتنعم ، ولو هنا للامتناع التام مسلط على الماضي في الدنيا ، وجوابها المحذوف أشد امتناعاً ، والموقف رهيب لا يحتاج التوضيح والتصريح ، وقد ترك في جانب صاحب الجنة تكريمًا ومراعاة للشعور ، وفي جانب صاحب النار لو أحسن - قطعاً - لأحلامه وإزعاجاً وحسرة له ؛ ولذا كان للتعليل النفسي بعدًا قويًا : « ليزداد شكراً » و« ليزداد حسرة » .

حذف جملة في غير الشرط :

عن علي رضي الله عنه « لما نزلت ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » قال : يا رسول الله في كل عام؟ قال : « لا ولو قلت : نعم لوجبت »[2].

---

(١) التاج الجامع ٤٣٣/٥

(٢) المرجع السابق ١٠٨/٤

وقال عليه الصلاة والسلام : للأنصارى وقد هدم قبة كان أعرض النبي ﷺ عنه بسببها « أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا مالا إلا مالا » يعني ما لا بد منه[1].

في الأول : جاء سؤالهم موجزاً حذف منه الفعل فجاء الجواب النبوي على طريقته ثم طغى عليه إيجازاً واقتداراً ، وأصل الأسلوب ، ليس الحج واجباً كل عام ، ولو قلت نعم إنه في كل عام تحجون لوجبت ، فأغنى بحرفي الجواب عن جملتين والمقام هنا مقام النفور من الإلحاح بالسؤال عن كل أمر سكت عنه الشارع يسراً . وذلك يقتضى الإيجاز أيضاً ، والحديث الثاني : حذف مدخولي لا النافية للجنس وهما جملة يعني : إلا ما لا بد منه، وقرينة الحذف : الاستثناء وذكر لا ، ولعل الحذف هنا لمقام الإعراض عن التفاخر بما لا يبقى ، ولا يفيد وإشارة إلى أن أمور الدنيا لا ينبغي قصر العمر والفكر عليها بل ما يوفر مجرد الكفاف والإيواء والستر هو المحمود .

ثانياً : الإيجاز بالقصر - جوامع الكلام

وقد امتاز هذا اللون من الإيجاز النبوي بسمات خاصة ، ونورد طائفة من الأحاديث نستجلي فيها تلك السمات .

١- قال رسول الله « ما قل وكفي خير مما كثر وألهى »[2] .

٢- « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ، الصحة والفراغ »[3] .

٣- « الضعيف أمير الركب »[4] .

٤- « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا »[5].

٥- « إياكم ومشارة الناس فإنها تدفن الغرة ، وتظهر العرة »[6].

---

(١) التاج الجامع ١٦٥/٥
(٢) تمييز الطيب من الخبيث ص ١١٤
(٣) رياض الصالحين للنووى ص ٢٧
(٤) إعجاز القرآن ، الرافعي ص ٣٧٦
(٥) عبقرية محمد ، العقاد ص ٧٩
(٦) الفائق في غريب الحديث ، الزمخشري ١١٠/٢

هذه جملة من الأحاديث النبوية تجمعها صفة الإيجاز والتركيز واستثمار أقل ما يمكن من الألفاظ ـ برفق ـ في تأدية أكثر ما يمكن من المعاني .

وفي الحديث الأول «ما قل وكفي . . دلالة على أن القناعة النفسية وإشباع متطلبات المرء على حد الكفاية فيه خير كثير ، لأنه سينبعث لتحقيق رسالته في الحياة وهذا أفضل من كثرة في متاع الدنيا تكون حجاباً يصرف المرء عن رسالته ، ويبعده عن طريق ربه ، والإيجاز هنا جاء ثمرة لاختيار الألفاظ ، ونظمها ، فهنا قليل ليس على إطلاقه ، ولكنه يكفي ، وهي كفاية شاملة لمتطلبات المرء ، وهذا ما يبغيه من سعيه ، وفي الجانب الآخر كثير يلهي وهذا اللهو ينسحب على كل الشهوات التي في إشباعها إلهاء وصرف عن الطاقة والقلة المحددة بالكفاية مع مقابلتها بالكثرة الملهبة بما لهما من معان وظلال ، ثم المفاضلة المعبرة بصدق وعن حقيقة من حقائق الناس والحياة أعطى الإيجاز سمة الجدة والخلود .

والحديث «الضعيف أمير الركب» يمثل خلق الإسلام في الرحمة ، وحسن المعاملة وإرشاد بالعطف على الضعيف لاسيما في الملمات وسر الإيجاز هنا : أنه منح الضعيف صفة الإمارة ، وجعل الركب أتباعاً ينقادون لأمره ويصدرون عن إشارته ، وقد أعطى التعبير «أمير الركب» معنى واسعاً ، وإيحاء شاملاً لا ينتهي ، يدور حول ركب الأمير وأمير الركب ، وقد جاء التشبيه في خدمة الإيجاز بما أدى من مبالغة في إلحاق الضعيف أو تصويره بالأمير ، محذوف الأداة ولو جاء مرسلاً لا نتقصى الأسلوب من أساسه ولما وفى بالغرض وهو بر الضعيف ، ورحمته ، خاصة فيما يعني المرء فيه بنفسه ، وهذا يوضح الطبع والفطرة ، فالمعاني تختار ما تخرج به من أثواب الألفاظ .

والحديث : «اعمل لدنياك» : توجيه للمسلم بالاعتدال والتوازن في سلوكه وحياته بين الدنيا والآخرة ، فلا ينسى نصيبه من الدنيا ، لأنها مزرعة الآخرة ، وعليه واجبات ورسالة ، الآخرة فيخسرهما معا ، بل في الحديث أكثر من ذلك : الأمر بالسعي والدأب في شئون الدنيا «كأنك تعيش أبدا» وهذا التعبير يعطى

للسعي انطلاقات جبارة ، فلو عمل المرء من أجل الدنيا ـ وهذا ما تفيده اللام الجارة « للدنيا » على أنه خالد لملأ الدنيا سعياً وجلاداً ، وحتى لا يطغى هذا الجانب قيده في الآخرة « كأنك تموت غداً » فأعطى توازناً خاصًا ، ومن يمت ويعرف ميعاد الموت وإقباله على الله لابد أن يجرد نفسه للطاعة فكأن الإرادة مضغوطة بين مطلبين عسيرين ينبغي التوفيق بينهما ، فقد جمع هذا الحديث كما يقول العقاد علم السلوك في الدنيا والدين كله في أقل من سطرين[1].

ونرى هنا كيف تركب الأسلوب : الأمر بالعمل ، ودخول اللام الجارة التعليلية مع إضافة الدنيا إلى كاف المخاطب : اعمل من أجل دنياك أنت ، ثم ترقى على سبيل المبالغة فأتى بالتشبيه « كأنك تعيش أبداً ».

وفي « أبداً » تأبيد يطغى على حدود الزمن والحياة فترك على جانب المعنى معاني ثانوية مديدة ، وكرر هذا في جانب الآخرة غير أنه أتى بكلمة « غداً » قاطعة حبل الآمال على واقع رهيب إنه الموت القريب المعروف وقته مع المقابلة بين الدنيا والعيش والأبدية ، وبين الآخرة والموت وغداً ، فتأكد المعنى وجاء التوازن ، والحذر من الخمول أو الركون إلى الدنيا بالجملة ثم الحذر من فجأة الموت فهو الاعتدال أسلوباً ومعنى وواقعاً .

والحديث « إياكم ومشارة الناس فإنها تدفن الغرة ، وتظهر العرة » تحذير من إساءة الناس وتجاذب الشر معهم لما فيه من إثارة الأحقاد والضغائن التي تغطي على الإحسان فلا المؤذي أفاد من خيراته ولا هو كتم سيئاته ، قال في الفائق « والمعنى أنهم إذا نالهم منك مكروه كتموا محاسنك ، ومناقبك ، وأبدوا مساويك ومتاعبك »[2].

وقد بدأ الحديث بأسلوب التحذير الخاص بإياكم ـ وقرنه بمشارة الناس تنفيراً منها ، ثم أتى بتعليل التحذير وبيان آثار المشارة « تدفن الغرة » وقد صور الأعمال الطيبة بغرة ظاهر لائحة بوضاء في أبرز مكان في وجه الفرس

---

(١) انظر : عبقرية محمد للعقاد ص ٧٩

(٢) الفائق ٢/١١٠

دليلاً على دفن الإساءة الواضح المآثر ، بل هو دفن لا حس بعده ولا خبر ، كما جعل خافي السيئات عرة تنظر وتستقذر ، وكأن الحديث كله طلقات رصاص أو دقات نذير كل كلمة لها إيحاء يشغل الخاطر والوجدان ، والاستعارة أعانت بما فيها من إيجاز على تركيز الأسلوب وقوته .

من هذا العرض السريع يتضح لنا أن الإيجاز بالقصر قد اتسم فيها بالدقة وقوة التصوير والطبع الخالص فهو من جوانب الكلم التي منحت النبي ﷺ من لدن ربه تعالى ، وهذا ما يفسر كثرتها في البيان النبوي ، فإن البليغ في أية أمة لا يورث الأجيال إلا قليلاً من الحكم ، يقول الرافعي :

« وهذا الضرب من الكلام الجامع هو الذي يمتاز البليغ في كل أمة بالكلمة الواحدة : من مثله أو الكلمتين ، أو الكلمات القليلة ، ولو ذهبت تحصيه في العربية ما رأيته إلا معدوداً »[1].

ولقد ابتدع النبي ﷺ في اللغة العربية أساليب وتراكيب لم تسمع من أحد قبله ولا سمع مثلها من أحد بعده ، ولقد ورد أن علي بن أبي طالب ﷺ قال : « ما رأيت أفصح من رسول الله ﷺ ، ما سمعت كلمة من عربي فصيح إلا وقد سمعتها منه ، وسمعته ﷺ يقول : « مات حتف أنفه » ما سمعتها من عربي قبله ، قال ابن دريد يعني : خرجت روحه من نفسه لم يجرح ولم يقتل ولم يكلم » ومن ذلك أيضاً : « يا خيل الله اركبي »، وقوله : « لا ينتطح فيها عنزان »، وقوله : « الآن حمى الوطيس »[2] وقد سمى ابن أبي الإصبع هذا الضرب : « سلامة الاختراع من الابتداع » وأضاف قوله : « لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين » ، و« السعيد من وعظ بغيره » على سبيل التمثيل[3].

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٦٦

(٢) انظر : الكنايات ، الجرجاني ص ١٣٨ ، والبيان والتبيين ٢٩/٢ ، وما بعدها وإعجاز القرآن للرافعي ص ٣٦٦ وما بعدها .

(٣) انظر : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ، ابن أبي الإصبع ٤٧٤/٣

ويمكن أن ننوع جوامع كلمه ﷺ نوعين :

١- إيجاز بالغ جامع ناسب مقتضى الحال وجاء على نهاية البراعة وهو الغالب في البلاغة النبوية .

٢- حكم وأمثال منتزعة من واقع الناس والحياة ، معبرة عن طبائع إنسانية ، أو حقائق اجتماعية أو نفسية ، والحكمة : قول بليغ موجز مصيب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة ، ويتضمن حكماً مسلماً تقبله العقول ، وتأنس به الأفئدة ، وتنقاد له المشاعر ، وقد تشتهر الحكمة وتذيع بين الناس فتصبح مثلاً[1].

وقد أذيع عن النبي ﷺ الكثير من هذا النوع ، مما حدا بعض أئمة الحديث ، إلى أن يجمعوا منه قدراً صالحاً يشرحونه ، وكان منهم الإمام النووي في الأربعين النووية ، غير ما نبه إليه علماء البلاغة والأدب» وهذه الحكم التي قد يحللها علماء البلاغة حتى إذا غلبهم فائق حسنها ، وباهر بلاغتها سلموا بالعجز قائلين : إنها غاية لا ينتهي إليها وصف واصف[2] .

مناقشة العسكري وابن الأثير :

وقد نجد من أحسن التقعيد وأخطأ في التطبيق من البلاغيين .

ومنهم أبو هلال العسكري في حديثين أوردهما مثلاً للمساواة في الكلام هما قوله ﷺ : «لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنما ، والزكاة مغرمًا» وقوله : « إياك والمشارة فإنها تميت العرة وتحيي الغرة»[3] وتلحظ قوة الإيجاز فيهما : ففي الأول تشبيه الأمانة بالغنيمة في حبها والتلهف إليها ، وتشبيه الزكاة بالمغرم في كراهيته والنفور منه تشبيهاً بليغاً فيهما له إيحاءاته كما أن في الحديث اكتفاء إذ الأصل : فإن رأت الأمانة مغنما ، والزكاة مغرماً فالشر

---

(١) انظر : الأمثال في النثر العربى ، دكتور عابدين ص ٢ ، ٣

(٢) انظر : المثل السائر ٣٤٣/٢ ، والطراز ٨٩/٢

(٣) الصناعتين : ص ٤٧٣

يصيبها ، فحذف ذلك اكتفاء بما يدل عليه . ذكاء في الأسلوب ، وإيجازاً موحياً ، أما الحديث الثاني فقد سبق شرحه ونلخص ما فيه هنا :

١- الاستعارة المكنية : في «الغرة» (تميت الغرة) والتصريحية في «تظهر الغرة» وقد رواها بلفظ (تحيى) فتكون مكنية أيضاً وهي أبلغ .

٢- التحذير بصورة مباشرة مع قرن المخاطبين بالمشارة ، وحذف فعل التحذير والاكتفاء بالضمير : إياك ، وفي الرواية السالفة إياكم مبالغة في التهديد الموحي .

٣- اختيار ألفاظ معبرة كالغرة ، والعرة .

على أن أبسط ما يدل على الإيجاز في الحديثين التشبيه البليغ والاستعارة ؛ لأنه من خصائصهما المعهودة ، وذلك كله ينفي المساواة التي ادعاها أبو هلال العسكري ، أما ابن الأثير فقد سمى المساواة إيجازاً بالتقدير ومثل لهما بدعاء النبي ﷺ لأبي سلمة ﷺ عند موته «اللهم ارفع درجته في الآخرين ، واخلفه في عقبه في الغابرين ، لنا وله يا رب العالمين» ثم قال بعد شرحه : وهذا من الإيجاز البليغ الذي هو طباق ما قصد له ، وكلام النبي ﷺ كله هكذا كما قال : «أوتيت جوامع الكلم» وكذلك ورد قوله ﷺ يوم بدر ، فإنه قال : «هذا يوم له ما بعده»[(١)].

فكيف تكون المساواة ، أو الإيجاز بالتقدير الذي يتساوى فيه جانبا اللفظ والمعنى من جوامع الكلم ، وابن الأثير نفسه يفسر الجوامع بأنها الكلم الجوامع للمعاني[(٢)] .

على أن ما مثل به من حديث «هذا يوم له ما بعده» واضح فيه الإيجاز البالغ من أنه يوم خطير مشهود يؤثر في التاريخ ، ومجرى الأحداث ، فإما رفعة شأن للإسلام بالنصر في أول غزوة ، وعلو كلمة الحق ، وإما هزيمة تئد الحق

---

(١) انظر المثل السائر : ٣٣٦/٢ ، ٣٣٧

(٢) المرجع السابق ٩٦/١ وما بعدها

أهله . صفوة القول : إن منشأ الخطأ عند العسكري وابن الأثير أنهما أوردا أمثلة نبوية للمساواة مع وضوح الإيجاز فيها بقوة كما سبق .

الإطناب :

البلاغيون والإطناب في الحديث :

ويمكن تنويعهم فريقين :

الأول : ينكر الإطناب النبوي خاصة ويمثلهم من القدماء : قدامة بن جعفر الذي يقول : « لا ترى في الحديث من الرسول ﷺ ، والأئمة شيئاً يطول وإنما يأتي على غاية الاقتصار ، والاختصار »[1] .

ومن المحدثين الدكتور محمد الصباغ الذي تابع الدكتور محمد عبد الله دراز في إنكاره المساواة ، والإطناب في الكلام البليغ[2] .

قال الصباغ :

« كان يغلب على البيان النبوي الرفيع ، القصر ، فقلما كان يطيل ﷺ إذا تكلم ، إلا ما يروى عنه في بعض الحالات إذا اقتضت ذلك :

فقد روى أبو سعيد الخدري أنه ﷺ : خطب بعد العصر ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف ، وليس معنى هذا أن كلامه ﷺ في هذه الخطب قد جانب الإيجاز ، فإننا عندما ننظر في هذه الخطب التي رويت نجد سمة الإيجاز ملازمة لجملها ، واقرأوا إن شئتم ما نقل أبو سعيد الخدري من هذه الخطبة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء »[3].

---

(١) نقد النثر المنسوب لابن قدامة ص ١٠٩

(٢) انظر : النبأ العظيم ، دكتور محمد عبد الله دراز ص ١٢٢ وما بعدها

(٣) الحديث النبوي ، الصباغ ص ٨٦ وما بعدها

الثاني : أن الإطناب موجود في البيان النبوي ويمثلهم ابن الأثير ، والعلوي من القدماء ، والرافعي وعبد الحكيم بلبع من المعاصرين .

وقد أورد ابن الأثير حديثا به تكراراً[1] والعلوي حديثين في المواعظ يغلب عليهما الإيجاز[2].

واستدل الرافعي وبلبع بحديث أبي سعيد الخدري السابق ، ولكن الرافعي استدرك بذكاء ، أن الإقلال كان الأعم الأغلب ، حتى ورد أنه كان يأمر بقصر الخطبة فروى أبو الحسن المدائني قال تكلم عمار بن ياسر يوماً فأوجز ، فقيل له : لو زدتنا قال : أمرنا رسول الله ﷺ بإطالة الصلاة وقصر الخطبة[3].

هذان مذهبان متقابلان ، والواقع أننا نؤيد الثاني لا من جهتهم التي ذكروها ، فقد يتكلم البليغ يوما ثم لا يقول إلا الموجز الفصل لكن من جهة بلاغية فنية ، ذلك أن ما اصطلح عليه البلاغيون من مباحث الإطناب وأقسامه كالاحتراس ، والتتميم ، والتذييل وذكر الخاص بعد العام والإيضاح بعد الإبهام ، والاعتراض ، مما نلمح فيه البسط في الكلام ، والترسل في الحديث ـ أو إيراد الكلام في أسلوبين مقترنين أحدهما مخطوم والآخر مبسوط وجد كثيراً وهذا يؤكد وجود الإطناب في البلاغة النبوية ، ويبقى بعد ذلك أن نقول : إن الإطناب النبوي له سمة خاصة وهو أن فيه شبه من الإيجاز ، وإحكام الألفاظ ، ووفرة المعاني الأمر الذي دفع فريقاً من النقاد إلى الحكم بأن البيان النبوي إيجاز كله ، لكن الأمر على ما قررناه من الاحتكام إلى المصطلحات البلاغية ، ثم وجودها على كثرة في البلاغة النبوية .

---

(١) انظر : المثل السائر ٣/١٠

(٢) انظر : الطراز ٢/٢٥٠

(٣) انظر : إعجاز الرافعى ص ٣٣٥ وما بعدها

ونقدم هنا لمحة سريعة لمباحث الإطناب :

الاحتراس :

عن أبي هريرة ﷺ أنهم قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال : « هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة ؟» قالوا : لا ، قال : « فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة» ، قالـوا : لا ، قال : « فو الذي نفسي بيده : لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما »[1].

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ : « إذا أنفقت المرأة مـن طـعـام بيتها ـ غير مفسدة ـ كان لها أجرها بما أنفقت ، ولزوجها أجره بما كسب وللخازن مثل ذلك ، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئًا »[2].

ونجد كيف تأدى الاحتراس في الحديث الأول : ليست في سحابة ـ ليس في سحابة ليؤكد الظهور الكامل ، والوضوح الشامل للشمس والقمر ، ينفي ما قد يؤثر في ذلك الوضوح حتى يتم التشبيه التقريبي لرؤية الله جل وعلا في الآخرة على سبيل التأكيد واليقين .

وفي الثاني : يحترس بقوله « غير مفسدة » قيداً في إنفاق الزوجة ، وشرطاً في استحقاقها الأجر ، وتوجيهاً إلى الاعتدال في الإنفاق ، وإلا كانت الزوجة وبالاً على المال والزوج معا .

الإيضاح بعد الإبهام :

عن النبي ﷺ : « ألا أخبركم بأهل الجنة : كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر »[3].

---

(١) التاج الجامع : ٣٧١/٥
(٢) المرجع السابق : ٤١/٢
(٣) المرجع السابق ٣١/٥

عن جابر عن النبي ﷺ «ولينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوماً ، إن كان ظالماً فلينهه ، فإنه له نصر ، وإن كان مظلوماً فلينصره»[1].

عن أبي سعيد قال النبي ﷺ : «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق»[2].

وفي الأولين: تقديم للمجمل بصورة مثيرة لا تفسر إلا بالاستفهام والعرض: ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ ألا أخبركم بأهل النار؟» أو بذكر مفهوم غريب على العقل «لينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً» مثيراً ذلك غرابة لأن الإسلام يحارب العصبية ، وفيه إيقاظ للفكر والحس ، وجذب للانتباه ، ثم يأتي البيان والإيضاح جليلاً في معناه قويًا ثابتاً ، بما قدم له في النظم والإثارة .

والحديث الأخير «خصلتان . . . .» يشير إلى نوع من الإيضاح بعد الإبهام هو التوشيع : بذكر مثنى مفسر باسمين أحدهما معطوف على الآخر والإبهام في المثنى مع وصفه بوصف يزيد الإبهام والتشويق «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن» ثم يأتي البيان بعد مؤكداً مدلوله ، مشبعاً نهمه النفسي رادًا أشواقها .

الخاص بعد العام :

من حديث مسلم : «اتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

من قول الرسول ﷺ لخالد بن الوليد «إذا أويت إلى فراشك فقل اللهم رب السموات السبع وما أظلت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت كن لي جاراً من شر خلقك كلهم جميعاً ، أن يفرط علي أحد أو يبغي علي»[3].

---

(١) التاج الجامع ٥/٥٣

(٢) المرجع السابق ٥/٤١

(٣) المرجع السابق ٥/١٣٨

فبعد ذكر العام «الدنيا» ، «والأرضين وما أقلت» ذكر الخاص لمزيد خطره وعظيم أثره ، كأنه قسم برأسه ، اهتماماً به ، وتنبيهاً إليه ، وليس كالنساء والشياطين من الخطورة ما يزلزل القلوب والعروش ، وما أحدث الشر على سطح هذا الكوكب .

التذييل :

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب»[1].

عن النبي ﷺ من حديث ابن عباس «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف»[2].

وفي الأول : تذييلان : لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب : يقرر أن الطمع خلق لا ينفك عن ابن آدم حتى الموت ، فالتراب هو الذي يملأ جوفه و« يتوب الله على من تاب» تذييل آخر يقرر أن الطمع في غير مطمع ، والتكالب على الدنيا معصية يجب منه الإنابة والله يقبل التوبة ، والتذييلان يؤكدان مفهوم الحديث الأول ومعناه وغرضه .

والحديث الثاني يؤكد التذييل فيه مضمون ما سبقه : ذلك أن الأمر خيراً أو شراً إذا كان لا يملكه أحد من البشر ولو اجتمع له العاملون فإنه يجري على ما قدر الله سبحانه أزلاً فقد رفعت الأقلام وجفت الصحف إيذاناً بالانتهاء من كتابة المقادير قبل خلق هذا العالم ، ولا يخفي قوة السبك ـ واكتناز الأسلوب ومرونة المعنى ، وصدق الحكم في التذييل النبوي مما جعله مثلاً شروداً خالداً .

---

(١) التاج الجامع ١٦٢/٥

(٢) المرجع السابق ٢١٨/٥

التتميم :

عن كعب بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال : « ماذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال وأشرف لابنه »[1] .

عن أم حبيبة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم اثنتى عشرة ركعة تطوعاً ، من غير الفريضة إلا بنى الله له بيتاً في الجنة »[2].

وفي الأول نجد كلمة « جائعان » تممت المعنى وزادت من حدة الشراسة والافتراس فالذئبان بطبعهما غادران فإن جاعا اشتد الغدر كأن الجوع طبيعة ثانية تصل بهما إلى الجنون والفتك وكذلك « أرسلا في غنم » ليصل الفتك بهذا التتميم إلى النهاية ، والسلب الوحشي إلى الغاية مع إتاحة هذه الفرصة .

وفي الحديث الثانى وقع التتميم ـ كما يقول ابن أبي الإصبع ـ في أربعة مواضع : هي : مسلم ـ لله ـ كل يوم ـ من غير الفريضة[3] .

كل كلمة تضع لبنة أو ركناً يتم به المعنى العام المراد ، ولا يخفى أن ابن أبي الإصبع جعل التذييل والتوشيع والتتميم من الألوان البديعية كما سبق .

الاعتراض :

عن ابن عباس قال : مر النبي ﷺ بقبرين ، فقال : « إنهما ليعذبان ، ـ وما يعذبان في كبير ـ بلى إنه عظيم عند الله . أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة »[4] .

وقد اعترض هنا بجملتين بين إثبات العذاب لهما « إنهما ليعذبان » وبين توضيح أسباب العذاب تخويفاً وتعليماً أما أحدهما . . . . .

---

(١) التاج الجامع ٢٦٨/٥

(٢) المرجع السابق ٢٠٨/١

(٣) تحرير التحبير ١٢٨/١

(٤) التاج الجامع ٨٦/١

الأول : « وما يعذبان في كبير » يوضح أنه لا مشقة في فعله ، ولارهق في إتيانه « الثاني » « بلى إنه عظيم عند الله » يكشف عن أثر فعلهما فهو عند الله عظيم لما يترتب عليه من إفساد ذات البين ونشر الشر ، وإبطال الصلوات والبقاء على النجاسة ، فهو ذم لعدم الطهارة الحسية والقلبية . وقد جاء هنا مع الاعتراض نوع آخر من الإطناب هو النفي والإثبات ، فقد نفي أنهما يعذبان في أمر كبير ثم نفى النفي ، أو أثبت أنه عمل عظيم عند الله ، وطريقة النفي والاستثناء تحرك الذهن بسرعة ، وتوقظ الفكر وتقوي المعنى والغرض .

نستطيع مما سبقى أن نقرر :

أن الإطناب بملامحه التقعيدية عند البلاغيين ، قد وجد بوفرة في البيان النبوي وهذا لا يعطينا الحق في نفي الإطناب كلون من التعبير متفق عليه .

ولنا أن نقول إن الإطناب بعد ذلك ـ مثل كل الأساليب النبوية له مرونته وجدته ودقته وصدقه يناسب كل إنسان وزمان ، لأنه قيل لكل إنسان في أي زمان ومكان .

* * *

الفصل الثاني

((من أسرار التقديم في البيان النبوي))

قد يأتي الكلام على ترتيبه الطبيعي المعروف في علم النحو من تقديم الفعل على الفاعل والمبتدأ على الخير ، والفاعل على المفعول وباقي متعلقات الفعل ، لأن ذلك هو الأصل ، وقد يخرج عن ذلك لمقتضى نحوي أيضاً كتأخير المبتدأ ، إذا كان نكرة ، والمفعول إذا كان ضميراً منفصلاً مما هو مستقصى في مظانه .

بيد أن البلاغيين نبهوا إلى تقديم آخر استدعته البلاغة وفقاً لمقتضيات الأحوال ترتيباً للكلام حسب معانيه في النفس المرتبة على قضية العقل ، أعني فكرة النظم كما أوضحها عبد القاهر ، والتقديم كنمط أسلوبي له أسراره وآثاره ، قال الإمام عبد القاهر رحمه الله «هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سببا راقك ولطفا عندك أن قدم فيه شيء ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان آخر»[1].

وسنرى التقديم في البيان النبوي واسع الخطو ، عظيم الأسرار ، عميق المغزى يكشف عن اهتمامات النبي ﷺ ، وانفعالاته ، وأنحاء من دعوته تبشيراً وإنذاراً ، ودعوة ووضعاً ، وتقريراً وتوكيداً وأعني بالتقديم ما قدم فيه اللفظ عن مكانه مع بقائه على حكمه كخبر المبتدأ إذا قدم على المبتدأ ، والمفعول إذا

---

(١) دلائل الإعجاز ، الجرجاني ص ٨٢

قدم على الفاعل ونحو ذلك ، وقد شغل تقديم الخير على الاسم مجالاً فسيحاً في التقديم النبوي .

تقديم الخبر وتقريره :

١- عن علي ﷺ قال رسول الله ﷺ «مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم»[1] .

وعنه كرم الله وجهه قال النبي ﷺ : «إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة ، وعليكم السكينة والوقار»[2].

عن حفصة رضي الله عنها عن النبي ﷺ «على كل محتلم رواح الجمعة وعلى كل من راح الجمعة الغسل»[3].

عن عبد الله بن مسعود : كنا نسلم على النبي ﷺ وهو في الصلاة فيرد علينا ، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يرد ، فسئل فقال «إن في الصلاة شغلاً»[4].

عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ : «إن للوضوء شيطاناً يقال له : الولهان فاتقوا وسواس الماء»[5].

في هذه الأحاديث نلحظ فيها تقديم الخبر على المبتدأ ، أو تقديم خبر إن على اسمها كما نجد الغرض العام وراء هذا التقديم ـ تمكين هذا الخبر وتثبيته في النفس ، لأنه جاء على غير المعهود ، وفي هذا إثارة للعقل ، وتشويق إلى المبتدأ المؤخر ، وقد نجد المقدم بلفظه مثيراً غريباً كمفتاح الصلاة ، وتحريمها وتحليلها ، وقد جاءت المبتدآت تحدد ما قصد إليه ، وتتمم المعنى ، وفي مجموعة الصلاة نجد التمهيد للمؤخر لبناء الترغيب عليه «امشوا إلى الصلاة

---

(١) التاج الجامع ١/١٥٢

(٢) المرجع السابق ١/٢٥٢

(٣) المرجع السابق ١/٢٧٤

(٤) المرجع السابق ١/١٥٩

(٥) المرجع السابق ١/١٠٢

وعليكم السكينة» ، «على كل محتلم رواح الجمعة ، وعلى كل من راح الجمعة الغسل» ، إما باللفظ المثير في ذاته تشبيها ، «مفتاح الصلاة» أو بلفظ يعطي معنى الإلزام «على كل» «عليكم» أو بلفظ يفيد الأفضِلية مسبوقاً بالتأكيد «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة» أما المؤخر فقد يأتي معرفة أو نكرة فيها عموم وتفخيم وإيحاء يغري بتتبعه «إن في الصلاة شغلا».

أما في حديث الوضوء فبعد تقرير الخبر« إن للوضوء شيطاناً » ، وإثبات هذا الحكم الغريب بطريق فيه تنمية للشعور وإثارة فسمى الشيطان بأسلوب فيه تجهيل : يقال له الولهان : ليصل بذلك إلى الأهم وهو اتقوا وسواس الماء ، تقريراً للإرشاد الذي شغل منافذ النفس والحس .

الترغيب في القرآن والذكر :

عن معقل بن يسار قال ﷺ : «قلب القرآن يس لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له ، اقرأوها على موتاكم»[(١)].

عن ابن عباس عن النبي ﷺ : «أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله»[(٢)].

عن أبي هريرة قال ﷺ : «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر»[(٣)].

وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «إن ما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علمه ونشره ، وولداً صالحاً تركه ، أو مصحفاً ورثه ، أو مسجداً أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهرًا أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه به بعد موته»[(٤)].

والأسلوب في الأحاديث : يتعاون في تقديم حقيقة وإمتاع عاطفة ، فقلب القرآن يس بكلمة : قلب بلفظها الدال مقدمة مضافة إلى القرآن مدا في الغرابة

---

(١) التاج الجامع ٢١/٤
(٢) المرجع السابق ٢١٩/٢
(٣) المرجع السابق٨٦/٥
(٤) المرجع السابق ٧٥/١

وإثارة للانتباه ، ويأتي المبتدأ ليروي ظمأ النفس ، ولو قال « يس قلب القرآن مقتصراً على التشبيه لما كان له هذا السحر النافذ الممكن للخبر ، المثبت للمعنى».

والحديث الثاني : وضع لافتة مثيرة : «أحق ما أخذتم عليه أجراً» ، قد توهم أن الكلام في الأموال والأعمال حتى إذا جاء المبتدأ (كتاب الله) تقررت حقيقة جديدة بطريق ثابت ، وفي الثالث : قدم الخبر « إن لله» مؤكداً وقد دخلت اللام على الاسم العظيم فشد الانتباه إلى الاسم «ملائكة» متبوعاً بالوصف (يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر) تقريراً للحكم ولفظ الاسم والخبر مع سبق التأكيد فيه غرابة على عقل الإنسان وخياله ، لتعلقه بمن لا تراه العيون ولا يتصوره الخيال والأذهان تمكيناً وترغيباً في الذكر .

على أن غرابة الخبر مع تقديمه قد تنشأ من وقوعه في الدار الآخرة مسبباً عن المبتدأ الواقع في الدنيا كما في الحديث الأخير ، والخيال هنا يتمثل في ومضة عمر الدنيا وانقضائها بالموت ، وتخيل ما بعده مدهوشاً منبهراً كل ذلك يقوى الترغيب فيما دعا إليه ويمكن المعنى في النفوس ونلاحظ أن العطف في الخبر زاد من طوله وزاد عن التشويق وأعطى طاقة نفسية تستوعب ما دعا إليه وعلى قدر الأسلوب كله بطوله ، فلا يشط منه حرف ولا تند كلمة .

تقديم الخبر توزيعاً للفائدة وتصعيداً للمعاني :

عن عمر ﷺ عن النبي ﷺ « إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها »[1].

وقال ﷺ : « إن لكل شيء شرة ، ولكل شرة فترة ، فإن كان صاحبها سدد وقارب فارجوه ، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه»[2].

---

(١) التاج الجامع ٨٣/٥

(٢) المرجع السابق ٢١١/٥

وفي الأول : بنى الحديث على التشويق في نسقه تمكيناً للمعنى ، وقد وجدنا توزيع الفائدة وتصعيد المعاني حتى تصل إلى نهايتها متوازية مع التتبع العقلي والشغف النفسي المتصاعد « إن من عباد الله لأناساً » أكد الكلام بإن واللام وأثار بتقديم الخبر ثم أتى بالاسم نكرة مجهوله إغراء بالتتبع ـ ثم جاء الوصفان: ما هم بأنبياء ولا شهداء ـ بالنفي ثم إثبات غبطة الأنبياء والشهداء لهم، وتقييد الغبطة بأنها يوم القيامة ليصل بالإثارة حدا لا يسكت عليه فيسألون من هم ؟ فيأتي الجواب يطمئن النفس ويرد أشواقها (هم قوم تحابوا بروح الله) كما نجد هذا التتبع النفسي في الحديث الثاني وقد ساهم تقديم الخبر على وقع الإثارة وتصعيد المعاني التي تمسك بالمشاعر تصعد بها حتى يصل الحديث إلى نهايته مسبغاً مقنعًا مؤكداً بطريقة لا تنسى .

التشويق بالتقديم والعموم أو بماله من تعلق بالشعور :

عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : « إن لله مائة رحمة أنزل منها واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام »[1].

عن بريدة عن النبي ﷺ « إن من البيان لسحراً ، وإن من العلم جهلاً ، وإن من الشعر حكماً ، وإن من القول عيالاً »[2].

وفي الحديث الأول : قدم الخبر زيادة في التشويق للخبر ذلك أن الأسلوب وصف لحقيقة خاصة بالله طرفاها الله والخلق ، وتقديم الخبر مؤكداً بإن « إن لله » يثبت هذا المبتدأ الشعوري « مائة رحمة » بهذا العدد المجزوء حثًا على تتبع هذه الأجزاء ، وتقسيمها تقريراً في النهاية للغرض العام وهو وصف الله بالرحمة المطلقة تأميلاً للإنسان في رحمته سبحانه .

والثاني : إن من البيان لسحراً . . . قدم الخبر مؤكداً بإن مدخولاً لمن التبعيضية مع ما فيه من تعشق القلوب له وصبوة النفوس إليه « البيان ـ العلم ـ

---

(١) التاج الجامع ١٥٧/٥

(٢) المرجع السابق ٢٨٢/٥

الشعر ـ القول حكما ـ عيالاً» وهذه الأحكام ضرب من الحقائق التى لا يعقلها إلا العالمون .

تعجيل البشرى والمسرة مع الترغيب :

عن سهل بن سعد قال ﷺ «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»[1].

عن حكيم بن معاوية عن النبي ﷺ «إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعد»[2].

عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ : «إن في الجنة ثمانية أبواب فيها باب يسمى الريان ، لا يدخله إلا الصائمون»[3].

وفي هذه المجموعة قدم الخبر مؤكداً أو مرسلا أو مقيداً لتعجيل المسرة والترغيب والتعظيم «إن في الجنة لشجرة»«إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر» والجنة مثيرة يعمل لها العاملون ومن يستحقها له ما فيها ، ولعلنا نلحظ هنا في الحديث الثاني : تقديم الماء لأن به الحياة ـ حسبما يعرفون في دنيا الصحراء ـ ثم العسل زيادة في الإغراء لمحبة العسل طبعاً ، ثم اللبن وهم يعتمدون عليه غذاء ، ثم الخمر لأنها كمال وتنعيم مع الإيماء إلى موقف الدين منها فهي مؤخرة حتى في الأخرى .

ومن أحاديث الجنة : «في الجنة ثمانية أبواب» والتقديم هنا أثار الانتباه وعجل البشرى وشوق إلى المبتدأ وأنه خبر ، وهذه الجملة مقدمة لأخص منها فيها «باب يسمى الريان» والتقديم زاد الإثارة مع إخفاء الفاعل إيذاناً بشهرة «الباب» وبذلك يصل الشوق مداه حتى تأتي العبارة الثالثة «لا يدخله إلا الصائمون» كالثمرة من الكلام والقمة التي وصل إليها الشعور ، والحل الذي انفكت عنده العقدة فأراح النفوس وثبت المعنى وأكد الغرض وهو الدعوة إلى الصيام ـ مع الجمال في تسمية الباب «الريان» مناسباً لظمأ الصائمين .

(١،٢) التاج الجامع ٥/٤٠٦

(٣) المرجع السابق ٥/٤٠٣

تعجيل المساءة مع النكير :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «إن من أكبر الكبائر استطالة المرء في عرض رجل مسلم بغير حق ومن الكبائر السباب بالسبة»[1].

عن جبير بن مطعم قال عليه الصلاة والسلام «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[2].

عن جابر عن النبي ﷺ «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»[3].

وقد قدم الخبر لافتة غاضبة ترتفع بالنكير وتهز الوجدان وتوجه الذهن المأخوذ إلى ما بعدها (المبتدأ) وفيه يكمن سبب هذه الثورة :

إن من أكبر الكبائر : استطالة المرء في عرض أخيه

من الكبائر السبتان بالسبة

ليس منا : من دعا إلى عصبية .

إن بين الرجل وبين الشرك والكفر : ترك الصلاة

والنكير بوقعه المخيف الثقيل في نفس المؤمن بين مدى الترهيب والوعيد في هذه الأمور ونقدم هذه الملاحظات :

١- في الحديث الأول : كرر الخبر المشحون بالوعيد مع انفراد الأول بالتأكيد (إن من أكبر الكبائر) دون الثاني مناسباً لقدر الذنب وأثره الاجتماعي .

٢- وفي الثاني تكرر الخبر المقدم، علاجاً لما هو كالطبع في الإنسان خاصة العرب وهى مشكلة تقاسي منها المجتمعات والأمم وعلاجها بهذا الميسم «ليس منا» بذاك النفي القاطع للمتعصب عن دين الإسلام . ونلاحظ اقتضاء النظم التسلسل في الحدث حتى يصل إلى نهايته المتشعبة فهناك دعوى للعصبية ثم هناك قتال في سبيلها ثم الموت وبه تبدأ ـ في الخيال ـ قصص مكرورة مفزعة، والعلاج وضع بداية لبتر كل هذا .

---

(١) التاج الجامع ١٧٠٢٦/٥

(٢) المرجع السابق ٤٦/٥

(٣) المرجع السابق ١٤٠/١

٣- والثالث : تقدم الخبر المؤكد ، وآثار العطف والأول « وبين الشرك » والثاني « والكفر » بهذا التكرار المعنوي وعيدًا قويًا دافعًا لمعرفة ما يوعد عليه (ترك الصلاة) .

التقديم لاستحضاره في الذهن :

عن النبي ﷺ :

١- « إن تحت كل شعرة جنابة ، فاغسلوا الشعر ، وأنقوا بالبشرة »[(١)].

٢- « إن من أشرط الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويفشو الزنا ، وتشرب الخمر ، ويكثرالنساء ، ويقل الرجال ، حتى يكون لكل خمسين امرأة قيم واحد »[(٢)].

وقد قدم الخبر في الحديث الأول لاستحضاره في الذهن كاملاً ، تمهيداً للاسم وما فيه من حكم غريب ، « إن تحت كل شعرة جنابة » تمثلاً لكل جزئياته حتى يعم الحكم وفيه شبه من تنفير ليتوصل بذلك إلى التوجيه النبوي وهو نتيجة لما تقدم : « اغسلوا الشعر وأنقوا البشرة » فيصادف في النفس قبولاً وتمكناً .

والحديث الثاني : إنباء عن غيب وجاء فيه الخبر مقدماً « من أشرط الساعة » وفيه إثارة واستحضار في الخيال فهذا الذي شغل العقول ، وقد سبق الخبر دون تأكيد كما تساق الحقائق لأن الأهم هذه العلامات التي شوق إليها تقديم الخبر ، وهي جملة من الرذائل يرفضها العقل والضمير تنفيذاً منها وإجبارا بغيب خطير .

التعبير عن شعور خاص :

كقوله ﷺ ردًا على من يريد الرهبانية ، « إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا »[(٣)].

---

(١) التاج الجامع ١/١١٥

(٢) المرجع السابق ٥/٣٣٥

(٣) المرجع السابق ١/٤٩

وفيه إنكار على من يود الرهبانية منصرفاً عن دفع عجلة الحياة وتعمير الكون ، والخلافة في الأرض .

وقد تقدم الخبر وهو معلوم من واقع الحياة المحمدية ، وأكد بـ« إن» مع فصل الضمير تعبيراً عن شعور نبوي هادر ، وإنكار غاضب على من يريد الرهبانية في الإسلام ، وهو دين الفطرة السمحة .

تقديم المفعول :

(١) إرادة التخصيص

١- عن أبي بكر عن رسول الله ﷺ : دعوات المكروب : «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت»[١].

٢- عن سلمان عن رسول الله ﷺ «لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر»[٢].

٣- قال ﷺ «والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»[٣].

والحديث الأول : في مقام الكرب ونزول البلاء ، وقد وفى به الأسلوب ، فقد بدئ الدعاء باللفظ الأقدس «اللهم» تضرعاً ، ثم أتى بالمفعول «رحمتك» مضافًا إلى ضمير الجلالة ـ جل وعلا ـ مقدماً على الفعل «أرجو» ليفيد أن كل المطالب والمنى انحصرت في رحمة الله تعالى لا تتعداها ، ماحقة للكرب ، دافعة للبلاء .

---

(١) التاج الجامع ١٢٨/٥

(٢) المرجع السابق ١١١/٥

(٣) المرجع السابق ١٦٠/٥

والحديث «لا يرد القضاء إلا الدعاء» قصد بالتقديم توجيه الحصر في الفاعل مع ما في التقديم من إثارة ، لأن مصير الناس على القضاء ، والنفى شاغل للذهن ، والإثبات ملهب للفؤاد ، حافز للدعاء .

أما الحديث الثالث : «ما الفقر أخشى عليكم» فقد ولي المفعول المقدم أداة نفي وذلك يفيد عند البلاغيين ـ وقوع الفعل حتماً ، ثم اعتقاد المخاطب وقوعه على مفعول خاص ثم نفى المتكلم لهذا المتقدم وإثباته بغيره ، وهو «بسط الدنيا» كما وضحه الحديث ، وأهمية التقديم هنا أنه يرد على المخاطبين اعتقادهم ، ويصحح لهم خطأهم ، فالفقر مصدر رعب للإنسان ، لكنه لا خوف منه على المؤمن ، بل مصدر الخوف : الثراء وما يتبعه من الطغيان وانطلاق الغرائز المهلكة وفي الحديث حد من النفور من الفقر ، وحد من التكالب على الغنى .

الترهيب :

١- عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ : «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع ، كما ينماع الملح في الماء»[١].

٢- عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «لا يدخل الجنة قتات»[٢].

٣- عن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «لا يدخل الجنة خب ولا منان ولا بخيل»[٣].

وقد تقدم المفعول قصداً تمكيناً لإفادة الترهيب :

والحديث الأول تحذير من الكيد لأهل المدينة ، ولذا أخر الفاعل مجهلاً منكراً عامًا لكن المفعول «أهل المدينة» بما لهم من حرمة وجوار للنبي ﷺ ونصرة للدين هم هدف الحديث ، ولذا جاء جزاء الكائد مؤكداً بطريق القصر والتشبيه القوي .

---

(١) التاج الجامع ٢/١٨٥
(٢) المرجع السابق ٥/٢٤
(٣) المرجع السابق ٥/٤١

والجنة تهفوا إليها النفوس ، فإذا جاء الفعل المنفي «لا يدخل» ثم بوشر بالمفعول «الجنة» انبعث الخوف جارفاً مع التلهف لمعرفة المحروم منها ، فإذا ما بين بصفته المنفذة «قتات» (نمام) ـ مخب ـ منان ـ لئيم ـ بلغ التنفير والترهيب من الصفات وأصحابها كل غاية .

الترغيب :

١- عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ «لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء»[1].

٢- عن عبد الله بن شفيق عن النبي ﷺ «يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم» قيل : يا رسول الله : سواك ؟ قال : «سواي»[2].

٣- وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع»[3].

وفي الحديث الأول يكون الأسلوب بالجمع بين متنافرين بين ممنوع من النار ومحروم من الجنة ، وسبب هذا أقل ما يتصور الخيال من الإيمان لو جسم ، وأهون ما يتمثل من الكبرياء ترغيباً في الأول وترهيباً في الثاني ، وقد قدم المفعول على الفاعل ، «لا يدخل» تعجيل بالبشرى ، وترغيب في الإيمان ، وتقديم الجنة بعد «لا يدخل» تعجيل بالسوء وحرمان مما تمثله الخيال من روح ونعيم ، ومثل الأول : «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله» وتقديم المفعول المنفي تشويق للفاعل المؤخر وتعظيم له ، ودعوة إلى ما اتصف به وقد علق دخوله النار على مستحيل ملموس مع التصوير الجميل تأكيداً للترغيب .

---

(١) التاج الجامع ٣٢/٥

(٢) المرجع السابق ٣٩٢/٥

(٣) المرجع السابق ٣٠٦/٥

وفي الحديث ـ بعد ـ قدمت الجنة بعد فعل مثبت مدا في الرجاء وقطعاً لليأس في شفاعة الأتقياء ، والترغيب في الرجاء والأمل في الله طب نبوي لا يزال يتناوب مع الخوف والتخويف للإنسان المسلم حتى يطهره تطهيراً .

أغراض أخرى :

١- عن حذيفة قال : رسول الله ﷺ «والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتجتلدوا بأسيافكم ، ويرث دنياكم شراركم»[١].

٢- قال ﷺ «ليعز المسلمين في مصائبهم ، المصيبة ربي»[٢].

٣- عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ : «لا يصيب المؤمن شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه خطيئة»[٣].

وفي حديث حذيفة قدم المفعول على الفاعل «ويرث دنياكم شراركم» وقد جاءت العبارة خاتمة الحديث كالمحرك لما سبقها من أحداث ، فمن علامات الساعة قتل الحاكم ، وكثرة الفتن والقتال ـ وبقاء الدنيا بين جماعة الأشرار ، ولأنهم أشرار فقد ورثوا الدنيا ، وتقديم المفعول ـ مع حقارته ـ عناية به لأنه أس البلاء ثم تمهيد إلى الفاعل بعد تشويق «شراركم» والدنيا بما فيها في يد شرير إنما هي الفتنة والبلاء الكبير .

وتقديم المفعول «المسلمين» في الحديث بعده سلوان وعزاء لمن نكب في الدنيا من المسلمين وفي خصوص الوصف بالإسلام وشمول الفعل له وإيلاء الجار والمجرور للمفعول «في مصائبهم» تشويق كبير إلى الفاعل الذي يهز الوجدان ، ويفيض عن العزاء وتصور الإخبار من النبي الرحيم عن نفسه أمر رهيب لا يطيقه الحس الإنساني ، وفيه شفافية وتأثير عظيم .

وفي الحديث الأخير «لا يصيب المؤمن شوكة» قدم المفعول بوصف الإيمان تقوية للإرادة وحثًا على الصبر وتمهيداً للجزاء العظيم تدعيماً للترغيب والحث على الصبر .

---

(١) التاج الجامع ١/٣٨٠ (٢،٣) المرجع السابق ٣٤٥

المتعلقات : التقديم للتخصيص

(١) في التضرعات

عن أبي هريرة كان النبي ﷺ إذا أوى إلى مضجعه قال : «باسمك ربي وضعت جنبي ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[1].

عن أبي سعيد : من رقية النبي ﷺ وقد رقاه بها جبريل عليه السلام «باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك باسم الله أرقيك»[2].

وعن أنس : عن النبي ﷺ : «اللهم أنت عضدي ونضيري بك أحول وبك أصول ، وبك أقاتل» وكان يقولها إذا غزا[3].

عن أنس كان ﷺ إذا كربه أمر قال : «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»[4].

وقد قدم المتعلق في هذه المجموعة ، من حرف جر دخل على اسم الله ، باسمك «باسم الله» أو ضميره «بك أحول وبك أصول» أو حرف جر داخل على صفة له سبحانه : «برحمتك أستغيث» ، والمقدم هنا المقصور عليه ، وهو قصر حقيقى استدعاه مقام الإخلاص الكامل والالتجاء المكين ، والتضرع الصادق إلى الله تعالى في مقام يستدعي ذلك من حرب ظالمة ، أو مرض مخيف ، أو كرب نازل ثناء عليه وتمجيداً لما يؤمل معه إجابة الدعاء .

التخصيص للتشريع :

عن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ مسح على الخفين فقلت يا رسول الله نسيت قال : «بل أنت نسيت بهذا أمرني ربي عز وجل»[5].

---

(١) التاج الجامع ٣١٧/٤

(٢) المرجع السابق ٣١٦/٣

(٣) المرجع السابق ٣٧٠/٤

(٤) المرجع السابق ٣٤٢/٤

(٥) المرجع السابق ١٠٥/١

عن سليمان بن بريدة أن النبي ﷺ صلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد ومسح على خفيه فقال له عمر : لقد صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه قال : «عمداً صنعته يا عمر»(١).

وهذه المجموعة دفع إلى التخصيص فيها هذا التشريع الذي كان غير مألوف لهم ، ولذا كان تأكيده المضاعف ، وتقديمه المفيد للتخصيص ، من أسباب ثبات الحكم وترسيخه .

فالمسح على الخفين فيه غرابة لم يتوقعوها ـ وهو تشريع سماوي ـ ولذا فقد ظن المغيرة وعمر نسيان النبي ﷺ ، فجاء الأسلوب ينفي اعتقادهم ويثبت عكسه «بهذا أمرني ربي» «عمدًا صنعته يا عمر» وفي هذا التخصيص أيضاً بيان أنه من عند الله ولا مفر منه تيسيراً على الناس كما أن فيه مسحة من العتاب للتدخل في أمور تشريعية نزلت تخفيفاً ورحمة .

التخصيص للتحسر والإنكار :

١- عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة» ، قال : «فيجيء السارق فيقول : في مثل هذا قطعت يدى ، ويجىء القاتل فيقول : في هذا قتلت ، ويجىء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً»(٢).

٢- عن أنس ﷺ عن رسول الله ﷺ في وصف مشهد من العذاب يوم القيامة «فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي» قال «فتنطق بأعماله قال : ثم يخلي بينه وبين الكلام» فيقول : «بعدًا لكنَّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل»(٣).

٣- عن أبي هريرة ﷺ : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمر وجهه حتى كأنما فقىء في وجنتيه الرمان فقال :«أبهذا

---

(١) التاج الجامع ١٤١/١

(٢) المرجع السابق ٣٣٢/٥

(٣) المرجع السابق ٣٧٢/٥

أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم . عزمت عليكم عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»[1].

والتخصيص في الأولين يفيد شدة التحسر والتندم: في مثل هذا قطعت يدي، وكذا القاتل وقاطع الرحم، والتقديم يشع بموجات من الألم النفسي الحاد والحسرة المرة مع احتقار هذا الذي تكالبوا عليه، ونلاحظ دقة الأسلوب، فالسارق مقطوع اليد لم يأخذ ما أراد ولذا قال: في مثل هذا، بينما القاتل والقاطع حازا الذهب والفضة وربما كان ما يريان في ملكهما يوما، ولذا قال القاتل: في هذا قتلت، والآخر: في هذا قطعت رحمي دقة متناهية في التعبير عن أخفى المشاعر والحالات.

والحديث بعده «عنكن كنت أناضل» يكاد ينفجر الأسلوب أسفاً، في موقف صارت فيه الجوارح خصماً له فشهدت عليه بعد أن ختم على فيه، وحين أطلق لسانه ثار ساخطًا معنفاً مقهوراً بعد أن صارت جوارحه كالعاقلة بشهادتها: والتقديم «عنكن»: يفيد قصر النضال من المعذب عليها إنكاراً وتفريعًا، وألماً نفسيا لا يطاق.

وفي الحديث الأخير استدعى التخصيص مقام الإنكار الشديد والتوبيخ لمن أفاضوا في القدر، وهو مجال ضل فيه كثير لأن في معرفة حقيقية نقص لحكمة علوية من الاستئثار بعلم الغيب وأسرار الأقدار ونظام الكائنات مما لا يطيقه بشر، ولهذا قدم المتعلق مشارًا إليه إحضاراً له في الذهن وهو «التنازع في القدر» تشنيعاً وتقبيحاً وجعله مدخول الاستفهام الإنكاري لانصباب النكير عليه كأنه قال: «ما بهذا أمرتم، وما بهذا أرسلت إليكم بل بغيره مما تعلمون»، والانفعالات تتشابك من وحي هذا التقديم من الغضب والتعنيف والرحمة والخوف عليهم والتخويف بما حدث للأمم السابقة.

---

(١) التاج الجامع ١٩٣/٥

التخصيص للتعظيم :

١- عن جابر أن النبي ﷺ قال لرجل كيف تقول في الصلاة قال : «أتشهد وأقول اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار ، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ» فقال : «حولها ندندن»[1].

٢- عن أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح ، فيقول الخازن من أنت فأقول محمد فيقول بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك»[2].

والحديث الأول سمى العمل دندنة مشاكلة لكلام الأعرابي ، ولقد اقتضى البيان النبوي اختيار اللفظة : «حولها» لأن النشاط الإنساني على اختلافه مقصود به العمل وفق سنن الله تعالى ، وإرضاؤه سبحانه ، وذلك سبب في دخول الجنة ، فكأن الصلوات والأعمال والأقوال دندنة حولها وفي سبيلها وحدها ، وذلك تعظيم للجنة ولآلها .

والحديث الثاني : نلمح مع التخصيص : التوقير والتعظيم «بك أمرت» فقد قدم المتعلق لذلك وأكدت الجملة الثانية المفهوم من الأولى كرامة وخصوصية وفضلاً له عليه السلام .

التأكيد :

عن عقبة بن عامر : قلت يا رسول الله ما النجاة : قال : «أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك وابك على خطيئتك»[3].

عن أبي سعيد عن النبي ﷺ «يأتي على الناس زمان يكون خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شعب الجبال ومواقع النظر ، يفر بدينه من الفتن»[4].

---

(١) التاج الجامع ٢١٨/٥

(٢) المرجع السابق ٤١٧/٥

(٣) المرجع السابق ١٨٣/٥

(٤) المرجع السابق ١٨٥/٥

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ «إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[1].

وتدعيم الغرض في الأحاديث اقتضى التأكيد، فقد قدم في الأول «عليك» على المفعول الأول «لسانك» تأكيداً لإمساك اللسان ودفعاً إلى التحكم فيه وتحذيراً من آثاره، كما نجد الثاني يخبر عن فتن ستحدث: وقدم المتعلق «على الناس» تأكيداً وعناية لأنهم موضوع الأحداث ومادتها، وتخويفاً أيضاً، ولا يخفى ما في الحديث من إرشاد قوي غير لأجله النظم فقدم خبر كان «خير مال الرجل» على اسمها «الغنم» مسارعة في الإرشاد لمن يريد لنفسه الغنم والظفر، كما لا يخفى الأسى الخفيف وراء عبارات الحديث.

والحديث الأخير يتكلم في القدر يوحي بوحي، وقدمت «للجنة، للنار» على المفعولين تأكيداً ومزيد عناية لأنهما مدار اهتمام الإنسان، وكما أن القدر أكبر من عقل المرء وطاقته، فقد توخى ذلك في أسلوب الحديث من تقديم وربط بين الجنة والنار وهما في الآخرة وبين خلق الإنسان حتى وهو ـ بعد ـ لم يكن شيئاً مذكوراً، والخيال يتعمق هذه المجاهيل، ويؤخذ بهذا القهر، في الغرض والأسلوب جميعاً.

التقديم والتعبير عن الرحمة والألم:

عن أبي ذر عن النبي ﷺ: «سيكون في أمتي اختلاف وفرقة، قوم يحسنون القيل ويسيئون العمل»[2]، وعن ثوبان عليه السلام: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»[3].

---

(١) التاج الجامع ١٩٧/٥

(٢) المرجع السابق ٣١٤/٥

(٣) المرجع السابق ٣٠٣/٥

عن أنس عن النبي ﷺ حين مات ابنه (إبراهيم عليه السلام) «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[1].

وفي الأولين: نجد التزام لفظ واحد (أمتي) مقدم على الفاعل في الأول والمفعول في الثاني تعبيراً عن شعور الرحمة والأسف لما يصير إليه حال الأمة على أيدي دعاة الفتنة، والإثم، ثم فيه حث على لزوم الجماعة، ومحاربة الفتن والنظور من الفرقة.

والحديث الأخير: مرآة لأطهر شعور وأقدس إحساس: حزن نبي فقد وحيده على كبر، وقد تقدم المتعلق «بفراقك» لأنه سبب الأسى ومدار الحزن واللوعة وإنه لتعبير ذاتي عن شعور جريح ضعيف مستسلم لقدر الله العظيم. وقد ساعد التقديم على إعطاء إيقاع خاص يعبر عن هذا الشعور.

لمزيد العناية وبيان دوره في الحكم:

وقد يتقدم متعلق له دور في المعنى العام بأن يكون مدار الحكم، أو ممهداً له عناية واهتماماً وسبكاً وملائمة للمعنى: كهذه الأحاديث:

١- قال ﷺ «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت إلا كان من أصحاب النار»[2].

٢- عن ابن عمر عن النبي ﷺ «من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له باب الرحمة»[3].

٣- حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ «يلقى على أهل النار الجوع فيعدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع»[4].

---

(١) التاج الجامع ٣٤٥/٥

(٢) المرجع السابق ٣٥/١

(٣) المرجع السابق ١١٠/٥

(٤) المرجع السابق ٤٣٠/٥

والحديث الأول : فيه خطورة في الحكم ولما كان رسول الله ﷺ هو المبعوث خاتم النبيين، وصاحب الرسالة العامة، وقد أمر بتبليغ ذلك نجد اسمه الشريف، ثم ضميره العظيم مرتين مع القسم الدال، والالتفات المثير من الظاهر «محمد» إلى المتكلم «بي» وعموم النكرة «أحد» في سياق النفي، ثم إطالة السياق تبريراً للجزاء، مع الترقي بـ«ثم» وتصريح بعدم الإيمان بالرسالة التي جاءت بالاسم الموصول «الذي أرسلت» المفخم لصلته ثم تختم بالجزاء عن طريق القصر، لأن صلاح العالم بهذه الرسالة، والتقديم هنا لعب دوره المتسق مع باقي الحديث ـ لبيان العناية الكاملة بالرسول ذاته (بي) لأنه مصدر التشريع المبلغ عن ربه ـ وقد مكن التقديم أيضاً من التفصيل في الفاعل تعميماً أولاً ثم تخصيصاً على سبيل التوضيح والمبالغة «يهودي ولا نصراني» رفعاً لمنزلة النبي وشريعته الماحية شرائع السابقين.

وحديث ابن عمر قدم «له» مرتين عناية تعجيلاً بالمسرة إذا الخير كله راجع للإنسان المتضرع إلى الله ـ وما أروع هذه اللافتة الأسلوبية بإفراد «باب» مضافاً إلى الدعاء، وفي الجزاء نجد انهمار الرحمة لا من باب بل من أبواب بياناً لكرم الله وفيض رحمته وترغيباً في الدعاء. والحديث الأخير ذكر المتعلق مقدماً «على أهل النار» ليترتب ما يلائمهم من جزاء فأبرزهم أولاً إحضاراً لهم ذهناً، تخويفاً وتبريراً لما نيط بهم من عذاب.

التقديم للاستبعاد والإنكار :

١- قال عليه الصلاة والسلام : «كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ»[(١)].

٢- عن أبي سعيد بن أبي فضالة عن النبي ﷺ «إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد، من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[(٢)].

---

(١) التاج الجامع ٣٦١/٥

(٢) المرجع السابق ٥٩/١

والحديث الأول : يعبر عن شعور نبوي خائف من فجأة القدر بقيام الساعة ، وقد قدم من «الحال» كيف الاستفهامية لتفيد استبعاد أن ينعم النبي ﷺ بينما إسرافيل آخذ أهبته أن ينفخ في الصور ، والصورة التي رسمها الحديث تدعم هذا الشعور من إنكار وخوف واستبعاد ، ورغبة عن زائل النعيم ، والحق أن هذا الإنكار والاستبعاد موجه بطريق التعريض للناس أن يتزودوا بالتقوى لكمال النبي فيها .

والحديث الثاني : خاص بالعهد الأخروي وقد قدم المتعلق على المفعول «أشرك في عمل عمله لله أحداً» تفظيعاً وإنكاراً شديداً لهذا العمل المشترك والمقام قهر وجزاء ، ولذا تأخر المفعول إهمالاً واحتقاراً مع تنكيره المتعمد مع الدعوة إلى الإخلاص في العبادة لله وحده .

مقتضى النظم :

نلتقي هنا بأساليب سبقت في غرض عام واحد ولكن توخى فيها اختلاف في ترتيب الألفاظ على نمط خاص استدعاه المقام ، فغير وبدل ، أو قدم في أسلوب المتأخر في آخر ، ولا يمكن أن يحدث هذا في البيان النبوي كيفما اتفق ، وإنما هي خطة بيانية صادقة في التعبير عن المعاني المرتبة في النفس على نظام العقل مناسبة لغرضها ومقامها الخاص ونكتفي بما نورد .

عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما قال : رأى أبي أن له فضلاً على من دونه فقال النبي ﷺ «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم» رواه البخاري والنسائي[1] .

عن أبي الدرداء ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أبغوني الضعفاء فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم» رواه أصحاب السنن بسند صحيح[2] .

وواضح اختلاف الروايات والرواة مما يدل على صدورها في مناسبات مختلفة تناسب مقاماتها ، والحديث الأول رواه ابن سعد : وسعد بطل من أبطال

---

(١) التاج الجامع ٣٥٨/٤ (٢) المرجع السابق ٣٥٩/٤

الإسلام الأوائل وواحد من أغنياء قريش لقب بفارس الإسلام وجمع له ﷺ أباه وأمه في غزوة «أحد» حين كان يرمي عنه قائلاً: «ارم فداك أبي وأمي ارم أيها الغلام الحزور»[1]، وحين يتوهم سعد أن له فضلاً على غيره قوة ونصراً يرد عليه الرسول خطأه، وينفي توهمه «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم» بهذا القصر الدال المؤكد، فقدم النصر على الرزق مظنة أن النصر لا يكون إلا من الأقوياء مناسبة لحال سعد وعطف الرزق لاستقصاء الحال وإنهم بالضعفاء يجتمع لهم النصر والرزق أيضاً درساً في التواضع والتفويض وعدم الغرور.

لكن أبا الدرداء رجل طيب القلب ضعيف، وصدر الحديث دال على التواضع: أبغوني الضعفاء بمعنى أحضروهم أستأنس بهم، والخيال يسرع إلى الفقر لارتباطه بالضعف والوهن غالباً، ولما كان هذا الضعف مظنة الفقر الدائم نفى هذا التوهم، ورد ذلك الظن، ذلك بأن الرزق من عند الله ينزل بسبب هؤلاء الضعفاء لصفاء قلوبهم وكذلك النصر أيضاً لإخلاصهم في دعائهم فهم قوة على كل حال لأنهم مع الله على كل حال.

وذاك مثال آخر:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قلب الشيخ شاب على حب اثنتين: طول الحياة، وكثرة المال»[2] رواه الشيخان والترمذي.

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «يهرم ابن آدم، ويشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر» رواه الشيخان والترمذي[3].

ونلاحظ في حديث أبي هريرة أنه أخبر ابتداء عن حال حاضرة هي قلب الشيخ ومع الشيخوخة نجد المنى تمور فيه قوية فتية، فقلبه شاب يحب أمرين مرغوب فيهما طول الحياة وكثرة المال، وقدم «طول الحياة» لأن الذي

---

(١) انظر: التاج الجامع ٣٤٥/١٣، والحزور: ضيق العينين دلالة الاهتمام.

(٢) التاج الجامع ١٦٣/٥ (٣) المرجع السابق ٦٨/٥

تقادمت أيامه لا يزال يتشبث بالحياة وينفر من الموت ، ولما كانت الشيخوخة تقترب من النهاية المخيفة كان همه الأول البقاء وطول العمر ، أما المال فهو وإن كان محبوباً ـ مع كثرة الخبرة ـ قلب يأتي ويذهب ثم إن شهوات الشيخ الي كانت تجمح به في شبابه قد خمدت ولم يبق إلا رمادها الحار ، أما حديث أنس فنلاحظ أن المضارعين المتجددين يهرم ويشيب يوضحان القصد إلى وصف طبع في الإنسان (ابن آدم) ذلك الذي تلازمه من الصغر صفتان قويتان شابتان لا تهرمان وإن تفاوتتا ، والمرء في شبابه لا يستوقفه التفكير كثيراً في النهاية إن فتاء الشباب وغروره وارتباط الموت بالهرم في الأذهان ـ يطمس البصيرة عن النظر إلى المستقبل فلاهم له إلا المال فهي صفة لها المقام الأول ، وحين تورط المرء ، مغامراته ويجد الموت غير بعيد يتشبث بالحياة بدافع غريزي ، فالصفتان كامنتان فيه ، يتاوبانه قوة وأهمية حسب فترات الحياة من صبية وشباب وشيخوخة لا جرم أن مقتضى الحال في بيان النبوة هو المتحكم في نسق أسلوبه أو خصوصية نظمه ، وتسلك صفة لازمة له على كل حال .

نمط آخر من مقتضى النظم :

وقد نجد نمطاً من اقتضاء النظم ـ في العبارة الواحدة بالترتيب الخاص الذي يلائم فكرة وشعوراً ، ويناسب الغرض ، ويؤدى المعني ، ونقتطف هاتيك الزهرات : شكا خالد بن الوليد ﷺ إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما أنام الليل من الأرق ، فقال : « إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم رب السموات السبع وما أظلت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت ، كن لي جاراً من شر خلقك كلهم جميعاً أن يفرط علي أحد أو أن يبغي علي ، عز جارك وجل ثناؤك »[١] .

وهنا التسلسل المنطقي من البدء بالأعظم من الظواهر الكونية التي تلقى في الوجدان هولاً لا يعرف مأتاه ، فالسموات فوق هذا الغلاف الغازي الأرضي لم

---

(١) التاج الجامع ١٣٨/٥

يعلمها أحد حتى الآن ، وما أظلت مما لا يعلم إلا الله ، ثم «الأرضين» وما أقلت مما يدخل تحت دائرة الحس وما لا سلطان نحس عليه ضخامة وتجهيلاً له وقعه المزلزل في الأعماق ، وإن كان أدنى من سابقه .

ثم هذا الصنف من المخلوقات الغريبة على هذا الكوكب ، مثيرة في نفسها مؤثرة بوسواسها المخيف ، الذي يدرك أثره ولا يعرف مصدره ، وكم أضلت من بشر «الشياطين» وهذه الظواهر الكونية التي ينكمش أمامها العقل وكل قوى النفس ، والكائنات المرهوبة الظاهر منها والخفي إنما هي جميعها مربوبة لرب مقتدر يدفع البلاء ويفرج الكروب ، فأي عقل وأي خيال وأي وهم لا يعنو أمام عظمته تعالى .

وحديث آخر :

عن لبانة بنت الحارث قالت : «كان الحسين ﵁ في حجر رسول الله ﷺ فبال عليه فقلت : «البس ثوباً ، وأعطني إزارك حتى أغسله» قال «إنما يغسل من بول الأنثى وينضح من بول الذكر»[1] وقد يظن أن الأولى تقديم المتحدث عنه وهو بول الذكر لكن الواقع أن هنا تدرجاً في الحكم يبدأ بالفعل وهو ما أرادته «لبانة» خطأ ، في بول الذكر فصحح لها خطأها بإثبات الغسل وتغيير المغسول منه يجعله بول الأنثى لما أرادت تغسل إزاره ثم أتى إلى بول الذكر ـ وهي الواقعة ـ فبين الحكم فيها بالنضح فقط ، والبراعة هنا في انتهاز فرصة ملائمة لوضع تشريع عام .

ـ وثمة لون آخر من النظم :

عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[2].

عن أم كلثوم بن عقبة عن النبي ﷺ : «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيراً وينمي خيراً»[3].

---

(١) التاج الجامع ٨٧/١
(٢) المرجع السابق ٤٧/٥
(٣) المرجع السابق ٤٣/٥

وفي الحديثين قلب للمتعارف عند الناس ، والأصل ليس الصرعة بالشديد ، وليس الذي يصلح بين الناس الكذاب ، ولكنه أعطى مفهوماً جديداً لعلاج حالات الغضب والترغيب في الإصلاح بين الناس ، وقد غير المفاهيم لتلائم الغرض العام ، فكأنه قال : ليس الشديد البالغ في القوة الجسمية الذي يصرع الناس ، بل أعظم من ذلك ، إنه الذي يكظم غيظه ، ويملك نفسه عند الغضب ، وليس الكذاب هذا الصنف الكريم من الناس الذي يصلح بينهم بل غيره ، مبالغة في كظم الغيظ ، والعفو عن الناس وترغيباً في الإصلاح بين الناس ولو بطريق غير طبيعي ، ولا بأس هنا أن نشير إلى حديث الثلاثة الذين أطبق عليهم الغار فبدأوا يبتهلون إلى الله بصالح أعمالهم . وذكر الأول بره بوالديه ، والثاني عفته وتركه ابنة عمة المحتاجة التي كان يحبها ، وأراد النيل منها ثم تركها وترك المال بعد أن سنحت له الفرصة ، والثالث : استأجر أجيراً ترك أجرته نماها له حتى ملأ الوادي أنعاماً ، ثم جاء الأجير يطلب أجره فأعطاه ما نماه ، والحديث بطوله في الجزء الأول من كتاب التاج صفحة ٥٢-٥٤ ، وللأديب الرافعي ملمح خاص في أسرار النظم وفلسفة الحديث والتدرج الخلقي المقتضى هذا الترتيب يقول « هو الحب بادئاً من الولد لأبويه ، وهو الحب الخالص ، ثم من المحب لحبيبته وهو الحب الأخص ، ثم من الإنسان للإنسانية وهو مطلق بعمومه . وتعد أسبابه الملحة من الحاجة والغريزة ، وهي درجات كدرجات الحياة نفسها من طفولتها إلى شبابها إلى الشيخوخة ، ومن العاطفة إلى الرغبة إلى العقل ، ثم إنه ما دام كمال الفضيلة هو الأمانة فما قبلها أنواع منها فبر الولد أمانة الطبع المتأدب ، وهذه المحبة أمانة القلب الكبير ، والثالثة : أمانة الخلق العالي وهي أسماهن ، لأنها لن تكون خلقاً ثابتاً إلا وقد خضع لقانونها الطبع والقلب ودخل في أسبابها الأدب والكرم ، فالأمانة الكاملة في هذه الفلسفة هي الأمانة الإنسانية العامة ، المتصلة بالمرء من أبعد جهاته ، دون الإنسانية الخاصة بكل شخص من أب وأم أو قريب ، ودونه التي هي أخص

وهي إنسانية الحب . . . وبهذا كله تكون الغاية الفلسفية التي ينتهى إليها كلامه ﷺ أن تنشئة الناس على البر والعفة والأمانة الإنسانية هي وحدها الطريقة العملية الممكنة لحل معضلة الشر والجريمة .

وانظر كيف جعل نهاية السمو في رحمة المال الذي يصفونه بأنه شقيق الروح فكأن الإنسان لا يخرج منها لغيره من بعض ماله ، بل يتخلع من بعض روحه وهذا يقدر لك فلسفة أخرى أن السعادة الإنسانية في العطاء دون الأخذ وأن الزائفة هي في الأخذ دون العطاء ، وذلك آخر ما انتهت إليه فلسفة الأخلاق[1].

* * *

---

(١) راجع : وحي القلم للرافعي ٣/١١-١٤

ب - الاستفهام في بيان النبوة

الاستفهام له الصدارة فهو نوع من التقديم لذا ألحقته به :

تمهيد :

والواقع أن للاستفهام ـ كطريق من طرق التعبير ـ مكاناً اقتضاه البيان النبوي نزولاً على مقتضيات الأحوال ، ومعالجة لأدق المشاعر النبوية الكريمة ، هذه المشاعر التي كان مجرد الإفصاح والتعبير عنها بصدق خير أداة لتثبيت أغراض النبوة وتشريعاتها لها وتغيير مالا يتلاءم مع أخلاقيات الإنسان الجديد .

ولذا فقد نرى الاستفهام النبوي بين عرض وتشويق ، وتقرير وتأكيد ، وإنكار وتوبيخ ، واستبعاد وتعجب ، وتهويل ووعيد ، وعتاب وتحسير ، وغير ذلك من عالم الأحاسيس ، معبراً عن شعور أو أكثر في حالة واحدة .

وبينما نراه مسوقاً لحالة ماثلة من سلوك أو خلق أو قيمة أو تشريع نجده يتعمق في أطواء المجهول بقوة مثيرة مصوراً ـ قوى التصوير ـ غيباً مكنوناً ، أو مشهدا من مشاهد يوم الدين ، ثم هو في ومضة يجمع بين مشاعر النبي الذاتية وبين ما وجه إليه من حالات المخاطبين وسلوكهم ، فيصدق كلتا الحالتين جميعاً ، ولا شك أن الدائرة ـ الواسعة تلك ، للاستفهام أتت من خروجه من ضائق استعماله الحقيقي إلى طرقه المجازية بدلالاته المختلفة ، قال صاحب المطول « كلمة الاستفهام إذا امتنع حملها على حقيقته تولد منه بمعونة القرائن ما يناسب المقام ، ولا ينحصر المتولدات فيما ذكره المصنف (يعني القزويني من أغراض مجازية) ، ولا ينحصر أيضاً شيء منها في أداة دون أداة ، بل الحاكم في ذلك هو سلامة الذوق وتتبع التراكيب ، فلا ينبغي أن تقتصر في ذلك على معنى سمعته ، أو مثال وجدته من غير أن تتخطاه ، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية »[1].

---

(١) المطول على التلخيص ، للتفتازاني : ص ٢٣٩

وهذا اعتراف صادق منه بسعة عالم الشعور ، ثم تنوع الأساليب ، وترجمتها بصدق عن مختلف الأحاسيس ، لذا فنحن نصب اهتمامنا على الدائرة المجازية للاستفهام .

الهمزة وأغراضها :

(١) العرض أو التشويق ترغيباً أو ترهيباً :

عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»(١).

عن أبي ذر ﷺ قال رسول الله ﷺ :«ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله» قلت : أخبرني يا رسول الله ، قال : «إن أحب الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده»(٢).

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ وقف على أناس جلوس فقال : «ألا أخبركم بخيركم من شركم؟» قال فسكتوا ، فقال ذلك ثلاث مرات ، فقال رجل : بلى يا رسول الله أخبرنا بخيرنا من شرنا قال : «خيركم من يرجى خيره ، ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره»(٣).

وعنه عن النبي ﷺ : «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم»(٤).

عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ : «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قلت : بلى قال : لا حول ولا قوة إلا بالله»(٥).

عن قيس بن سعد بن عبادة قال له رسول الله ﷺ : «ألا أدلك على باب من أبواب الجنة ؟ قلت : بلى ، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله»(٦).

---

(١) التاج الجامع ٥/٧٥
(٢) المرجع السابق ٥/٩٩
(٣) المرجع السابق ٥/٣٣٨
(٤) المرجع السابق ٥/٢٤٥
(٥) المرجع السابق ٥/١٠٢
(٦) المرجع السابق ٥/١٠٢

من حديث معاذ بن جبل عن النبي ﷺ : «ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» . . . الحديث[1].

عن أبي بكر عن النبي ﷺ : «ألا أخبركم بأكبر الكبائر : قالوا بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، أو قول الزور» قال فما زال يقولها حتى قلنا ليته سكت[2].

عن زيد بن خالد الجهني عن النبي ﷺ : «ألا أخبركم بخير الشهداء ، الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها»[3].

عن علي كرم الله وجهه قال لي رسول الله ﷺ : «ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن غفر الله لك ، وإن كان مغفوراً لك ، قال : قل لا إله إلا الله العلي العظيم ، لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين»[4] ـ عن حذيفة قال لقد رأيتنا مع النبي ﷺ ليلة الأحزاب ، وأخذتنا ريح شديدة وقر ، فقال رسول الله «ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي في الجنة»[5].

وفي هذه المجموعة دخلت همزة الاستفهام على لا النافية ، فأفادت العرض ، والتشويق ، والأخذ بمشاعر المخاطب لتتبع ما بعدها ، ونلاحظ أن المدعو إليه أموراً خطيرة تستأهل الانتباه الخاص بما تحمل من خير أو شر ، وقد زاد الانتباه هذه الصفات التي وقعت بعد الفعل مدخولاً الأداة فرفعت درجة الإثارة ، فهنا : أفضل من درجة الصيام ، والصلاة والصدقة ، وكلام هو أحب الكلام إلى الله ـ وكلمات تغفر الذنب وإن كان مغفوراً ـ وهناك سبب الحب المدخل للجنة ـ وتمييز الخير من الشر ، وأبواب الخير وباب الجنة ، وكنز الجنة ، كما أن هناك ـ أكبر الكبائر ـ ولقد وصلت الأداة ومدخولها ، بالإثارة والتشويق إلى

---

(١) التاج الجامع ٢/٥٠

(٢) المرجع السابق ٢/٦٤

(٣) المرجع السابق ٢/٦٢

(٤) المرجع السابق ٥/٩١

(٥) المرجع السابق ٤/٤١٨

الحكم درجة جعلت المخاطبين ـ أحياناً ـ لم يستطيعوا ضبط مشاعرهم فانطلقت ألسنتهم «بلى» ، «أخبرنا» أو «بلى يا رسول الله».

كما نلاحظ أن مدخول الأداة «في العرض والتشويق» إذا كان فعلاً غلب أن يكون «أخبر ـ أدل ـ أعلم» لأن الأفعال الثلاثة تدل على مهمة التبليغ للشريعة، وقد نرى أن الفعل «أخبر» له خطورته ؛ ولذا جاء فيما عظم أثره ، ولعل مادة الفعل نفسها دالة على نحو ما ـ أنه وحي قريب ، ومن هنا تعلم سكوتهم عن الإجابة حتى كرر السؤال ثلاثاً «ألا أخبركم بخيركم من شركم» خوفاً من فضح الأعماق ، حتى أجاب أحد الحريصين على الحق ، ويأتي الحكم بعيداً عما ظنوا مقرراً القاعدة عامة في الخير والشر .

وإذا دققنا في علاقة الإجابة «بلى» بما يثيره السؤال من إثارة ، ومدى هذه الإثارة وكيف لم تذكر في بعض الأحاديث؟ لرأينا أن الحديث «ألا أعلمك» بصيغة التعليم مدخولة لأداة العرض ملحوقة بوصف متعلق الفعل «كلمات إذا قلتهن غفر الله لك ، وإن كان مغفوراً لك» وليس أكثر من هذا الإعماق سيدنا علي ـ وإثارة أشواقه فكان الجواب «بلى» وهذا نموذج لما ذكر فيه حرف الجواب ، أما حديث معاذ : «ألا أدلك على أبواب الخير» فقد جاء نزولاً على رغبة معاذ نفسه وإجابة لطلبه وشغفه بما يفيده «أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار» وكان هذا كافيا إلى الاندفاع في تعليمه ، أما حديث أبي هريرة : «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا» فهو عجب من العجب فقد بدأ من النهاية والثمرة «دخول الجنة» ورتبه على الإيمان هو شعور واقع في الدنيا ، ورتب هذا الإيمان على التحاب بهذا التسلسل المثير للانتباه ثم يصعد بالشعور إلى قمته تشويقاً بالاستفهام «أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم» والاستفهام والحذف وتعليل التحاب يقينًا «بإذا» على شيء يمكن فعله .

كل هذا دفع وتصعيد للانفعال ، ولا ينتظر الحديث الإجابة حتى لا يقطع التدفق الشعوري بل يندفع مباشرة إلى ما سيق له الحديث «أفشوا السلام» قولاً

وعملاً وسلوكاً وإرادة ، فبدأ الحديث بالجنة ، وختمه بالسلام ليستقر قويًا في الأعماق ، وفي حديث «ألا أنبئكم بخير الشهداء» لا يتلبث الحديث حتى يسمع إجابة تؤكد وقع الانتباه ذلك أن الاستفهام وحده كاف لا سيما أن الاستشهاد ـ وإن كان فيه ما فيه من رضوان ورحمة ـ لا تعدم النفس البشرية التلفت إلى البقاء أحياناً . وكذلك من مراعاة الطبيعة البشرية حديث حذيفة «ألا رجل يأتيني بخبر القوم» فقد ضمن العرض هنا معنى الشرط في لزوم الجزاء ، وجعله عظيماً «جعله الله معي يوم القيامة» ولذا كانت «ألا» داخلة على فعل فسره ما بعده ليصب الاهتمام ـ بعد الحذف ـ على «رجل» فيه هذه الصفة يحقق هذه الفداء .

الهمزة للعرض بدون «لا» :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات عظام سمان ، قلنا نعم قال : فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاته خير له من ثلاث خلفات عظام سمان»[(١)].

عن عبد الرحمن بن عجلان عن النبي ﷺ «أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضمضم ، قالوا : ومن أبو ضمضم ؟ قال : رجل فيمن كان قبلكم كان إذا أصبح قال : اللهم إني جعلت عرضي لمن شتمني»[(٢)].

عن أنس باع ﷺ حلساً ، وقدحاً قال : «من يشتري هذا الحلس والقدح : فقال رجل : أخذتهما بدرهم ، فقال النبي ﷺ من يزيد ؟ فأعطاه رجل درهمين فباعهما منه»[(٣)].

وفي الحديث الأول : جاء الاستفهام بالهمزة في أسلوب يثير الشوق ، والاهتمام عند المخاطب ، والاهتمام والتطلع للحصول على كرائم المال المحبوب لدى العربي ، بل لوجوده في بيته وتحت إمرته دون بذل مشاق مما

---

(١) التاج الجامع ١/١٨٦
(٢) المرجع السابق ٥/٢٨
(٣) المرجع السابق ٢/٢١١

يقوي جانب العرض والشوق إلى الحكم وهو الدعوة إلى القرآن ، بل إن كل آية خير من خلفة عظيمة سمينة ، خيرية الباقي على الفاني .

وفي الحديث الثاني ـ من هذا التشويق ـ نجد نفث الإرادة في المخاطبين مع التهوين من يسير العمل وعليه جزاء كبير : أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضمضم» وطريقة بناء الأسلوب فيه إلهاب وتهييج بهذا الغموض ، فمن أبو ضمضم؟ وكيف يعجز أحدنا ولم نعرف بعد عمله ؟ وهل هو أشد وخير منا ؟ حتى إذا عرف ـ بعد السؤال ـ العمل اليومي الذي يقوم به أبو ضمضم قر في النفس بطريقة تربوية غير مباشرة وبقوة الترغيب ويلاحظ أن الهمزة انفردت عن لا بالجملة دون نفي ، وأفادت العرض والتشويق والاستدراج لتبني المعاني وتمثل الحكم وتدعم الغرض .

وحديث المزايدة فيه إباحة لها وترغيب بالغرض في الزيادة تشريعاً منظوراً للناس .

الهمزة للإنكار :

خرج رسول الله ﷺ في جنازة ، فرأى ركباناً فقال : «ألا تستحيون ، إن ملائكة الله على أقدامهم ، وأنتم على ظهور الدواب»[1].

قسم النبي ﷺ ذهبية لم تحصل من ترابها ، بين أربعة نفر يتألفهم ، فقال رجل من الأنصار : كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء ، فبلغ النبي ﷺ ، فقال «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً»[2].

قال محمود بن لبيد : أخبر النبي ﷺ برجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضبان ، ثم قال : «أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ حتى قام رجل فقال : يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟»[3].

---

(١) التاج الجامع ٣٦٩/١ .

(٢) المرجع السابق ٣٤٢/٢ .

(٣) المرجع السابق ١٥٦/٢ .

قال عبد الله بن عمرو : رأى عليَّ رسول الله ﷺ : ثوبين معصفرين فقال : « أمك أمرتك بهذا ؟ قلت أغسلهما ، قال : بل احرقهما ».

وهذه الأحاديث قد تنوع فيها مدخول الهمزة بين فعل أو اسم وقد تقدم ما انصب عليه الإنكار : « ألا تستحيون ، ألا تأمنوني ـ أيلعب بكتاب الله ، أتشفع في حد ـ أمك امرأتك بهذا » وفي الأول : بهذا التوبيخ والإنكار الشديد لعدم استحياء من يركب في الجنازة غير مبالٍ برهبة الموت ، ومشاعر الناس ، وكذلك في الثاني لعدم ائتمانهم رسول الله واعتراض بعضهم على طريقته في قسمة الذهبية ، وهي جريمة يقاتل عليها ، كما نجد في الحديث « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم » وقد صور الثلاث تطليقات مرة واحدة باللعب بالكتاب الحكيم ، وعيداً ونكيراً ، والجملة الحالية « وأنا بين أظهركم » تزيد منهما ، لا سيما أن القرآن يتنزل والرسول يتأول ويبلغ ، وكأن في الحديث تعريضاً بخلق يتلاعبون بالكتاب العزيز .

وفي حديث عبد الله « أمك أمرتك بهذا » قدرت همزة الاستفهام لحذفها تخفيفاً لفظيًّا والإنكار على لبس المعصفر ، وإن لم يل الهمزة ، وليس المراد إنكار أن تكون الأم الآمرة بحيث لو أن غيرها أمر جاز ، ولكن المقصود إنكار الأمر من أساسه ، ذلك أن الحديث لما عرض بعدم استقلال عبد الله وانقياده وضعف إرادته كالطفل الصغير توبيخاً ، حصر الأمر باللبس في الأم لأنها عادة تلبس أطفالها ما شاءت ، ثم أنكر أن تكون الأم آمرة إنكاراً للأمر كله ، لأنه لا آمر سواها ، ولا يخفى ما في كل هذا من تبكيت يزلزل النفس ، ويهز الأعماق ومسحة من سخرية خفيفة ، ولقد عقب البيان على قول عبد الله الخائف « أغسلهما » بقوله « بل احرقهما » بما يوائم هذا الشعور الجارف لغرس الرجولة المبكرة في نفوس الشباب ، وأخذهم بالحزم حتى يكونوا قادة نافعين .

الهمزة للتقرير :

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : قدم على رسول الله ﷺ بسبي ، فإذا امرأة من السبي تبتغي إذا وجدت صبيًا في السبي ، أخذته ، فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا رسول الله ﷺ : أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار قلنا لا والله وهي تقدر أن لا تطرحه ، فقال رسول الله ﷺ «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»[1] .

عن المستورد بن شداد قال : «كنا مع الركب الذين وقفوا مع النبي ﷺ على السخلة ميتة فقال رسول الله ﷺ : «أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها ، قالوا من هوانها ألقوها يا رسول الله قال : فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»[2].

عن أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله : كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة قال : «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ، قال قتادة : بلى وعزة ربنا»[3].

عن المغيرة عن النبي ﷺ : أن كان النبي ﷺ ليقوم يصلي حتى ترم قدماه أو ساقاه فيقال له فيقول «أفلا أكون عبداً شكوراً»[4].

ونلاحظ في الحديثين الأوليين : القصد إلى تكوين صورة تشبيهية خاصة ولما كان المشبه بعيداً عن الخاطر غير محسوس قدم أولاً المشبه به المنتزع من حالة حاضرة تراها العيون وتتفهمها العقول ، وقد دخلت الهمزة زيادة في تقرير المشبه به ، فالمخاطب هنا يشترك مع المتكلم مشغول الحس والخيال ، في تتبع الاستفهام وتكوين الصورة «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار» أترون هذه هانت على أهلها ، ومثل هذه الأحكام معروفة سلفاً ولكن الاستفهام بما له من جذب وإثارة يقررها ويرسيها في الوعي ، وإذ يتقرر في

---

(١) التاج الجامع ١٥٨/٥

(٢) المرجع السابق ١٦٠/٥

(٣) المرجع السابق ١٦٥/٤

(٤) المرجع السابق ٣٨/٥

الجميع مضمون الاستفهام سلباً أو إيجاباً ينتقل الحديث للمشبه ، وهو المقصود إليه : « تثنية الرحمة الواسعة إلى الله على عباده » ـ « تفاهة الدنيا وهوانها على خالقها » وتلك أمور خطيرة لا يدركها الحس ، فشغل الأسلوب بالتنظير والاستفهام منافذ الحس ومجامع الملكات النفسية لتحقيقها وتمثيلها بالواقع المنفرد بسمات خاصة إقراراً وإمتاعاً ، وإقناعاً .

والحديث : « أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » الهمزة هنا للنفي ، دخلت على أداة نفي فأفادت التقرير ، وحمل المخاطب عليه وهو مراد من قال إن الهمزة للتقرير والمقرر به ما دخله النفي وهو ما يعرفه المخاطب من ذلك الحكم[1] وهو برهان قوي إذ القادر الذي خلق الإنسان من عدم وأمشاه على رجلين ، ما أهون أن يمشي الكافر على وجهه في النار ، عقابًا لوجه لم يسجد لخالقه فليكن الوجه في موضع الأقدام لا على الثرى بل على حجرات متلهبات ، وقد انتزع الدليل الذي سيق في صورة الاستفهام التقريري من قتادة هذا الاعتراف السابق الخالص « بلى وعزة ربنا » .

والحديث « أفلا أكون عبداً شكوراً » رد على سابق كلام وهو كثرة العبادة النبوية مع مغفرة الله سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهذا توفيق ومنة تستدعي مزيداً من الشكر ، والحكم هنا يتقرر عند المتكلم والمخاطب جميعاً ، وهو ثابت عند المتكلم ، فلم يبق إلا المخاطب يحمل عليه ، لإزالة ما بنفسه من خطأ منشؤه اعتقاداً بأن المغفرة التامة لا تتطلب جهداً في العبادة كأن الجد في العبادة لا يكون إلا لطلب المغفرة ، لسالف ذنوب ، فبين لها وجهاً آخر هو مزيد الشكر والثناء .

---

(١) المطول : ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

التسوية مبالغة :

جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقلها ، ثم دخل المسجد فصلى خلف النبي ﷺ ثم أتى راحلته فأطلقها ، ثم ركب فنادى « اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا تشرك في رحمتنا أحداً فقال رسول الله ﷺ « أتقولون هل أضل أم بعيره ؟ ألم تسمعوا إلى ما قال ؟ قالوا : بلى »[1].

عن أنس عن النبي ﷺ : « مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره ؟ »[2].

والأعرابي ـ في الأول ـ استخفه الهوى ، ودفعه ضيق النحيزة وشهوة « البيان العاجز فسجل على نفسه الحمق والغباء ، ولما كان المخاطبون لا يبلغ بهم أن يجعلوا البعير مثل راكبه في الضلال والحمق ، سوى بينهما البيان النبوي ، ورفع ما بينهما لأن الأعرابي تحجر واسعاً وقصر الرحمة الإلهية على اثنين من البشر ، مبالغة تشبيهية قوية » .

وفي حديث أنس قد يظن امرؤ أن نهاية الأمة سيئ بالنسبة لما قبلها لا سيما أن نصوصاً نبوية قوت هذا الظن كالحديث « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم » . . . ويقيني أن حديث « خير القرون قرني » يعالج خيرية الفرد ، ويصل إلى أعماقه مبيناً قوة اليقين وشفافية الروح ، أما حديثنا فهو مهتم بالخير العام ، والنظر إلى الأمة جمعاً ولاشك أن وجود ما يقرب من ألف مليون مسلم ينطقون الشهادتين ويعلو أذانهم ، خير كبير لذا كان التصوير بالمطر وهو المعلوم لهم ثم التسوية بين صدر الأمة وآخرها نفي لما سبق من وهم ، ودفع للأمة ـ آخر الزمان ـ أن تنهج منهج الأسلاف .

ونلاحظ : حذف أداة الاستفهام « الهمزة » ودلت « أم » المعادلة عليها ، مع دخولها على مفرد ، فهي للتصور .

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٨

(٢) المرجع السابق ٢/٤٢٨

العتاب والإشفاق والتعجب :

عن أبي هريرة « أن رجلاً أسود ـ أو امرأة سوداء ـ كان يقم المسجد فمات ، فسأل النبي ﷺ عنه فقالوا : مات قال : أفلا كنتم أذنتموني ، دلوني على قبره فأتى قبره فصلى عليه »[1] .

وفي الحديث أفادت الهمزة الداخلة على جملة فعلية معنى العتاب والتنديم على عدم إعلامهم بموت الشاب ، وفيه الدلالة على فيض الرحمة النبوية ، ثم فيه من طرف آخر ترغيب في خدمة المساجد وأنها قربة عظمى .

عن كعب بن عجرة أن رسول الله ﷺ مر به زمن الحديبية ، وهو يوقد تحت قدر له ، والقمل يتناثر على وجهه فقال له : آذاك هوام رأسك ؟ قال نعم فقال النبي ﷺ « أحلق رأسك ، ثم اذبح شاة نسكاً وصم ثلاثة أيام ، أو أطعم ثلاثة آصع على ستة مساكين »[2] .

وكعب التزم بالإحرام فلم يغسل شعراً ولم يحلق ومر به النبي فرآه في حالة يرثى لها فتأثر وانطلقت الرحمة على لسانه ألفاظاً منسابة مصدرة بالاستفهام « آذاك هوام رأسك » إن قوة الإيمان في نفس الصحابي ، وعظمة الرحمة عند نبي الرحمة ، ويسر الدين يأمر بإزالة الشعر ثم الافتداء ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه .

عن أبي هريرة قام رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الصلاة في الثوب الواحد فقال « أو كلكم يجد ثوبين »[3] والاستفهام هنا يحمل معنى التعجب والدهشة من طريقة تفكير الرجل فما المانع من الصلاة في الثوب الواحد ، وهل كل يجد ثوبين ونلمح هنا مسحة من التهكم للتوجيه إلى السؤال العميق عن المفيد .

---

(١) التاج الجامع ٢٣٩/١

(٢) المرجع السابق ١٦٧/٢

(٣) المرجع السابق ١٥٦/١

باقي الأدوات :

لا شك أن الهمزة أم الباب ، وأوسعه انتشاراً ، واستعمالاً ، ولذا كثرت في البيان النبوي فهي خفيفة نطقاً يسأل بها عن الفرد والجملة أعني للتصور والتصديق ، وقد تومئ إلى حكم يقرر أو ينكر ـ غير مذكور ـ أما باقي الأدوات فليس لها هذه الميزات ولذا جمعناها في قرن واحد ، ونقتطف هذه الأغراض التي تأدت بها :

الإنكار والتهديد :

أ- المجموعة الأولى

عن جابر : كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري يا الأنصار ، وقال المهاجري ياللمهاجرين ، فسمع ذلك النبي ﷺ فقال ما بال دعوى الجاهلية ، قالوا : يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار : « فقال دعوها فإنها منتنة »[(1)] .

عن عائشة رضي الله عنها : أرادت أن تشتري « بريرة » فاشترط أهلها الولاء لهم ففعلت عائشة ، وقام رسول الله ﷺ في الناس « فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ما بال رجال يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله ، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرط ، قضاء الله أحق ، وشرط الله أوثق وإنما الولاء لمن أعتق »[(2)].

عن أبي حميد ، قال : استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأسد يقال له « ابن اللتبية » على الصدقة فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهدي إليَّ ، فقام رسول الله ﷺ في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « ما بال عامل أبعثه فيقول هذا لكم وهذا أهدي إليَّ أفلا قعد في بيت أبيه ، أو في بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا؟ »[(3)].

---

(1) التاج الجامع ٢٦٣/٤
(2) المرجع السابق ٢٠٢/٢
(3) المرجع السابق ٥٤/٢

ونلاحظ في الأحاديث تكرار عبارات خاصة تعبر عن الإنكار والغضب وهذه العبارة «مابال» صيحة معبرة عن انفعال غاضب، وإنكار جارف لحالات سلوكية خارجة على روح الشريعة، فاستصراخ العصبية وجه للجاهلية قبيح وأده الإسلام وابتعاثه مثير للثورة، ومن يشترطون الولاء وهم لا يملكون العتق متعصبون، وهذا المستأثر للهدايا باسم العمل من مال المسلمين خائن استهواه الشيطان ولفظاعة هذه الحالات عقب الأسلوب بما يرسخ الوعيد والنكير «دعوها فإنها منتنة» «ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل» وإن كان مائة شرط «أفلا قعد في بيت أبيه، أو في بيت أمه» استفهام آخر إنكاري استدعته حال المستأثر، لتربية الأمانة والتعفف، ومعالجة أمراض الشح والطمع، ونلاحظ توجيه الخطاب ـ حتى في الحالات الفردية ـ للجماعة وهكذا كان الأدب النبوي، فما كان ليفضح أحداً أو يثني عليه أمام الملأ، بلى جاء التعبير الشامل تعليماً وستراً، ثم إن هذه أنجع الطرق التربوية في تقويم السلوك وإصلاح الفاسد.

ب ـ المجموعة الثانية

جاء رجل إلى النبي ﷺ وعليه خاتم من شبه (نحاس) فقال له: «مالى أجد منك ريح الأصنام؟ فطرحه، ثم جاء وعليه خاتم من حديد، فقال: مالي أرى عليك حلية أهل النار؟ فقال: يا رسول الله: من أى شيء اتخذه قال: اتخذه من ورق، ولا تتمه مثقالاً»[(١)].

عن جابر بن سمرة: قال: دخل النبي ﷺ المسجد وهم حلق فقال: «مالي أراكم عزين»[(٢)].

والتعبير هنا «مالي» ترجمة عن شعور مائج بالإنكار، ومحل الإنكار تختم المخاطب في ـ الأول ـ بالنحاس والحديد وهي حالة لم يذكر في الأساليب إلا دليلها المنفر كأنه سبب الإنكار والحرمة وليس محلهما، ثم اختيار الألفاظ

---

(١) التاج الجامع ١٥٨/٢

(٢) المرجع السابق ٢٦٥/٥

القوية لمعنى الاستفهام «كريح أصنام» بما لها من نفور ووقع بغيض في نفس المسلم، و«حلية أهل النار» بما تومئ من ترهيب وتخويف يدفع بالإنكار إلى ذروته، ونلاحظ في هذه الحالة وحالات قادمة توجيه الإنكار إلى فرد واحد لشذوذه عن المجموع واستدعاء حالته توجيه الإنكار له، ولكل داء دواء خاص يستطب به وسلوك في علاجه.

والحديث الأخير: ذكر محل الإنكار - وهو تفرق الناس حلقات وليس أدعى للإخلاص في العبادة من الاجتماع عليها، ولا أبغض وأعون على سيطرة الشيطان من التفرق خاصة في المسجد؛ لذا تلبس الإنكار بالأسلوب معبراً موبخاً متوعداً.

ج - المجموعة الثالثة

عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ رأى قبة مشرفة فقال: ما هذه؟ قالوا لفلان الأنصاري، فسكت وحملها في نفسه، ثم هدمها الأنصارى فقال: «أما إن كل بناء وبال على صاحبه، إلا ما لا إلا ما لا: يعني ما لا بد منه»[1].

كان النبي ﷺ في سفر فسمع لعنة فقال: ما هذه؟ قالوا فلانة لعنت راحلتها فقال النبي ﷺ: «ضعوا عنها فإنها ملعونة»[2].

مر النبي ﷺ برجل يبيع طعاماً فسأله: كيف تبيع؟ فأخبره، فأوحى الله إليه: أن أدخل يدك فيه، فأدخل يده فإذا هو مبلول، فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال أصابته السماء يا رسول الله، قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ ثم قال: من غش فليس مني»[3].

وقد دخلت ما الاستفهامية للإنكار على اسم الإشارة القريب مشاراً به إلى محسوس منكر خارج عن الدين، أو كلمة وقعها بغيض، أو حالة تفضح

---

(١) التاج الجامع ١٦٥/٥
(٢) المرجع السابق ٣٥١/٤
(٣) المرجع السابق ١٩٧/٢

صاحبها بالغش والخيانة، كما في قبة الأنصاري «ما هذه» وفي كلمة اللعنة «ما هذه» وفي الطعام المغشوش «ما هذا» وقد صحب الإنكار مقتضاه، فأعرض النبي ﷺ عن صاحب القبة، ووضع عن الناقة رحلها وأتبع الاستفهام الإنكاري بآخر توبيخي «أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس» ثم أتبعه بتقرير ما يسوء الغاش «من غش فليس مني».

متفرقات في الإنكار:

دخل النبي ﷺ حائطاً للأنصار فرأى جملاً، فلما رأى النبي حن وذرفت عيناه فمسح ذفراه فسكت فقال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، قال «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إليَّ أنك تجيعه وتذنبه»[1].

عن أبي الدرداء: كان بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مشاحنة، فغضب النبي ﷺ وتغير وجهه، فلما رأى عمر قال «إن الله بعثنى إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركون لي صاحبى مرتين» فما أوذي بعدها[2].

وفي الأول: نرى الانفعال الذي يغلي في النفس الطاهرة لظلم حيوان أعجم ونحس بهذه الثورة في استفهامات إنكارية متوالية تسجل ارتفاع درجات الشعور المتزايد في صدق ثم أثرها في المخاطب: «لمن هذا الجمل» بعد من رب هذا الجمل؟ فإذا جاء الفتى خائفاً بلغت قوة الغضب والتأنيب مداها «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة» والحرص على الإشارة لفت للمخاطب ليقف على أثر تعذيبه، ثم التعبير بالبهيمة زيادة تجسيد للألم الواقع على حيوان بهيم يتألم ولا يبين، ثم إن هذه الاستفهامات تنقل أيضاً حرارة العاطفة النبوية في رحمتها التي شملت الطبيعة بما فيها.

---

(١) التاج الجامع ٣٥٣/٤

(٢) المرجع السابق ٣٠٧/٢

والحديث الآخر : هل أنتم تاركو لي صاحبي «نلاحظ أن الحكم المنكر واقع حال لم يذكر في الأسلوب ، ولقد توجه الخطاب إلى الجميع ، والمقصود عمر أدباً نبويًا مطبوعاً وزجراً لكل من يريد إيذاء الصديق ، فكأنه حسم لقضية عامة ، ولقد أتى بالأداة «هل» لأنها نص في الحكم والإثبات ، وهو ترك المخاطبين صاحبه وأتى بالجملة اسمية مع أن هل مثل «قد» خاصة بالفعلية للدلالة على كمال العناية بحصول ما سيتجدد من الحكم إبرازاً له في معرض الموجود إثباتاً له وتنبيهاً إليه[1] .

وهذه الطريقة في النظم الذي تكرر مرتين دلت على غضب ووعيد ، واكب التغييرات العضوية في وجه النبي ﷺ ليكون إنهاء لكل إيذاء يمكن أن يوجه إلى الصديق العظيم ، لذا كان تعليق أبي الدرداء : فما أوذي بعدها .

التعجب :

وهو شعور ينقله أسلوب الاستفهام خروجاً على طبيعته .

قال أبو سعيد «دخل رسول الله ﷺ المسجد ذات يوم فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة ، فقال : يا أبا أمامة مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت صلاة قال : هموم لزمتني ، وديون يا رسول الله ، قال أفلا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همك ، وقضى عنك دينك ، قلت : بلى يا رسول الله ، قال إذا أصبحت وإذا أمسيت قل : «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»[2].

عن جابر بن سمرة قال : «صليت مع رسول الله ﷺ فكنا إذا سلمنا قلنا بأيدينا : السلام عليكم السلام عليكم ، فنظر إلينا رسول الله ﷺ فقال «ما شأنكم تشيرون بأيديكم : كأنها أذناب خيل شمس : إذا سلم أحدكم فليلتفت إلى صاحبه ، ولا يومىء بيده»[3].

---

(١) المطول ص ٢٣١

(٢) التاج الجامع ٥/١٣٩-٢٠٠

(٣) المرجع السابق ١/٢٠٥

والحديث الأول جاء التعبير «مالي أراك جالسا» يعبر عن دهشة وعجب من رجل جالس في غير وقت صلاة وليس من عادته هذا الجلوس ، مع الاهتمام والعناية بأمره، وحين ألم الرسول ﷺ بجملة حاله بدأ بهدايته وتعليمه، وجاء الاستفهام الثاني «ألا أعلمك كلاماً . . .» تشويقاً وقسراً للانتباه ، واستدراجاً لتثبيت ما يلقى إليه حتى يضمن حفظه ، وتنفيذه ، ثم علمه الدعاء المبارك الذي نفعه الله به .

والحديث الثاني دخل الاستفهام على جملة ترسم لوحة فريدة فعشرات الأيدي في لحظة واحدة تتحرك في سرعة منقلبة من باطنها إلى حدها وتعقبها الشمائل بنفس الحركة في الاتجاه الأيسر ، وابتداع هذه الحركة يثير العجب فيأتي لها البيان بصورة أعجب متحركة تعبر عن القلق مسبوقة باستفهام يعين على هذا الشعور ، فليتصور الخيال أعداداً من خيل مستوفزة جامحة تطوح أذنابها دوما ميمنة وميسرة كأن وفرة النشاط تظهر في الأذناب ، وهي على العموم خفة لا تناسب الصلاة وما فيها من خشوع ونلاحظ هذا التلاؤم بين انفعال الدهشة والتعجب ورسم الصورة المدهشة العجيبة مما جعل الحديث كله نقطة من السحر والفن الخالد .

الاستبعاد :

وقد تأتي بما وكيف وأين في الأحاديث التالية :

عن عبد الله بن مسعود قال : نام رسول الله ﷺ على حصير فقام ، وقد أثر في جنبه فقلنا يا رسول الله : لو اتخذنا لك ، فقال : «مالي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(1) .

عن أبي سعيد عن النبي ﷺ : «كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ»(2) .

---

(1) التاج الجامع ١٧٧/٥ (2) المرجع السابق ٣٦١/٥

من حديث أبي هريرة : «وذكر الرجل يطيل الشعر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام ، وغذي من حرام فأنى يستجاب لذلك»[1] .

والأساليب المجازية للاستفهام «مالي وللدنيا ، كيف أنعم» تفيد الاستبعاد من إقباله ﷺ على الدنيا والتعليم لأمته أن يجعلوا الآخرة لا للدنيا همهم وفي هذا الاستبعاد يشع الورع والزهد ، والخوف من الله .

وفي الحديث الثالث : بعد أن ذكر مبررات الحكم يرسم صورة متلاحقة الأجزاء رجل أشعث ـ أغبر ـ يمد يده إلى السماء ـ ألفاظه تواكب حركاته ـ يا رب يا رب ، وتنفذ الصورة إلى أعماقه وخفي أمره ، طعامه وشرابه وملبسه حرام لتوضح زيفه وخداعه كل هذا مهد للحكم في صورة الاستفهام : أنى يستجاب لذلك .

ويلاحظ أن الاستفهام لاستبعاد الإجابة ، وأن اسم الإشارة للبعيد كأنه مبعد من كل ناحية كما كان خداعاً في كل أموره .

التهويل :

عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ استيقظ ليلة فقال : «سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن ، ماذا أنزل من الخزائن . من يوقظ صواحب الحجرات ؟ يا رب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة»[2].

وهذه الليلة التي استيقظ فيها نبي الله عليه الصلاة والسلام كشف الله عنه الحجب فرأى وعلم من تقديرات الله في كونه كل مهول مخوف ، ولقد صدر الحديث بأسلوب التعجب السماعي «سبحان الله» ثم جاء الاستفهام «ماذا أنزل الليلة من الفتن» وكأنه تنزيل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، أو تقدير وقضاء ، وبناء الفعل للمجهول ، ووجود الفتن بلفظها جمعاً ليساعد في هذا

---

(١) التاج الجامع ١٨٢/٤

(٢) المرجع السابق ٣٥١/١

الجو التهويلي التخويفي الذي أشعه الاستفهام كما نلحظ التفخيم في الاستفهام بعده «ماذا أنزل من الخزائن» وهو تفخيم مشوب بالعجب والانبهار من تمام فضل الله الذي لا يغيض . كل هذا يوقظ الخوف من الله والتشمير للعبادة ، ولذا جاء الاستفهام الثالث فيه معنى الرجاء «من يوقظ صواحب الحجرات» استجابة لداعي العبودية والتقديس لله تعالى .

تغيير المفاهيم :

عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «ما تعدون الرقوب فيكم ؟ قلنا الذي لا يولد له . قال ليس ذاك بالرقوب ، ولكنه الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئاً ، قال فما تعدون الصرعة فيكم ، قلنا الذي لا يصرعه الرجال ، قال : ليس ذاك ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»[(1)].

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «أتدرون ما المفلس ، قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، قال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته فإن فنيت قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[(2)].

والاستفهام يمثل جانباً من الثورة الإسلامة في تغيير المجتمع الجاهلى ، وتبديل قيمه ، وسحق باطله بالدعوة الحكيمة والتدرج في العلاج ، والتلطف في التغيير والاستفهامات ما تعدون الرقوب؟ ما تعدون الصرعة ؟ أتدرون ما المفلس؟ ليس المراد معرفة إجاباتها لذاته ، بل لتغيير مفهومها وإبدالها بما يتلاءم والدعوة ، والغرض هنا التدرج لتغيير مفهوم وتحديده من جديد ، ولا شك أن البلاغة في هذا التدرج لأنه توزيع للموضوع على مشاعر النفس على مرات ، تتعقله ثم تؤمن به لا سيما أنه تغيير إلى أفضل بالارتقاء الخلقي

---

(١) التاج الجامع ٤٨/٥

(٢) المرجع السابق ٢٠/٥

والنفسي ، أو تعليقها بالسلوك الطيب والخبيث عند الإنسان كالمفلس مثل ، ولا يخفى جانب الترغيب في الأولين والتحذير في الأخير .

الإلزام والحجاج :

عن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال : «أربع في أمتى من أمر الجاهلية لن يدعهن الناس : النياحة والطعن في الأحساب ، والعدوى : أجرب بعير فأجرب مائة بعير ، من أجرب الأول؟ والأنواء مطرنا بكذا ، وكذا»[1] .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : قال : «لا عدوى ولا صفر ولا هامة فقال أعرابي يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيخالطها البعير الأجرب ويجربها كلها قال : فمن أعدى الأول؟»[2].

والاستفهام هنا مثل على الحجاج النبوي ، بقوة إلزامه ، وشدة الإقناع الذي يلجم فلا يملك أحد دفعاً «أجرب بعير فأجرب مائة بعير فمن أعدى الأول؟» ورداً على كلام الأعرابي «فمن أعدى الأول» والبرهان المصدر بالاستفهام لا يتوقف عند الماثل الجزئي بل يتعمق العقل أصل المشكلة والبحث في جذرها ، فقد نرى أثر العدوى ، حسن فلنطرح هذا السؤال أول بعير أو فرد ، كيف أصيب بالمرض المعدي ، وإنه لسؤال يحار العقل فيه ؟ ولكن لماذا؟ إن القضية واضحة أن العدوى لا تؤثر بذاتها ، وإنما كل شيء بتأثير القدر والقضاء الإلهي الذي وقع وفق مشيئة الله سبحانه ولا ينافي هذا أن نفر من الشر والأذى ، ومنه صاحب المرض المعدي .

الإيناس :

عن ابن عمر : اشتكى سعد بن عبادة : فعاده النبي وقد غشي عليه فقال : قد قضى؟ قالوا لا يا رسول الله ، فبكى رسول الله ﷺ فلما رأى القوم بكاءه بكوا ،

---

(١) التاج الجامع ١/٣٤٣

(٢) المرجع السابق ٢/٢٢٠

فقال : «ألا تسمعون : إن الله لا يعذب مدمع العين ، ولا محزن القلب ، ولكن يعذب بهذا أو يرحم»[1] .

سؤاله ﷺ لشاب كان في مرض موته «كيف تجدك»[2].

والاستفهام هنا «ألا تسمعون» ، «كيف تجدك» فيه إيناس ورقة رحيمة مناسبة لحال خاصة ، ففي الأول : نجد الحضور قد احتواهم شعور واحد ، ونبض واحد ، وقد يقع في الوهم مخالفة بكاء النبي لما عرفوه في الإسلام ، فما كان من النبي ﷺ إلا أن وجههم بلطف ورجاء وإيناس لمعرفة الحقيقة وهو أن الحزن شعور لا يدفع والدمع منفس عنه ، ولكن المنع والجزاء يدوران حول صياح اللسان ونياحته وحصائده ، وقد جاء الاستفهام دلالة على اللطف والقرب مناسبة لحالة مؤثرة هي مرض بطل عظيم من أبطال الإسلام .

والاستفهام الثاني فيه هذا الإيناس الرحيم المناسب لمرض شاب يوشك أن يفارق الحياة .

العتاب :

قال أنس : لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ، ولا لعاناً ولا سباباً كان يقول عند المعتبة «ماله ترب جبينه»[3]. والاستفهام «ماله» فيه جانب من روح النبوة فهنا العتاب الرقيق واللوم الخفيف الرفيق تناسب لحال المعتبة وأدب النبوة ثم هذه اللازمة «ترب جبينه» أسلوب عربي وتعبير لغوي يقال في حالات التودد التي لا عنف فيها ولا صخب .

وهكذا :

نجد الاستفهام النبوي قد طوف معبراً عن شتى المشاعر الإنسانية ، بصدق ، وكان طباق ما قصد له ، من معالجة حالات عند المخاطبين يستوعبها

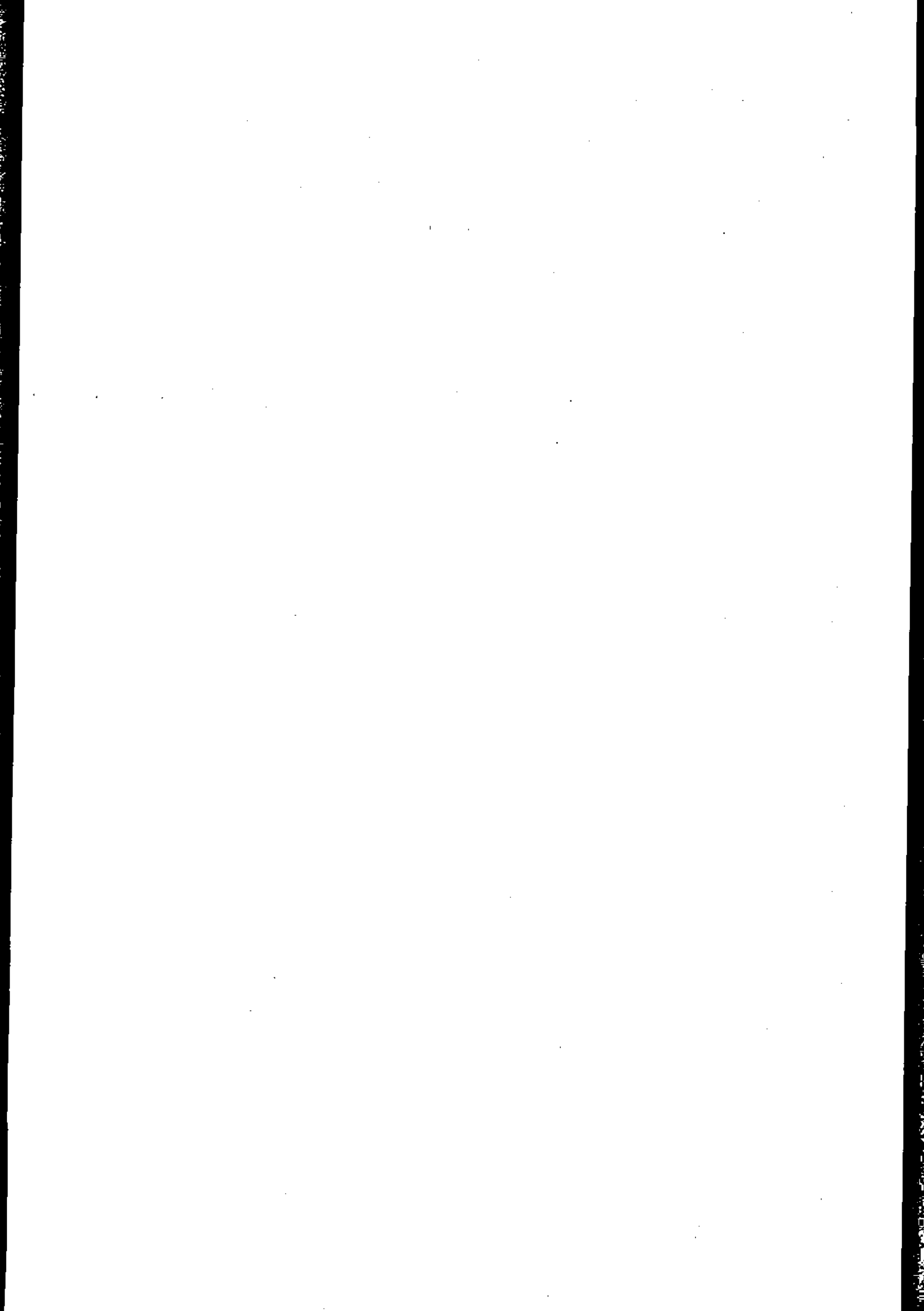
---

(١) التاج الجامع ٣٣٨/١ (٢) المرجع السابق ٣٤٦/١

(٣) المرجع السابق ٣٦/٥

شعوريًّا ، مع اقتضاء النظم تقديم ما انصب عليه الاستفهام المجازي ، طبعاً بلا تكلف - كما لاحظنا أن الهمزة كانت أكثر الأدوات استعمالاً وتأدت بها جملة من الأغراض ، التي دار معظمها حول وجهات الدعوة ، وكذلك باقي الأدوات كما وجدنا تعبيرات خاصة شاعت في البيان النبوي في حالة الإنكار غالباً : ما بال كذا ، مالى كذا ، ما هذا كما رأينا تجاوب النظم كله لأداء الغرض الذي صدر بالاستفهام ، كما لحظنا نجاح الاستفهامات في إحداث الأثر المباشر عند المخاطبين فأثارت عواطفهم وغيرت سلوكهم ، وهذا معيار الصدق الفني والنجاح الأدبي .

* * *



الفصل الثالث

القصر في بيان النبوة

منهجنا :

هـدفنا في بيـان القصـر في أحاديـث الـنبي ﷺ لـيس هـو اتبـاع التقسـيمات المتشعبة ، ولا حصر التفريعات المختلفة لأقوال البلاغيين ، فهـذا لـيس هـدفاً ، وإنما القصر مـن واقـع البيـان النبـوي نفسـه ، وسـنجد انفـراده بسـمات خاصـة تطلبتها أساليب الدعوة ، كما سـنجد نحـواً مـن القصـر جـاء في صياغة لافتـة للذهن تعمق المعنى وتظهره في إطار يناسب درجة أهميتـه ، ثـم لترسـيخ هـذا المعنى بقيمته في أعماق المخاطبين مع صدقه أيضاً في التعبير عـن اهتمامـات النبي ﷺ بمـا ينفعـل بـه مـن معـان وقـيم ، ولا بـأس أن يكـون مرتكزنـا في العنونة « طرق القصر » وقد سبق منها « التقديم » في فصل « التقديم » .

١- النفي والاستثناء :

الواضح أن المعاني النبوية هي التي تختار أثوابها الفنية المعينة على تمام ظهورها ؛ ولذا سنجد الأسلوب يتلاءم تركيبه مع ما يفيده القصر من قوة :

وأولى الظواهر التى نراها في بعض أحاديث القصر : أن يتقدم نفي بما النافية داخلة على المقصور اسماً نكرة مسبوقة بمن الزائدة التي تؤكد هذا النفي ، ليكون كل لفظ في الحديث لبنة في صرح التأكيد ، كما نرى أن هذا الاسم النكرة عام بمضمونه شامل يصدق على كثيرين ، فوق عمومه بوقوعه في سياق النفي مثل : ما من مسلم ، ما من امرئ ، ما من عامل ، ما من أحد ـ ما من رجل ، ما من نبي ـ ما من ميت ، وقد عددنا من الأحاديث ما زاد على

العشرين مما يثبت هذه الظاهرة[1] الشائعة في بيان النبوة ، ثم إن القصد إلى هذا النفي العام بنفي المفرد النكرة قد يسبقه نفي جنسه ، أو نفي جمعه : ما من الأنبياء من نبي ، ما من الناس من مسلم ، وتقديم الصفة على الموصوف هنا مبالغة في النفي ، وتفسير هذه الحالة : تقديم النفى المؤكد المنصب على كل فرد من أفراد المستثنى منه ، ليكون الإثبات باستثناء شيء من هذا المنفي أقوى أساساً نفياً لكل ريب حول ما يسوقه الحديث من حقائق أو أحكام ، ثم ليصوغها في شكل قاعدة أو قانون عام له قوة الثبات ، ونفاذ الحق ثم الإيماء إلى الذكاء النبوي لأنه يشير من طرف خفي إلى التحري والاستقصاء أو الإعلام من الله بغيب كان خفيًا شاملاً وقويًا .

أغراض النفي والاستثناء :

(١) الترغيب :

عن علي ﷺ عن النبي ﷺ «ما من مسلم يعود مسلماً غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يعشى ، وإن عاده عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح ، وكان له خريف في الجنة»[2] .

عن ابن عباس عن النبي ﷺ : «ما من عبد مسلم يعود مريضاً لم يحضر أجله : فيقول سبع مرات : أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عوفي»[3] .

وفي الأول دعوة صريحة إلى عيادة المسلم المريض ، وفي الثاني دعوة إليها باعتبار بركتها ، ودعوة إلى هذا الدعاء المبارك ، وصلاة سبعين ألف ملك على عائد المريض أو ضمان المعافاة للمريض لمجرد كلمات تقال : حكم غريب يفجأ الخاطر وقد ينكره ، ولذا ساقه الحديث قويًا مزيلاً لما يثار ضده من

---

(١) لها نظائر فى القرآن لا تصل إلى حد الظاهرة كقوله تعالى ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (هود:٦) .

(٢) التاج الجامع ٣٥٠/٢

(٣) المرجع السابق ١٩٧/٣

انفعال أو شك وذلك بالنفي والاستثناء ، والمنفي نكرة مسبوقة بمن المؤكدة للنفي لجعلها تأخذ شكل القاعدة أو الحقيقة العامة .

التفصيل في المقصور :

ونود هنا أن ننبه إلى سمة خطيرة في القصر النبوي أثارت عقولنا ، وحملتنا على التتبع المتأني ، هذه السمة هي أن في كثير من أحاديث القصر لا يتبع المقصور عليه المقصور مباشرة في النفي والاستثناء ، لكن يتبع المقصور بفيض من الصفات المتلاحقة التي تجذب انتباه المخاطب وتثير أشواقه ، لتتبع الكلام الذي يكون مقصوراً خاصًا بصفات معينة ، وكل جملة تتبعه تزيد هذا الشعور حتى إذا جاء المقصور عليه وقع من النفس موقعاً مطفئاً هذا الشوق أولاً ، ومؤكداً المعنى لغرابته ثانياً ، وتحقيقاً للغرض الداعي إلى الكلام ثالثاً كما في الحديثين السابقين . ونقدم هذين الحديثين :

قال ﷺ : «ما من الناس من مسلم يتوفى له ثلاثة لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة برحمته إياهم»[1] .

عن عثمان بن عفان ﷺ : عن النبي ﷺ : «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها ، إلا كانت له كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم يأت كبيرة وذلك الدهر كله»[2].

وفي الحديث الأول : تقدمت الصفة (من الناس) على الموصوف النكرة «مسلم» المتبوع بالوصف «يتوفى له ثلاثة» وصراحة النفي وعمومه يشد الانتباه والشوق ويثير شعور العطف عند المخاطب ويؤكد النفي ، ثم تأتي العبارة «لم يبلغوا الحنث» بالاحتراس المقلل من العموم تثير مزيداً من اللهفة والعطف ، وإن كان الوجدان يركن إلى جزاء طيب ، يأتي بعد أداة الاستثناء «إلا» قصراً للمسلم في هذه الحالة السابقة على إدخاله الجنة دون النار ، قصر

---

(١) التاج الجامع ٢/٥ (٢) المرجع السابق ١٢/١٢١

موصوف على صفة ، وهو جزاء لا مفر منه أثر الصفات التي تبعث المقصور وأفادت الترشيح ، والتمهيد ، والتبرير للحكم الذي ارتفع بالجزاء قمة تتناسب مع قوة الترغيب في الصبر على وفاة الأولاد .

والحديث الثاني : تتوالى صفات المقصور «امرئ مسلم» توالياً زمنيًا تتعاقب فيه الأحداث التي تمهد للجزاء الذي جاء مقصوراً عليه تحقيقاً له ، وحبساً للمقصور عليه ، فلا يتعداه وقد وضح أن الجزاء في الحديثين مرغب فيه وفي سببه من صبر وصلاة ، ثم لأن الجزاء غيبي وجزيل وجب تحقيقه بالقصر الخاص .

التفصيل في المقصور عليه :

سبق التفضيل في المقصور إثارة للشوق وتبريراً للحكم واستيفاء لأجزاء المقصور لكن قد يفصل في المقصور عليه لإتمام المعنى ، وانصباب الاهتمام عليه ، وتعلق الغرض به .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا من ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً»[1] .

وعنه عن النبي ﷺ «ما من مسلم يلبى إلا لبى من على يمينه ومن شماله من حجر أو شجر أو قدر حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا»[2].

فالمقصور عليه (ملكان ، مسلم) اسم موصوف وعطف عليه جمل تبين سر الترغيب والترهيب مع ما في الأول من أحداث غيبية مثيرة تقتضي تحقيقها بطريق القصر .

كما نجد هذا التفصيل الغيبي الطريف في التجاوب المشرق بين الملبي ومظاهر الطبيعة ، إن الإشعاع الوجداني يمتد فيجعل الكون كله في هيام وضراعة ، ولما كان الحكم على جلاله وطوله غريباً أداه القصر .

---

(١) التاج الجامع ٢/٤ (٢) المرجع السابق ٢/١٢١

تأكيد حقيقة غيبية وصفية :

عن أبي سعيد ﷺ عن النبي ﷺ : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يؤمئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي»[1].

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[2].

ونبي الرحمة عليه الصلاة والسلام قمة في التواضع حتى وهو يحدث بنعم الله نلحظ ذلك في تكرار اللازمة «ولا فخر» ولبيان أنه سيد الأولين والآخرين يأتي القصر تدعيماً للحقيقة ورداً لإنكار وجد أو افترض من لا يدين بالإسلام ، وقد أتى الظرف والبدل وما عطف عليه «يؤمئذ آدم فمن سواه» تمهيداً وتقوية للقصر ، وهو من قصر الموصوف (الأنبياء) على صفة (أتباع محمد ﷺ) والوقوف تحت لوائه ، والقصر في الحديث الثاني يبين تنوع المعجزات ومناسبتها لمن سيقت إليهم وهو أمر خاص بتاريخ الأمم والشعوب ، وتنوع عقلياتهم ومواهبهم ، وذلك أمر يحتاج إلى تأكيد ، فجاء القصر لبيان هذه الحقيقة النادة عن العقول ، قصر كل (نبي) على إعطائه معجزة يؤمن عليها البشر ، تحقيقاً لهذا الحكم وتمهيداً للأهم وهو بيان معجزة النبي محمد ﷺ ، ولما كانت المعجزات قبله قد سلفت وانتهت بموتهم جاء النفي والاستثناء مؤكداً هذا الحكم الغيبى أو التاريخي ، لكن لما كان وحي السماء معجزة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام قرآناً يتلونه جاء القصر بإنماء لبيان نوع المعجزة المحمدية وأنها وحي من عند الله لا من غيره ، تعريضاً بوجوب اتباعه لأن معجزته جديدة دائماً تتحدى على الزمن .

---

(1) التاج الجامع ١٦٣/٤

(2) المرجع السابق ٢٢٨/٤

تحقيق الجزاء المثير :

وقد يحقق الجزاء بطريق القصر، ويكون غيبيًّا مثيراً للدهشة، والغرابة فيؤكد بالقصر نفياً لكل شك، وتثبيتاً للحكم ترغيباً أو ترهيباً :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحى حتى أرد عليه السلام»[1].

عن أبي ذر قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده ما من رجل تكون له إبل أو بقر أو غنم لا يؤدي حقها إلا أتى يوم القيامة أعظم ما تكون وأَسْمَنَهُ تطؤه بأخفافها، وتنطحه بقرونها، كلما جازت أخراها ردت عليه أولاها حتى يقضي بين الناس»[2].

فرد روح النبي ﷺ ليرد السلام على من يسلم عليه قد يغلفه توهم الريب فأكد الحكم مع صياغة الأسلوب وسوقه سوق الحقائق ترغيباً في التعبد بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ كما أمر الله، ويخيل إليَّ أن في الحديث إيماء إلى حياة النبي في قبره لأنه لا تخلو لحظة يصلي فيها مسلم على نبيه عليه الصلاة والسلام.

والحديث الثاني وعيد لمن لم يؤد زكاة أمواله، ولما كان المقام للوعيد والترهيب نجد هذه الصورة التي يتابعها الخيال بشغف ورعب، والصورة مؤكدة تنفي كل شك، كما نلاحظ التفصيل في الطرفين إثارة للشوق، وتحقيقاً للمعنى ودعماً للغرض.

لقطات من القصر الحقيقي :

عن عائشة رضي الله عنها : من رقية رسول الله ﷺ «اللهم رب الناس مذهب البأس، اشف أنت الشافي لا شافي إلا أنت شفاء لا يغادر سقماً»[3].

---

(١) التاج الجامع ١٨٩/٢
(٢) المرجع السابق ٩/٢
(٣) المرجع السابق ٢١٤/٣

عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ من قوله إذا قام إلى الصلاة : «اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت»(١) .

وقصر الشفاء أو الهداية لأحسن الأخلاق ، وصرف سيئها ، قصر ذلك على الله تعالى حقيقى لا يتعداه إلى غيره ، وفيه تفويض ولجوء كامل وثناء وتمجيد بما هو مختص به سبحانه دلالة على الاقتدار والعظمة وطمعاً في تحقيق الدعاء .

لون آخر من النفي والاستثناء :

ونقصد هنا ما بمعنى النفي من استفهام ، ونرى ما أضافه الاستفهام بدل النفي الصريح من اعتبارات خاصة إلى الأسلوب والمعنى :

من حديث معاذ بن جبل عن النبي ﷺ «وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به قال : ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم»(٢).

عن طلق بن علي قال : قدمنا على رسول الله ﷺ فجاء رجل كأنه بدوي فقال : يا نبي الله ما ترى في مس الرجل ذكره بعد ما يتوضأ فقال النبي ﷺ «هل هو إلا مضغة منه أو بضعة منه»(٣).

عن أبي سعيد الخدري - في رواية - عن النبي ﷺ «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لا تبعتموهم ، قلنا يا رسول الله : كفارس والروم ، قال : ومن الناس إلا أولئك»(٤).

وحديث معاذ يوضح أثر اللسان في إيراد صاحبه النار ، ولقد سأل معاذ مستفسراً بشكل ساذج فكان الرد - له ولغيره - قويًا مثيراً مفترضاً في المخاطب

---

(١) التاج الجامع ١٨٣/٢
(٢) المرجع السابق ٢١/٥
(٣) المرجع السابق ٩٨/٢
(٤) المرجع السابق ٤٣/٢

قوة البديهة وكان التعبير « ثكلتك أمك » ذلك الذي يقال عند التوجيه واللوم . وكان الجواب في صورة استفهام فيه معنى النفي الإنكاري ليحصر أسباب كب الناس ـ على وجوههم في النار ـ على كلام اللسان . وهو حصر ادعائي يقوى ـ مع الإثارة النفسية التي أوجدها الاستفهام ـ الترهيب من اللسان وآثاره .

ثم نرى صياغة الجواب في صورة سؤال لباقة في العرض وشحذًا للذهن وإعمالاً للفكر وكل هذا يؤكد المعنى فوق تأكيده بالحصر ، ومثل ذلك في الحديث الثاني : « هل هو إلا بضعة منه » وكان هذا أول الدعوة تيسيراً أو هو خاص بالأعرابي سعة عليه ، ومع الإثارة تلمح العتب الرفيق ذلك بأن من يتوضأ لا يقصد من وراء المس غرضاً خسيساً وإن هي إلا حركة عشوائية ، وإلا ما توضأ ليصلي لله .

كما نجد ذلك أيضاً في التعبير « ومن الناس إلا أولئك » وكأن المخاطب حين يسمع صدر السؤال يتوهم أنه حقيقي ، فيسرع باستحضار جواب يناسب حتى إذا أوشك معرفته جاء باقي الأسلوب مرسخاً اعتقاده أو ناسخه ، وهنا يمكن المعنى بشدة ، وبطريق أخص .

« إنما » :

لها استعمالاتها الخاصة في البلاغة العربية لمن يتذوق مجالها البياني

إنما في الأمر الخفي :

ونقدم هذه المجموعة من الأحاديث :

روى النسائي عن رسول الله ﷺ بسنده « إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم »[(1)].

من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ « أما التثاوب فإنما هو من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان »[(2)].

---

(1) التاج الجامع ٤/٣٥٩

(2) المرجع السابق ٢/٣١٩

عن سهل أن النبي ﷺ قال « إنما الأعمال بالخواتيم »[1].

وتلك الأحكام التي تحملها الأحاديث فيها خفاء وبعد عن عقل المرء، وخياله، فانتصار الأمة بسبب ضعفائها، وكون التثاؤب ـ وهو حركات عضوية ـ من الشيطان والحكم على الأعمال بخواتيمها، كل هذه أمور لا شك ـ خفية، ولكنها نزلت منزلة الجلي الواضح الذي لا يستدعي شدة في التحقيق لاعتبارات المقام:

فالضعفاء يجب رعايتهم لأنهم متصلون بالله، وهو مالك الملك ينصر هذه الأمة بسبب الضعفاء وحدهم، والاقتصاد في التأكيد أدعي للإثبات هنا كأن هذا شيء متعالم، وفي هذا منح فرصة للفكر يتأمل، وللترغيب يترسب في ثبات.

وفي التثاؤب نجد تنزيل « إن التثاؤب من الشيطان » منزلة الأمر الظاهر المعروف دعوة لامتثال التوجيه بمقاومته لا سيما أنه منفر شكلاً ومنفر أصلاً لأن الشيطان سببه ومن ورائه.

أما الأعمال الإنسانية، والسلوك البشري وتأجيل الحكم عليها حتى خاتمتها فهو أمر ناقش فيه الصحابة ومن بعدهم كثيراً دلالة غرابته وخروجه عن الإرادة الإنسانية لكن البيان النبوي يجعله من الأمور المقدرة التي لا تستأهل شدة تأكيد، حثًا على الاستمرار في العمل الصالح لأن بدء العمل ومسيره يدل على الخاتمة، ومن يعرف الخاتمة؟ إنها آجال معلقة في الغيب تنتهي بمقدار، فليجد المرء فالحقيقة ناصعة والعمل بالخاتمة. وإخراج الأسلوب على غير ما يتوقع المخاطب جذباً لانتباهه، وإعمالاً لفكره حتى إذا اكتملت صورة المعنى ثبتت فيه واستقرت وهذا أمر عناه السكاكي رحمه الله بقوله « والأصل في إنما أن تستعمل في حكم لا يعوزك تحقيقه، إما لأنه في نفس الأمر جلى، أو لأنك تدعيه جليًا »[2].

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٧٠

(٢) مفتاح العلوم، للسكاكى ص ١٤٢

ويلحق بالغيبى المتخيل والمتوهم ، فيدعي جلاؤه ووضوحه لغرض بياني جليل ، عن سهل ابن الحنظلية عن النبي ﷺ : «من سأل وله ما يغنيه فإنما يستكثر من النار»[1].

وعنه ﷺ «إذا صلى أحدكم إلى شيء يستره من الناس ، فأراد أحد أن يجتازه بين يديه ، فليدفعه ، فإن أبي فليقاتله ، فإنما هو شيطان»[2] والجزاء في الأول ممتد ، والاستكثار من مال يؤدي إلى النار في الآخرة أمر متخيل ، لكنه أتى بإنما وعيداً ، كأنه لجلائه لا يحتاج مزيداً من التوكيد وفي الثاني قصر للمار بين يدى المصلي على أنه شيطان وهذا من سحر البيان الذي يجعل المتوهم حاضراً جليًا .

إنما في الأمر الجلي :

غشي على سعد بن عبادة فبكى الرسول ثم قال «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[3].

عن النبي ﷺ «ما من ثلاثة في قرية ، ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية»[4].

وعنه ﷺ « إنما الاستئذان من النظر »[5].

وفي الأول : قصر رحمة الله على الرحماء دون القساة الأشداء ، قصر قلب وهذا يفيد جواز البكاء وأنه رحمة ، ثم التعريض بالقاسية قلوبهم واعتبارهم أشداء . هكذا واعتبارهم أشداء ، يخاف عليهم غضب الله ، مع الدعوة إلى الرحمة كقيمة إنسانية عامة ، وفي الثاني : قصر آكل الذئب على القاصية من الغنم تحذيراً من الابتعاد عن الجماعة وتعريضاً بمن ينفرد عنها : غير مضطر - بأنه فريسة للشيطان ، وفي الثالث : يقصر مشروعية الاستئذان على النظر

---

(١) التاج الجامع ٢/٣١
(٢) المرجع السابق ٢/١٧٢
(٣) المرجع السابق ٢/٣٨٠
(٤) المرجع السابق ٢/٢٥٠
(٥) المرجع السابق ٥/٢٣٩

وحده ، ذلك أن العورات تنكشف بالعين للعين تعريضاً بغباء من يستأذن وهو ينظر ، كأنه لا يدرك لماذا شرع الاستئذان ، وفيه تحديد لسبب الحكم وأنه النظر وحده دون سواه من الجوارح .

قال الإمام عبد القاهر عن إنما « إذا استقريت وجدتها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه »[1].

ولا يخفى أن الدلالة غير المباشرة ، أو الإيحاء الموجه له أثره في النفوس ، والعقول ، وفي الأساليب تفنناً وإمتاعاً ، وفي المعاني والأغراض قوة ، وتدعيماً .

القصر بحرف العطف :

وقد يكون الأسلوب هادئاً مطمئناً يلقى على مهل ، ويوضح توضيحاً وئيداً ويؤكد بالقصر في أمور تحتاج هذا التأني ، ذلك أن فيه نصًّا على المنفي والمثبت في قرن واحد يلحظ العقل ارتفاع النفي ، ويترقب الإثبات الذي يقدمه الأسلوب في هدوء وقوة .

عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ : « استحيوا من الله حق الحياء » قلنا يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله ، قال « ليس ذلك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء : أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبلى »[2].

عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال : « الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا ألا تكون بما في يديك أوثق مما في يدي الله وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك »[3].

---

(١) دلائل الإعجاز للجرجاني ٢٣٩ (٢) التاج الجامع ٦٠/٥

(٣) المرجع السابق ١٦١/٥

وفي حديث الحياء ينفي ما يعرفون عن الحياء «ليس ذلك» وبالنفي يبدأ تشوف المخاطب واهتمامه، فتأتي الأداة تثبت ـ بعد هذا النفي ـ ما أراده الحديث: من تقديم مفهوم جديد للحياء، ولما كان هذا ذا شعب، وكان على درجة من الخطورة لارتباطه بالسلوك الفردي والجماعي اقتضى المقام النص على المنفي لأنه ثبت بالعرف في عقولهم، ثم تقسيم هذا المثبت إلى أضرب في عبارات إيقاعية تساهم على ترسيخه في النفوس. وفي حديث الزهادة: ينفى أيضاً مفهوماً متعارفاً، وفي هذا لفت للأذهان ثم يأتي الإثبات وفيه تقديم مفهوم جديد مثير، وإطالة المنفي تشويق إلى المثبت الذي استقر بمقابلة الصفات من ناحية، وبجديته وطرافته وقوة تأثيره من ناحية أخرى، ونلاحظ أن لكن في الحديثين أتت بعد حرف عطف «الواو» فهي للاستدراك، وهو يفيد القصر، باعتبار النفي المتقدم وإثبات عكسه بها.

وفي العطف بالحرف «بل» نقدم هذين الحديثين:

عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال «بئسما لأحدهم أن يقول نسيت آية كيت وكيت بل هو نسي»[1].

عن عدي بن حاتم قلت يا رسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان؟

قال: إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين ثم قال: «لابل هو سواد الليل وبياض النهار»[2].

والأول يوضح ما ينبغي أن يكون من الأدب الإسلامي حتى في الألفاظ إزاء الحديث عن القرآن فنسبة النسيان إلى المسلم جراءة لا تليق، وبئس هنا للذم وفيه معنى النفي كأنه قال لا يقل أحدهم نسيت، وأتى بالمقابل المتشوق إليه مثبتاً بعد «بل» التى أضربت عن الأول، وهو قصر قلب أثبت الإنساء تأدباً لا النسيان المذموم، وما أبرع لفظ «أحدهم» بصيغة التجهيل زجراً ونفوراً،

---

(١) التاج الجامع ٤/٨

(٢) المرجع السابق ٤/٢٦

وفي حديث عدي نجد الكناية المبدعة عن الغباء مداعبة ثم يأتي التأويل الجاد : بل هو سواد الليل وبياض النهار قصر قلب لاعتقاد المخاطب لا يتعداه إليه .

كما نجد في البيان النبوي لوناً غريباً من القصر قامت فيه إنما مقام بل :

عن أبي قتادة قال : ذكروا للنبي ﷺ نومهم عن الصلاة فقال : « إنه ليس في النوم تفريط ، إنما التفريط في اليقظة »[1].

وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ : « إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر »[2].

وطريقة الأسلوب تثير التساؤل عن المخاطب بعد العبارة « ليس التفريط في النوم » و « إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً » فمتى وأين يكون التفريط إذن ؟

وما ورث الأنبياء ؟ ولذا جاء الجواب مفصولاً مصدراً بإنما قوة في التأكيد تربو على « بل أو لكن » ففي إنما قصر مستقل وفي مقابلة المثبت بالمنفي قصر ثان لأنه مقام الإدلاء بحكم تشريعي جديد في الأول وترغيب في العلم في الثانى وكفي به مقاماً تتزاحم فيه التأكيدات ، وهكذا في كل نظير .

وبعد :

فقد اتضح لنا انفراد القصر النبوي بميزات وسمات خاصة لم تتوفر لغيره ، ذلك أن الأسلوب روح صاحبه ، وقد كانت مقامات الأحوال ، والحالات النفسية ومقتضيات التشريع هي التي توجه إلى هذا النحو السابق من العرض الأدبي ضماناً للتأثير بالجمال الفني والإقناع بالتأكيد والقصر العقلي .

* * *

---

(١) التاج الجامع ٢/١٤٧

(٢) المرجع السابق ٢/٦٣

الفصل الرابع

الوصل والفصل في البيان النبوي

الوصل والفصل بين الجمل ـ حقيقة ـ لا يأتي إلا لاعتبارات بلاغية تتناهى في دقتها وخطورتها ، نزولاً على مقتضى الحال ، ومقام الخطاب ، وقصد المتكلم وحاله .

قال الإمام عبد القاهر «اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة وبما لا يأتي لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص ، وإلا أقوام طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام هم به أفراد ، وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدا للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال : معرفة الفصل من الوصل ، ذلك لغموضه ، ودقة مسلكه وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة»[1].

وقال السكاكي : «محك البلاغة ، ومتقد البصيرة ، ومضمار النظار ، ومتفاضل الأنظار ، ومعيار قدر الفهم ، ومسيار غور الخاطر ، ومنجم صوابه وخطئه ومعجم جلائه وصدائه»[2] ولقد بلغ النبي في ذلك القمة والكمال .

وهذه نماذج من الوصل في الحديث النبوي :

عن النواس بن سمعان الأنصاري قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٥٤ (٢) مفتاح العلوم للسكاكى ص ١١٩

فقال : «البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس»[1].

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «اعبدوا الرحمن ، وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام تدخلوا الجنة بسلام»[2].

وعنه أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم والظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانًا»[3].

والحديث الأول يعالج البر والإثم ، فالبر هو حسن الأخلاق ، أما الإثم فهو ما يتردد في الصدر واستحيا صاحبه من اطلاع الناس عليه ، ويلاحظ أن الجملتين خبريتان وأن المبتدأين متناسبان بالتضاد يجمعهما العقل ، لأن المبتدأ أقرب خطورا بالبال ، ولا يخفى التناسب بين الخبرين أيضًا ذلك أن ما يكره المرء اطلاع الناس عليه من إثم لازم لسوء الخلق والسلوك ، والسر البلاغي هنا التوسط بين الكمالين مع وجود الجامع بين الجملتين ، ولذا كان العطف هنا بالواو متقض مقام مستلزما بيان البر والإثم في سياق البر والإثم في سياق واحد ، وإتمامًا للفائدة وإجابة للسائل ، مع توفير الترغيب والترهيب للبر والإثم .

وفي حديثي أبي هريرة ﷺ نجد توالف الجمل معطوفة بالواو ترغيبا في الأول الذي يشمل مجموعة من طيب الخلال التي تدخل الجنة ، وقد أنفقت في الإنشاء صياغة ، وفي أنها خلال طيبة يرتضيها العقل والدين فهي متناسبة عقلا وقد بلغ التناسب كماله بهذا السجع والموازنة .

أما الحديث الأخير فقد تكرر فيه النهي عن صفات مذمومة تجتمع في العقل والخيال في أنها مكروهة ذميمة من ظن وتحسس وتجسس ، وتنافس ، ويظهر أثر هذه النغمة الجاسية المتفشية في حرف السين نهاية للألفاظ مثيرة

---

(١) التاج الجامع ٣/٥
(٢) المرجع السابق ٢٤٥/٥
(٣) المرجع السابق ٣٩/٥

إيقاعًا موقظًا ، ثم العطف بجملة الأمر أخيرا كالسبب لما قبلها ، وقرن هذه الصفات بالواو يوضح أنها من قبيل واحد يرفضه الدين ، ويرهب منه .

كما نجد الوصل بالواو في حديث آخر يمثل الشق الثاني من شقي الوصل عند البلاغيين فيما يرويه أبو هريرة عن الرسول ﷺ ، من حديث الأعرابي الذي جبذ الرسول بردائه ، حتى حمر رقبته ، وقال له : أحمل على بعيري هذين فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك ، فقال النبي ﷺ « ولا واستغفر الله ، لا واستغفر الله لا واستغفر الله »[1] . .

وقد لفت موقع الواو في نظائر هذا الحديث نظر البلاغيين إلى هذه الدقة والظرف اللذين صحبا الواو ، بل إن المعنى ينقلب رأساً هنا على عقب لو حذفت الواو وكفى به هبوطاً من أفق الإيمان إلى مهوى سحيق ، ويسمى هذا كمال الانقطاع مع الإيهام .

الفصل :

عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »[2].

قال رسول الله ﷺ : « إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا »[3].

من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ : « كونوا عباد الله إخواناً المسلم أخو المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه ، وماله ، وعرضه »[4].

قال ﷺ « إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها ، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأردية من رأس الجبل ، إن الدين بدأ غريباً ، ويرجع غريباً فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي »[5].

---

(١) التاج الجامع ٦٥/٥

(٢) المرجع السابق ٤٢/٥

(٣) المرجع السابق ٣٨/٥

(٤،٥) المرجع السابق ٣٣٥/٥

وفي الحديث الأول دعوة إلى الرحمة ، وتأكيد لهذه الدعوة باختلاف صيغة الأسلوب خبراً وإنشاء مع التركيز على صفة الرحمة تقريراً ، وترسيباً لها في الأعماق ، واختلاف الجملتين في الصياغة خبراً وإنشاء يجعل الوصل غير مقبول وهذا ما يسمى كمال الانقطاع بلا إيهام ، وإذا عمقنا النظر وجدنا الدعوة إلى الرحمة ببيان أثرها برحمة الرحمن في الجملة الأولى ثم الدعوة إليها صراحة ، وفي الثانية مع الجزاء نفسه ولا بأس أن تكون قوة الترابط هنا في المعنى والغرض مبررة للفصل يجعل الثانية كالتوكيد للأولى وعلى هذا الفصل الظاهرى نجد هذا التماسك الغريب والانجذاب بين العبارات فشملها روح مسيطرة بحيث يكون اللجوء إلى الربط بالواو ضرباً من التكلف الذي يتنزه عنه الأسلوب البليغ .

وفي الحديث الثاني : تنفير من الشح بالتحذير منه مباشرة « إياكم » ثم التحذير بطريق التعريض بما حدث للسابقين تحقيقاً « إنما هلك من كان قبلكم بالشح » ونلمح هنا الغموض الذي يسري في جو العبارة من تسبب الشح في الهلاك ، وهذا ما تكفل في كشف اللثام عنه باقي الحديث بياناً ، وإزالة لهذا الغموض « أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا » والأسلوب هنا بمنزلة عطف البيان في توضيح الغامض وجلاء الإبهام ، وقد يمكن القول بأن الفصل جاء على سبيل الاستئناف وأن قوله : « إنما هلك » يثير سؤالاً عند المتلقي « كيف تسبب الشح في الهلاك » إنه أمر على غير المعهود في « إنماء الشح للمال » وهذه الإشارة يعتبرها الحديث في بيانه فيفترضها ويورد إجابة عليها إشراكاً للمخاطب في النص ، والتحاماً في الأسلوب وتفاعلاً ، وهذا ما يسمى بكمال الاتصال .

كما لا يخفى أن الوصل بين أجزاء السبب « أمرهم بالبخل . . . . وأمرهم بالقطيعة . . . وأمرهم بالفجور » يوضح تسلسل الأحداث ، وتصاعدها في طريق الإثم ، واستحقاق العقاب : بخل وقطيعة رحم وفجور ، وماذا بعد الفجور إلا الهلاك ؟

فالتناسب واضح ، والارتباط في الأثر قوي ، والاتفاق في الصياغة ـ خبراً آخاذًا ، ثم تنويع الأسلوب بين فصل ووصل يأخذ بالقلب أخذًا قويًا .

وفي حديث أبي هريرة « المسلم أخو المسلم » نجد الفصل في أربعة مواطن : « المسلم أخو المسلم ـ التقوى ههنا ـ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه ـ كل المسلم على المسلم حرام » .

وأسباب القطع هنا تزيد من تماسك الأسلوب والمعنى ، فليس فصلاً يخرج عن طبيعة المعنى أو الغرض ، والموطن الأول : كونوا عباد الله إخواناً ـ المسلم أخو المسلم : نجد مع اختلافهما خبراً وإنشاء وهذا وحده يستقل بالفصل : أن الثانية توكيد لهذه الأخوة ، وتقرير لهما ـ وفي قوله : لا يظلمه ولا يخذله بيان لهذه الأخوة وجلاء لمقتضاها وأثرها ، أما الفصل بين المسلم أخو المسلم وبين التقوى ههنا ، فالظاهر أن الأخوة بين المسلمين وما تقتضيه من عدم الظلم والخذلان والكذب لا تناسب بينها وبين أن القلب موطن التقوى، وهذا يعني كمال الانقطاع بلا إيهام ، لكن المتبصر يرى سبك الأسلوب وأخذه بحجز بعضه ذلك أن هذه الأخوة المرتجاة من التقوى ، والتقوى محلها القلب الذي تنبعث منه الرحمة قوية تدرأ كل أذى يهم به صاحبه أن يقع بالمسلم ، ثم إن هذه التقوى أيضاً : حماية من الأذى النفسي وهو احتقار المسلم ، « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » فهذا الاحتقار من الموبقات وهو إثم كله لا يجتمع والتقوى ، وما أحسن التعبير بهذين اللفظين « أخاه المسلم » ثم يأتي التعقيب الأخير ، مؤكداً الحكم السابق بحرمة الاحتقار ـ وغيره من ألوان الأذى « كل المسلم على المسلم حرام دمه » ولو جاءت الواو هنا لأحدثت بعض التغاير الذي هو بعض معناها ، وإنما الأسلوب لبنات متماسكة تماسكاً ذاتيًا لا يحتاج ربطاً من أداة خارجية .

وفي حديث « إن الدين ليأرز إلى الحجاز » تنبؤ بما سيحدث آخر الزمان للدين من إيوائه إلى نبعه الذي فاض منه ، ولا شك أن في ذلك غربة عبرت

عنها الجملة « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً » بياناً لصدر الحديث وتوضيحاً ، وقد صدرت الجملة هنا « بأن » التي للتأكيد فأزالت ما قد يتولد من شك عند المخاطب وإنه لغربة غريبة حال شيوع الإسلام وكثرة أتباعه ، ثم إنها « إن » كانت المسلك الذي أفرغ الحديث في قالب واحد ، قال الإمام عبد القاهر في معرض الحديث عن أن « هل شيء أبين في الفائدة » وأدل على أن ليس سواء دخولها ، وأن لا تدخل ، إنك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها ، وتأتلف معه وتتحد به حتى كأن الكلامين من قد أفرغا إفراغاً واحداً وكأن أحدهما قد سبك في الآخر ، وهذه هي الصورة التي إذا جئت إلى « أن » فأسقطتها رأيت الثاني منهما قد نبا عن الأول ، وتجافى معناه عن معناه[1].

وعلى هذا يمكن حمل النص على الاستئناف لما في « إن » من تسبب ، وكأن جملتها جواب عما أثاره صدر الحديث في نفس المخاطب من تساؤل واستفسار ، لماذا يأرز الدين إلى الحجاز يوم يلوذ به لياذ الوعول يذرى الجبال؟ ردًّا لهذا التشوف وإطفاء لذلك التشوف . وإفراغاً للأسلوب في قالب فني بديع ، وعلى كل فالحديث يحتملهما دون اختلال .

وحديثين آخرين للبيان والبدل « كمال الاتصال ».

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فالتمسوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها »[2].

عن أنس أن النبي ﷺ أتى فاطمة رضي الله عنها بعبد قد وهبه لها ـ قال ـ وعلى فاطمة ثوب إذا غطت به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢١٥ ، ٢١٦

(٢) التاج الجامع ١٣٥/٥

يبلغ رأسها فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال : « إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك »[1].

وفي الأول انفصلت الجملة « تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب » لتوضيح الحكم وبيانه في الجملة الأولى « الريح من روح الله » يعني من عند الله وبأمر الله ، وهذا البيان الخاص بأن الريح قد تكون مصدر خير ورحمة أو عذاب ونقمة يوقظ حس المخاطب ويهز وجدانه ويثير تطلعه لاقتضاء الكلام حتى نهايته فيتضح الغرض العام وهو الالتجاء إلى الله وحده ، والتفويض إليه سبحانه لا سيما حين رؤية هذه الظاهرة الكونية ، ونلاحظ كيف انطلق الحديث بهذا التسلسل المتراكب فعمل شحنات متوالية تشغل المرء بطاقاته النفسية .

وفي حديث أنس : نجد الجملة الأولى « إنه ليس عليك بأس » تزيل المعاناة النفسية التي تقاسيها السيدة فاطمة عليها السلام ـ من حيائها الشديد ، ثم نجد الجملة الثانية تزيل آخر ما بقي من عناء وكأنها المقصودة بالحكم من دخول النبي الكريم ومعه آخر هو عبد لها . فالجملة الثانية في منزلة البدل المقصود بالفائدة مع مسحة من التعليل للحكم ، في الجملة الأولى وحديثين في كمال الانقطاع لعدم المناسبة كما سماها البلاغيون :

عن حسان بن ثابت أنه قال لأبي هريرة : « نشدتك الله ، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول : يا حسان أجب عن رسول الله ، اللهم أيده بروح القدس ، قال أبو هريرة : نعم »[2].

عن قتاده أن نبي الله ﷺ كان إذا رأى الهلال قال : « هلال خير ورشد (ثلاثاً) آمنت بالذي خلقك (ثلاثاً) الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا ، وجاء بشهر كذا »[3].

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٤٢

(٢) المرجع السابق ٥/٢٨٣

(٣) المرجع السابق ٥/١٣٦١

وفي حديث حسان نجد اتفاق الجملتين في الإنشاء وإن كان المخاطب في الأولى «حساناً» وفي الثانية «رب العزة» مدعواً، ولا يمكن إدخاله تحت ضرب من ضروب الفصل إلا كمال الانقطاع لعدم المناسبة، لاتجاه الخطاب وجهتين مختلفتين، لكن المتأمل يرى أن الكلام كله مسوق لغرض عام واحد هو «توفيق حسان شاعر الرسول في الذود عن حمى الإسلام، وأن الأسلوب جاء على قاعدة تداعي المعاني، وترابطها ذهناً، وهكذا كل ما يسمى بعدم المناسبة في الظاهر، كحديث «قتادة» في الهلال «هلال خير ورشد» فقد لا نجد تناسبا بين المعاني ظاهراً، لكن حين التأمل نعثر عليه، فالخير والرشد من عند الله خالق الهلال الذي هو ظاهرة كونية مسخرة بإرادة الله لنفع عباده، من هنا كان الرباط المعنوي بـ«آمنت بالذي خلقك» وبما بعده «الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا» إن الكون كله والوجود بما فيه في النفس المؤمنة ـ وحدة لا تتجزأ ـ لا تنفصل عن بارئها ومبدعها، فالإيمان يجمع هذا الشتات كله، في نظام متسق يسبح بحمد الله.

يتضح لنا من استعراض ما سبق في الوصل والقطع: كيف امتاز بالدقة المتناهية والبراعة الفائقة والأسرار البلاغية المناسبة لما يريد المتكلم عليه الصلاة والسلام من تعبير انفعلت به نفسه الطاهرة، والمناسبة لحال المخاطبين، ويزيد على ذلك جذب المخاطب نفسيًّا وإثارة كامن انفعاله خاصة في أساليب الفصل التي سلكت الأسلوب النفسي في تجزئ الحكم أو توكيده أو غموضه ثم جلائه، أو التمهيد ثم التعقيب، أو لإثارة تساؤلات عقلية ووجدانية أو ربط الكلام معنويًّا بخيط لا يدرك إلا بعد تأمل، وغير ذلك مما يؤكد أن الأسلوب النبوي لا يقصد به إزجاء الأفكار مع غناها ـ ولكن تحقيق ذلك بأسلوب فني جميل.

* * *

الفصل الخامس

الألفاظ ومعانيها في بيان النبوة

برع البيان النبوي في اختيار اللفظ المعبر عن المعنى بدقة فائقة ، وحساسية بالغة فلم يقتصر الأمر على مجرد الانسجام بين حروف الكلمة ، أو حتى هذا التعاطف العجيب بين الشكل والمضمون ، بل حاز ذلك إلى رسم صورة نابضة متحركة باللفظ وحده ، يستقل برسم لوحة ، أو نقل جو شعوري ، أو إكمال الصورة عامة ، اقتدارًا في البيان وإعجازاً في البلاغة ، أما كيف يرسم اللفظ المفرد صورة : فقد تنوعت الدلالة هنا بين ما يؤديه بجرسه وصوته ، أو بإيحائه وظله ، أو بهما معاً ، ونبادر إلى القول بأن مقتضيات الأحوال ساقت إلى هذا اللون من التعبير فوفى بالأغراض حقا مع الإمتاع الفني الكامل ، ونقدم هذه النماذج للإيضاح .

عن جابر عن النبي ﷺ قال : «إن من أحبكم إليّ ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون ، قالوا : يا رسول الله : قد علمنا : الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون»[1].

من حديث عياض المجاشعي : ذكر الرسول ﷺ «من أهل النار : الشنظير الفحاش»[2].

ونلاحظ : كيف يرسم اللفظ «المتفيهقون» بجرسه المثير صورة لهذا الذي اكتظ بالكبر فكاد يفهق به ، وامتلأ غروراً فكاد ينفجر تكلفاً ، فهو ثقيل في

---

(١) التاج الجامع ٥/٦٤

(٢) المرجع السابق ٥/٧٧

نفسه متغطرس في سلوكه ، ونلاحظ كيف تتابعت الحروف متوالية المخارج ابتداء من الفم حتى الحلق مصورة تزايد الكبر ، حتى يصل الناطق إلى الهاء - أقصى الحلق - فينقطع نفسه وكأنما يصل إلى عمق المتكبر القاسي ، ثم يعود اللفظ إلى المخارج القريبة لينهي اللفظ بعد أن كلف الناطق رهقاً وصور ببراعة هذا البغيض .

وفي الحديث الثاني : تصور الكلمة حتى بدون معرفة مدلولها « الشنظير » صورة للشرير ذي الشر المتطاير والإثم الفاحش الذي يصيب من يقترب منه برذاذه وشظاياه ، إن حرف الشين المتفشي ، والظاء الصفيرية ، لتؤذن بجو غريب لهذه الآثار لهذا المرء المتفحش ولا شك أن الحس ينفر من اللفظ ومعناه تهديداً ، وتنفيراً بالغاً ، وقد رسم اللفظان في الحديثين صورة قوية بالجرس وحده .

عن سعد عن النبي ﷺ « لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء »[1].

عن ابن عمر عن النبي ﷺ : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذي من كل مكان ، فيساقون إلى بحر في جهنم يسمى بُولَس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال »[2].

وكلمة « انماع » في الأول ترسم صورة للهلاك المفاجئ لهذا الذي يكيد أهل المدينة إن الفعل يمثل قوة التلاشي والضياع ، بل إن ما يوحيه اللفظ من هذا الانتهاء وما فيه من حركة قابضة يكاد يسبق إيحاء التشبيه « كما ينماع الملح في الماء » ، وحديث المتكبرين ترسم فيه اللفظة « الذر » وهو النمل الصغير صورة لا يمل الخيال من تمليها ، إنها صورة رهيبة لحشد من الناس قضي عليهم أن يصغروا حتى يكونوا مثل النمل ، وإن الوجدان ليرتجف ويعنو لسطوة القهار ، ثم إن الظلال لتزيد وتمتد كلما تأمل الحس هذا اللفظ ، إن

---

(١) التاج الجامع ١٨٥/٢ (٢) المرجع السابق ٣٣/٥

هناك ذلاً ويأساً وضياعاً وهواناً وانتقاماً . ترهيباً نافذاً من كيد أهل المدينة أولاً ، والكبر ثانيًا نلاحظ أن الكلمتين «انماع ، الذر» رسمتا الصورتين لا بالجرس في الأذن بل بالظل يلقى في الخيال وتمتد إيحاءاته وتتنوع .

وقد يتعانى الجرس والظل لخلق جو شعوري خاص وصورة متحركة تشغل الحس والخيال جميعاً :

عن عائذ بن عمرو عن النبي ﷺ قال « إن شر الرعاة الحطمة »(١).

عن ابن عمر عن النبي ﷺ : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »(٢).

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران »(٣).

وكلمة «الحطمة» تقدم صورة لهذا الوالي الغشوم الظالم ، إنه ينطلق عاتياً كالريح مفترساً كالوحش يحطم ما أمامه ، ولا يقوم له شيء ، وتوالي الحركات ، وضخامة الصوت خاصة حرف الطاء مما يتم مع الظل رسم هذه الصورة بدقة .

وكلمة «يغرغر» تنقل لنا مشهداً لا ينسى ، رجل مسجى على فراش الموت بلغت روحه الحلقوم فتقلص جسمه وأرغى ، وتملكته الغرغرة الاضطرارية بصوتها الغليظ الأجش ، إنه صراع الموت والحياة ومعاناة الجسد وانفصال الروح . والجرس الغريب والظل الكئيب يقدمان هذه اللوحة ترهيباً من الغفلة حتى الغرغرة النهائية ، حثًا على المبادرة إلى التوبة .

والفعل «يتتعتع» يمثل قارئاً لم يسبق له أن قرأ القرآن ، وربما ولا غيره ، ينازع القراءة ويعاني في نطقه عسراً ، ويتعثر لسانه فلا يستوعب حرفاً إلا بعد مشقة ، وقد أسهم مع هذا الظلال هذا الجرس في المضعف الرباعي «تعتع»

---

(١) التاج الجامع ٤٩/٣

(٢) المرجع السابق ١٥٢/٥

(٣) المرجع السابق ٤/٤

الجاهد في زحزحة شيء ثقيل ، والمضارعية كشفت عن المحاولة الدءوب والمعاناة المتجددة ، ولذا كان لصاحبها أجران زيادة في الترعيب .

ولقد سلف أن أشرنا إلى اقتضاء المقام لهذا التصوير باللفظ الواحد إيقاعاً أو إشعاعاً وجدانيًا ، أو هما معاً ، ولا بأس أن نورد مقامات متنوعة وراء هذه الظاهرة .

التهديد :

عن حارثة بن وهب عن النبي ﷺ « ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر » .

ولأبي داود : « لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري »[(١)].

وعن أبي موسى عن النبي ﷺ « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »[(٢)].

وفي الحديث الأول نلاحظ كيف ترسم الكلمات بنغماتها صوراً وتلقي ظلالاً ثم تتقابل الأجراس والظلال لتؤكد التصوير فهنا : ضعيف متضعف : حروف لينة سهلة تخلق جو اللين والدعة والذلة وهو رباني له ما يشاء ، يقابله المتكبر ، وقد رسمت له الحروف صوراً ثقيلة على الحس والسمع ، تمثل كلمة « العتل » الغليظ السمين الجافي ، والجواظ : بتضعيف الواو المفخمة بالمد الواقع على حرف الظاء النافر : يمثل هذا الغلظ والفظاظة والشراسة والاستعلاء المتكلف ، أما الجحظري : فيرسم جواً للتركيب النفسي المعقد عند المتكبر ففيه نفور وشذوذ وغلظ خارج عن الطبع ، إن الكلمة نافرة اللفظ نافرة المعنى لتنفر من مدلولها تهديداً لهذا النوع الذي حق أن يكون من أهل النار .

---

(١) التاج الجامع ٥/٣١

(٢) المرجع السابق ٥/٧٠

الترغيب :

عن مصعب بن سعد عن النبي ﷺ « التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة »[1].

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة »[2].

والأول دعوة إلى التأني والرفق في سلوك الإنسان الدنيوي و« التؤدة » هنا بحروفها المتفشية ، وحركاتها الهادئة مع منع الهمزة المفتوحة بعد ضم من اندفاع الصوت : يرسم جو الدعة والرزانة والرفق بجرسه وظلاله ويرسبه في النفس والترغيب في التأني في معالجة أمور الدنيا واضح .

وحديث أبي هريرة : اختار لفظ « نفس » لإزالة الكرب ، وفيه من الرشاقة والإشراق ما يدل على النهج النبوي في اختيار الألفاظ لمواضعها ، وقد اشترك الجرس مع الظل بالتجوز والتخييل طريقاً للأداء .

وقد كرر « نفس » مرتين في الشرط والجزاء مع إسناد الأخير إلى الله جل وعلا وزيادة في الترغيب في تفريج الكرب وتيسير العسر وإزالة الهم عن المسلمين .

الوصف :

عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ »[3].

من حديث الشفاعة « ونبيكم قائم على الصراط يقول : رب سلم سلم ، وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به فمخدوش ناج ومكدوس في النار »[4].

---

(١) التاج الجامع ٥/٥٨

(٢) المرجع السابق ٥/٧٥

(٣) المرجع السابق ٥/٣٦١

(٤) المرجع السابق ٥/٣٧٨

والأول : يمثل الإشفاق النبوي واستبعاد التنعيم بالدنيا ، والفعل : «التقم» يرسم لوحة حركية لتناول القرن بسرعة وشدة ووضعه في لهفة في الفم توقعاً للإذن القريب بنفخة تدك الأرض دكاً ، وجرس الكلمة وظلها يبرزان الخوف ويبعثان التخويف دفعاً إلى الصالحات .

ومثل هذه المشاهد الغيبية : هذه الكلاليب الجبارة في جهنم والناس بين مخدوش ومكدوس ، والتكديس جاء في صيغة اسم المفعول يفيد تلقائية الحدث ، واستحضاره في الوجدان ويطلق للمخيلة مجالاً للتصور المرعب لهذه الحركة المستمرة تخويفاً من مشاهد ينجي منها العمل مع رحمة الله تعالى .

أغراض أخرى :

كما نجد القصد إلى الدلالة بجرس اللفظ أو ظله مؤدياً الغرض غير ما سلف :

عن جابر قال : دخل النبي ﷺ على أم السائب فقال : مالك يا أم السائب تزفزفين ؟ قالت : الحمى لا بارك الله فيها ، قال : «لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد»[1] .

والفعل «تزفزفين» يصور بصوته وجهًا يضطرب فكاه ويهتزان في حركات متوالية اضطرارية ، مصحوبة بصوت يصاحب الحمى عادة من ارتعاش واهتزاز وقسر صوتي ، والمضارع المتجدد يعين على تصوير الحدث الممتد . إن اللفظ هنا يفوق التصوير باللون لثبات اللون ، أما اللفظ فالخيال يعايشه ويمطه ويصاحب حركته الدائمة ، والغرض هنا : الإيناس والرفق والتخفيف عن المريضة آلامها .

كان النبي ﷺ يعلمهم من الحمى والأوجاع كلها أن يقول «باسم الله الكبير أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار ، ومن شر حر النار»[2] .

---

(١) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ، سيد قطب ص ٩١

(٢) المرجع السابق : ص ٨١

والوصف: «نعار» اشتبك فيه الصوت بالإيحاء الذي أفادته الاستعارة.

والجرس العريض مع التخييل دل على صورة الألم الناتج في البدن من عرق ثار بالألم فأسهد وعنى. والغرض: التضرع والتعوذ مما يخاف منه.

أصبح رسول الله ﷺ فدعا بلالاً فقال: «يا بلال بم سبقتني إلى الجنة، ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي؟ فقال بلال: ما أذنت قط إلا صليت ركعتين وما أصابني حدث قط إلا توضأت عندها ورأيت أن لله عليّ ركعتين فقال: رسول الله ﷺ: بهما»[1].

واللفظ «خشخشتك» بتكرار الخاء والشين ووقعهما على الأذن: يرسم هذه الصورة الصوتية لحركة المشي واصطفاف السلاح ومجاذبة الريح للثوب الجديد دلالة على الجد في المسير، والغرض هنا الإقبال والحب والإيناس وجذب الانتباه لسر هذا الجزاء الكريم دعوة وترغيباً.

وضح مما سبق ـ كيف كان اللفظ الحديثي مناسباً للمعنى ملائما للغرض، وكيف استقل وحده بجرسه، أو ظله، أو بهما برسم صورة كاملة نابضة تختلف باختلاف الشعور عنفاً وليناً، غضباً ورضاً، بهجة وألماً، رغباً ورهباً، مما يصدق معه ـ والحال تلك ـ أنه لا يمكن استبدال لفظ دال على ما سبق بلفظ آخر دلالة على التناسق في التصوير. ونشير هنا إلى أننا حاولنا التفرقة ما أمكن بين الدلالة بالجرس والدلالة بالظل وذلك أن الأول قد يكون له إيحاء، وظلال بجانب ماله من صوت وجرس لأن التفرقة كما يقول بعض النقاد المحدثين في الواقع عسيرة، لأن الفوارق دقيقة لطيفة[2].

وأيّا ما كان الأمر فهذا التناسق في التصوير بدلالة الألفاظ على معانيها أعلى من الفصاحة اللفظية، ذلك أن تصوير الألفاظ للمدلولات ليس من قبيل الدلالة

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٣٥٩

(٢) انظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب: ص ٨١

المعنوية فحسب ولكن من قبيل الطريقة التصويرية[1]، وهذا من أسرار الدقة البالغة في البيان النبوي الذي نعته الأستاذ الرافعي رحمه الله بأنه «مسدد اللفظ، محكم الوضع جزل التركيب، متناسب الأجزاء، في تأليف الكلمات، فخم الجملة، واضح الصلة بين اللفظ ومعناه، واللفظ وضريبه في التأليف والنسق، ثم لا ترى فيه حرفاً مضطرباً، ولا لفظة مستدعاة لمعناها، أو مستكرهة عليه، ولا كلمة غيرها أتم منها أداء للمعنى، وتأتياً لسره في الاستعمال»[2].

* * *

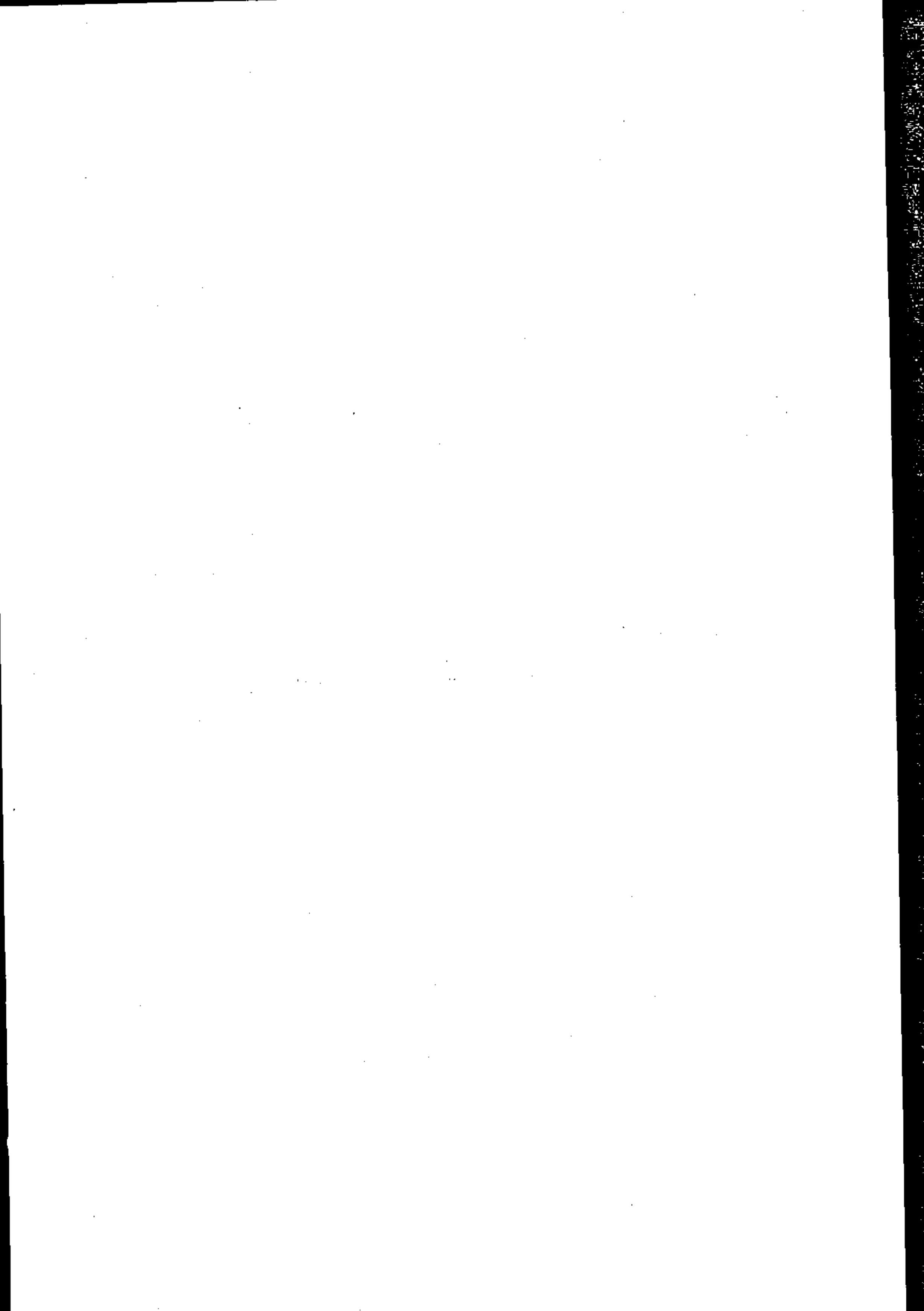
---

(١) التصوير الفنى فى القرآن، سيد قطب: ص ٨١

(٢) اعجاز القرآن للرافعي ص ٣٥٩

الباب الرابع

من أسرار البيان في البلاغة النبوية



الفصل الأول

التشبيه النبوي

تمهيد :

يكاد يكون من نافلة القول ، أن للتشبيه كأسلوب بياني دوره الخطير في المعاني والأغراض . ولقد أفاض البلاغيون في بيان ثمرته وآثاره ، فهو يفيد الإيضاح ، والتقرير والإيجاز والمبالغة والتوكيد ، وعمله في الأسلوب ، في التأليف بين المختلفين ، والتقريب بين المتباعدين وبث الوحدة في الصور المتفرقة ، وصب المعاني المتعلقة والمتخيلة ، والمتوهمة في قوالب الشخوص الحية ، والأشباح النابضة المتحركة .

وليس هدف التشبيه عقد صلة بين متنافرين ، أو إيجاد علاقة بين مختلفين أو مجرد رسم آلى كالصورة الشمسية ، بل إن فضله أن يزيدنا إحساسا بالصورة من صلة صادقة قد تؤثر في النفس ، كما أنه وسيلة إلى نقل أحاسيس تمزج الصورة بالعاطفة في ذكاء كبير وليست عملية التشبيه يسيرة ، ذلك أن الأديب يلجأ إلى صوره المختزلة في أعماق النفس تلك التي تكون الخيال عنده ، ثم يقوم بتنسيق فني في عملية التشبيه تراعى فيه أوجه التقارب ، وإدراك خافي العلاقات ، واختيار مايحسن من صور تجلو المعاني ، وتنقل الشعور إلى النفس حيًا ممتازًا ، وبمقدار ما يوفق الأديب في ذلك يكون حظه من الإبداع والبراعة ، ولا شك أن هذه العملية ليست في الأدباء على سواء بل كل يصف بمقدار ما عنده بيانا وقوة أو عجزا وعيا[1] .

---

(١) انظر في هذا : أسرار البلاغة : عبد القاهر ص ٦٥-٨٠، ١٢١-١٤٠، والطراز ١/١٧٣ وما بعدها وفن التشبيه ، الجندي ١/٥٧ ، ٢/ ٢٣ ، ٦٣ ، والعقاد ناقدا : عبد الحي دياب ص ٤٤٦ وما بعدها ، وسيدنا محمد في إبداعه ، محمد البيومي ص ٢٢١ .

منهجنا :

ليس هدفنا استقصاء التقسيم العقلي للتشبيه عند مدرسة السكاكي ، فهذه الطريقة كعملية الأرفف التي تملأ آليا بجفاف وسذاجة ، ولقد تتبع المتأخرون في دأب ـ عقلي المتقاربات في الحجوم والأوزان والألوان فبرعوا في التفريع والتنويع ، ولكنهم قدموا لنا تشبيها شائها عائقا عن الغاية ، من هنا جاء النقد البلاغي المعاصر ليقتضب كثيرا من هذه التقسيمات مرجعًا حقيقة التشبيه الجيد إلى حسن الإفادة ، وإدراك صادق الصلة بين الطرفين بما يؤثر ويمنح ويزيدنا حسا وتخيلا وفنا ، وسوف ـ ندرس إن شاء الله ـ التشبيه النبوي مبينين خصائصه المتميزة ، وطبيعته الذاتية النابعة من أساليبه ، ضاربين صفحا عما هو خارج عن حقيقته :

التشبيه والتمثيل في البيان النبوي :

سنرى أن التشبيه النبوي كان أداة تعبيرية عند الرسول ﷺ ووسيلة للبيان والإيضاح والتربية والتهذيب ، والتبشير ، والترغيب والترهيب ، والتزيين والتقبيح وغير ذلك ، فهو في خدمة الرسالة المطهرة التي غيرت الإنسان بتغيير أعماقه وتبديل طبائعه بطباع الفطرة وأخلاق النبوة وسنتتبع الأغراض التي قام بها التشبيه والتمثيل بيانا وتأكيدا ، وتصويرا .

أولاً : القرآن الكريم :

معجزة الرسول ﷺ البيانية والأخلاقية نزل من لدن حكيم خبير هداية وبيانا ورحمة وشفاء لما في الصدور ، وهو روح الإسلام وسر وجوده ، لذا حرص النبي الكريم على الدعوة إلى القرآن تلاوة وفهما ، مرغبًا حاثا ، ومحذرا من إغفاله وجفائه جاعلا التشبيه معرضا لذلك . .

قال رسول الله ﷺ :

١ - « تعلموا القرآن فاقرأوه ، واقرئوا ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه كمثل جراب محشو مسكا يفوح بريحه كل مكان ، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب وكيء على مسك »[1].

---

(١) التاج الجامع ١٧/٤

٢- « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب ، وطعمها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها ، وطعمها حلو ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر »[(1)].

٣- « إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعلقة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت »[(2)].

٤- « تعاهدوا القرآن فو الذي نفسي بيده لهو أشد تفصيًا من الإبل في عقلها »[(3)].

٥- « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر وكتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي »[(4)].

٦- « اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غماماتان أو كأنهما غيابتان وكأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما »[(5)].

٧- « لكل شيء سنام ، وإن سنام القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هي سيدة القرآن هي آية الكرسي »[(6)].

٨- « أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات عظام سمان ؟ قلنا : نعم ، قال : فثلاث آيات يقرأ بهن في صلاته خير له من ثلاث خلفات عظام سمان »[(7)].

٩- « إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب »[(8)].

---

(١) التاج الجامع ١٤/٤

(٣،٢) المرجع السابق ٨/٤

(٥،٤) المرجع السابق ١٦/٤

(٦) المرجع السابق ١٨/٤

(٧) المرجع السابق ١٨٦/٤

(٨) المرجع السابق ٦/٤

ونلاحظ هنا هذه المسالك في الدعوة إلى القرآن ، فلقد تنوع الغرض بين ترغيب وترهيب كما تنوع التشبيه بين تمثيل ومتعدد ومفرد ، ونجد في الجميع الدعوة إلى تعلم القرآن وقراءته ، وتعهده بالتلاوة ، وتنفيذ تعاليمه ، كما سلط الأضواء على سور منه : كالزهراوين أو آية الكرسي ، وفي جانب الترهيب حذر من إهماله بعدم تعهده بالتلاوة ، ويصل التشبيه في الحالة الأولى إلى الغاية ، والمشبه به في جانب الترغيب يحمل الإثارة والإيحاء والتحبيب فالقرآن لمن يقرءوه : جراب محشو مسكا فواح الرائحة ، أو جراب مختوم بالمسك ، وهو أترجة طيبة الشذى عذبة المذاق ، وهو حبل متخيل يمتد من السماء إلى الأرض ، وهو إبل صعبة المراس يملكها من يعقلها ، وثلاث آيات منه خير من ثلاث خلفات سمان ، وسورة البقرة خير كلها كسنام ناقة سمينة ، وسورة البقرة وآل عمران في الآخرة حماية لصاحبها فهما غمامتان أو ظلتان تحميان أو مجموعتان من طير صافات أجنحتهن تقي من لهيب الشمس وتعكس الظل الظليل .

والمشبه به منتزع من واقع الحياة وله أثره المادي في معيشتهم ثم هو محبب جميل يغري بما له من متعة روحية تتمثل في الرائحة المنعشة ، وتقع نادي في طيب المذاق وحلاوة الطعم كالأترجة والتمر دلالة أن القرآن يشبع الروح بمعانيه القدسية ثم هو ثم هو تمتع الإحساس الفني ببلاغته وبيانه ، وهو في الاعتماد عليه عضد كالحبل يزيد القوة ويشد الظهر وهو حبل متخيل يملأ العين والقلب ، لأنه من السماء إلى الأرض ممدود ، وفي هذا تصوير لقوة سنده ، وعظيم نفعه ، وهو كهذه الإبل التي حياتهم عليها مطعما وملبسا وسكنا وسفرا ، إن شاءوا انتفعوا بها إذا عقلوها وإن تركوها نفرت وضلت فضاعوا .

وكل ما سبق بتصوير المعنى المحسوس المفيد تأكيدا وترغيبًا واقع في الدنيا أما في الآخرة فالأثر أبقى ، وكم هو معبر عن الوقاية حين لا وقاية ولا حماية فسورة البقرة وآل عمران سحابتان أو ظلتان أو هاتان المجموعتان

من الطيور كأنما كل آية تنقلب طائرا يؤدى مع رفاقه مهمة موكولا بها ، إنها تلقى أشعة الشمس وتظليل صاحبها وحمايته ، والصورة هنا متحركة نابضة لا يمل الخيال من العجب منها ويتشربها الوعي ، ونلاحظ هنا التزام الأداة «كأن» للإشعار بأنها تشبيهات مستقلة لكل أثره في المعنى العام ، وهذا يوفر للترغيب ما يشاء .

أما في جانب الترهيب فهنا صور محسوسة تثير الفزع والنفور : فالمنافق التارك للقرآن حنظلة بهذا الصوت المعبر طعمها صاب ميتة الرائحة ، ومن لا يعرف شيئًا من القرآن بيت خرب تعيش فيه العناكب والهوام والشياطين ويبعث الوحشة والرعب ، فهو شر كله ، وبهذا يصل التقبيح والتنفير من تارك القرآن ، كما نجد التحذير في تشبيه القرآن في تفلته بالإبل المتفصية من عقلها ذاهبة على وجهها ، بل هو أشد تفلتًا منها ، هنا الضياع والندامة وهو جزاء من أعطى ففرط ، كما أن هنا ملحظًا هو أن التلاوة تكاد تلحق العمل بها لأن كثرة التلاوة دافعة للتدبر والعمل ، فالمنافق بباطنه المظلم وهو يقرأ القرآن - كريحانة ريحها طيب لكن طعمها مر ، والمؤمن الذي لا يقرأ في نقاء قلبه كالتمر حلو المذاق بلا رائحة ، ولا يخفى تفضيل الباطن على الظاهر لأنه منبع السلوك الإنساني كما لا يخفى التنفير من ترك القرآن وترك العمل به ، ونلحظ : اعتماد التشبيه التمثيلي وهو الغالب أو المفرد وهو الأقل كما في حديث الآخرة «غيابتان أو عبابتان . . . . الحديث» وهو ما يسميه البلاغيون بالجمع حين يتعدد الطرف الثاني (المشبه به) ، والجمع بين تشبيهات متعددة كما في حديث المؤمن والمنافق قوة في التصوير ومبالغة في الترهيب والتنفير بالجمع بينهما في قرن واحد في أسلوب واحد .

وحديث الأترجة كل تشبيهاته مركبة كما عند «ابن الأثير» قال : ألا ترى أن النبي ﷺ شبه المؤمن القارئ ، وهو متصف بصفتين هما الإيمان والقراءة

بالأترجة ، وهي ذات وصفين هما الطعم والريحة ، وكذلك يجري الحكم في المؤمن غير القارئ وفي المنافق القارئ غير القارئ[1].

ذكر الله تعالى :

قال رسول الله ﷺ :

« مثل البيت الذي يذكر الله فيه ، والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت »[2]

« إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال حلق الذكر »[3]

قال رجل : أخبرني بشيء أتشبث به ، قال : عليه الصلاة والسلام لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله »[4].

وقد وفى التشبيه بالغرض مع المبالغة والتخيل والتجسيم .

فالبيت الذي يذكر الله فيه مثل الرجل الممتلئ حياة وحسا وحركة دلالة على نفعه وحسن أثره ، والبيت المحروم من الذكر كجثة ميت لا حس فيها ولا حركة منقطع الأثر عديم النفع ، مع قرن الحي بالميت يتأكد المعنى ويبرز الترغيب والترهيب المؤثرين في النفس .

وحلق الذكر المجتمعة لهذا الغرض إنهم كمن يرتعون وينعمون في بساتين لا تعرفها الأرض إنها رياض الجنة ، وهذه الصورة لها إيحاءاتها وظلالها ، فالقرآن ليس من هذا العالم وهو يسمو بالروح إلى عالم الطهارة ، ويمنحها لذة لا تعدلها لذة أرضية ، ومثله في الترغيب جميل الذكر طيبًا عذبا رطبا يبل اللسان ويطفىء الظمأ ، ولا يخفي أثر التشويق في الصياغة لاسيما في الحديث الثاني .

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لابن الأثير ٢/١٤٠
(٢) التاج الجامع ٥/٨٧
(٣) المرجع السابق ٥/٩٠
(٤) المرجع السابق ٥/٩٠

النبي ﷺ ورسالته :

قال رسول الله ﷺ :

١- « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »[1]

٢- « إن مثلي ومثل ما بعثني الله به ، كمثل رجل أتى قومه ، فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء فأطاعه طائفة فأدلجوا فانطلقوا على مهلتهم ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني ، واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق »[2]

٣- « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها بقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ، وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »[3]

هذه ثلاثة أحاديث خرجت في معرض التمثيل ، قصة قصيرة ، دخلت الأداة على اسم ظاهر ليس مقصودًا لذاته ولا يستقل بالحديث ، وإنما إيماء إلى أهميته وبناء التشبيه عليه ، كما ختمت ببيان العبرة وتوضيح المثل ، ورد الكلام إلى المشبه تأكيدا وترسيبا للمعنى في النفس ، كما يلاحظ انتزاع التمثيل من عمل إنساني أو طبائع اجتماعية ، أو مظاهر كونية ، والحديث الأول يبين دور الرسالة المحمدية بين الرسالات السابقة ، في إتمام التشريع الإلهي الذي تنزل

---

(١) التاج الجامع ٢٢٩/٣
(٢) المرجع السابق ٤٣/١
(٣) المرجع السابق ٦٧/١

على الإنسان في مدارج تطوره ملائما عقله ونضجه وطاقته ، ثم ليبين كمال هذه الرسالة وخلودها وملاءمتها للإنسان الناضج حتى نهاية الزمان .

والتصوير هنا شامل محسوس : رجل بنى بيتا فأجمله وأحسنه ، لكنه ترك موضعا خطيراً لا يتم المنزل بدونه إنه موضع لبنة في زاوية تجمع إليها اتجاهين من البنيان ، وحسن المنزل لا يخفى ، ولكن موقع هذه اللبنة مثير العجب وينشط الخيال لمخالفته الواقع المرئي ، ثم وضعت اللبنة في مكانها من الزاوية ليكمل البناء ونلحظ هنا :

١- البناء رمز للرسالات : تصوير للغائب المعقول بالمشاهد المحسوس .

٢- التخيل في البناء المعروف ، باللبنة وموضعها الخطير مما يلفت النظر إيماء إلى أهمية الرسالة المحمدية وخطورتها التدليل بالقياس الحسي على أنه ﷺ خاتم النبيين .

والحديث الثاني : يوضح :

دور الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومهمته ، وموقف الخلق منه ، ولقد التمس لذلك تصويرا من واقع البيئة العربية التي تعرف الحرب ، وآثارها المخيفة ومفاجآتها المذهلة دليلا على أن أمر الرسالة جد لا هزل فيه ، مع تنسيقه في أسلوب القصة المتابعة الأحداث ، المتلاحقة العبارات تشويقا وتأثيرا بأسلوب مشدود ثائر ، مع التعليق عليها عوداً للكلام على بدئه ، فذلك : « مثل من أطاعني ومثل من عصاني » ، زيادة للاعتبار والرغب والرهب .

فنحن نكاد نرى رجلا منذرا مذعورا تعرى من أثوابه ـ على عادتهم ـ في النذير بشؤم الأخبار وهو يصرخ من أعماقه محذرا ، والناس صنفان : عقلاء سلموا ، وسفهاء الأحلام كذبوا فهلكوا ، ولقد أعان الأسلوب على التشخيص ، « إني أنا النذير العريان » قرر حالته « النذير العريان » في جملة اسمية زادها تأكيدا ضمير الفصل المفيد للقصر ، وإن مع حذف الفعل إغراء (النجاة)

فالظرف خطير لا يسع مزيدا ، وحذف جملة الشرط المقدر : إذا كان هذا هو الحق فالنجاة ، وتأتي كلمة «أدلجوا» تصور سرعة الانقياد والمبادرة ، وبعدها على مهلتهم ، تبين الراحة النفسية بعد اجتياز الخطر ، وكلمة «صبحهم» بما تحمل من شرفي صباح باكر ، ثم «اجتياحهم» ، وما فيها من دمار لا أثر له ، وهذا التصوير بشحناته العاطفية إنما يبرز دور الرسالة المحمدية ماثلاً للعيون والخواطر قوة في التبشير والإنذار .

والحديث الثالث :

يبرز المعنى في معرض التمثيل في قصة أيضا محصورة بين المشبه أولا ، ورد الكلام إليه ثانيا ، دفعا بها إلى الوعي وأعماق النفس والغرض : بيان حظوظ الناس من الهدي النبوي حسب همتهم ونشاطهم وهداية الله لهم ، وأجزاء الصورة منتزعة من مظاهر كونية وطبيعية متفاعلة ، تشد انتباه الناس دوما ، فهنا : غيث ينهمر على الأرض سواء ، لكن الأرض تختلف في طبيعة تكوينها ، ونوع تربتها فيختلف مقدار تجاربها وتعاملها مع الغيث ، من أرض منبتة كثيرة الخير ، ومن جنادب صخرية منع الإنبات ، وإن كانت أمينة في حفظ الماء الذي يفيد الناس في شئونهم ، ثم قيعان كثيرة المسارب ، لا تنبت كلأ ، ولا تمسك ماء ، والتمثيل هنا ناطق يرسم نماذج إنسانية حية في كل جيل وقبيل ، فمن الناس من يعلم ويجدد ويثري ومنهم الحفظة الأمناء ينقلون العلم لمن بعدهم ، ومنهم حثالة البشر يسر لهم العلم لو أرادوا ـ لكنهم أعرضوا عن ميراث النبوة فضلوا وأضلوا ، ولابد من هؤلاء لتكتمل قصة الخير والشر وهنا ـ مع الترغيب في إنبال الهدى والعلم ـ تصوير لحقائق إنسانية ثابتة ثبات الحقائق الكونية من غيث وأرض ونبات انتزع منها التمثيل تلاؤما بين الطرفين وتفننا معجبا .

الدنيا وحقيقتها :

١- رأى رسول الله ﷺ مع أصحابه سخلة ميتة ، فقال : أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها ؟ قالوا : من هوانها ألقوها يا رسول الله : «قال فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»[١].

وقال عليه الصلاة والسلام :

(١) «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[٢]

(٢) «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء»[٣]

(٣) ««مالى وللدنيا» ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[٤]

(٤) «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بماذا يرجع»[٥]

(٥) من حديث أبى سعيد الخدري ـ وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي منها شيء ، فقال : ﷺ : «ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»[٦]

(٦) «كن في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور»[٧]

(٧) من قوله ﷺ لعائشة «إن أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب»[٨]

(١،٢) التاج الجامع ١٦٠/٥

(٣) المرجع السابق ١٦١/٥

(٤) المرجع السابق ١٧٧/٥

(٥) المرجع السابق ١٦١/٥

(٦) المرجع السابق ٢٩٩/٥

(٧) المرجع السابق ١٥٩/٥

(٨) المرجع السابق ٢٧٤/٥

(٨) «إن هذا المال حلوة خضرة، من أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فنعم المعونة هو ـ ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع»[(١)].

اتسع موضوع الدنيا لكثير من أساليب البيان النبوي، وكان للتشبيه منها نصيب وقد وجه إلى غرضين:

(١) كشف حقيقة الدنيا ببيان تفاهتها، وأن الخير فيما هو أهم وهو طاعة الله.

(٢) قرب زوالها باقتراب الساعة المؤذن بالآخرة، وهي الأهم أيضا.

وتحت الغرض الأول، وهو التحذير من فتنتها يلتقط البيان النبوي مشبهًا به له طبيعته الخاصة المنفرة، فالدنيا في هوانها والخروج منها بلا طائل مثل هذه الشاة الميتة المشار إليها، المسبوقة بالتساؤل عن قيمتها ـ ألقاها تقذرًا وهوانًا، تجسيدا للدنيا وتقبيحا لها وتحذيرا منها.

والدنيا ـ بما يصارع فيها المؤمن هواه ـ سجن يخنق الحرية، ويكتم الأنفاس، والدنيا هينة على خالقها لهذا الدليل الواضح، فلو كانت تساوي في وزنها وقيمتها جناح بعوضة لما منح الكافر منها شيئا، أما الكافر يمرح في نعيمها متى لا تعدل شيئا، والدنيا في عدم بقائها، وسرعة انقضائها مقبل عارض أو شجرة على الطريق، يقبل المسافر مستظلا تحتها ريثما يستريح ثم يمضي على الطريق، ومتاع الدنيا قليل ولا موازنة بينه وبين نعيم الآخرة، إنها لصورة غريبة حقا، فليمد المرء إصبعه في اليم فهل يرجع منه بشيء، إنه البلل الضئيل، فأي موازنة بينه في تفاهته وبين مياه لحبة جبارة.

أما الدنيا كفترة زمنية محدودة، فلقد مضى من عمرها الأكثر، ويأتي التمثيل مبينا هذه اللقطة الزمنية، فالشمس ـ في حديث أبي سعيد ـ تؤذن بالمغيب ولم يبق في اليوم إلا لحظات هي بجانب ما انقضى من ساعات اليوم لا تساوي شيئا وكذلك عمر الدنيا انقضى جله ولم يبق إلا القليل، والتمثيل هنا مستمد من الواقع المشهود اشتركت فيه الشمس وشعاعها وإيحاءات

---

(١) التاج الجامع ١٦٤/٥

المنظر ، ثم استحضار ما فات من اليوم ، ومراحل شمسه وأحداثه : ليتقرر المعنى وهو قرب الساعة تخويفًا ودفعا إلى المزيد من الصالحات ، والتزهيد هنا وفيما سبق بطريق غير مباشر بإقامة الأدلة ونصب اللوائح عن طريق التمثيل أما ما جاء التزهيد فيه مباشرة في الدنيا فقد حرص على التقاط صور من واقع الناس والحياة نابضة باقية خلعت على التشبيه جدة « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور » فليكفك من الدنيا كزاد الراكب « فليعد المرء نفسه بمنزلة الغريب ليس له من دار غربته إلاقضاء وطره ثم الفضول إلى آله ، وجاءت الأداة هنا « كان » لسر عجيب ، فالإنسان يعد نفسه غريبا في حياته ، ولو حذفت الأداة لانقلب المعنى وصار : اعتبر نفسك غريبا لا تألف أحدا واعكف على نفسك كالمنبوذ حتى تفىء إلى وطنك ، وليس هذا منطق الإسلام من هنا جاءت الأداة « كان » لتوهم المرء بأنه كالغريب ويصور نفسه بالغريب أو عابر السبيل في عدم الركون إلى دار غربته ، ونرى هنا تدرجا في التشبيهات مبالغة في التزهيد ، فالأول : المشبه به فيه : غريب بالتنكير الموحي ، لكن الغريب قد يقيم قليلا .

فليعد المرء نفسه ـ إن أمكن ـ عابر سبيل هائما لا قرار له في سبيله ولماذا الدوران ، إن النهاية هنا نبصرها تحت أقدامنا ، فليجعل المرء نفسه من أهل القبور حتى يفهم الدنيا على حقيقتها ـ بعد أن وضحت له الغاية ، ويكفيه من الدنيا ما يكفي الغريب وعابر السبيل ، ويكفيه من الدنيا كزاد الراكب (في حديث عائشة) حتى تنطلق قواه الروحية تمجد الله في علاه ، والتمثيل هنا يعتمد نماذج إنسانية لها تجربة وإيحاء وإثارة : الغريب ، وعابر السبيل ، وراكب الطريق بزاد القليل ، ليعطي قوة هائلة في التصوير معتمدا على إثارة الذكريات والانطباعات في نفس المخاطب ، وقد سبق القصد إلى التأثير في الأحاديث التي تكشف عن حقيقة الدنيا .

وقد انتزع التشبيه فيها من مفرد معبر كالشاة الميتة ، وجناح البعوضة والراكب المستظل بالشجرة أو من هيئة يتملاها الخيال مفتونا متأنيا كإدخال

الأصابع في الماء ثم إعمال الفكر في عقد موازنة بين بلل الأصابع في الماء، وهو تمثيل متخيل من أجزاء قوية كالبحر والإنسان أو من منظر طبيعي خاص ساعة الأصيل كل ذلك لتقرير الشبه وترسيبه في الوجدان.

أما الدنيا عند أهلها فهو ما عبر عنه آخر الأحاديث «إن الدنيا حلوة خضرة» لها طعم ولون بهيج زائف، بل هي في الحديث الثاني «جنة» جنة الكافر أما واقعها الغريب الزائل فهو ما نطقت به الأحاديث.

والواضح: ارتكاز البيان النبوي في هذا الغرض على التشبيه التمثيلي في الأغلب وجاء مفردًا كما في زاد الراكب، سجن، جنة، مع المطابقة المؤكدة في الأخيرين: غريب، وعابر سبيل، لكن له معانيه الثانوية ما يدهش ويثير، كما جاءت الأداة لسر بلاغي (كأنك غريب) وسقطت لهذا السر (الدنيا سجن) و «جنة» وردت بعض الأحاديث على أسلوب التشبيه الضمني قصدا للمبالغة، «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء».

الترغيب في العبادات:

(١) الوضوء والصلاة:

١- قال أبو هريرة ﷺ «كيف تعرف أمتك بعد موتك يا رسول الله»؟ قال ﷺ، «أرأيت لو أن رجلا له خيل محجلة، بين ظهري خيل دهم، لا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله: قال: فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض»[1]

٢- قال ﷺ: «أمني جبريل عند البيت مرتين فصلى الظهر في الأولى منهما حين كان الفيء مثل الشراك»[2]

٣- قال ﷺ: «رصوا صفوفكم، وقاربوا بينها وحاذوا بين الأعناق فوالذي نفسي بيده إني لأرى الشياطين تدخل من خلل الصفوف كأنها الحذف»[3]

---

(١) التاج الجامع ١/١٣٤

(٢) المرجع السابق ١/١٤١

(٣) المرجع السابق ٥/٢٦٥

٤- قال ﷺ «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات أيبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»[1]

٥- قال ﷺ «رأس الإسلام وعموده الصلاة»[2]

٦- قال ﷺ «الصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء»[3]

والأحاديث دارت حول الوضوء ، وأثره ، وبيان وقت الظهر والدعوة إلى تسوية الصفوف والتحام المناكب في الصلاة ، ثم الترغيب في الصلاة كثمرة لما تقدم وقد تنوع التشبيه بين مفرد وهو الأكثر ، وتمثيل في حديث الوضوء والنهر وكل أدى دوره .

والحديث الأول يربط بين مشهدين أحدهما في الدنيا والثاني في الآخرة ، والأول من الواقع العربي المشاهد ، خيل غر محجلة بين خيل دهم وهم دلالة على الوضوح المشرق والظهور المشرف المحبوب لاسيما أن الغرة في وجهها سمة والبياض في أرجلها زينة ظاهرة ، ونقل هذه الصورة وتصدير البيان بها على أنها مشبه به استشرافًا للسامع ، وتشويقا إلى المشبه الذي كان مؤخرا تأكيدا له ، وترتيبا حدثيًا وزمنيًا ، إنهم المؤمنون منيرة وجوههم ومواضع الوضوء منهم ، فهم متميزون عن العصاة ، سود الوجوه والأعضاء ، والترغيب أولا في الوضوء ببيان آثاره والصلاة داخلة ضمنا لأنه مقدمتها .

وبيان الوقت في حديث «جبريل» حين تميل الشمس قليلا عن كبد السماء نجد الظل قريبا من الأشياء يكاد يلتصق بها ، فيكون طويلا رفيعًا أسود كالسير من سيور النعل ، والعجب من هذا التشبيه ، فهناك الضآلة ، والرفع مع الطول والتقارب في اللون ، وفوق ذلك فالظل ينتقل ببطء لا يدرك فكأنه ثابت ، وشراك النعل على الأرض لا يريم ، واللفظة جاءت للظل في حالة خاصة حين يشبه هذا الشراك القريب منه .

---

(١) التاج الجامع ١/١٣٤
(٢) المرجع السابق ٢/٥٠
(٣) المرجع السابق ١/٧٨

أما الدعوة إلى التصاق الصفوف في الصلاة فقد جاء الترغيب مؤكدا دافعا إليها فهناك الشياطين تتخلل الفرج ، والمشبه مكروه في الطباع ، وهي تشبه صورة أشد غرابة سوداء صغيرة عجيبة الشكل مثل صغار الغنم السود الشيء تكثر في اليمن ، ولا يخفى أثر هذه الصورة المخيفة وهي متوهمة عند المخاطبين مع تقريبها بحيوان صحراوي معروف لهم ، محققة عند نبي الله ﷺ معجزة ، ويكفي تصورها ليجعل المؤمن ملتحما مع أخيه لا يدع ثقب إبرة للشيطان مع التنفير الشديد من ترك الفرج بين صفوفهم .

وفي حديث « النهر » نجد التمثيل مركبا ، فهو نهر لكل مصل ، ملتصق ببابه ، وللنهر وضع جغرافي خاص ليس في صحراء العرب ، ثم إن المرء لا يتوضأ منه بل يغتسل خمس مرات ، وقد أعان تركيب العبارة على تحقيق الصورة ، فجاء الاستفهام مقررا مثيرا ، مع وصف النهر بشدة القرب «باب أحدكم» ملاصقا له ، وجاء الاستفهام الثاني بمعنى النفي تأكيدا «هل يبقى من درنه شيء؟» ويؤكده الجواب : لا ، حتى هنا سبق المشبه به مقررا مرسوما بدقة في أعماق السامعين ، ويبلغ الشوق مداه إلى ما يأتي بعد ؟ ما المقصود بهذا التمثيل وما الغاية من هذا الكلام؟ فإذا جاء المشبه «الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا» ثبت المعنى ونلاحظ عكس التشبيه مبالغة ، كأن الصلاة أصل يقاس عليها النهر في محو ما خبث وإنقاء المرء وتطهيره وأهمية التمثيل : اختيار النهر بالذات في بيئة تعتمد على الغيث وتعرف قيمة الماء الذي هو حياة الصحراوي - والصلاة أيضا كهذا العمود الذي يقيم خيمة البدوي في الخطورة والأهمية والصلاة نور ، دلالة على أثرها في القلب والروح .

بعض الفرائض : « الصوم والحج والصدقة »

قال رسول الله ﷺ « الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار »[1]

---

(١) التاج الجامع ٣/٥٠

وقال ﷺ «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينقيان الذنوب كما ينقي الكير خبث الحديد والذهب والفضة»[1]

وقال ﷺ : «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[2] والصوم هنا وقاية وحماية من كل سوء بهذا العموم الذي يعطيه المشبه به وإن كان مفردا ليشمل كل أنواع الوقاية من الأذى الحسي والمعنوي الخارجي والداخلي البشري وغير البشري دلالة على عظمة الصوم وأثره في درء الذنوب والأخطاء - والصدقة - فرضا أو نافلة - تذهب الذنوب بسرعة وشدة كإطفاء الماء النار ، وكأن الصدقة والذنوب ضدان كالماء والنار يذهب حرارتها بهذا التصوير الحسي الذي يقوي المعنى ويثير الخيال ، ترغيبا في الصدقة .

والحج جاء في صورتين لهدفين مختلفين ، فالحج والعمرة بما فيهما من مشاق مادية وجسمية ومتاعب نفسية ، ينقيان المرء من أخطائه كهذا الكير ، تؤجج النيران حتى تذيب المعادن وتنقي خبثها وتظهر نقاءها ، تمثيلا حسيًّا لهذه المشاق ، ثم لأثرها في غفران الذنوب ، ويخيل إليَّ أن ذكر ثلاثة معادن مختلفة لبيان الطبائع البشرية ودرجة اكتسابها الذنوب ، فالحديد أولا لكثرة خبثه واحتياجه كمية هائلة من النار حتى يذوب ، والذهب لقرب لونه من النار وشبه لونه بالحديد مع أنه في الذوبان على النقيض ، بينما ختم بالفضة كنهاية بيضاء سارة باللون والبريق .

والثاني يمثل الحاج لا يرتكب إثما ولا ذنبا يرجع مغفورا له بشبه نفسه هو يوم ولدته أمه بريئًا لا يعرف إثما ، والتمثيل بالطفولة ونقائها له أثره في الإقبال على الحج وكأنه ميلاد ثان ، وقد اعتمد التشبيه على حقائق متعارفة من واقع الناس وآلاتهم وعملهم ، أو من واقع المرء نفسه في طفولته ؛ ولذا آثره في الترغيب .

---

(١) التاج الجامع ١٠٧/٢ (٢) المرجع السابق ١٠٦/٢

الموازنات :

وقد نجد موازنات بين أصناف متقابلة من البشر لهم صفات متضادة أو الجمع بين صفات كذلك وحدة في التصوير وتأكيد الحسن بالقبيح ، وهي عملية تشغل الحس والخيال ، وتقوي الغرض الجامع بين الترغيب والترهيب .

قال رسول الله ﷺ :

(١) «مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله ، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاغ ، ومثل الكافر كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد»[(١)]

(٢) قال ﷺ : «إنما مثل الجليس الصالح ، والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة»[(٢)]

(٣) قال ﷺ : «مثل البخيل والمتصدق مثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما ، إذا هم المتصدق بصدقة اتسعت عليه حتى تعفي أثره ، وإذا هم البخيل بصدقة تقلصت عليه ، وانضمت يداه إلى تراقيه ، وانضمت كل حلقة إلى صاحبتها ، قال : فسمعت رسول الله ﷺ يقول : فيجهد أن يوسعها فلا يستطيع»[(٣)]

وهذه الأحاديث تمثل طريقة من طرائق التعبير في البيان النبوي معتمدة التمثيل لإظهارها ، وهي طريقة تدع المجال للخيال يهيم في أودية التصوير ، وللعقل فرصة التدبر والموازنة والحكم ، فكأن هنا غرضين مرة واحدة ، تقوية الإقبال ، أو التنفير وتوضيح المعنى وتأكيده ، والثاني إشباع الحاسة الفنية بالتأثير الوجداني وهو في خدمة الغرض الأول .

---

(١) التاج الجامع ١٨٦/٥

(٢) المرجع السابق ٨٢/٥

(٣) المرجع السابق ٢٢١/٥

والحديث الأول موازنة بين حال المؤمن والكافر في الدنيا وموقفهما من عثرات الزمان وخطوات البلاء ، فالمؤمن بين بلاء وعافية تربية له وتنقية ، والظالم يملي له ربه حتى يأخذه أخذة واحدة ، ولقد كان التمثيل مسندا من عالم النبات المرئي تصويرا للمعنوي بالمحسوس وهي صورة تتكرر على البصر ، فهنا زرع واهن تهب الريح قوية فتهزه وتميله حتى إذا صارت رخاء عاد مستقيما وهو دوما بين ريح ونسيم ، أما الكافر فهناك شجرة الأرز الغليظة العتيدة لا تنال منها الرياح العواتي حتى إذا حان حينها هبت عاصفة فقصفتها ، والشجرة هنا توحي بسوء المصير يتناولها الإنسان تمزيقا بآلاته وتحريقا بناره، فالمشبه به بين حال المشبه بتصوير مشع مؤثر قال العلوي رحمه الله «جهة التشبيه هو أنه أراد أن المؤمن يواقع الذنب فيتوب منه ، ويسترجع مرة بعد أخرى والكافر كالأرزة يعني أنه إذا هفا في الذنب لم يتذكر ولم يسترجع ، فهو كالأرزة إذا انجعفت لم تقم أبدا ويحتمل أن يكون مراده أنه لا يتوب إلا عند الموت بحيث لا يقوم ولا تنفعه التوبة كالأرزة إذا انجعفت لا يرجى لها استقامة بحال»[1]

وهذا بعيد فالمراد أن المؤمن كثير البلاء في دنياه بدليل قوله في الحديث «ولا يزال المرء يصيبه البلاء» ، تأكيدا لوجه الشبه المحذوف ، وهذا ما اختاره صاحب العقد الفريد[2] وصاحب التاج[3]

والحديث الثاني يرغب في اختيار الصداقة الحق في الله ويحذر من مجالسة المفسدين ، ومصادقتهم ، لأثر كل منهما في الدين والخلق والسلوك ، وقد ذكر المشبهين مقدمين ، ثم أتبعهما بالمشبه به مفصلا مصورا ، كما تلمح الانتقاء الخاص للمشبه به فالمسك محبوب خفيف ممتع في كل حالاته التي استقصاها

---

(١) الطراز ٢٥٧/١ ، ٢٥٨

(٢) انظر : العقد الفريد ٦٥/٣ تحقيق أحمد أمين وآخرين .

(٣) انظر : التاج الجامع هامش ١٨٦/٥

المشبه ببراعة ، وكلها نافع مفيد ، ونافخ الكير ـ في جانب الجليس السوء منفر عنده النار وشررها المتطاير ، ودخان الفحم الخانق ، والوجوه المغبرة والقذارة المتناثرة ، والأثر المادي : حرق الثياب أو حتى الرائحة وفيها الانقباض والسوء ، ويوازن الخيال موسعا دائرة التصوير ويحكم العقل على ضوئه ولذا لم يعد الحديث إلى ذكر المشبه مرة ثانية ، وبهذا يتحقق الغرض من الترغيب والتحذير .

وفي حديث البخيل والمتصدق : نجد طبيعة الشح وطبيعة السماحة وهما معنويتان صورتا بمحسوس ، والمحسوس هنا خاص في وضع خاص أعني تركيبا تخييليًا مواده في الواقع ، إلا أن الحديث يشكل هذه المواد بمرونة بارعة كمادة الحديد القوية الصلبة ، ويلعب التمثيل دوره فيعطيها التمدد والمرونة في جانب المتصدق والتقلص والانكماش في جانب البخيل ، وقد سبق الرافعي رحمه الله إلى لمحات عدة في هذا الحديث ذي الفن العجيب ، فهذا الحديد يراد به طبيعة الخير والرحمة وهي أشد الطبائع صلابة وجمودًا ـ ومع ذلك يبسط منها السخاء فلا تزال تمتد حتى يكون الكمال ، كمال الخير في النفس الكريمة ، فكأن السخاء رياضة عملية تطوع الحديد وفيها معاناة القوة في الصراع أما الشح فيدع تلك الطبيعة قوية جامدة لا تمتد ولا تلين ، وقد جعل الجبة من الثدي إلى التراقي وهذا من أبدع ما في الحديث ؛ لأن كل إنسان فهو منفق على ضروراته يستوي الكريم في ذلك والبخيل ، والتفاوت فيما زاد من وراء هذا الحد ، فالكريم يبسط بسطه الإنساني والبخيل يريد فقط ، فإذا أراد تحقيق إرادته قاومته طبيعته فلزقت كل حلقة مكانها ، وهكذا تتوجه الحجة ، وتدق الفلسفة وهي في أظهر البيان وأوضحه وهو وصف لو نقل إلى كل لغات الأرض لزادتها جميعًا ، ولكأن في جميعها كالإنسان نفسه لا يختلف تركيبه في بلاد الزنج أو بلاد شكسبير[1].

---

(١) انظر : وحي القلم ، الرافعي ٣/١٣ ، ١٤

وفي كل ما سبق تجد التشبيه التمثيلي وضح المعنى وصوره ، وأوجزه وقد جاء المشبه به في الجميع مفصلا مصورا مستوفي كأنه الأصل وكأن المشبه ترك وضرب عنه صفحا ، وتسمى هذه الحالة «ترشيح التشبيه» وهي شائعة في البيان النبوي ، يقول دكتور علي الجندي فيما ذكر فيه وصف المشبه به وقد سمى الأستاذ جبر ضوابط هذا الضرب ترشيح التشبيه ، وهو أن يبدأ الكاتب أو الشاعر بذكر طرفي التشبيه ثم يوهم تني أحدهما وأكثر ما يكون المشبه ، ويأخذ في ذكر أحوال المشبه به كأنه ليس في الكلام غيره إلا أن هذه الأحوال يلحظ العقل عند ذكرها أن لها ما يقابلها في المشبه وقد يكون من الكاتب في أثناء كلامه هذا أن يعود فيذكر المشبه أو يلمح إليه[1] ، وذكر من فوائده الاختصار والاقتصار على انتباه السامع[2] وهذا كلام حسن لكنه لو قال : ثم يوهم تناسي المشبه لكان أدق وأنسب للترشيح ؛ لأن الترشيح معناه القوة ، وذكر أوصاف المشبه دون المشبه به مما يجعل التشبيه قريبا غير قوي ، والأحرى أن يسمى «تجريد التشبيه» .

الموازنة بين موصوفين :

وقد نجد اقترانا بين موصوفين متفاوتين فضلا ، ويأتي التمثيل لبيان حالها ، ومقدار تفاوتهما إيماءً إلى تفضيل أحدهما ، والترغيب في صفته ، كقوله ﷺ :

«فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب»[3]

«فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»[4]

فهنا موازنة بين فاضلين العالم والعابد ، والعالم أفضل لأنه يقوم بمهمة الرسل ، ولقد تفاوت الفضل بشكل هائل وضحه التمثيل وهو دليل قياسي

---

(١) فن التشبيه للدكتور على الجندي ، ١/١٨٦، ١٨٧

(٢) المرجع السابق ١٨٧ ، ١٨٨

(٣) التاج الجامع ١/٦٤ (٤) المرجع السابق ١/٦٣

(٥) تطلق الكواكب على النجوم عند العرب وقد فرق العلم الحديث بينهما فالنجم مشع ملتهب والكوكب يمتص الحرارة ثم يعكسها .

محسوس فكيف نقرن الكواكب بأنوارها الخافتة[٥] على القمر الذي يهدي الناس ويهزم الظلماء ويجعل الليل نهارا ، بل كيف تقرن بين أقل الصحابة فضلا وعلما وبين سيد الخلق ، وإمام البشر وحبيب الله ﷺ ، إن هذا التمثيل يشبه البراهين الرياضية التي لا تقبل مراء ولا جدلا ، وفي هذا دلالة على فضل العلم والترغيب فيه ، لا يقلل هذا من قدر العباد ألم يمثلوا بالكواكب ، وبأقل الصحابة الذين مثلوا بالنجوم ، ونلاحظ اقتناص التشبيه من المناظر الكونية ومن الجمع بين المتكلم عليه الصلاة والسلام ونوع من المخاطبين إشراكا في الحكم تقريرا وتثبيتًا وقوة في الترغيب .

الترغيب في صفات طيبة :

١- الصبر :

قال ﷺ «يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر»[١]

قال ﷺ «العبادة في الهرج كهجرة إليَّ»[٢]

عن أم العلاء قالت : عادني النبي ﷺ وأنا مريضة فقال «أبشري يا أم العلاء فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تذهب النار خبث الذهب والفضة»[٣]

قال ﷺ لأم السائب «لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد»[٤]

وقد تنوع الصبر هنا إلى صبر على العبادة وتأدية شعائر الدين ، وإلى صبر على البلاء في الدنيا .

وفي الأول : يبين أن الإسلام في آخر الزمان سيكون غريبا وقل من تمسك بدينه ، وهذا المتمسك منبوذ ، هو إذن محتاج إلى صبر وجهاد وضبط للنفس ،

(١،٢) التاج الجامع ٣٢٨/٥ ٣٣٨/٥   (٣) المرجع السابق ٣٤٧/١
(٤) المرجع السابق ٢٠٠/٣

ولا يؤدي ذلك إلا لمحة من إلهام النبوة إنه كالقابض على الجمر ، وإنها لصورة غريبة مؤثرة كيف يتحمل الإنسان الجمر الملتهب مقبوضا عليه قبضا ، أى ألم رهيب يترتب عليه ؟ والتشبيه هنا يقرر حال المشبه على جهة التمكين بإبراز المشبه (الصابر) في صورة أقوى وأيسر متخيلة محسوسة كالقابض على الجمر ترغيبا في هذا الصبر والجهاد الشاق .

والمشبه به في الثاني الهجرة إلى رسول الله ﷺ في مدينته الطاهرة ، وقد كان هذا أمرا عظيما فيه مشقة ومخاطرة للمهاجرين الأوائل ، ثم كانت لهم أعلى المنازل برضا الله ورسوله ، فهو أمر محبوب فيه عناء وقد صور به العبادة والصبر عليها زمان الفتن المظلمة وفي ذلك ما يؤكد الترغيب فيه .

أما الصبر على المرض أو الحمى التي تذهب الخطايا ، وهذا شيء يدرك بالفكر ـ فقد شبهه بالنار تذهب الشوائب والخبث من المعادن ، وقد صرح بالنار والذهب والفضة في الحديث الأول ـ وبالكير والحديد فقط في الثاني ، ولعل ذلك لأن الأول فيه بشارة بالمغفرة وتأكيد لها ، أبشري يا أم العلاء ، والكير لا يناسب البشارة ، فاقتصر على النار تصويرا للمرض وأتى بالذهب والفضة تزيينًا وتصويرا لأم العلاء إدخالا للسرور عليها ودفعا إلى الصبر المفضي إلى النتيجة المرضية وهذا ما يناسب جو البشارة . .

أما أم السائب فقد ضجرت من الحمى ، وكانت تزفزف حتى لعنت الحمى فبين الهدي النبوي بأن الحمى قد لا يقبلها المرء حقا كالكير في منظره ، ولكن لها أثر طيب وقوي في محو الذنوب كالكير الذي يذيب أقوى المعادن صلابة وهو الحديد ، وتنفي خبثه وينقيه من شوائبه ، فالحديث يلمح منه المبالغة في تكفير الحمى للذنوب ، فالمقامان مختلفان والغرض واحد هو الترغيب في الصبر على المرض ببيان أثره .

٢- الإحسان :

قال رسول الله ﷺ :

«الوالد أوسط أبواب الجنة فإن شئت فاصنع ذلك الباب أو احفظه»[١]

«الخالة بمنزلة الوالدة»[٢]

«العم صنو الوالد»[٣]

«والساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل»[٤]

«من بلى من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار»[٥] من حديث جبريل ، قال : «فأخبرني عن الإحسان :قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٦]

وللإحسان هنا مفهومان : البر والإحسان إلى ذوي القربى والدعوة إليه مستفيضة في السنة ، والإحسان في العبادة بمعنى كمال الإخلاص فيها والصلة بينهما واضحة ، ونلاحظ : سقوط أداة التشبيه في أربعة منها لتوفير جو المبالغة الملائم للترغيب ، فالوالد أبا أو أما يشبه بابا من أوسط أبواب الجنة بل هو الباب نفسه فمن أحسن إليهما في الدنيا دخل هذا الباب فهما طريق الجنة بل معبر إلى الجنة ، وسقوط الأداة يؤكده المعنى ، والأم برها وجزاؤه متعالم فكذلك الخالة بمنزلتها ، لزوم برها ، والعم صنو الوالد فهما كنخلتين متشابهتين فالبر إليه مؤكد كالبر للوالد ، وسقوط الأداة لإلحاق المشبه بالمشبه به ـ فيما سبق ـ مبالغة في الترغيب .

والبنات ضعيفات الجاه ، كسيرات الجناح فمن توفر على تربيتهن ، والإحسان إليهن كن له حجابا واقيا من النار ، إن الخيال ليتصور ما جسمه

(١-٣) التاج الجامع ٥/٦

(٤) المرجع السابق ٥/١٤

(٥) المرجع السابق ٥/٧

(٦) المرجع السابق ١/٢٥

التشبيه من نار تأكل نفسها ثم هناك ستر كثيف بل حجاب منيع يدفعها عن المحسن ، والأداة هنا تضعف من قيمة التشبيه ، ولذا سقطت لتوفر جو المبالغة والترغيب بل والترهيب من إهمالهن وإيذائهن .

أما الساعي على الأرملة التي فقدت عائلها فله درجة عظيمة كفاء نبله وبره ولقد جاء المشبه به من المتعارف جزاؤه في الشريعة إنه كهذا المجاهد الذي يبذل روحه في سبيل الله أو كهذا الذي زهد في الدنيا ابتغاء رضوان الله فهو صوام قوام والمشبه به أقوى من المشبه في باب الأجرة ورفع المشبه به تقوية له ، وإلحاقا به ، ولو سقطت الأداة لاختلطت الأمور ، ونزلت درجة المجاهد عن مكانتها واختلطت بما هو أقل منها ، والجهاد في سبيل الله والانقطاع إلى الله آفاق لا تبلغ بيسر ، فليبقيا في مكانهما شامخين ، وليلحق بهما الأقل تمثيلا ، دقة في التعبير وصدقا في التشبيه ورفعا لشأن الطرفين جميعًا ، وهنا ترغيب في السعي على الأرملة والمسكين ثم ترغيب في الجهاد والصوم وقيام الليل لقياس الخيرات عليهما .

وكذلك من المستحيل سقوط الأداة في حديث «جبريل» ففيه الدعوة إلى الإخلاص والتفاني في عبادة الله سبحانه ولا أحفز للمرء من تصويره بمن يرى المعبود يناجيه ويناديه ، وقد جاءت «كأن» هنا قصدا لأن فيها مسحة من الظن فهو المتيقن ورؤية الله سبحانه مستحيلة في الدنيا ولكن تشبيه المتعبد في مناداته بنفسه رائيًا المعبود وهو سبحانه من هو عظمة وجلالاً يعطي للتفاني في العبادة عمقًا واتساعًا وتطويقا بما لا تسعف تصف به الألفاظ ثم جاء التذييل لقطع التوهم في رؤيته سبحانه وأن الله هو الذي يرى مكان العابد يرى على التوهم ويرى على الحقيقة ، وهذا يمكن للترغيب إخلاصا وفناء في عبادته .

التعاطف بين المسلمين :

قال رسول الله ﷺ :

(١) «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[١]

(٢) «المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله وإن اشتكى رأسه اشتكى كله»[٢]

(٣) «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[٣]

(٤) «المؤمن مرآة أخيه ، وفي رواية إن أحدكم مرآة أخيه»[٤]

ومجموعة التعاطف ينبع التمثيل فيها من مشكاة واحدة توضح قوه الترابط وسرعة التأثر والأثر وشدة التماسك والحب . .

والتمثيل الملتقط لا يبعد عن العين إنه الجسم الإنساني في حالة معهودة حالة الألم والمرض ولقد افترق التشبيه الأول في بيان نوع التجاوب بين الجسم والعضو المريض إنه السهر والحمى ، كما تميز الثاني بتعيين بعض الأعضاء «العين ، والرأس» دلالة على أهمية الفرد في المجتمع وأنه بمكان عزيز ، وفي الحديثين تمثيل لواقع يجب أن يكون بين مؤمنين وحد بينهم رباط إلهي كريم ، وقد جاء في صورة الحقيقة المسلم بها والتمثيل يدعو إلى تحقيق المثل الكامل .

والحديث الثالث تشبيه المؤمن للمؤمن في المساندة والمعاضدة بالبنيان المتشابك اللبنات يقاوم جسمه عوامل الطبيعة ، ولا يبعد المشبه به هنا كثيرا عن سابقيه فالجسد بنيان إلهي أيضا وعلى كل فقد صور بحقيقة ملموسة لا تنقص وذلك أدل على الترغيب في الوحدة والرحمة .

أما حديث المرآة ، فالطرفان حسيان ، والوجه عقلي إذ جمع بين المؤمن والمرآة في صفة معقولة وهي أن المؤمن ينصح أخاه ويريه الحسن من القبيح

(١-٣) التاج الجامع ١٨/٥ — (٤) المرجع السابق ٥٤/٥

كما ترى المرآة الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه[1] وانتزاع المرآة شبها للمؤمن كشف لأعماقه النقية التي تتساوى مع ظاهره ، فالمرء يرى نفسه بلا كذب أو مخاتلة ، دعوة إلى صدق المناصحة ، وصفاء السريرة .

التوكل على الله تعالى ، والفطرة :

قال رسول الله ﷺ :

« لو أنكم توكلتم على الله حق توكله ، لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا »[2]

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تجدون فيها من جدعاء »[3]

والتفويض إلى الله واللجوء إليه في الملمات فطرة في النفس ونلاحظ أن التمثيل هنا وفر المبالغة الكاملة بالقياس على مشهد محسوس من البيئة متحرك واسع الدلالة ، فالتوكل الكامل على الله ييسر أسباب الرزق ، وهذه دعوى ودليلها ما نرى : هذه الطيور التي تنطلق مبكرة على وجهها تلتمس رزقها جائعة وتنقضي ساعات النهار بين بحث ، وارتزاق حتى تروح آخره مليئة الحواصل ، وهيئة المشبه به فيها حركة ينشط لها الخيال ثم فيه إيحاء بأن السعي بعض التوكل على الله .

والثاني فيه أن التدين الحقيقي والإقرار بوحدانية الله فطرة إنسانية ، لكن للبيئة أثرها التي تحولها نحوا شاذا والمرء ابن والديه وبيئته ، والدليل هذه الصورة التي لا تنكر : فالبهيمة نتاجها صورة كاملة منها ليس بها جدع أونقص ، وللبلاغة النبوية دقتها النافذة في التصوير ، فالطير في الأول تميل للضعف الكامل ، ومع ذلك : الرزق الوفير والطير محبوب فيه خفة ونشاط ، إشارة إلى

---

(١) انظر : المجازات النبوية للشريف الرضي ص٣٩، وأسرار البلاغة للجرجاني ص٢٠

(٢) التاج الجامع : ٥/٢٥٥ (٣) المرجع السابق ٥/ ١٩٦

رزق المتوكل ، وقد رزق الأضعف منه ، وجنا له على السعي أيضا ، والبهيمة بالذات بما فيها من حيوانية ، وما يدور حولها أنسب بأولئك الذين يشركون مع الله سواه وبأبنائهم الذين طبعوا على كفرهم فهم قطيع من الحيوان منه الكبير ومنه الصغير تنفيرا من حالهم مع تقرير حقيقة أن التدين فطرة وأن للبيئة أثرها في إنمائها أو قتلها إلا من عصم الله .

ندرة المؤمن الكامل :

قال ﷺ « تجدون الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة »[1].

« يذهب الصالحون الأول فالأول ويبقى حفالة كحفالة الشعير أو التمر لا يباليهم الله باله »[2]

والأول فهم منه « ابن قتيبة » معنى المساواة فقال : وإذا كانت الإبل مائة ليس فيها راحلة تشابهت في المناظر ، لأن الراحلة تتميز بالتمام وحسن النظر ، فأراد أنهم سواء في الأحكام وفي القصاص ، ليس للشريف فضل على غيره .

وهذا مثل قوله ﷺ : « الناس سواء كأسنان المشط » [3]

والرأي المقابل وهو ندرة المؤمن الصالح الزاهد نجده عند أبي السعادات مجد الدين ابن الأثير في « نهاية الأثر » قال : يعني أن المرضي المنتخب من الناس في عزة وجوده كالمنتخب من الإبل القوي على الأحمال والأسفار ، الذي لا يوجد في كثير من الإبل ، وحكى عن الأزهري قوله « أي أن الكامل في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة قليل كقلة الراحلة في الإبل ، والراحلة هي البعير القوي في الأسفار والأحمال الخلق الحسن المنظر ، ويقع على الذكر والأنثى والهاء فيه للمبالغة »[4]

---

(١) التاج الجامع : ٧٠/٥ (٢) المرجع السابق ١٧٣/٥

(٣) تأويل مشكل القرآن ٤٣٣

(٤) انظر : النهاية في غريب الحديث ، مجد الدين أبو السعادات ١٦/١

وهو ما ارتضاه السيد رشيد رضا في تعليقه على الحديث في «أسرار البلاغة» قال : اختلفوا فيه على أقوال ـ قال النووي أجودها : «إن المرضي الأحوال الكامل من الناس قليل جدا كقلة الراحلة في الإبل»(١)

والحديث تشبيه تمثيلي ملتقط من واقع البيئة العربية الخبيرة بالأسفار وانتخاب الإبل ثم إنه حقيقة معترف بها فهو دليل على وقوع المشبه بالقياس مع التصوير الحسي البارع ، وإدخال المخاطبين في تكوين الصورة (تجدون) والإيجاز البليغ .

ومع كونه تصويرا لحقيقة الخير والشر يدعو إلى الكمال والتحلي بعظيم الصفات ، وهذه القضية «ندرة المؤمن الكامل» قد يلقي عليها الحديث التالي بعض الأضواء مبينًا بعض ـ أسبابها بموت الصالحين تعجيلا بخيارهم تكريما وإسراعا بالجزاء ، وتبقى بقية لا خير فيها ، والتفاهة وقلة الفناء من الصفات المعنوية التي ظهرت في معرض التشبيه : الحسي المفرد ، ولكنه موحٍ إذ المشبه به تقع الأنظار عليه دائما في البيئة العربية مبتذلها تافها لا يلقى اهتماما ، فإذا تصافر الناس وانتزع الخير منهم فأي فضل لهم ، إنهم كهذه الحفالة ، ويأتي التذييل مؤكدا لغرض التشبيه لا يباليهم الله بالة فتصل المبالغة مداها .

التوبة :

وقد جاء من التمثيل النبوي هذه القصة دعوة إليها :

قال رسول الله ﷺ :

«لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فليس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد يأس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»(٢)

---

(١) انظر : أسرار البلاغة بهامش ص ٨٣ (٢) التاج الجامع : ١٥٠/٥

وقد لبس التمثيل المعنى وخرج في قصة سريعة الأحداث متراصة الحلقات متتابعة العبارات تشد النفوس إليها في لهفة مع تصعيد المعاني المستمدة من البيئة .

ويمكن متابعة الأحداث هكذا :

(١) مسافر على راحلة في صحراء موحشة عليها متاعه وزاده .

(٢) انفلات الراحلة والبحث عنها عبثا ، وبلوغ اليأس مداه ، الاضطجاع تحت شجرة محفوفا باليأس مكدراً بالهموم خائفا من آت مخيف إنه الاستسلام للموت جوعا .

(٣) بهذا يصل الحدث إلى قمته ويبحث الخيال عن حل لهذه العقدة الفنية المثيرة، ويتابع المسافر في رحمة وتحزن، ويأتي البيان بالحل المفاجىء: إذا هو بها قائمة عنده ، حل غير متوقع يضطرب معه الخيال والمسافر أيضا ، وتتزلزل نفسه ، إنه يقفز تلقائيا ليأخذ بزمامها ، ثم ينطلق لسانه ولكن شعوره مازال يغلي إنه يخطىء حتى فيما لا يخطأ فيه ، إنه يريد أن يشكر ربه وحده الذي أنقذه ، وتنقلب الألفاظ لوقع المفاجأة «اللهم أنت عبدى وأنا ربك» ولكنه غلط محبب ، إن الحديث يعلق بمرح على قصة بدأت بالكرب وانتهت بالفرج : «أخطأ من شدة الفرح» ولا يخفى أن الخيال لا ينسى في انطلاقه مع القصة مراحل التوبة وتتابعها ، فالله يرضى عن عبده التائب بعد قطعه في الذنوب أشواطا ، وفي هذا ترغيب في التوبة بهذه القصة الفنية الغنية التي تمثل عفو الله ورضوانه العظيم لمن تاب وأناب .

حب الحكمة :

قال رسول الله ﷺ :

«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها»[1]

---

(١) التاج الجامع ٦٤/١

والطرفان مفردان لكن الوجه مركب عقلي وله دلالات جمة :

(١) وصف المؤمن بالبحث عن المفيد النافع من العلم ، وتصوير الحكمة بأنها ضالته يبين قوة البحث وشدة التلفت والتلهف ، وتخصيص حياته في السؤال عنها وطلبها دون التفات للبراق من زائف الحياة .

(٢) حب المؤمن للعلم ، وسعادته به كما يسعد من وجد ضالته .

(٣) اختصاص الحكمة والعلم بالمؤمن دون غيره ، فحيث وجدها فهو أحق بها .

والعجيب : الجمع بين هذين الطرفين البعيدين ، فأحدهما من عالم المعقولات ، والآخر من وادي المحسوسات الذي له انطباع في النفس البشرية .

النوع الثاني من الصفات : الصفات السيئة

وقد سار التشبيه مسارين :

(١) تصور نماذج إنسانية تخلقت بهذه الصفات فظهرت آثارها واضحة منفرة دون تعليق عليها .

(٢) تصوير الصفات وقد تسبق بالتحذير مبالغة في التنكير .

(١) النفاق :

١- « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعير هذه مرة وإلى هذه مرة »[١]

٢- « يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللبن وألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب »[٢]

٣- « من صفات الخوارج « يقرأون القرآن لايجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، ينظر إلى نصله فلا يوجد منه شيء ،

---

(١) التاج الجامع ٤/٢٦٤ (٢) المرجع السابق ٥/٢٠٣

ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد منه شيء ، ثم ينظر إلى نضيبه فلا يوجد منه شيء ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء سبق الفرث والدم»[1]

والأول تشبيه مركب تمثيلي يفضح أعماق المنافق فهو لا يقر على قرار ولا يعزم على رأي ، وإنما يتوزع بين ظاهره وباطنه ، وهذا شيء معنوى خرج في هذه الصورة المتحركة ، شاة حائرة في تردد مستمر وتنتقل دائماً بين قطيعين من الأغنام ، ويثبت هذا التشبيه للمشبه صفتين :

١- تردد المنافق بهذا التصوير ، وقد ورد تصويره في حديث آخر بأنه ذو الوجهين . .

٢- الحيرة والاحتقار وقد وصف بالشاة العائرة بالاسم والصفة ، والشاة مثل للهوان دلالة على ثبوت التردد في الأعماق ثم التعبير بالفعل « تعير » المعبر عن التردد والرجوع والتعثر وقد أرهقته الحركة وعذبه النفاق ، وهذا التصوير يدع الخيال يتابع بشغف وسخرية هذا التردد المستمر إلى ما لا نهاية ، فهذا النموذج موجود ما وجدت الحياة ، ولون آخر من المنافقين آخر الزمان إنهم أكثر دهاء : « ألسنتهم أحلى من السكر »، الطرفان حسيان أن والوجه عقلي والمراد وصف الكلام بالقبول والإحسان كالسكر بل أحلى بهذا التحديد « وقلوبهم قلوب الذئاب » ، في « الذئاب » في الشراسة والغدر والوحشية بهذا التصوير الناقد الذي يبعث الرعب والنفور والتقزز ، وبضم التشبيهين يخرج الموصوف وهو المنافق مع حقيقته بين ظاهره المقبول وما زاد المظلم الغادر ولا يخفى أن المجاز المرسل أعني « ألسنتهم » ، وأراد كلامهم قوى الصورة وزاد النفور .

والخوارج وهم شعبة من المنافقين يؤدون شعائر الدين في الظاهر ولكن قلوبهم ميتة ، فالقرآن لا يجاوز حلوقهم إلى قلوبهم فيطهرها ، وقد نبه

---

(١) التاج الجامع ٣١٣/٥ ـ والرصاف : مدخل الفصل من السهم ، والنضى كغنى : القدح الذي يرمي به عن القوس ، والقذذ : جمع قذف : يبس السهم .

خروجهم من الدين ـ دون تـأثر بهديـه ـ بخـروج السـهم مـن الرمية وتجـاوزه الغرض دون أن يترك أثرا ونلاحظ هنا ـ تتبع المشبه به بصبر وتؤدة فهنـا بحـث وحركة يتابعها خيال المتلقي في شوق ابتداء من النضـل ثـم الرصـاف ، ثـم في النفي ثم في القذذ حتى إذا تأكد الرامى عدم الإصابة اقتنع بهذه الحقيقـة : سبق الفرث والدم ، وهذا الصبر في التصوير والإلمـام بكـل دقـائق المشـبه بـه يعـني ترشيح التشبيه ليؤكد أنهم دخلوا الدين وهم قـد خرجـوا منه ولم يجنـوا منــه فائدة ، تـنفيرا مـن حالهم ، وقـد وفـر لفـظ يمرقـون تصـوير السـرعة الخارقـة لخروجهم من الدين ، ونلاحظ في هـذه المجموعـة كيـف صـور الحـديث هـذا الصنف من البشر تاركا الحكم والتحذير لمن يسمع ولهذا أثره وتأثيره . .

الشح :

قال ﷺ لحكيم بن حزام : « إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك لـه فيـه كالذي يأكـل ولا يشبع »[1]

« العائد في هبته كالعائد في قيئه »[2]

وفي رواية عن ابن عباس عن النبي ﷺ « لا يحل لرجـل أن يعطي عطـيـة أو يهب هبة فيرجع فيها إلا الوالد فيما يعطي ولده ، ومثل الذي يعطي العطية ثم يرجع فيها كمثل الكلب يأكل فإذا شبع قاء ثم عاد في قيئه »[3]

وفي الأول تشبيه الحريص المتطلع للمـال بالـذي يأكـل ، ولا يشـبع ، وهـو تشبيه تمثيلي دخلت الأداة على اسم موصول لتحقيق جملة الصلة والغرض مـن التشـبيه ، وهـي صـورة قـد توجـد في دنيـا النـاس ، لكنهـا نـادرة ، فيهـا مرونـة واستمرار وإلحاح على الوجدان بالآكل النهم ثـم لا يشـبع تـنفيرا لمنافاتـه أدب النفس وأدب الطعام ثم تنفيراً من شبيهه الشحيح الحريص .

(١،٢) التاج الجامع ٢/٣٥ (٣) المرجع السابق ٢/٢٤٠

أما العائد في هبته حرصا فالروايتان تبلغان في التقبيح والتهجن كل مدى ، ونجد التمثيل يرسم بدقة صورة للبخيل العائد في هبته تنفره هو شخصيا وتقززه زجرا وردعا ، ودفعا له بأحط صفة في أقذر حيوان ، وكل عناصر الصورة يوفر هذا الجو : الكلب ـ شبعه ـ قيء الكلب ـ الرجوع في هذا القيء ، بحيث طمست صورة المشبه به على صورة المشبه فلم يعد إلا هذا الحيوان البغيض إظهارا للمشبه في معرض التشويه والتقبيح حسماً كالنار لداء اجتماعي خطير .

بعض صفات النساء :

قال رسول الله ﷺ :

(١) « مثل الرافلة في غير أهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها »[١]

(٢) في إفشاء الأسرار الزوجية « إنما مثل ذلك مثل شيطانة لقيت شيطانًا في السكة فقضى منها حاجته والناس ينظرون إليه »[٢]

(٣) قال رسول الله ﷺ : « لمن سألته عمن تتشبع من زوجها كذبا « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور »[٣]

(٤) « صنفان من أهل النار لم أجدهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا »[٤]

(٥) « إياكم وخضراء الدمن ، قالوا وما خضراء الدمن قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء »[٥]

---

(١) التاج الجامع ٣/٣١٧

(٢) المرجع السابق ٣/٣١١

(٣) المرجع السابق ٣/٣٢٣

(٤) المرجع السابق ٣/٢٨٩

(٥) المجازات النبوية للشريف الرضي ص ٦٩ ، تمييز الطيب من الخبيث لعبد الرحمن الشيبانى ص ٤٨

والحديث الأول يذم المرأة الغريبة تأخذ زينتها وترفل في حليتها بلا حياء ولا حراسة فهي تزرع الفتنة ، وتثير الشر وهي في بشاعتها وسوء أثرها كهذه الظلمة الحالكة الموحشة الموصوفة بأنها في يوم رهيب يتلمس فيه النور وهي لا نور لها . والمشبه به متخيل وهو مفزع كله مع تأكيد الظلمة بنفي النور عنها ، فإذا لحقت بها هذه المرأة كان أشد في الزجر والوعيد والخيال يجمع بين مشهدين أحدهما في الدنيا والآخرفي الآخرة ، كما يلحظ أن المرأة بفعلتها تلك بغيضة إلى الله ومبغض كذلك من يقبل عليها ، والجزاء من جنس هذه الظلمة القاتمة التي لا نور لها .

والثاني زجر أداته التمثيل فيمن يفشيان سرهما إنه تمثيل متوهم ، مادته مخيفة ، ونجد تركيب التمثيل قد وفر له إيحاءاته الخاصة فتقديم الشيطانة للإيحاء بأن الأنثى داعية الإثم إن كانت آثمة «و«في السكة» لتكون الفضيحة أشهر والزجر أبلغ ، «وقضى حاجته» ، حياء وأنفة وتنفيرا ، و (الناس ينظرون) مشهد ضد الخلق والدين والهيئة الاجتماعية ، ويندي الجبين لهذا التصوير المتوهم بلوغا في الزجر مداه .

والمرأة التي تغيظ ضرتها متمدحة بما لم يحدث إنها تمثل نمطا من الناس يظهر الشبع بما لم يحصل عليه ، وهو كاذب مخادع كالذي يبالغ في التأنق بلبس ثوبين وليسا له ، ويوهم الناس بغناه وهو ذو متربة ، وقد جسم التشبيه هذه الصفات بإبراز المتشبع في صورة محسوسة مبالغة في التهكم والزجر ، ولقد توفر للحديث من المرونة والصدق والعموم ما جعله مثلا يقال فيمن تمدح بما ليس له . .

والممشطات شعورهن في سفور على هيئة نافرة عن الدين والذوق العربي تماثل أسنمة النياق المائلة على ما نراه في زمننا طلبا للإثارة ولفتاً للأنظار وجناية على الأخلاق ولبس كهذا التشبيه يرسم في فن صادق للإثارة الإسراف في الزينة بتقصيص الشعر ،وقد تناول الإسراف المظهر والمشبه والملبس أيضا ،

وهذا النوع قد عطف على الظالمين المتجبرين وقد حكم عليهما مقدما بأنهما من أهل النار ولما كان للنوع الثاني ، العواهر المتبرجات أثر أسوأ أكد الجزاء بأنهن لا يجدن حتى ريح الجنة مبالغة في الزجر وكناية عن البعد والحرمان .

ولقد آثرت الحديث الأخير ذلك أن الإمام عبد القاهر جعله من الاستعارة مما يؤخذ فيه الشبه من طرفين حسيين والوجه عقلي وقد وضح هذا الشبه العقلى تفصيلا[1] وما دعا الإمام إلى اعتباره من الاستعارة : افتقاره على الجزء الأول لأنه متعالم ولم يذكر بقية الحديث « المرأة الحسناء في المنبت السوء » وإن كنا نعذر الإمام لاقتصاره على ذكر الجزء الأول ونأخذ عليه عدم معالجته الحديث بتمامه ، فلا ينبغي أن نمنح ذلك لباحث يقول « الأمر أصلا قائم على التشبيه ثم ترك الأصل واستعيرت صورة المشبه به استعارة تمثيلية ، وهو نفسه قد ذكر الحديث بتمامه »[2] ، فكيف يكون استعارة وهي مبنية على تناسي أحد الطرفين وحذفه وادعاء دخوله في جنس الآخر مبالغة في دعوى الاتحاد والطرفان هنا مذكوران، الحديث إذن تشبيه تمثيلي أو مماثلة كما يرى أبو هلال العسكري الذي خرج الحديث عليها[3] كما صرح الرضي بالتشبيه حين قال « شبه المرأة الحسناء بالروضة الخضرة لجمال مظهرها ، وشبه منبتها السوء بالدمنة لقباحة باطنها »[4] وتفريق الرضي هكذا بين أجزاء المشبه والتماس ما يقابله في أجزاء المشبه به تمزيق للبلاغة وإنما الأدخل في بابها : تشبيه هذه الهيئة التركيبية ظاهراً وباطناً بهيئة النبتة الخضراء في التربة الرديئة ، وقدم المثل به تشويقا وتحذيرا .

---

(١) انظر : أسرار البلاغة ص ٤٧

(٢) انظر : الحديث النبوي من الوجهة البلاغية دكتور عز الدين السيد ص ١٧٩ وما بعدها

(٣) انظر : الصناعتين ص ٣٤٤ وما بعدها .

(٤) انظر : المجازات النبوية ص ٦١ .

التكلف في البيان :

قال رسول الله ﷺ :

« إن الله يبغض البليغ الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها »[1]

و« لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعراً »[2]

وفي الحديث الأول : الباقرة والبقرة واحدة البقرة وتحللها : لفها الكلاء بلسانها في شدقيها ، وهو تصوير للمبالغ في فصاحة الكلام ، المتعمق للإغراب فيه حتى يتكلف إظهار لسانه دائرا في فمه : بالبقرة تدير لسانها الطويل في فمها الوسيع الذي تفتحه مع حركات لسانها فيسيل لعابها وهدف التمثيل تقبيح المتكلف في بيانه برسم هذه الصورة الحية المتحركة الساخرة ، وكفى بالبقرة حين أكلها تنفيرا ، ونلاحظ هنا سقوط الأداة مبالغة في اتحاد الطرفين زيادة تأكيد للتقبيح .

والحديث الثاني : التشبيه فيه ضمني معكوس فقد شبه الأصل وهو القيح المحس بالفرع وهو الشعر مبالغة في الفرع بجعله أصلا في المعنى يقاس عليه ، فالشعر المعهود أشد نتناً وقذراً من القيح والصديد ، والغرض هنا : التشويه والتقبيح تنفيرا من قوله وروايته ، ولا ريب أن القصد إلى هجر القول ، وفاحش الكلام : أو ما يثير عصبية أو غضبا لاسيما أنهم كانوا حديثي عهد بالجاهلية قصد ظالم له أسوأ الآثار .

وهذه القضية أصبحت من الوضوح بمكان ، ولا بأس أن نورد حديثين هنا ـ عن أنس : أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي ويقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٨٥

(٢) المرجع السابق ٥/٢٨٠

فقال له عمر : يا ابن رواحة : بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر»؟ فقال له النبي ﷺ : «خل عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل»[1] وقال ابن عمر : قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجبا الناس ، فقال رسول الله ﷺ «إن من البيان لسحرا»، وروى ابن عباس (إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حكما)[2] وفي التشبيه الأول تشبيه شعر الشاعر في إيلامه ، وسرعة تأثيره في تحطيم جبهة الشرك برشق النبال في ميدان القتال ، وهو محسوس له خطره وأذاه وأثره في النصر أو الهزيمة ، ترغيباً في مثل هذا الشعر المنافح عن دين الله بتصوير أثره .

وفي الثاني تشبيه بعض البيان بالسحر في استمالة القلوب واختلاب العقول والتأثير في النفوس تعجبا منه وتزييناً وحبا وترغيبا فيما يحق الحق منه ، ونلاحظ أن الطرفين معقولان والوجه أيضا ـ وإن كانت آثاره قد تدرك بالحس ، وقد أوردنا هذين الحديثين لما فيهما من تشبيه يدرس ثم هما مغنيان عن كثير ورد في البيان النبوي دعوة إلى الشعر والبيان ، وصفوة القول أن النبي ﷺ : وهو أبلغ البلغاء حبب البيان الطاهر النقي ، وزينه في قلوب أتباعه إذا هو بعد عن التكلف والتفحش والتزوير والبهتان وسار في دائرة الإسلام يرعاه وفي فلك الحق والفضيلة .

الغباء والعنف

صلى أعرابي خلف رسول الله ﷺ ثم ركب راحلته ونادى «اللهم ارحمني ومحمدا ولا تشرك في رحمتنا أحدا» فقال رسول الله ﷺ : «هو أضل أم بعيره : ألم تستمعوا إلى ما قال ؟ قالوا : بلى»[3]

عض رجل يد رجل فنزع يده من فمه فوقعت ثنيتاه ، فاختصموا إلى النبي ﷺ فقال : «يعض أحدكم أخاه كما يعض الفحل لا دية لك»[4]

---

(١) التاج الجامع ٢٨٤/٥
(٣،٢) المرجع السابق ٢٨/٥
(٤) المرجع السابق ١٧/٣

والأول بمناسبة رجل جاف ضيق النخيرة استخفه شعوره فدعا برحمة الله له ولمحمد ﷺ دون غيرهما ، وهذا جهل بصفات الله تعالى وقصر نظر ، فجاء التشبيه النبوي على سبيل المبالغة وادعاء الاتحاد بين الطرفين ، الرجل وبعيره الذي يركبه تناهياً في الغباء والضلال ، وقد جاء الأسلوب على سبيل التشابه مبالغة وتأكيدا ، وحثا على الفهم والتعلم وبينما نجد المرح الخفيف في حديث الأعرابي نجد الغضب العاصف في الحديث الثاني ، فقد صور الرجل وهو إنسان يعض يد أخيه بالفحل من الإبل وهو يعض في الوحشية والاندفاع والحيوانية (زجراً وتأنيباً) وقد أعان على ذلك كلمة «أخاه» وتقريعاً بالغبن ، والتشبيه حسي والوجه عقلي . .

الغضب والحسد :

قال رسول الله ﷺ :

« إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحس فليلصق بالأرض»[1]

« إياكم والحسد ، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب»[2] والغضب ـ فيما لغير الله ـ والحسد خلقان بغيضان ، الأول تظهر آثاره في تغيرات عضوية من ارتعاش وحمرة عينين وانتفاخ أوداج ، وما يعقب ذلك من عدوان ، والثاني : صفة سلبية في الأعماق ، تسبب المرارة والعذاب لصاحبها ، (ولذا ناسب تشبيه الغضب بجمرة تتوقد في قلب الإنسان ، وقد تسقطت مبالغة ، في إلحاق الغضب وهو شعور بالجمر المحسوس ، ثم رشح التشبيه وقوي الإلحاق بإبراز آثار عضوية فيها حمرة الجمر ووقدته تأكيدا ومبالغة وردعا عن الاسترسال في الغضب .

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٩٩

(٢) المرجع السابق ٥/٢٩

أما الحسد فإنه يتسبب في إزالة الحسنات كما تقضي النار على الحطب أو العشب وهو تصوير للمعنوي بالمحسوس ، ولما كان الحسد لا ثورة ظاهرة فيه وإن كان يمحو الحسنات جاء المشبه به نارا تأكل الحطب في هدوء . وفي النهاية لن تبقي منه أثرا ، وغرض الحديث الزجر والترهيب من صفة تلحق بالشرك لأن فيها اعتراضا على قدر الله وحكمته في توزيع رزقه على عباده .

فساد ذات البين ـ الشبهات ـ العدوى ـ حب الظهور :

قال رسول الله ﷺ :

« إياكم وسوء ذات البين فإنها الحالقة »[1]

« من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، وحمى الله محارمه »[2] ، « فرمن المجذوم كما تفر من الأسد »[3] ، « ماذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه »[4] وتلك صفات متناثرة تجد التشبيه النبوي ينفر منها بما يهز الوعي ويؤثر في الإحساس .

فسوء ذات البين ، والإفساد بين الناس يذهب الدين كما تذهب الموسى الشعر ، وعملية إذهاب الدين معقولة جسمتها كلمة الحالقة ، بما ترمز إليه من عملية الحلق وإذهاب الشعر وتطييره في سرعة مع ما فيها من حركة لاتتوقف، فالعين ترى ، والخيال يتابع مستحضراً صوره المختزنة ، ولقد صدر الحديث بالتحذير « إياكم » وأكد الخبر بأن ، وسقطت أداة التشبيه ، وأتى بالمشبه به اسماً ، إثباتًا لوصف سيئ كل ذلك تنفيرا وترهيبا من ذلك الخلق الكريه .

والثاني تحذير من الوقوع في الشبهات ، وهي مالم يرد بها نص صريح يحلل أو يحرم ومرجعها إلى العلماء ، والورع تركها خوفا من الله تعالى ، أما المتهاون الذي يقع فيها غير محاذر فذلك يقربه من الحرام ، لأن إرادته وهنت

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٥

(٢) المرجع السابق ٢/١٩٢

(٣) المرجع السابق ٣/٢٢٠

(٤) المرجع السابق ٥/١٦٨

وعزيمته ضعفت ، وهذه الهيئة المتعقلة صورت بهيئة محسوسة تدعمها وتؤكدها كالذي يرعى حول حمى يحميه ملك على عادتهم العربية - ربما تسول له نفسه ، أو تجذبه أعشاب الحمى فيرعى فيجر على نفسه الهلاك من غضب الأمير المالك، وهذه الصورة المنتزعة خيوطها من البيئة العربية مرسومة بدقة قد يجد المرء لها تجاوبا في الإحساس وتأثيرا في الوعى مما جعلها من جوامع الكلم .

والجذام مرض خبيث يعدي ويهلك ، والعدو من قدر الله والحذر أمر الله والفرار واجب ولن تبلغ الدعوة إلى الفرار ما بلغه هذا التشبيه ، كما تفر من الأسد ، مع تكرار لفظ الفرار ، مضارعاً مستمرا واستحضار صورة الأسد بما له من وحشية وافتراس تأكيدا للحذر ودفعا إلى الفرار والهرب .

والحديث الأخير يسميه النقد الحديث بالأسلوب الدائرى ، وقد تقدم فيه المشبه به على المشبه ، وهو تحذير من الحرص على المال ، وحب الظهور وإفسادهما الدين ، وهذا معنوي لا يحس ، فأراد أن يتبين أثر هاتين الصفتين فصورهما بذئبين بما فيهما من غدر ووحشية ، ثم وصفهما بالجوع - مبالغة في شهوة الافتراس ، ثم أتى بصفة ثالثة متخيلة مثيرة ، هي إرسالهما في غنم ، فالفرصة مهيئة للافتراس ومع كل ذلك هما أقل إفساداً من غيرهما - ويبلغ الشوق مداه حتى يقع على المشبه وهو صفتا الحرص والشرف فيستقر المعنى، بعد أن يبلغ التحذير مداه نفسيًا وعقليًا .

فضل المدينة والحجاز :

قال رسول الله ﷺ :

(١) « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها »[١]

(٢) « إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها ، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأردية من رأس الجبل ، إن الدين بدأ غريبا ويرجع غريباً فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس في سنتى »[٢]

---

(١) التاج الجامع ١٨٢/٢ (٢) المرجع السابق ٣٣٥/٥

(٣) «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء»[١]

(٤) «لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد»[٢]

وهذه الأحاديث توضح فضل الحجاز، وخاصة المدينة منه، ولقد بين الحديث الأول: تدين أهل المدينة وقوة إيمانهم الذي يلازمهم ويأوي إليهم حتى آخر الزمان، وأتى بالتمثيل الحسي تقريرا وتثبيتا له في الوعي، ولجوء الحية بعد تطوافها، أو في أوان شدتها إلى جحرها مشهد منظور إلا أن اجتماعه في قرن مع المشبه لا يخطر على بال، وهذه الجدة، والطرافة، وهذا التمثيل المتحرك يوحي بأن المدينة ملجأ الإيمان كله كما كانت منبعه، وأن الدين سيكون يوما بغيضا كأنه الحية تفر إلى مأواها وذلك معنى الغربة المؤكدة ببقية الحديث «إن الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس في سنتى»، وتثير لى هنا كلمة الغربة وتكرارها بما يوحي بالضياع وعدم الألفة وإثارتها ذكريات خاصة، ووقعها في كل نفس فتهب التشبيه جدة وخلودا.

وحديث الحجاز: وسع الدائرة قليلا، وجعل الحجاز - وفيه المدينة نبع الهدى ومقره لاسيما آخر الزمان، بيد أنه قد زاد على التشبيه الأول تأكيدا جديدا بتصوير بدوي معبر هو اعتصام الوعول الجبلية برءوس الجبال، وهذا التمثيل بما فيه من قوة، وشاعرية يقوي جانب المشبه، وهو اعتصام الدين بالحجاز ولا يخفى أن الصورة تساعد في نسجها المجاز بما له من قوة وبلاغة وإيحاء.

وباقي أحاديث المدينة توضح أن الله حفظها من كل شر يراد بها أو فساد يقيم بين ظهرانيها، ولقد جاء التشبيه قويا بما التقط من صور تفرض نفسها على الوجدان، فالكيد والإهلاك معنوي قرب بهذا المثل العجيب: انمياع الملح

---

(١) التاج الجامع ١٨٥/٢

(٢) المرجع السابق ١٨٨/٢

في الماء ، دلالة على سرعة الإهلاك ، والبطش التلقائي الذي نلحظه في الفعل «انماع» الذي يفيد المطاوعة وفيه :

(١) سرعة الإهلاك ، والانهيار لمن يكيد ، أكدها بسرعة التحلل والضياع .

(٢) وقوع هذا العذاب تلقائيًّا بما دل عليه «انماع» فعل مطاوعة دون نص على الفاعل مبالغة في الانهيار وأنه ذاتي لا بتأثير خارجي

(٣) الملح والماء ضدان لا يجتمعان كالمعتدي والمدينة لا يلتقيان فهو دليل حسي من الصورة يؤكد المعنى ويرسبه في الإحساس .

والحديث الثالث : تغيرت الصورة لتغير المعنى إذ المفسد هنا من الداخل ـ ولسوف تلفظه هذه الهيئة الاجتماعية بتركيبها الإلهي ، فصور المدينة بالكير يوقد النار على معدن الحديد لينفي خبثه ، واجتماع الكير مع الحديد بالذات يوضح شدة النفي وقوة الرفض والتنقية ، وصورة الكير أو النار مع المعادن تكررت في التشبيهات النبوية لأنها من المشاهدات الدائمة ، ولكن التشبيه بها كان يحمل معنى جديدا دائما يناسب المقام .

* * *

من أغراض التشبيه النبوي
تصوير الفتن، وبعض مشاهد القيامة

الفتن :

(١) أشرف النبي ﷺ على أطم من الآطام فقال : « هل ترون ما أرى ، إني أرى الفتن تقع خلال بيوتكم مواقع القطر »[1]

(٢) قال عليه الصلاة والسلام « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا »[2]

(٣) من حديث الفتن « ومنهن فتن كرياح الصيف منها صغار ، ومنها كبار »[3]

(٤) « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عودا ، فأى قلب أشربها ، نكتت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصور على قلبين على أبيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا ، لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه »[4]

(٥) « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صغار الأعين ، حمر الوجوه ، ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة »[5]

---

(١) التاج الجامع ١٩١/٣
(٢) المرجع السابق ٢٠١/٥
(٣) المرجع السابق ٣٠٥/٥
(٤) المرجع السابق ٣٠٩/٥
(٥) التاج الجامع : ٣٢٤/٥ والأذلف : قصير الأنف منبطحه ، والمجان : التروس والمطرقة أي ذات طبقات من الجلد .

(٦) من حديث نزول عيسى عليه السلام «فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فأمهم فإذا رآه عدو الله (الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن تقبله الله بيده ، فيريهم دمه (الدجال) في حربته»[1]

ولابد من مقدمة هنا :

فالمتفق عليه أن الله سبحانه أخبر نبيه عليه الصلاة والسلام ما يكون من فتن في أمته حتى قيام الساعة ، كما أعلمه وأراه الإسراء والمعراج وفي يقظته ونومه ما يكون يوم القيامة ابتداء من الحشر والحساب ومشاهد الجنة والنار ، وقد صور القرآن من مشاهد القيامة ما أفرد له بعض المحدثين مؤلفا شائقاً ، وبراعة التشبيه النبوي في استحضار الغائب ، وتقريب البعيد ، وتشخيص المتوهم ماثلا في العقول نابضا في الخيال مجسماً في محسوسات تتوارد على الحواس الإنسانية ولقد مثلت الفتن بأربع صور :

وقوعها كمواقع القطر بين مساكن المدينة :

كقطع الليل المظلم   كرياح الصيف صغارا وكباراً

التقتا منها بالقلوب كالحصير عودا عودا .

وكل تشبيه صور جانبا منها : فهي في المدينة تكثر وتتوالى كأنها أمطار منهمرة تملأ الفراغ ، وتفيض بالمياه ، والمشبه به محسوس له في الوجدان العربي وقع وارتباط عاطفي فهم يشيمون القطر ويتلهفون إليه ، وقد سموه غيثاً ، وحيا ، فالتمثيل به يقوى المشبه ويؤكد المبالغة في كثرة الفتن ، وإعطائها وقع المطر وتتابعه . .

والثاني : وصف للبلبلة والحيرة واضطراب النفوس ، فالفتن كظلام الليل بل إن الظلام ليتكاثف فيتكون قطعاً سميكة متشابهة ، والليل وظلمته كمظهر كوني له انطباعاته خاصة في بلاد لليل فيها وحشة ، وأهوال ، ألم يقل النابغة مصورا بطش النعمان :

فإنك كالليل الذي هو مدركي   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

---

(١) التاج الجامع : ٥/٣٢٩

والتشبيه هنا ملحوظ فيه مظهران : حسي لونا في سواد مبصر ، ولمساً في تماسك قطعه تخييلاً ، ومعنوي بما يبثه الليل في النفوس من رهبـة وفزع . ولا يخفى نظرة الحديث إلى الآية القرآنية : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (يونس:٢٧)

والثالث تمثيل الفتن في تفاوتها عنفا ، ولينا ، طولا وقصرا برياح الصيف منها القوي العاصف ، ومنها القصير الواهن ، والمراد تتابع الفتن المختلفة وكثرة البلاء ، والتشبيه هنا ملتقط من مظهر طبيعي محسوس باللمس والأثر وقوة في التثبيت . .

وكأن امتداد هذه التشبيهات من مظاهر كونية يفيد أن المرء لا يملك لها دفعا وأنها في وقوعها على مقتضى علم الله وقدره ، كهذه الظواهر الطبيعية التي تسير على نظام غريب بديع ، وتقدير إلهي لا يدفع ، دلالة على أن وقوع الفتن يقين لا ريب فيه ، أما الموقف البشري من هذه الفتن فقد صوره الحديث الرابع على مرحلتين : أولاهما : فظاعة الفتن التي تفرض نفسها على الناس ، وتجد منهم إصغاء وميلاً ، وولوعاً واهتماما ، فهي تنزل على القلوب مباشرة متوالية متكاثرة بانتظام في جوانبها ، وتلك أمور معنوية مثلت بالحصير متراصة أعواده في نظام أفقي في عرض ـ إشارة إلى الافتنان بها لأنها تعرض مباشرة على القلوب ـ إنما يعطي للتشبيه قوة مستمرة .

ومع شدة الاهتمام بهذه الفتن انقسم الناس حيالها فريقين ، وتلك حقيقة إنسانية صورها الحديث ، فالناس إما منكر لها أو خصائص فيها والمسالم منها وهو المرضي عنه ، قد جسم منه هذا الموقف بالنكتة البيضاء التي تتكاثر دلالة على كثرة المواقف ، ولكثرة الفتن حتى يبيض القلب ، ولتقوية هذا التخييل يشبه القلب بالصفا وهي الصخرة الملساء البيضاء التي ينزلق ما يقع عليها ، ووجه الشبه : النقاء والبياض ، وعدم ثبات ما يقع عليها ، وقد رشح التشبيه

بقوله «لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض»، ومن يخوض في الفتن جسم رضاءه وحبه لها بنقاط سوداء في قلبه، وقوي التجسيم بتمثيل آخر قوي مثير: إنه كهذا الكوز الذي يكثر في البيئات البدوية الفقيرة بل أكثر من ذلك: أسود اختلط السواد ببقايا بياض متقذر، ثم هو مهمل بقوله: منكس - وكلمة «مجخيا» بصوتها الضخم العريض تصور هذا النتن، وللتنكيس والعفن دلالة الإهمال، ولا يخفى من كل ذلك - بلوغ التنفير والتحذير بهذا التصوير منتهاه، ومقابلة الصنفين بعضهما ببعض يؤكد الترغيب في النهج الأول، والتنفير من الثاني وهما هدف الحديث.

أما حديث الأتراك: بتشبيه وجوه بعضهم بتروس من جلد ذي طبقات في الاستدارة، وكثرة اللحم، دلالة على الغلظة والقسوة، وكأن الظاهر عنوان الباطن فهو لبيان الحال حتى يدرك ويعرف..

وحديث الدجال: يؤمن به كل مسلم، وما في الحديث توضيح لنهاية الدجال على يد عيسى عليه السلام، إن الدجال يدرك نهايته فيكاد يموت رعباً، إنه آية من آيات الله تنتهي حين يشاء الله، وقد صورت هذه الهيئة بهيئة الملح في الماء يذوب، دلالة على سرعة الانهيار، وقد سبقت الصورة بالفعل (ينماع) وهنا استعاض عن إيحاء الفعل بجملة ترشح التشبيه، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكنه يقتل.

إن الكلمة عند نبي الله ﷺ كانت تولد صورا، وتثير عواطف وتنقل السامع إلى عالم تحييه التشبيهات الشاخصة، والتمثيلات الصادقة.

أحاديث الحشر والقيامة:

المجموعة الأولى:

قال رسول الله ﷺ:

«إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود»[1]

(١) التاج الجامع ٥/٣٧٠

«ما مثلكم والأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة ، أو كالشامة في جنب البعير»[1]

«من حديث أبي هريرة عن الصراط ، يمر أولكم كالبرق ، قال :قلت بأبي أنت وأمي أي شيء كمر البرق ؟ قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمر ، ويرجع في طرفة عين ثم تمر الريح ، ثم تمر الطير ، وشد الرحال تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم قائم على الصراط يقول : سلم سلم»[2]

وهذه المجموعة تدور حول الحشر وبعض أحداثه ، والحديث الأول يبين نسبة الأمة الإسلامية إلى العالمين ، وقد ضمهم مشهد واحد ، وهم قلة ضئيلة من البشرية التي استعمرت كوكب الأرض آمادا طويلة ، وقد جاء التشبيه ملتمسا من واقع البيئة العربية ، مبينا المقدار ، إن الأمة قلتها كشعرة بيضاء في ثور أسود ـ بهذا التصوير الدال ، وفيه دلالة على الحشد الهائل من البشر الذين سبقوا الفصل بينهم كما يدل على القوة القاهرة ، والسلطان المطلق لله تعالى ، والعجب في هذا الحديث هذه الدقة المتناهية في التقاط ما قد يخفى عن الأنظار مطلقا ، خاصة في أوان حضور المشبه ، ثم بناء التشبيه عليه ذهابا في الغرابة والجدة والمبالغة كل مذهب ونجد هذه المبالغة في القلة في الحديث التالي : فالرقمة في ذراع الدابة ، والشامة في جنب البعير لا يدركها إلا عين لاقطة ، وفطنة خارقة ، وخيال فني يكتشف أدق العلاقات بين أبعد الأمور وأشدها اختلافا عند أول وهلة . .

أما حديث الصراط : فقد صور مرور الناس عليه بسرعة تختلف باختلاف أعمالهم الصالحة ، كثرة وقلة ، والأولون في سرعتهم الخارقة كالبرق ، ويبدو أن هذا التشبيه من الجدة ما جعل أبا هريرة ﷺ يستفسر عنه ، فوضح النبي عليه الصلاة والسلام هذا التشبيه كيف يمر البرق ويرجع في طرفة عين «فهي

---

(١) التاج الجامع ١٦٠/٤

(٢) المرجع السابق ٣٧٨/٥

سرعة خارقة ، والنوع الثاني : أقل نسبيا منهم ، فهم كالريح ، والثالث : كالطير المحلقة ، والرابع : كالقافلة تتهادى في طريق طويل ، ونلاحظ هنا الترتيب التنازلي في المشبه به ، فالبرق هناك لماح خاطف ، وهو أعلى أبدا من الريح ؛ لأنه بين السحب لا تدرك طبيعة في طبقات الجو العليا ، والاثنان ظاهرتان كونيتان تشد الناس إليهما ، ثم الطير وهي أقل من الريح سرعة ، والقافلة نهاية هذا الخط التشبيهي الممتد بين السماء والأرض ، وقد رسمت الصورة بشمول ودقة ، وجاءت «ثم» لتبين التفاوت في السرعة والمرتبة أيضا ، وجاءت الواو في شد الرحال لأنه قريب من الطير في سرعته ، والخيال يتابع كل أولئك في لهفة وشغف ، وبراعة التشبيه ـ مع أنه قريب ـ جمعه بين هذه التشبيهات العديدة المستقصية في قرن واحد من صور حسية في الواقع لصور متخيلة في أذهان السامعين . .

المجموعة الثانية : (النعيم الأخروى)

(١) من حديث الحوض : قال رسول الله ﷺ «فماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل»[١]

(٢) قال أبو هريرة : كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ قال : «أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة بين ظهرى خيل دهم بهم ، ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؟ قال فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض ، ألا ليذادون رجال عن الحوض كما يذاد البعير الضال أناديهم : هلم فيقال : إنهم قد بدلوا ، فأقول سحقا سحقا»[٢]

(٣) «إن أهل الدرجات العلا ، ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء»[٣]

---

(١) التاج الجامع ٣٨٠/٥

(٢) المرجع السابق ٤٥/١

(٣) المرجع السابق ٣١٦/٣

(٤) عن الجنة « إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته»[1]

والنعيم الأخروي يختلط فيه التكريم الحسي بالمعنوي ، يتمثل الحسي في الورود على الكوثر وهو تكريم للنبي ﷺ وتكريم لأتباعه ، والحديث الأول في وصف مائة لونا وطعما ، واللبن يضرب به المثل في الغذاء الكافي واللون الأبيض والعسل في الغذاء وحلاوة الطعم ، فهل جاء التشبيه بالإلحاق المعهود بالأداة؟ لقد ادعيت المبالغة في الوصف حتى فاق بياض اللبن ، وحلاوة العسل ، وقد يكون حقيقة ، وذلك لا يمنع من القياس والمشابهة ويكون الغرض من التشبيه التفريع ، والتوضيح والبيان . .

والثاني في رؤية الله سبحانه في الجنة ، ولما كانت رؤية الله سبحانه وتصويرها في الجنة أمر بعيد عن الأذهان والوهم ، جاء التشبيه ليحققها ويقررها بالقمر المشار إليه ، وقد غمرتهم أضواؤه ، ثم بالاحتراس المتمم ، « لا تضامون في رؤيته» ،تقريبا للبعيد ، وإمكانا للمستحيل في العادة ، وكما أن القمر له انطباعه السامى في النفوس كذلك نرى التمثيل بالنجم الطالع في أفق السماء لبيان فضل المتقين من أهل الدرجات العلا على من سواهم وهو تفاوت كبير يحار فيه العقل والخيال ، فكم بينهم وبين النجم من آماد ومسافات يطويها الخيال في لمحة ليجمع شتات الصورة فتتسرب إلى الأعماق وتتأكد المنزلة العالية لأهل الدرجات العلا . .

وحديث الوضوء بما فيه من تقديم هيئة المشبه به المعروف لدى المخاطبين في صورة استفهام تقريري ، وإلحاق المشبه به في الشهرة والوضاءة تحقيقا للتمثيل ودعوة قوية إلى الصلاة والوضوء . .

---

(١) التاج الجامع ٤٢٢/٥

المجموعة الثالثة : «من مشاهد العذاب»

قال رسول الله ﷺ :

(١) «يؤتى بالرجل يوم القيام فيلقى في النار فتنزلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه»[(١)]

(٢) عن جهنم «وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان»[(٢)]

(٣) «صنفان من أهل النار لم أجدهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا كذا»[(٣)]

وقد جاء في التشبيه ـ من العذاب الأخروي ـ لقطات حية عجيبة ، والحديث الأول في الدعوى إلى العمل بالعلم ، والتنفير ممن يدعو إلى الله ثم لا يعمل بدعوته متسترا ، إن جزاءه إشهار فضيحته بعذاب شاذ الصورة الفنية اندلاق أمعائه بقوة من بطنه فيسقط كريشة كله ويبقى معي واحد يربطه بما اندلق منه في حجم رهيب ، والألم يفقده صوابه فلا هو يستطيع قطع أمعائه ولا هو ساكن ، ولكنه يدور حولها مجبرا مضطرا ، إنها صورة رهيبة تكاد تنطق ، وهي متخيلة ، فيأتي التشبيه بتحقيقها فهناك لف دائري متصل مع الإجبار والإهانة تمامًا كالحمار يدور في الرحى مهانا مجبرا ، ونلاحظ هنا القصد إلى لفظ الحمار والرحى دلالة على تفاهة العمل واندلاق الأمعاء بقوة ، كما كانت الخطب تندفع بقوة ثائرة مجلجلة ، والإعجاز هنا انتقال الخيال بين مشاهد القيامة الرهيبة المتخيلة وبين الدنيا متابعا الحديث المستمر الذي لا نهاية له ثم

---

(١) التاج الجامع : ٢٢٣/٥

(٢) المرجع السابق ٣٩٧/٥

(٣) المرجع السابق ١٧٩/٣

ينضب التصوير على بيان السبب في محاورة ـ محسوسة يبين منها أنه آمر ناه غير منفذ لما يقول ، فيبلغ التحذير والتنفير مداه مع هذه السخرية من غباء يغطي العقل ويلغي التفكير .

ومن مظاهر التعذيب الحسي ، كلاليب جهنم ، وهي غريبة فليست ملتوية مع ملامسة فيها ، ولكن لها صورة مرعبة فعلى أنحائها مثل أشواك السعدان ـ الصحراوية مدببة مسنونة ، وحين يتمثل المرء كلاليب فريدة شاذة بأشواك حادة يبلغ الخوف والتخويف مداه . .

وقد نجد من لمحات العذاب النفسي سوق المرء إلى الحوض المعد للمتقين ليطفئ ظمأه الملتهب ، عبثا به ، لكنه حين يكون قاب قوسين يطرد باحتقار ، وقد شبه هذا الطرد والإبعاد بطرد البعير الضال الشارد مبالغة في الإبعاد والتعذيب النفسي ، والصورة هنا ملتئمة مع الغرض ، فالعاصي لله ورسوله تارك الجماعة نافر كالبعير الضال الذي لا صاحب له ، ولا قافلة ينساق معها .

وبعد : نتيجة ونقاش

فقد وضح مما سبق ، كيف مكن التشبيه الغريب في لقطاته ، الصادق في نفاذه ، لما سيق له من تبشير وإنذار ، وترغيب وترهيب ، لصور فيها خفة وطرافة وتخييل وتجسيم وتركيب يحرك قوى النفس لتتملاها وتنبهر بها وتتأثر راضية أو نافرة راغبة أو راهبة ، مشوقة هائمة أو حائرة خائفة ، كل ذلك يرد رأيا للعلوي يقول فيه «أما التشبيهات الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية فإنها كلها قريبة وماذاك إلا إنها أدخل في التحقيق وأقرب إلى التيقن مما لا يكاد يقع فلهذا كانت مختصة بهما»[1]

---

(١) الطراز ، يحيى بن حمزة العلوى : ٢٨١/١ ، ٢٨٢

والقرب المزعوم هنا ضرب من الادعاء ، ذلك أن دواعي الغرابة والاستطراف ليس تحقيق الصورة أو عدمه ، كما يقول الإمام عبد القاهر ، «أنك ترى بها الشيئين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض ، وفي خلقة الإنسان ، وخلال الروض»[1] ، ويقول أيضا : «فسواء في إثارة التعجب وإخراجك إلى روعة المستغرب ، وجودك الشيء في مكان ليس من أمكنته ، ووجود شيء لم يوجد ، ولم يعرف من أصله في ذاته وصفته»[2]. ولقد وجدنا كيف دق المسلك إلى المشابهات الخفية ، والعلاقات الغامضة والصور المستحدثة ؛ بلى كيف عبر التشبيه عن متخيل غير متحقق ، وعن متوهم غير مظنون ككل مشاهد القيامة وما سبق من جعل الشياطين حذفا والبيان سحراً والفيء مثل الشراك ، ومن في الدنيا غريب أو عابر سبيل إلى غير ذلك كثر كاثر مما يجعل تلك الدعوى مما لا يتناسب والعلوي ورسوخ قدمه في البلاغة والبيان رحمه الله تعالى . .

* * *

---

(١) أسرار البلاغة : ص ١٠١

(٢) المرجع السابق : ص ١٠٢

الفصل الثاني

المجاز في البيان النبوي

أولاً : الاستعارة

تمهيد :

لا يخفى أن المعاني إذا أديت في صورة تجريدية حقيقية ، ثبتت في الذهن والوعي مجردة من كل ظل جميل ، فإذا ما نقلت في معرض الاستعارة والتصوير كان لها شأنها البعيد ، لأنها تخاطب الحس والوجدان ، وتنفذ إلى النفس من منافذ شتى من الحواس بالتخييل ، والحس النفسي ، والوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء ويكون الذهن واحدا من تلك المنافذ الشتى ، مع الاتساع والتوكيد ، وإذا كانت الاستعارة تقوم على التشبيه ، وتشترك معه في إدراك ما بين الطرفين من شبه ، فهي تفوقه تصويرًا وتأكيدا وتنفرد عنه بعملية خيالية هي ادعاء الاتحاد بين الطرفين والاكتفاء بواحد ، فكأن المجاز هنا تندمج فيه فكرتان تدل الكلمة عليهما ، بدلا من فكرة واحدة ، فأساسه المعنى المزدوج ؛ ولذا يسميه بعضهم «الشعور المزدوج» ومرجع هذا إلى المزج بين الخيال والوجدان ثم إلى إبراز عملهما بصورة لغوية دلالة النبوغ ، وعلامة العبقرية ـ كما يقول أرسطو ـ وتزيد الاستعارة بالكناية خاصة ما تعطيه من اتصاف الشبه بما هو من خصائص المشبه تخييلا ، ولقد عزا فريق من النقاد هذه الظاهرة إلى قوة الوجدان الإنساني ، بأن يمتد فيشمل ما يحيط به من الكائنات .

وحتى يتصف المجاز بالفن الكامل ينبغي أن يكون نابعا من مواطن الإحساس تلمح فيه نبرات النفس ، وخطرات الوجدان ، وتلمس منه صفاء الفطرة وهكذا كان المجاز النبوي ، فسنراه يموج عاطفة وحياة ، وصدقا ،

يساعد الدعوة من الوجهة الفنية البحتة ، وإن له من هذه الوجهة لشأنا ، ذلك أن وظيفة الفن الأولى هي إثارة الانفعالات الوجدانية ، وإشاعة اللذة الفنية ، وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات ، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه ، إنها صور تتجاوز بالعقل معناها الحرفي إلى معان أخرى مجازية ، يتبعها ما لا يحصى من المعاني الإضافية ، والإيحاءات المتوالية ، من كل ما يفتح للفكر ، والخيال آفاقا ، كل أولئك وغيره تكفله طريقة التصوير ، والتشخيص البارزة في المجاز[1] .

منهجنا :

بيان الأغراض العامة ، وكيف عالجتها الاستعارة النبوية ، ونتبع هذه المعالجة في شبه استقصاء كامل ، لنبين خصائصها الفنية العامة ، وكيف تركبت بها الصورة الأدبية وتميزت بسمات مفردة ، ثم النظر في الاستعمال الخاص لبعض المواد اللفظية ، وهل كان التصوير هنا كيفما اتفق ، أو كان يتبع منهجا في التصوير له دلالته وظلاله ، هذا المنهج كنا نرجوا أن يطبق في البيان النبوي دراسة موضوعية مستفيضة ، لتكون النتائج لازمة خاصة صادقة ـ على نمط ما طبق في الإعجاز القرآني ـ لكننا نجد من كتب في البلاغة النبوية بين إصدار أحكام غيبية على بيان لم يقدم له ما يعني بأحكامه وهي طريقة إنشائية غير تحليلية وبين تقعيد قاعدة بل اتباع قاعدة وضرب أمثلة وتناولها بخطابية مسترسلة وكلتا الطريقتين تفلح في تقديم المؤلف وإلقاء بعض الأضواء على جوانب من البلاغة المحمدية ، ولكن أسرارها الخاصة الكامنة فيها تظل في طيها المكنون .

---

(١) انظر في هنا : المزهر للسيوطي ص ٢٠٨ ، الطراز للعلوي :٨١/١ ، الأسلوب : أحمد الشايب ص ١٩٥ ، الأصول الفنية للأدب ، عبد الحميد حسن ص ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٨ ، دراسات في علم النفس الأدبي دكتور حامد عبد القادر : ص ٤٣ وما بعدها ، التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ص ١٩٩ وما بعدها ، محاضرات في عنصر الصدق : محمد النويهي ص ٣٤٠ ، سيدنا محمد في إبداعه الأدبي ، دكتور محمد أحمد البيومي ص ٢٣٦ .

الأغراض :

الإيمان ، والإسلام : قال رسول الله ﷺ :

١- «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا ، وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا»[1].

٢- «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[2].

٣- «بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان»[3].

والإيمان والإسلام من الأمور الشعورية ، المعتقدة ، المركبة من أجزاء والدعوة إلى أركان الإسلام ، أو الرضاء بالله ودينه ونبيه ، أو حب الله ورسوله على غيرهما وحب المرء لله وكراهية الكفر للنار : وقد اعتمدت الاستعارة المكنية بتجسيم الإسلام بمبنى كبير ذي أعمدة خمسة ، والإيمان بمطعوم له مذاق ، أو حلاوة ، ثم جاء هذا التخييل الحسي بإثبات «بني» إلى الإسلام ، تقوية لأصل الاستعارة ، ودعوى اتحاد الطرفين ، وإثبات الحلاوة والطعم للإيمان تصويراً للميل القلبي بهذا الحس المحبوب ، بل إن التركيب ليظهر هذا التجوز كأنه حقيقة مسلمة ، وذلك بتصدير الجملة بالفعل : «ذاق» و «وجد» لإخراج هذا الشعور المؤمن مخرج المذوقات ، والمرئيات التي تهواها النفس وتعمقها الوجدان ، ولقد جوز الإمام العيني في «بني الاسلام» كون الاستعارة تبعية أو تمثيلية ، بجعل الإسلام خباء ، والشهادة قطبه ، والأركان الأربعة أوتاده لكنه استظهر أنها مكنية[4] ، وكأنه أدرك أن المبالغة في الإسلام نفسه لا في «بني» وليس هنا هيئة معارة ، بل التصريح بالأركان الخمسة ينافي المثل ، وهذا ما سبق تقريره .

---

(١) التاج الجامع ١/٢٨ . (٢) المرجع السابق ١/٢٦ .

(٣) المرجع السابق ١/٢٤ .

(٤) انظر : عمدة القارى شرح صحيح البخارى ، للعيني ١/١٢٠ .

السنة النبوية : قال رسول الله ﷺ :

١- « إياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم، فعليه بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ »[(١)] .

٢- عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ له : « يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسى ليس في قلبك غش لأحد فافعل » ثم قال لي « يا بني، وذلك من سنتي، ومن أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معى في الجنة »[(٢)].

٣- « إنه من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي، فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا »[(٣)].

والأحاديث تدعوا إلى تنفيذ تعاليم السنة، والتمسك بها، معتمدة الاستعارة المكنية والتبعية : والتمسك يبلغ مداه في هذه الصورة، عضوا عليها بالنواجذ « . . . ونجد بها الاستعارة المكنية التخييلية في السنة المعقولة المصورة بالمحسوس الصلب الذي يقبض عليه لا باليد، ولا بمقدم الفم ولكن بجميعه، وكمل رسم الصورة بهذه « النواجذ » ترشيحا وفي العض دفع شعوري وإرادة متحفزة، واستماتة، إنه بجميع الفم لا بأطراف الأسنان، والخيال هنا لا يمل من تأمل هذه الصورة العجيبة، ليترسب المعنى بتأكيد التمسك الشديد بالسنة، والحرص البالغ حين تنتشر البدع، ويفشو الضلال ».

والحديثان الباقيان يصوران تنفيذ الهدي النبوي بالإحياء، وبعث الروح على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل، فالسنة حين تنفذ، كائن بعث فيه الحياة، فتحرك بعد همود، وزاد الثالث : تخصيص الأخذ بالسنة حين لا يأخذ بها الناس، مصورا هذا الترك بالإماتة، والجمع بين الإحياء والإماتة المجازيين متعاقبين، بما لهما من دلالات نفسية في الحس البشري، يؤكد المعنى والغرض من الترغيب في السنة، والترهيب من تركها، ولذا كان الجزاء متناسبا مع العمل في الحالين معا .

---

(١) التاج الجامع : ٤٦/١ .

(٢) المرجع السابق : ٣٧/١.

(٣) المرجع السابق : ٧٦/١ .

وقت الصلاة : قال رسول الله ﷺ :

١- في صلاة جبريل به عليه الصلاة والسلام « ثم صلى الصبح حين أسفرت الأرض »[1].

٢- « لا يغرنكم من سحوركم أذان بلال ، ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا »[2].

٣- « فإذا زاغت الشمس ، فصل ما شئت ، فإن الصلاة مشهودة حتى تصلي العصر »[3].

٤- في وقت العصر « والعصر إذا كان ظل كل شيء مثله ، وكذلك مادامت الشمس حية والعشاء : إذا غاب الشفق ، إلى أن تمضي كواهل الليل » وسئل ، متى تصلي العشاء الآخرة ؟ فقال ﷺ « إذا ملأ الليل بطن كل واد »[4].

٥- « وقت صلاة الفجر ما لم يطلع قرن الشمس الأول ، ووقت صلاة الظهر إذا زالت الشمس عن بطن السماء ، ما لم يحضر العصر ، ووقت صلاة العصر مالم تصفر الشمس ، ويسقط قرنها الأول» . « إذا طلع حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى ترتفع ، وإذا غاب حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى تغيب»[5].

٦- سئل ﷺ «أي الدعاء أسمع؟ قال : جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبات»[6].

٧- « قوله ﷺ لرجل : هل صمت من شرر هذا الشهر شيئًا؟ قال : لا »[7].

---

(١) التاج الجامع ١/١٤٢ .
(٢) المرجع السابق ٢/٥٣ .
(٣) المرجع السابق ١/١٥٠ .
(٤) صححها الشيخ ناصر هامش الحديث النبوي ، الصباغ ص ٦٢ .
(٥،٦) التاج الجامع ١/١٤٦ .
(٧) المرجع السابق ٢/٩٢ .

والأحاديث ترسم لوحات فنية تحدد بدقة متناهية، وقتا من الأوقات، والوصف هنا ليس دافعه الترغيب أو الترهيب أو الإرشاد أو الإنذار، بل داعي الفن بيانا، وإشباعًا، وإمتاعا بهذا التصوير والتجسيم الذي يبعث الحياة في الكائنات الجامدة، والظواهر الطبيعية الثابتة فإذا هي متحركة، حية شاخصة، وقد تنوعت الاستعارة بين تبعية: «أسفرت الأرض ـ زاغت الشمس ـ يستطير الفجر، الشمس حية»، وبين مكنية: «كواهل الليل ـ قرن الشمس ـ حاجب الشمس ـ بطن السماء ـ جوف الليل الآخر ـ شرر الشهر» فالأرض حين ينتشر الضوء، وتبين الأشياء: امرأة تسفر عن وجهها وتبدي خافي فتنتها، وضوء الفجر ينتشر في الأفق كتحليق طائر سريع، وكالشرر المتطاير في السرعة، أو السرعة واللون، والشمس في بدء ظهورها من حدبة الأرض كالطالع من وراء ساتر يستره، فأول ما يبدو وجهه، وأول ما يظهر من وجهه حاجباه، ونلاحظ هنا الدقة بين المتشابهين، فالشمس مكورة وحين ظهورها يبدو ولا خط دائري مقوس، يماثل حاجب العين في طوله وتقوسه، وأنه رفيع، وفي أعلى الوجه وكذلك المتأمل للشمس حين تبرز وقد اختلط ما يشبه بخار الماء بدكنة الطل مكونا ساترا شفافا تنفذ منه ـ بدء الأمر ـ خطوط ضوئية غليظه مستطيلة كأنها قرون الحيوان، والقرن هنا متحرك فهو يطلع أول النهار ويسقط آخره، والعجيب من التقاط هذه المشاهد التي نراها، وتبهرنا ولا نستطيع عنها تعبيرا.

ونجد ملحظا دقيقا في الصورة: «بطن السماء، بطن كل واد، جوف الليل الآخر» فكلمة بطن أو جوف لا يمكن أن تحل إحداهما مكان الأخرى في الأداء، فالسماء نهارا صافية ـ مجوفة ـ في مرأى العين ـ دائرة وسيعة إلى داخل ـ وكذلك الوادي لمن يشرف عليه من أعلى: وسيع دائري في عمق، كل منهما كالبطن تماما، وفيه القرب والوضوح في السماء نهارا وفي الليل وقت العشاء حين يتماسك الظلام ويعم الكون ويملأ الوادي لكن ما زال على أطرافه من بقايا النهار أثارة، بينما جوف الليل الآخر يوحيه من سكون وظلمات ضاربة

في الأعماق ، خافية عن الناس وقد ناموا خاصة في أواخره ، كالجوف البعيد العميق المظلم الذي لا يرى ، من هنا كانت الدقة العجيبة في تركيب الصورة ليوفر لها ما شاء من دقة ، وجمال ، وتأثير .

والشمس بعد العصر ناشرة أضواءها يبعث الحديث بها الحياة والحركة فهي حية توزع شعاعها هنا وهناك ، وكما أن الليل له جوف فله كواهل تمضي أيضا إتماما لتصويره بالبعير الضخم ، وهذا الارتباط الذهني بين الليل بما فيه من ظلمات وطول ، وبين البعير ، معروف عند العرب ، وبيت امرئ القيس مثل في ذلك :

فقلت لـه لمـا تمطـي بصـلبه وأردف إعجـازا ونـاء بكلكـل

وإن كان الغرضان مختلفين فثلث الليل الأول وبداياته كهذه الكواهل التي تتصدر البعير ، أما كلكل امرئ القيس ـ بهذا اللفظ الثقيل ـ بعد كلمة ناء ، فإنما يعبر عن جو الألم ، والضيق ، والتبرم .

ويتصل بالوقت ، وبحركة الأرض حول الشمس هذا الحديث « إذا كان أحدكم في الفيء فقلص عنه فصار بعضه في الشمس ، وبعضه في الظل فليقم »[1] . والحديث في أدب النفس ، والسلوك الذكي الفطن ، ويهمنا تصوير زوال الظل وانحساره ـ لحركة الأرض حول الشمس ـ ببطء لا يدرك ـ بالتقلص والانكماش ، فكأن الفيء وهو عرض مرئي غير ملموس مستقل بإرادته ، مالك أمره ، قادر على الانفراد والانكماش وكأنه يتداخل في ذاته ويتجمع بعد امتداد ، والعجب في هذا التصوير الذي يجلو الخفي عن الأذهان واضحا ملء العيون يفجأ به العقل ويتابعه الخيال بعد أن ظهر ما كان خفيا .

ومنتصف الشهر يجسم بالسرر ، فالشهر مخلوق له سرة في بطنه ، ولما كانت الأيام التي تصام ندبا ثلاثة ، جمعت السرة سررا تخييلا يبدل عالم الحقائق مع ما في كلمة « سرة » من إيحاء بلب الأمر ، وخلاصة خيره ،

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٦٦ .

لاكتمال القمر فيها ، ثم من يتصور مخلوقا يجمع من السرر؟ إنه الاعجاز البياني .

من كل ما سبق تتبين الدقة في رسم الصورة وإتمامها وتزيينها باللون والمادة والحركة ، مع اختيار ألفاظ لا يغني عنها غيرها في تكوين الصورة وإشعاعها مع الإيجاز البليغ ، ونلاحظ أن بعض الصور قد تركبت في استعارتين كقوله : «ملأ الليل بطن كل واد» ففي ملأ : استعارة تبعية تفيد الحلول الشامل المحسوس ، وفي «بطن كل واد» استعارة مكنية تخييلية ، بجعل الوادي حيوانا ، وإثبات البطن له تخييلا ، ولفظ «كل» أفاد تعدد الحيوانات بتعدد الأودية ومعنى العبارة : إذا أتم انتشار الظلام ، وعم الكون ، وأداء هذا المعنى بهذا المجاز المتعدد أملته البصيرة الفنية والروح الأدبي دون تكلف أو معاناة .

الوضوء : قال رسول الله ﷺ :

١- «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات؟ قالوا بلى يا رسول الله قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط»[1].

٢- «إن أمتي يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»[2].

ونلاحظ هذه الدعوة إلى الوضوء ببيان أثره في غفران الذنوب في الدنيا وإنارة أعضائه ورحمة صاحبه في الأخرى .

والأول تصوير للخطايا بأنها أمور تحس وترى فتمحى ، أو تخرج من الجسد مبالغة في الإزالة ، والانتفاء عن صاحبها ، حتى لو كانت لاصقة ملموسة، وصور الدرجات وهي معنوية بمعنى المنزلة والرتبة بمحسوس يرفع، وفي مقابلة محو الخطايا برفع الدرجات شغل للحس والخيال وتأكيد للغرض

(١،٢) التاج الجامع ١/٧٧ .

المبين آثار الوضوء ، كما أن في خروج الخطايا وتقرير المجاز بقوله «حتى تخرج من تحت أظفاره» بهذا التجسيم المتحرك : تأكيدا أيضا للغرض من الدعوة إلى الوضوء خاصة للصلوات .

وفي الآخرة صور آثار الوضوء من نور منبعث من أعضائه ـ وهو مشهد أخروي يتخيله المتلقي ـ بمشهد دنيوي مرئي ، هو الغرة والتحجيل في الخيل بهذا اللون المميز ، والمنظر المخالف إلى أحسن ، وبإيضاح آثار الوضوء في شطري الحياة باتباع الاستعارة التصريحية يبلغ الترغيب مداه .

المسجد والصلاة : قال عليه الصلاة والسلام :

١- «من تطهر في بيته ، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ، ليقضي فريضة من فرائض الله ، كانت خطواته إحداهما تحط خطيئته ، والأخرى ترفع درجته»[١].

٢-«أقيموا الصلاة ، وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ، ولينوا بأيدي إخوانكم»[٢].

٣- فيمن نام عن صلاة الفجر حتى أصبح «بال الشيطان في أذنه»[٣].

٤- «من ترك ثلاث جمع تهاونا بها ، طبع الله على قلبه»[٤].

٥- «لينتهين قوم عن ودعهم الجمعات ، أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين»[٥].

وقد اعتمدت الأحاديث هنا الاستعارة ترغيبا أو إرشادا أو ترهيبا وفي جانب الترغيب نجد التطهر والمشي إلى المساجد يذهب الخطايا ، وقد سبق في أحاديث الوضوء محو الخطايا ـ ولما كان هنا طهارة ـ كالوضوء ـ وزيادة بالمشي إلى المسجد وجدنا أثر ذلك في تركيب الاستعارة ، فهناك محو ، وهنا

---

(١) التاج الجامع ٢٣٢/١ .
(٢) المرجع السابق ١٦٥/١ .
(٣) المرجع السابق ٢٧٣/١ .
(٤) المرجع السابق ٣٢٤/١ .
(٥) المرجع السابق ٢٧٣/١ .

حط ملاحظ فيه السرعة والقوة والحفيف والإراحة ، ثم المداولة الدائمة بين حط لخطيئة ورفع لدرجة ، والحركة المتولدة منهما تابعة لحركة القدمين تنعش الخيال وتبعث على الانتباه ، وفي مادة (حط) نجد حديثا يدعو إلى ذكر الله تعالى (من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر)[1]. ونلاحظ :

١- بناء حط للمجهول دلالة على تلقائية المغفرة .

٢- الجمع (خطايا) والمبالغة في كثرتها (ولو كانت مثل زبد البحر) ترغيبا في هذا الذكر المبارك ، وفي إقامة الصلاة : إرشاد بتسوية الصفوف وسهولة الانقياد حينما تمس يد المؤمن كتف أخيه تقدمه أو تؤخره أو تسديه خللا ، لقد أدى كل ذلك بكلمة واحدة مصورا له بالليونة في الشيء اللين في المطاوعة وسرعة التشكل ، وإنها ليونة مبعثها حب الله ورسوله والمؤمنين وحب النظام ، ولقد أبدعت الاستعارة التبعية إيجازًا وتأكيدا وتخييلا مرغبا .

أما من ينام عن الفجر قبل الشروق ، خامل النفس ، ثقيل الرأس ، فاتر الرأس ، فاتر الهمة عن الصلاة والدعاء ، لقد سدت أذناه عن الإعلام بالأذان ، ويأتي المثل منفرًا ، إنه مشهد متوهم منفر للمخاطبين ، فالشيطان يعمد إلى أذنيه فيبول فيهما ، والغريب أن الأذن بشكلها وثقبها تناسب فكر الشيطان الذي يجعل منها مبالا له يسدهما عن الخير ، وإنه لسداد كريه تنفيرا وزجرا .

والتمثيل بعد منافذ السمع بالبول الشيطاني يوشك أن يفسدهما مناسب لساقط الهمة الغافل عن ذكر الله وعن الصلاة ، وفيه يمتزج التخويف بالتوبيخ والتقذير وليس كهذا التصوير باعث على النهوض إلى صلاة الفجر .

وهذا النكير يعظم فيمن يترك ثلاث جمع لاهيا معرضا هنا ينفذ بنا الحديث إلى قلبه لنراه قد امتلأ شرا وفسادا كوعاء ملئ بسائل ، ثم ربط وطبع

---

(١) التاج الجامع ٨٧/٥ .

عليه دلالة الامتلاء بالإثم والظلمة والطابع هو الله جل وعلا ، وهذه الاستعارة التمثيلية بما فيها من تصوير ما لا يدركه الوهم وهو طبع الله على القلب تؤكد المبالغة في تأثيم الغافل عن الجمعة ، وفساد قلبه جميعه ، ويترقى الترهيب فيبلغ مداه فيمن يدع الجمعات ، فنجد الأسلوب كله غضبًا يتلهب ، وثورة حانقة وتدبرا مخيفا ، فهنا القسم (ثلاثا) والتوكيد بالنون ثلاثا ، وتنكير قوم للتجهيل والإعراض ، والجمع في «الجمعات» تعظيما لها ، ونسبة الختم لا الطبع إلى الله تعالى واقعا على القلوب ثم الترقي في الإبعاد بذكر «ثم» والتهديد بالغفلة التامة مكتوبة عليهم ، ونلاحظ الغضب الماحق وقوة الأسلوب وارتفاع نبضه ، ووقع جرسه مع إيجازه : ليملأن الله قلوبهم غفلة وشرا وظلاما ثم يختم على هذه القلوب فلا يصل شعاع من الهدى إليها .

والختم - كما نرى - أقوى من الطبع ، ولذا ناسب كل منهما المقام والغرض فلا يجزئ عن الآخر ، وهذا من البيان بمكان .

ولقد أورد العلامة «سيد شريف» في حاشيته على المطول أقوالا ثلاثة في الآية : «ختم الله على قلوبهم» فقال : إن جعل المشبه به المعنى المصدري الحقيقي للختم ، والمشبه إحداث حالة في قلوبهم مانعة من نفوذ الحق فيها كان طرفا التشبيه مفردين ، والاستعارة تبعية ، وهو الوجه الأول في الكشاف ، وإن جعل المشبه به هيئة منتزعة من القلب ، والحالة الحادثة فيه ، ومنعها صاحبه من الانتفاع به ، والمشبه هيئة مركبة منتزعة من القلب والحالة الحادثة فيه ، ومنعها صاحبه من الانتفاع به ، في الأمور الدينية ، كان طرفا التشبيه مركبين ، والاستعارة تمثيلية ، قد اقتصر فيها من ألفاظ المشبه به على ما معناه عمدة في تصوير تلك الهيئة ، واعتبارها ، وباقي الألفاظ منوية مرادة ، وإن لم تكن مقدرة في نظم الكلام ، وليس هناك استعارة تبعية أصلاً على ما تقرر فيما سبق وهو الوجه الثاني في الكشاف ، والفائدة في الاقتصار على بعض الألفاظ الاختصار في العبارة وتكثير محتملاتها بأن تحمل تارة على التبعية ، وأخرى على التمثيلية ، ولو صرح بالكل تعينت التمثيلية إلى غير ذلك من الفوائد التي

لاحت لك في موردها إذا فكرت فيها ، وإن قصد في الآية إلى تشبيه قلوبهم بأشياء مختومة وجعل ذكر ذلك الختم الذي هو من روادف المستعار المسكوت عنه تنبيهًا عليه ، ورمزا إليه كان من قبيل الاستعارة بالكناية [1].

وتساؤلنا هنا : هل من الممكن قصد هذه الاستعارات كلها في وقت واحد؟ والجواب بالنفي ، فلابد من تعين إحداهما ، تعينا يقتضيه المقام ؛ ولذا فنحن نرفض ما جرى عليه البلاغيون من احتمال التعدد في الاستعارة ، ذلك أن السياق والمقام إن اقتضيا المبالغة في الفعل ومشتقاته المتجوز فيها كانت تبعية، أو المصدر وما في معناه كانت أصلية ، أو تصوير قوة الاسم ومدخليته في التجوز بتجسيمه كانت كنائية ، وهنا في العبارة «الآية والحديث» نرى في الواقع هيئة بأكملها إناء يملأ ثم يختم قد نقلت إلى إضلال الله التام لقلوب العاصين تصويرا ومبالغة وتأكيدا وهذا مراد النص ، والله أعلم ، أما المبالغة في الختم أو المبالغة في القلوب وحدها فهي نظرة جزئية لا تحيط بأسرار التعبير ، أما تكثير المحتملات كما أشار إليه فهو مبدأ نقدي يقصد به كثرة المعاني الإضافية والثانوية ، أو تحمل العبارة لعديد من الأوجه المتناسبة غير المتنافرة ، أما كثرة الاحتمالات في إخراج الأسلوب على أنواع الاستعارات دفعة واحدة فهو خروج عن طبيعة الأساليب وغرض المتكلمين ، ومقامات الأحوال .

الصدقة : قال رسول الله ﷺ :

١- «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، وآخر آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها» [2].

٢- من السبعة الذين يظلهم الله في ظله «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه» [3].

٣- «إن الصدقة لتطفئ غضب الرب ، وتدفع ميتة السوء» [4].

---

(١) حاشية المطول : ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

(٢) التاج الجامع ٥٨/٣ .

(٣) المرجع السابق ٧٦/٥ .

(٤) المرجع السابق ٥٠/٢ .

٤- من حديث معاذ بن جبل قال رسول الله ﷺ «ألا أدلك على أبواب الخير الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين»(١).

والحديث الأول : يعمد بالاستعارة التصريحية إلى صورة خاصة في إنفاق المال ، لأن صاحبه أحد اثنين ينبغي أن يحسدا لفوزهما في الدنيا والآخرة مع العالم العامل ، فله إذن سمات خاصة : غني أوتى مالا ، ثانيا : مطبوع على حب الخير فكأنه مسلط على المال ليس له هم إلا بذله ، ثالثًا : بذل هذا المال في سبيل الحق بذلا كاملا كمن يعمد إلى نفس فيزهقها وهنا مع تصوير المبالغة الكاملة في الإنفاق ، الذي لا يبقى أثرًا ، نلمح هذه الإرادة ، وهذه الطبيعة الخيرة ، والشعور الصادق الدافع إلى البذل كهذا الشعور في الإهلاك العمد مع سبق الإصرار ، فهو تصوير حي يتناول أعماق الرجل وأثر ذلك على ماله المنفق .

أما الحديث الثاني : فيبين طريقة الإنفاق : وحب الإخفاء هنا أمر خفي أنطقته الاستعارة بالكناية ، إننا هنا أمام يد متصرفة حية عاقلة تعرف ، وتدري امتد إليها الإشعاع الواجداني فأيد لها إنسانا ناطقا ذكيا ، ومع ذلك أخفق في اكتشاف هذا الإنفاق ، إنه إخفاء وتمويه على بعض الكيان ، وهذا التشخيص سري في التعبير كله : فجاء «ما أنفقت يمينه» لتقارن الشمال وتمنحها حسا وتصرفا ، والمقصود صاحبها مجازا مرسلا ، كما لا يخفى أن هذه الصورة بجزئياتها مسوقة في النهاية كناية عن تأكيد الإخفاء ، (فأخفاها) .

وقد أوردت حديثين هنا سبقا في التشبيه لأنهما يكملان فكرة مسلسلة ، فالتشبيه يوضح أن الصدقة في نفعها ودفعها الأذى والذنب ، كالماء البارد يطفئ النار ، والحديث الأخير مترتب عليه في المعنى ذلك أن غضب الرب مترتب على كثرة الخطايا ، لاسيما أن اختيار لفظ «الرب» بمعنى المربي ذى النعم

---

(١) التاج الجامع ٤٢/٢ .

يدل على أنه لا يغضب إلا إذا بلغت الذنوب مبلغا . ولأنه رب يندفع غضبه بإذنه بسبب الصدقة ، والاستعارة التبعية في الفعل «تطفئ» مزجت جوا من الرهبة بتصوير الغضب الإلهي نيرانا هدأتها الصدقة ففي لمحة خاطفة تندفع الصدقة فتطفأ النيران ، ويهدأ رعب الوجدان بلوغا في الترغيب والترهيب كل مدى .

ذكر الله تعالى : قال رسول الله ﷺ : «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه ، ولو كانت مثل زبد البحر»[١].

«كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[٢]، «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت»[٣].

وصيغ الذكر هنا ألفاظ عرضية منحها الحديث أثرا ملموسا ، وواقعا ماديا محسوسا ، فهي تذهب الخطايا متسببة في محوها ، والاستعارة في «حطت» تبعية تؤكد الأثر الفوري البالغ لهذا العدد من الذكر المبارك دعوة إليه ، وقد سبق الحديث قريبا . والاستعارة في الثاني تصور سهولة الذكر على اللسان بالخفة وكثرة الثواب بالثقل فهنا مادة وجرم لها خفة وثقل يوحي بعظم الحجم والجرم وهذا التضاد بين الثقل والخفة ، والتنقل بين الدنيا والآخرة يعطي للخيال ميدانًا طرفاه الدنيا والآخرة مع تتبع المقارنة بين الدنيا والآخرة والثقل والخفة تأكيدًا وحسن تصوير ، وصيغ الاستغفار أفضلها ما ذكره الحديث الأخير وقد استعار السيادة للأفضلية دليلا عليها ودعوة وتقوية للغرض والخيال هنا يتصور سيدًا ومسودا ، وأميرًا ورعية وجلالا ومهابة ، وخضوعا واحتراما .

---

(١) التاج الجامع ٥/٨٧ .

(٢) المرجع السابق ٥/٩٨ .

(٣) المرجع السابق ٥/١٤٧ .

الابتهالات :

سئل ﷺ : أي الليل أسمع ؟ قال : «جوف الليل الآخر ودبر الصلوات المكتوبات»[١].

«إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء»[٢].

ومن دعاء الاستسقاء : حين استسقى ﷺ لقومه فغلبتهم الأمطار فشكوا فدعا رسول الله ﷺ : «اللهم على رؤوس الجبال ، والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر»[٣].

«دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء»[٤].

ب ـ من دعاء النبي ﷺ : ـ «اللهم افتح لي أبواب رحمتك ، وافتح لي أبواب فضلك»[٥].

ـ «اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم»[٦].

ـ «رب تقبل توبتي ، واغسل حوبتي ، وأجب دعوتي ، وثبت حجتي ، وسدد لساني ، واهد قلبي ، واسلل سخيمة صدري»[٧].

ـ «اللهم اغسل خطاياي بماء الثلج والبرد»[٨].

ـ «اللهم اجعل في قلبي نورا ، وفي لساني نورا ، وفي سمعي نورا ، وفي بصري نورا ، ومن فوقي نورا ، ومن تحتي نورا ، وعن يميني نورا ، وعن شمالي نورا ، ومن بين يدي نورا ومن خلفي نورا ، واجعل في نفسي نورا ، وأعظم لي نورا»[٩].

ـ «اللهم هون علينا السفر ، واطوعنا بعده» .

---

(١) التاج الجامع ١٤٩/١ .
(٢) المرجع السابق ١٠١/١ .
(٣) المرجع السابق ٣١٦/١ .
(٤) المرجع السابق ١١٦/٥ .
(٥) المرجع السابق ٢٣٧/١ .
(٦) المرجع السابق ٣١٩/٤ .
(٧،٨) المرجع السابق ١٢٠/٥ .
(٩) المرجع السابق ٣٣٠/١ .

ـ اللهم أطو له الأرض ، وهون عليه السفر ، في دعائه ﷺ لرجل مسافر[1].

ـ « اللهم عافني في جسدي ، وعافني في بصري ، واجعله الوارث مني »[2].

ـ « متعنا بأسماعنا ، وأبصارنا ، وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا »[3].

والمجموعة الأولى تبين في الأول : وقتا مباركا يجاب فيه الدعاء ، حين ينقضي من الليل أكثره ويبسط السكون أجنحته الشفافة ، وكذلك أثر الفرائض الخمس . وقد عبر بالجوف ، والدبر ، تجسيما لليل والصلاة من ناحية ، وتأكيدا للمعنى بهذا التصوير الحسي بالبعير الذي لا يفارق العربي ليله ونهاره على سبيل المكنية التخييلية .

واستكمالا لهذه الأعضاء المعهودة نلقي الحديث « اللهم على رؤوس الجبال والآكام وبطون الأودية ، ومنابت الشجر » وقد استعار الرأس لما ارتفع من قمم ، والبطن لما انخفض من الأودية ، ومع التقابل الكاشف تعجب بهذا الرسم لصورة طبيعية فذة ، مختلفة الألوان والأشكال ، والأحجام بين شاهق الجبال وبارز الآكام ، ثم انحدار العين والخيال إلى أودية خفيضة عميقة الأوساط كالبطون المنبعجة على أن تكوّن الصورة من الخلف ، وثَمّ أشجار بها كثيرة مختلفة ثم تخصيص الرؤوس والبطون عن عمد إبعادًا للأذى عمن في السفوح والمنحدرات ، والتصوير النبوي ـ لاهتمام العربي بالبعير وأنه ماثل دوما أمامه ـ يقلبه على كل وجوهه تمثيلا به وتجوزا ، في المعنوي والمحسوس على السواء ، ولا بأس من إيراد هذا الحديث دليلا من أدلة سلفت « رأيت قوما من أمتي يركبون ظهر البحر كالملوك على الأسرة »[4].

الأحسن أن يقال شبه البحر بالبعير ، وأسند إليه الظهر تخييلا ، والغريب أن أحدهما سائل مترجرج ، والآخر حي متماسك ، ولا نغفل عن تشبيه الغزاة بالملوك ، إلا مع المجاز على قوة الإسلام وتحكم أهله في البحر الذي احتواه المجاز وأحاط به الخيال واستحوذ عليه الذهن فصار محدودا كبعير يمتطيه

---

(١) التاج الجامع ٥/٣٣١ .

(٢،٣) المرجع السابق ٥/١٢١.

(٤) المرجع السابق ٤/٣٣٠ .

العربي في صحرائه كما يلفتنا هذا الإيجاز البالغ البارع في المجاز إذ الأصل : يركبون سفنا تسير على سطح البحر الذي يشبه ظهر البعير في امتطائه والإفاده منه ، فأتى بكلمة واحدة مسندة إلى البحر وهي الظهر ليطوي الكلام والبحر ، ويبعث عجبًا لا تلحقه الظنون .

وثَمَّ أقوام لا يعرفون آداب الدعاء فيهم يدعون بما لا يفهمون ، وقد استعار الحديث الاعتداء وتجاوز الحد لما لم يرد من دعاء ولم يعرف تعليما ووعيدا .

كما أن هناك دعوة خاصة يمنحها الحديث جرما وحيزا وتحركا إلى أعلى على سبيل الاستعارة التبعية ، مع تجدر هذا العلو فوق الغمام ، ثم العطف ، «بفتح أبواب السماء لها» ، والصورة واسعة الخطو بدءا من ظلم وتناحر ، ومظلوم يبث ربه شكاته ، ودعوة تنطلق كالصاروخ حتى تمكنت فوق الغمام المتحرك أسود أو أبيض بل لا تمكث ، إنها في رحلتها الوامضة تفتح لها جملة من أبواب السماء والرب جلا وعلا يناجيها والخيال يتابع هذه الرحلة في دهشة وانبهار ، وإن منافذ النفس لتندمج مع هذا التصوير تنفيرا من صفة إنسانية غير كريمة (الظلم) ، أما المجموعة الثانية فخاصة بابتهالات النبوة : هذه الابتهالات التي شغلت من البيان النبوي مكانا ، وكان للاستعارة منها نصيب .

ونلاحظ أن الدعاء يتنوع بين ما فيه من معنى التغيير والإزالة ومنه :

اغسل حوبتي - اغسل عني خطاياي - اسلل سخيمة صدري - أنت تكشف المغرم والمأثم ، وكلها تبعية ويلفتنا هنا :

١- التعبير بصفة الغسل ، وهي أبلغ أثرا من المحو والحط ، مناسبة لمقام التضرع النبوي والفناء في المناجاة بين الحبيب وحبيبه .

٢- الحوبة بمعنى الإثم مفرد فاكتفى بطلب الغسل ، فلما كان الجمع «خطايا» مضافا إلى ياء المتكلم ، قدم الجار والمجرور «عني» على المفعول «خطاياي» إسراعا وإلحاحا ، بإبعادها عنه ، وأملا في الإجابة قبل ذكر الخطايا ثم تأخيرها حياء ، وقد رشح الاستعارة بقوله «بماء الثلج والبرد» مبالغة في التنقية والصفاء . ولما أتى بالمغرم وهو الدين معطوفا عليها

الإثم ، وكان للدين هم قابض ، وغم ثقيل ، وللذنب وطأة وقسوة ، وجمعا معا في قرن واحد ، ناسب الإتيان بالكشف معارا للإزالة فيهما .

كذلك لما كانت البغضاء غير محببة ـ ولو للأعداء ـ وكان لها تسرب خفي إلى أعماق القلب تسربا لا يناسبه الغسل أو الكشف ناسب إعارة السل للإزالة أيضا مبالغة في الإزالة وبرما بهذا المتغلغل الخفي البغيض تعليمًا للناس وإرشادًا . وهكذا لا يمكن للفظ معار أن يحل مكان آخر في الاستعارة ، كما لا يمكن أن تكون هذه المفارقات العجيبة إلا عن خطة في قاعدة التصوير البياني في البلاغة النبوية .

وفيما سبق إزالة وانكشاف ، ويناسبه حديث النور ، وإن كان في الأول طلبا للدفع ، وفي الثاني طلبا للمنح ، والنور هنا مراد به الهداية والتوفيق ، والبراعة هنا في تكرار الكلمة مقصودا بها وجه من الهداية لنظراته مناسبا لما ألحق به من عضو أو جهة ، ويكون المعنى : اللهم اجعل في قلبي حقا وحبا له ، وعلى لساني أقوالاً طيبة ، وفي سمعي هداية لا يسمع إلا صدقًا ، ولا أبصر إلا طيبا ، وقدر لي توفيقا وحفظا يرعاني من كل جهاتي ، واجعل الهداية والعناية تغمرني ، وتفيض على نفسي ثم اقض لي منها ما يرضيني ، وهذا الحديث النوراني يصور للمتضرع به سامجا في النور الخالد غارقا في المحبة ، وقد أدت الاستعارة التصريحية كل ذلك ببراعة .

كما نجد من الدعاء بصفة تفيد التقريب والسرعة في خفاء ما يدور حول صفة الطي «أطو لنا الأرض» وفي السفر «أطوعنا بعده» وقد استعار الطي في الثوب وغيره لتقريب المسافة ، وتهوين السفر ، وسرعة الوصول إلى الغاية ، مبالغة في الإسراع ، وقد برعت الاستعارة في الإحاطة بالطريق الطويل ، وجعله في الخيال محدودا يطوي وينفذ منه ، والاستعارة هنا تبعية لقصد المبالغة في المصدر وهو الإسراع المستعار له الطي ، ولقد جاءت مادة «طوى» في حديث آخر يرشد إلى السفر بالليل «عليكم بالدلجة فإن الأرض

تطوى بالليل»[1]، وتكرار الأرض بإعادة ضميرها صب العناية عليها ، ونبه الخيال إليها ، فوضح فيها التصوير والتخييل بجعل الاستعارة مكنية في الثوب المشبه به الأرض المضمر في النفس ، ثم في إثبات اللازم وهى الطي « تطوى» تخييلا ، وفي كل ما سبق نرى الأرض وبعد السفر رغم الثبات والعظم قد تمكن منهما الأسلوب وطواها الخيال في لمحة تعبيرا عن رغبة نفسية عند المتضرع الذي يلمح بخياله نهاية السفر .

وبقي من ابتهالات النبوة سالكا سبيل الاستعارة التبعية « واجعله الوارث مني» ، « واجعله الوارث منا» والأول في حاسة البصر ، والثاني في السمع والبصر والقوة ، ومعنى الإرث هنا : احفظ علينا أسماعنا وأبصارنا سليمة صحيحة متمتعين بها ، معافين من الابتلاء بها حتى نموت وهى أشد قوة وأعظم نفعا ، وتصوير البقاء هكذا بالإرث مبالغة شديدة ، فالوارث يبقى بعد الميت يقينا وهذه الحواس والعافية مرجو أن تلازم المرء حياته ـ ولو صح أن تبقى وحيدة بعد الموت ، كان الأحرى أن تبقى ، وهذا التصوير فيما هو كالمتضاد يعمل الفكر ويدفع الخيال إلى الحركة لتأكيد المعنى بالمبالغة في التضرع ، والتمتع بهذه الأعضاء والصحة ، قال الإمام الزمخشري رحمه الله « قيل للباقي وارث استعارة من وارث الميت لأنه يبقى بعد فنائه ، ومنه : قوله ﷺ في دعائه « واجعله الوارث منا »[2].

الإنسان بين الدنيا والآخرة :

أ- الطبيعة الإنسانية : قال رسول الله ﷺ : « قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وكثرة المال»[3].

« يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر »[4].

---

(١) التاج الجامع ٣٤٧/٤ .

(٢) الكشاف للزمخشري ٤٤٨/٢ .

(٣) التاج الجامع ١٦٣/٥ .

(٤) المرجع السابق ١٦٨/٥ .

وقد تناولت الاستعارة التبعية الفكرة الأولى : قلب الشيخ شاب ، ويشب معه اثنتان . والمراد بالشباب هنا ما يدل عليه من الفتاء والحرارة ، وتوقد العزم وشحذ الإرادة مستعار للرغبة القوية والميل الشديد للمال وطول العمر ، تصويرا لهذه الطبيعة الإنسانية الملازمة للمرء حتى يهرم ويموت وبموازنة الحديثين نخرج بما يلي :

١- إسناد الشباب إلى القلب أولاً ؛ لأنه موطن الشعور والرغبة مع اقتران كلمتي الشيخ وشاب طباقا يجلي الصورة ويقلب الانقباض والضعف إلى نهوض وتوثب .

٢- أسند الهرم إلى ابن آدم ، وأسند الشباب إلى خصلتين شعوريتين ، فشخصهما وجعلهما في معية ابن آدم مع إحداث التضاد أيضًا إشراقًا في المعنى وتأكيدًا له .

٣- قدم طول الحياة مع الشيخ إيماء إلى أن الحياة أهم عند الشيخ الكبير ويأتي بعده المال ، وقدم المال في الحديث الثاني دلالة على أن حب المال حبا جما شعور ملازم للمرء منذ صغره وتعقله ـ كأن المرء يقضي حياته والمال لديه أولى ـ حتى إذا صار شيخًا وأدرك حقيقة الحياة كأن العمر لديه أولى على ما وضحت ذلك في تناسب الألفاظ ومعانيها .

ب - الدنيا وفتنتها :

قال رسول الله ﷺ : «انظروا إلى من أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»[١].

«والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»[٢].

---

(١) التاج الجامع ٥/١٦٦ .

(٢) المرجع السابق ٥/١٦٠.

« إن هذا المال حلوة خضرة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا أو يلم ، إلا آكلة الخضر ، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فأحيزت وثلطت وبالت ـ ثم عادت فأكلت ـ وإن هذا المال حلوة ، من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع »[1].

«من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا »[2].

« تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة ، والخميصة ، إن أعطى رضى وإن لم يعط لم يرض »[3].

« من حديث : إنما الدنيا لا ربعة نفر »و« عبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علما فهو يخبط فيه بغير علم لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقًا فهذا بأخبث المنازل »[4].

قوله ﷺ لمن قال له إني أحبك « إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافا فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه »[5].

والبيان هنا يعالج الدنيا بحكمة تربوية متخذا أساليب عدة بين توجيه برفق أو تحذير بعنف ، أو بيان العقلاء منها كما فهموها على حقيقتها ،أو الاستغراق في عبادتها ، وضياع حظهم في الآخرة عبرة وحذرا .

والإرشاد بلطف « انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من فوقكم » داعيا إلى القناعة والرضا وهنا يبين سنة الله في اختلاف الناس درجات ؛ وقد صور قلة الغنى والمنزلة ، وكثرة الثراء بالسفل والفوق تصويرًا حسيًّا ، في قرن واحد لمنازل الناس في سلم الحياة ، حقيقة كونية ، وسنة الله في خلقه .

---

(١) التاج الجامع ١٢٢/٥ .
(٢) المرجع السابق ١٦٨/٥ .
(٣) المرجع السابق ١٦٢/٥ .
(٤) المرجع السابق ٥٦/١ .
(٥) المرجع السابق ١٧١/٥ .

والثاني : يبدأ رفيقًا «أخاف أن تبسط عليكم الدنيا» مصورا كثرة المال ببسط شيء كان مقبوضًا فيمتد ويطول تجسيما للمعنى بلفظ محبوب هو «البسط» دلالة الإغراء والخداع ، ثم يشتد الحديث بالإنذار مما يترتب على البسط من التنافس ثم الإهلاك ، ومثله الحديث بعده «إن الدنيا حلوة خضرة» قال السيد رشيد رضا : «قال الأزهري وإنما تقصيت رواية الخبر ؛ لأنه إذا بتر استغلق معناه ، وفيه مثلان : ضرب أحدهما للمفرط في جمع الدنيا مع منع ما جمع من حقه، والمثل الآخر ضربه للمقتصد في جمع المال وبذله في حقه، فأما قوله ﷺ «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا» فهو مثل الحريص والمفرط في الجمع والمنع ، وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب التي تحلو إلى الماشية فتكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتهلك ، كذلك الذي يجمع الدنيا ويحرص عليها ويشح على ما جمع حتى يمنع ذا الحق منها ، يهلك في الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب ، وأما مثل المقتصد المحمود فقوله ﷺ : إلا آكلة الخضر . . . وذلك أن الخضر ليس من أحرار البقول التي تستكثر منها الماشية فتهلكها أكلا ، ولكنه من الجنبة التي ترعاها بعد هيج العشب ويبسه . . . قال : «فضرب النبي ﷺ آكلة الخضر مثلاً لمن يقتصد في أخذ الدنيا وجمعها ولا يسرف في متاعها والحرص عليها وأنه ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخضر ، والحبط أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونها ولا يخرج عنها ما فيها»[1].

إذن في هذا البيت مثلان ، لكن أود التنبيه على مادة هاتين الاستعارتين :

لقد كون أجزاءهما الواقع الصحراوي بأعشابه ونباته الطيب منه والخبيث فهنا ربيع مهيج للحس والخيال ، وحيوان صحراوي بين سالم يمرح ويرتع أو تالف أهلكه العشب الحار ، وفيه ما استقبل عين الشمس ومهب النسيم ، فهي صورة تحوي عالما مزدحم الألوان والأصداء والأضواء ، ثم إن التمثيل

---

(١) انظر : هامش أسرار البلاغة ص ٣٠٦-٣٠٨ ، تحقيق السيد رشيد رضا .

بالحيوان يقتل أو يسلم وبآكلة الخضر في وضع خاص متحرك إيماء من طرف خفي إلى عبيد الدنيا وأنهم سوائم حتفها في بطونها وأفواهها ، وأن الدنيا نبات ربيعي يلتهمه حيوانات قد تهلك به ، وقد تحوله إلى ثلط غير كريم .

أما مفهوم الدنيا عند العقلاء فالأمن والعافية وما يكفي اليوم من قوت وقد التقط المجاز النبوي صورة فذة للأمن والسكينة بتمثيل من يعيش بين قومه هانئا بالسرب من الظباء مثلا في الطمأنينة والسكن ، والقطيع من الحيوان إذا أمن كانت الألفة والحركة في هدوء وانضمام أفراده في دعة ، بما يرسم شعور الأمن على الطبيعة ، ونكاد نلمح من وجه الصورة المقابل خوف المرء يوزع عليه نفسه ويفرق شمله كهذا القطيع إذا ركبه الذعر فمزقه شر ممزق .

وقد يشتد النكير على من أقبلوا على الدنيا « تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة » فهنا تصدير الذي يسخر قواه لجمع المال وحبه بالعبد استعارة تصريحية في سلب الحرية والإرادة ، والتحكم والذل والانقياد بما تعطي لفظة (عبد) من انطباعات جمة ، ونلاحظ مناسبة الفعل « تعس » لحال العبد السيئة إخبارا بما يئول إليه أمره ، أو دعاء عليه أو وصفا لحقيقة حاله لأن العبودية لغير الله تعاسة ومذلة ، تنفيرا وترهيبًا .

وهناك الغني الذي يتصرف في المال جهلا بغير علم يصور تصرفه هذا بتخبط الأعمى في طريق على غير هدى دلالة على سوء التصرف والعقبى .

أما الحديث الأخير « إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافا » والتجفاف ما يوضع على ظهر الفرس ليقيه مواقع السهام ، والجراح ، ويخفف رطوبة العرق ، فقد صور الاستعداد للفقر بصورة مرموقة ملموسة من حياة العرب وفيها خفة وسحر ، فهو ﷺ ينصح بإحضار تجفاف وانتظار الفقر فرسا يسرع إليه ونلمح المزج بين خارج الإنسان وشعوره بالاهتمام والتوقع .

والاستعارة المكنية واضحة ، قال صاحب دليل الفالحين رحمه الله نقلا عن العاقولي « إن في الحديث استعارة مكنية تتبعها استعارة تخييلية شبه الفقر

بالسهم الصائب والسيف القاطع ، والرمح النافذ ، وشبه صبره عليه بالتجفاف الذي يلبسه الإنسان أو يلبسه فرسه ليقيه ذلك ، أي فالتشبيه المضمر في النفس استعارة مكنية وإثبات التجفاف استعارة تخييلية[1] ، فهو قد جعل التجفاف شاملا للفرس أيضا فوسع دائرة التصوير ، ولا بأس فمرد ذلك إلى الوضع اللغوي لكنه لم يبق التجفاف على حقيقته فاستعاره للصبر ، وبقاؤه على الحقيقة أدل في عالم التصوير والبيان ، ثم كيف يؤمر بالصبر على بلاء (الفقر) لم يقع بعد».

كما نلاحظ هنا تشيع الشريف المرتضى فقد رواه الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن مغفل ﷺ ، فنسبه المرتضى ابتداء إلى الإمام علي ﷺ نقلا عن أبي عبيد بن سلام في «غريب الحديث» دالا على بلاغة الإمام وكان ينبغي التثبت[2].

أما نهاية الدنيا فقد نفذ إليها المجاز النبوي في عالم المجهول ليجلوها صورة متخيلة عجيبة «تقيء الأرض أفلاذ كبدها مثل الأسطوان من الذهب والفضة»[3]، وقد اتفق الشريفان على الاستعارة التبعية ، فهي عند المرتضى إخراج وإظهار وعند الرضي مبالغة في إخراج كنوزها حتى لا يخفى منها خافية ، ولا يبقى باقية ، وذلك كما يقول القائل : تقيأ فلان كبده إذا أراد المبالغة في وصفه باستيعاب جميع ما في جوفه[4].

وهذا حسن ، لكنهما رحمهما الله تركا سر السحر في هذا التعبير وهو «القيء» وذلك لغرضين :

أولا : ما في مشهد التقيؤ من تنفر وقذر ، والمتقيأ خبث تعافه النفس ورجع تنفر منه ، فالذي يتقاتل عليه الناس هكذا إثارة للعبرة والعجب وبيانا لحق خفي على الناس .

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، لابن علان الصديقي ١٨٤/٤ .
(٢) انظر : أمالي المرتضى : ٣١/١ . (٣) التاج : ٢١٩/٥ .
(٤) انظر : أمالي المرتضى ٦٥/١ ، ٦٦ ، المجازات النبوية ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

ثانيًا : الإلماع إلى الإخراج الاضطراري كالتقيؤ وهو قيء يلائم الأرض في مثل ضخامتها إشعارا بالقهر الإلهي والغضب على عبيد الدنيا ، وترهيبا ـ من وراء ستار ـ من التمسك بما هذه نهايته ، وما أبرع ما يرسم الحديث من مشاهد غيبية هى بيان للناس وهدى وموعظة وفن أصيل .

الصبر : أ- قال رسول الله ﷺ :

١- «لا يصيب المؤمن شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة»[1].

٢- «فيمن أوصى أن يسقى عسلا ثلاث مرات «صدق الله ، وكذب بطن أخيك اسقه عسلا» «فسقاه فبرأ»[2].

ب - وقال ﷺ : «من كان له فرطان من أمتى أدخله الله بهما الجنة ، فقالت عائشة : فمن كان له فرط من أمتك؟ قال ومن كان له فرط بها موفقة ، قالت فمن لم يكن له فرط من أمتك؟ قال : فأنا فرط أمتى لن يصابوا بمثلي»[3].

لقد احتظرت بحظار شديد من النار[4].

والأحاديث تدور حول ما يدعو إلى الصبر من مرض وأذى ، أو موت ، والحديث الأول في المجموعة الأولى : يوضح أثر الأذى مهما قل ـ يصاب به المؤمن في رفع منزلته وغفران ذنوبه ، وقد سبق الترغيب برفع الدرجات وحط الخطايا ، لكنا نلاحظ هنا تقديم رفع الدرجة على حط الخطيئة ، ولعل في ذلك تعجيلا بالمسرة مناسبة لحالته النفسية والجسمية ، وترغيبا في الصبر ، وعدم التضجر وبيانا لأثر الأذى في تقريب المؤمن من ربه .

---

(١) التاج الجامع : ٣٤٧/١ . (٢) المرجع السابق ٢٠١/٣.

(٣،٤) المرجع السابق ٣٤٩/١ .

ويلحق بذلك التداوي ، ونرى هنا صورة طريفة تكون أكثر طرافة لو خرجناها على المكنية لا المجاز المرسل «صدق الله وكذب بطن أخيك» وقد يقال إنه قصد إعارة الكذب في الأقوال لعدم الشفاء الخارج عن واقع الأشياء استعارة تبعية بيد أن قوة الصورة تظهر في المكنية التخييلية قياسا على صورة أخرى «حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه» والمقصود تصوير البطن بإنسان عاقل ثم نسبة الكذب إلى البطن تخييلا وتدعيمًا للصورة ، وذما للبطن الغريب الذي لم يتأثر بالدواء ، فعدم تأثره أعطى له مسحة من الاستقلال مما يقوي النظرة التخييلية .

والمجموعة الثانية تعالج الصبر على فقد الأولاد والرضا بقضاء الله ببيان ثوابه ، والحديث الأول يقدم صورة مدهشة ملتقطة من واقع العرب في أسفارهم الطويلة الشاقة ، والقافلة حين يرهقها الأعباء تبعث من أفرادها من يهيئ لهم منزلا آمنا طيبا تستريح به قليلاً ، والتصوير هنا متحرك والخيال يصل بين الدنيا والآخرة في قفزة ، والحياة قصة سفر عما قليل تنتهي ، والأولاد فراط يهيئون لآبائهم المكان الكريم بعد سفر الدنيا المضني ودمج الصورة بين سفر مخصوص ، وسفر إنساني عام في إيجاز معجز ، وإيحاء لا ينتهي مداه ومن هنا كان الصدق والخلود .

ويأتي الحديث الثاني يكمل الأول فلابد مع الجنة من الأمن من دخول النار والصورة أدخل في الآخرة من سابقتها ، فأحداثها هناك حيث الأولاد ، وحيث الامتناع المؤكد من النار كهذا الاحتظار الذي يقام على ساحة ليكون سدا وحجابا يقي الداخل من تسرب إلى الخارج ، والخارج من تسلسل أو دفع إلى الداخل ، والاستعارة هنا تمثيلية لأن ثمة هيئة دنيوية معروفة ، نقلت إلى هيئة وأحداث أخروية متخيلة تقوية وتأكيدا ، وكون الاستعارة تمثيلية ، لجريانها في هيئة ؛ ولذا نرفض من جعلها تبعية في الفعل احتظرت[1] ، لعدم دقته في الوفاء بجملة الصورة .

---

(١) انظر : المجازات النبوية وتعليق المحقق طه الزيني هامش ٣ ص ٩٣ .

الجهاد : قال رسول الله ﷺ :

١- «الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو ، فصدق الله تعالى حتى قتل ، وذلك الذي يرفع الناس أعينهم إليه يوم القيامة هكذا ، ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوته قال فما أدرى قلنسوة عمر أراد أم قلنسوة النبي ﷺ ، ورجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو فكأنما ضرب جلده بشوك طلح من الجبن أتاه سهم غرب فقتله فهو في الدرجة الثانية ، ورجل خلط عملاً صالحا وآخر سيئًا لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الثالثة ، ورجل مؤمن أسرف على نفسه لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة»(١).

٢- «خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها»(٢).

٣- «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة : الأجر والمغنم»(٣).

والحديث الأول يبين مراتب الشهداء وقد اشتمل على عدد من الصور البيانية نجلوها :

١- تصوير القتال الشديد والنضال المرير المنبعث عن عزيمة قوية : بالصدق في القول المطابق لأحداث الواقع وتعليق الصدق بالله توضيح لمدى الإخلاص في القتال لأنه صدق من يعلم خفايا القلوب (استعارة تبعية).

٢- في «خلط عملا صالحا وآخر سيئا» استعارة خلط الأعمال صالحها وسيئها لفعلهما معا ، وسر الاستعارة هنا : قوة إظهار العمل ومدى اختلاطه لأن الخلط لا يكون إلا في سائل يمزج تنفيرا من الجمع في العمل والقول غير متكافئين وكأن الشر يوشك أن يتغلب .

---

(١) التاج الجامع ٤/٣٣٢ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٣٨ هامش ٢ ، ورياض الصالحين ص ١٩٧ والهيعة الضجة وأصلها من هاع : جبن ، المطول ص ٣٦٥ .

(٣) التاج الجامع ٤/٣٤٩ .

٣- «أسرف على نفسه» استعار الإسراف فيما لا فائدة كالطعام والشراب والمال وهو تجاوز الحد فيها للإكثار من السيئات، دلالة على التناهي في فعل المعاصي تقبيحًا لما اقترف؛ لأن الإسراف مكروه في الطباع والإسراف في الإثم أشد وأقبح، وهذا مع ما سبقه يكشف عن أثر السلوك الإنساني في تقويم الشهداء يوم القيامة.

والثاني: «فيه نوع من الناس هو خيرهم» ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها، والاستعارة تبعية في «طار» وهي قريبة عند البلاغيين لأن الطرفين الطيران والعدو من جنس واحد هو السرعة وإن اختلفا، والقرب يوجد عندهم من قوة البلاغة في الاستعارة[1]، والواقع أن المعالجة الجزئية هذه هي السيئة الكبرى في تراث نقادنا الأقدمين، فهم لم يفطنوا إلى ما وفره الأسلوب كله لهذه الاستعارة من بهاء، فالرجل ملازم لفرسه بل ممسك بعنانه كأن آماله وهمومه قد انحصرت في الجهاد ـ والخيال يتمثله واقفًا لا يريم بيده لجام فرسه، وجاءت كلما الشرطية بمدخولها توضح أنه متوفر متحفز مشدود الأعصاب ما إن يسمع صيحة مفزعة تخلع القلوب حتى يندفع مهاجما، إنه لا يتحرك وئيدا وإنما ينطلق طائرًا لا يصمده خوف ولا جزع، وهذه السرعة في هذا المقام أدل على الصدق الفني والجرأة الكاملة من التورط في مبالغة لا أساس لها، فالفعل «طار» هو الأبلغ في مكانه والاستعارة هنا أبرع ولا يمكن أن يؤدي عنها بديل.

أما الخيل كحيوان كان له أثره الخطير في المعارك الإسلامية فالدعوة إليه تستحق هذه العناية، والاستعارة هنا تبعية صورت لزوم الخير المفسر بالأجر والغنيمة بعقدة في نواصيها، والبراعة واضحة في مكونات الصورة فثمة مجموعة من الشعر طويلة على ناصية الفرس يمكن أن يعقد فيها شيء، ثم إن

---

(١) انظر: أسرار البلاغة ص ٣٨، والمطول ص ٣٦٥.

الناصية في المقدمة المتحكمة في جسم الفرس كرا وفرا ، لا جرم أن الخير المجهول يصور بمحسوس تحتويه العين ولا يمله الخيال .

الرحمة والتراحم والخوف : قال رسول الله ﷺ :

« حبك الشيء يعمي ويصم »[1].

« إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إني قد أحببت فلانا فأحبه قال فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض »[2] ، وورد هذا الحديث بتوسع وفي نهايته ، « ثم يوضع له القبول في أهل الأرض » وزاد في الذي يبغض الله « وثم توضع البغضاء في أهل الأرض »[3].

« ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده »[4].

« جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : أتقبلون الصبيان فما نقبلهم ، فقال النبي ﷺ أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة »[5].

« جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءًا واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه »[6].

« من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة »[7].

« يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لك ضرا ولا نفعا إن لك رحما سأبلها ببلالها »[8].

---

(١) التاج الجامع ٥/٨٤ .
(٢) المرجع السابق ٤/١٧٦ .
(٣) المرجع السابق ٥/١٧٩ .
(٤،٥) المرجع السابق ٥/٧٥ .
(٦) المرجع السابق ٥/١٥٦ .
(٧) المرجع السابق ٥/١١٠ .
(٨) المرجع السابق ٤/١٩٦ .

وهذه الأحاديث تدور حول عواطف شعورية الحب والرحمة وصلة الأرحام والحديث الأول «حبك الشيء يعمي ويصم» من جوامع الكلم لأنه يعبر بصدق وإيجاز عن عاطفة الحب إذا ثارت، وأثرها بما هو مطبوع في الغرائز جبلة في الإنسان فقد صور هنا تغاضي الحب عن عيوب من يحب أو ما يحب وزلات لسانه: بالعمى والصمم في عدم التأثر، على سبيل الاستعارة التبعية، ولقد كان التعبير بالعمى والصمم يفقد قوتي الإبصار والسمع خير مؤكد لأثر الحب على المرء وضربه صفحا عن زلات الحبيب وكان أبلغ من قول الشاعر وهو ما يتمثل به.

فعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

والفارق بين الحديث والبيت كالفارق بين النبي ﷺ وبين سواه فالشاعر يجعل عين الرضا لا تكاد تبصر، والحديث يجعل المحب أعمى بالكلية حتى لا يتأثر إطلاقا بما يراه الناس عيبًا، ولكن للحس منفذا آخر أشد خطرًا لم يتعرض له البيت بينما أعلنه الحديث أيضا دلالة سلب الإرادة واللب وقد غلبه الهوى فانقاد رغما عنه لا يسمع ولا يبصر شيئا، أما الشطر الثاني فهو مفهوم الأول ولم يأت بجديد في قضية الحب.

أما محبة الناس للإنسان أثرا لطاعته ربه، وحسن معاملته لعباده بمعنى تعلق القلوب به وميلها إليه فقد صور الحديث إيجادها في القلوب بإنزالها إلى الأرض ووضعها في الصدور، والمحبة شعور إنساني لا توصف بالنزول والوضع لكن البلاغة النبوية جسمتها كما جسمت البغضاء قوة في تأكيد المعنى وتثبيت الغرض من الدعوة إلى طاعة الله تعالى.

والرحمة، وهي شعور رقيق آخر يجسده البيان النبوي تصويرا وتأكيدا فهي تغشي الذاكرين الله، كالماء يعمهم من كل ناحية، وهي تنزع ـ في حديث الأعرابي ـ وكأنها محسوس يقبض عليه، ونلاحظ هنا مفارقة لطيفة ـ ففي إيجاد الرحمة عبر بالغشيان وهو لفظ قوي مميز، وفي إذهابها عبر بالنزع بما فيه من معنى الشد والسحب، والأخذ بقوة، ليوفر للمجاز حيويته وجدته.

والرحمة مجموع أو كل محسوس له أجزاء ، ولقد لعبت الاستعارة التخييلية هنا دورًا لتأكيد المعنى المراد ، هو أن الله أرحم بعبيده من عبده في الدنيا والآخرة .

وتصوير الرحمة بكل ذي أجزاء تم تقسيم هذه الأجزاء ، وإنزال جزء واحد بين الخلائق ـ وإمساك الباقي عنده جلا وعلا ثم وصف الدابة بالخشية والخوف من إصابة ولدها تصويرا لها بالعاقل ، هذه الروح التي تفوح في الحديث كله لتأكيد الغرض . وإنما كانت الاستعارة في الفعل غشى لتعميم الرحمة مناسبة للذكر ودعوة إليه ، فإننا نجد لفظا أقوى اقتضاه المقام فاختلف وجه الاستعارة في الحديث ، « لن ينجو أحد منكم بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل »[1].

ونلاحظ هنا من أسرار التعبير : أن رحمة الذاكرين في المسجد تعمهم وهم جلوس وهذا في الدنيا ، أما النجاة في الآخرة فهي مطلب عسر ، فالرحمة هنا للرسول ﷺ يساندها الفضل ، وهي رحمة لا تقتصر على التغطية وإنما تترقى إلى التغمد بما فيه من إحاطة تامة ، وهى ملازمة مستمرة لا تنفك ملازمة الغمد للسيف ، لذا كانت قوة الصورة بقوة التجسيد ، دلالة على شدة الحاجة وضعف الحيلة ، وقوة الرحمة وبيان المنزلة المحمدية تأكيدا للغرض العام وهو أن الفضل بيد الله .

وقد اقتصر الرضي على بيان الاستعارة دون إيماء إلى ما ذكرنا قال « وأصل هذا الكلام مستعار لأن المراد به إلا أن يغطيني أو يجللني منه برحمة مأخوذ من غمد السيف الذي يكون كنانا وسباغا عليه »[2].

وصلة الأرحام ضرب من الرحمة خاص بذوي القربى والحديث « إن لك رحما سأبلها ببلالها » وهي من الاستعارات التبعية المنتزعة من الواقع العربي ، فالوعاء من الجلد قد ييبس ويتشقق من شدة الحرارة في بيئته الصحراوية ،

---

(١) التاج الجامع : ٥/١٤-١٠٢ .

(٢) المجازات النبوية ص ١١٧ .

فيبل بالماء إزالة ليبسه ، وإصلاحا لما تخدد منه ، ولما كان يوم القيامة تشيب له الولدان كانت للشفاعة إنفاذا ، كالماء لا ينصلح الوعاء إلا به ، وهذا التجسيم لرحمة ذوي القربى لم يقتصر على التأكيد والمبالغة ، وإنما جمعت الصورة الواقع الحاضر والغائب البعيد ، وحشدت من الشعور ألوانا من المتضادات الرحمة بعد عذاب والغوث بعد اليأس ـ والفرحة بعد ترحة ، والحياة بعد ما يودي إلى الهلاك .

ولقد روى الرضي هذا الحديث على وجه آخر «بلو أرحامكم ولو بالسلام» والأول أشمل في صلة الرحم دنيا وأخرى قال «المراد صلوا أرحاكم ولو بالسلام أي جددوا المودة بينكم وبين أقربائكم ولو بالتسليم عليهم تشبيهًا ببل السقاء اليابس ؛ لأنه لا يتبلل إلا بملء الماء فيتندى قاحله ، ويتمدد قابضه فشبهوا بل الأرحام بذلك ؛ لأن في حسن المخلقة تجديدا لمخلقتها ، وإحكاما لما وهن من علائقتها[1] ، ونزيد على ذلك ما صور الحديث من أهمية هذه الصلة وشدة الحاجة إليها وعدم استقامة الحياة إلا بها كهذا الإناء المتشقق لو ترك لعدم ولكن الماء يصلحه ويرجعه إلى سيرته الأولى .

تقوية روح الجماعة : قال رسول الله ﷺ :

«المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله وإن اشتكى رأسه اشتكى كله»[2].

«ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بالنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة»[3].

«إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب»[4].

---

(١) المجازات النبوية ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) التاج الجامع ١٨/٥ .

(٣) المرجع السابق ٤٨/٣ .

(٤) المرجع السابق ٢٩/٥ .

وهذه الأحاديث تدعم الجماعة بالدعوة إلى خلق ينبغي أن يكون ، أو بالتنفير من صفات تفتت من عضدها وتضعف روحها .

والحديث الأول : اعتمد المكنية لتقرير الحالة المثالية فهنا رجل واحد هو المجتمع المؤمن إن أصاب عضوا منه أذى تألم الجسد كله ، ولبيان أهمية الفرد ودوره ودور المجتمع في حياته نراه اختار أشرف الأعضاء «العين والرأس» رمزا للفرد وإيماء إلى أن كل فرد عين أو رأس ، ثم إن هذه العين أو الرأس يمنحها المجاز إرادة وحياة ، فتشتكي تصويرا لحريتها الذاتية ، ومع إبراز هذا الاستقلال في الشكوى نجد التجاوب والاندماج بين الجزء والكل ، وتقوية لهذه الوحدة يأتي الحديث التالي إلى قيادة المجتمع فينتقي نوعا من الحكام لا يسهم في تقوية هذه الوحدة زاجرا متوعدا .

وقد جاءت الاستعارة التبعية هنا فريدة في أسرارها ، فقد استعار إحاطة شيء بآخر دلالة الحفظ والرعاية لبذل النصحية والإخلاص للأمة ، وتفهم هنا صفات الحاكم فهو عبد نافذ البصيرة ، ملم بشؤون الناس ، إنهم أمانة يسأل عنها ، كهذا الشيء الثمين من الأمانات تحاط وتلف وتحفظ من كل تلف ، ولقد أحاط الحديث بألفاظ معدودة بفلسفة الحب والعدل في الشعوب .

أما الحديثان الباقيان فيعالجان مرضين نفسيين يؤثران في وحدة الجماعة فالإفساد بين الناس خطير على الدين بل يذهبه من أصله ، كالحلق يأتي على الشعر كله ، والخيال يتابع الحركة الدائبة في انبهار .

والحسد يجلوه البيان بحيوان مفترس يطعم غريب الطعام إنه الحسنات ، وطريقة الأكل ، ونوع المطعوم وتجسيد هذا الداء الاجتماعي يوفر للصورة جوها من إثارة وتنفير ولقد كانت غرابة المفعول في الفعلين «يحلق» يأكل «وأنه معنوي قلبي مما منح التصوير قوة ذاتية مؤكدة للغرض».

النساء :

وقد دارت الاستعارة النبوية حول أمور للنساء ترشد أو تحذر برفق أو تتوعد بحزم مكين .

١- قال ﷺ لأنجشة : «رويدك رفقا بالقوارير»[1].

٢- قال ﷺ لأسامة وقد كساه قبطية فكساها امرأته فقال : «أخاف أن تصف حجم عظامها»[2].

٣- «لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ صحفتها ، ولتنكح فإنما لها ما قد لها»[3].

٤- «ما من امرأة تخلع ثيابها في غير بيتها إلا هتكت ما بينها وبين الله تعالى»[4].

٥- «قام رسول ﷺ من معتكفه ليوصل صفية بنت حيي رضي الله عنها فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا ، فقال عليه الصلاة والسلام : على رسلكما ، إنها صفية بنت حيي قالا سبحان الله يا رسول الله ، قال : إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم فخشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا أو قال شرا»[5].

والأول : فيه استعارة تصريحية عن النساء بالقوارير تفننا وإبداعا ودعوة إلى الرفق والرحمة .

والثاني : دعوى إلى ستر المرأة بلبس الفضفاض من الثياب لأنها فتنة لا يؤمن شرها ، وقد جاء الحديث في فنه متفردا ، قال الرضي : «وهذه استعارة والمراد أن القبطية برقتها تلصق بالجسم فتبين حجم الثديين والرادفتين وما يشذ من لحم العضدين والفخذين ، فيعرف الناس إليها مقادير هذه الأعضاء ، حتى تكون كالظاهرة للحظة ، والممكنة للمسة ، فجعلها عليه الصلاة والسلام لهذه الحال كالواصفة لما خلفها والخبرة عما استتر بها وهذه

---

(١) التاج الجامع : ٢٧٩/٥ .

(٢) أورده الشريف في المجازات ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، والرافعي في وحي القلم ٢٣/٢ ، واعتمده الشيخ ناصر الألباني في هامش الحديث النبوي الصباغ ص ٧١ .

(٣،٤) التاج الجامع ٣٣٧/٢ .

(٥) المرجع السابق ١٠٢/٢ .

من أحسن العبارات عن هذا المعنى ، وهذا المعنى روى عمر بن الخطاب في قوله : إياكم ولبس القباطي فإنها إلا تشف تصف ، فكان رسول الله ﷺ وآله أبا عذر هذا المعنى ، ومن تبعه فإنما سلك نهجه وطلع فجه»[1].

ولقد بين الشريف الاستعارة وحللها ، وإن لم يوضح كل أسرارها ، كما أنه ذكر قول عمر ولم يوازن بينهما بما يجلو بلاغة النبوة ، ولقد وفق الرافعي إلى ذلك فقال : إنه عليه الصلاة والسلام لم يقل أخاف أن تصف حجم أعضائها بل قال حجم عظامها من أن المراد لحم الأعضاء في حجمه وتكوينه ، وذلك منتهى السمو بالأدب ، إذ ذكر (أعضاء المرأة) في هذا السياق ـ وبهذا المعرض هو في الأدب الكامل أشبه بالرفث ، ولفظة الأعضاء تحت الثوب الرقيق الأبيض تنبه إلى صور ذهنية كثيرة هي التي عدها الرضي في شرحه ، وهي تومئ إلى صور أخرى من ورائها ، فتنزه النبي ﷺ عن كل ذلك ، وضرب الحجاب اللغوي على هذه المعاني السافرة ، وجاء بكلمة العظام لأنها اللفظة الطبيعية المبرأة من كل نزعة ، لا تقبل أن تلتوي ، ولا تثير معنىً ، ولا تحمل غرضا ، إذ تكون في الحي والميت بل هي بهذا أخص ، وفي الجميل والقبيح بل هي هنا أليق ، وفي الشباب والهرم ، بل في هذا أوضح ، والأعضاء لا تقوم إلا بالعظام ، فالمجاز على ما ترى والحقيقة هي ما علمت[2] ، ذلك وغيره يبين الدقة المحسوبة في اختيار الألفاظ التي تحرر المعاني بميزان دقيق ثم تفيض من معانيها الثانوية وظلالها البعيدة المديدة كل طريف وجميل .

وأشد من هذا تنفيرا هو ما تقوم به إحدى النساء من الكيد لإفساد أسرة وتطليق زوجة لتأخذ مكانها ، وقد صورتها الاستعارة التمثيلية بهيئة لا تسر ، إنها لامرأة نهمة أقدمت على آنية من طعام لامرأة غيرها ، فأفرغت ما فيها في إنائها جشعا وتبجحا ، وللتعبير هنا أسراره : فللطعام لذة وعليه تقوم الحياة

---

(١) المجازات النبوية ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢) وحي القلم ، الرافعي ٣/٢٣ .

إيماء إلى أثر التدمير لحياة الأسر ، واستفراغ الصحفة والإتيان عليها حرمان للزوجة من حق الحياة ، مع ما في الاستفراغ من بشاعة وتسفل ، ولما كان للمرأة رجل واحد كان لها عصمة وحياة زوجية كالصحفة يشاركها الزوج فيها ، وهي خاصة بها فاستفراغها بتطليقها تعد على أقدس الحقوق ، وأخصها ، وتهاون بمشاعر الناس وسعادتهم ، وكفى بهذا تنفيرا زاجرا .

ومن تخلع ثوبها في غير بيتها كناية عن التحلل من القيم والسفور إنما تأتي عظيما ، إنها تغضب ربها . وقد صور عدم حيائها وبذاءتها وإزالتها ما يشدها ، بهتك ما بينها وبين الله تعالى من رضا ورحمة ، وقد ورد حديث بشأن من يجاهر بالمعصية وقد فعلها ليلا فستره الله ثم يصبح « يكشف ستر الله عنه »[1]. ونلاحظ هنا تناسب الألفاظ بما تؤديه من استعارات للغرض ، فالمجاهرة كشف لستر الله ، وهو جرم قبيح لكن أقبح منه من تخلع ثوبها في غير بيتها لإثارة المفسدة ، ولذا جاء اللفظ المناسب وفي صورة الماضي « هتكت » بينما جاء الأول في صيغة « الكشف » في حال المضارع ، وهذا من دقائق البيان .

وحديث صفية رضي الله عنها وخوف الرسول ﷺ من هاجس الشيطان في نفس البشر ، فيصور ذلك بقذف شيء ذي ثقل ، وتلمح هنا تجسيم الشر حتى يقذف ، والمدهش أن القلب ليس مجالاً لقذف المحسوس ، تنفيرا من سوء الظن .

الإنسان والقدر :

١- خط النبي ﷺ خطًّا مربعًا ، وخط خطا في الوسط ، وخط خططا صغارا إلى جانب الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط وقال : « هذا الإنسان وهذا أجله محيط به ، وقد أحاط به ، وهذا الذي هو خارج أمله ، وهذه الخطط الصغار الأعراض ، فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطاه هذا نهشه هذا »[2].

(١، ٢) التاج الجامع ١٦٩/٥ .

«إن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان»[1].

«إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب ثقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2].

«من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة»[3].

هذه الأحاديث تثير التأمل والتفكير في شؤون الإنسان وضعفه إزاء الأقدار وتخبطه في أحداث الحياة.

أما موقف المرء من القدر فقد عالجه حديثان، الأول محيط بالإنسان يحلل آماله وأقداره، وحظه من مصائب الحياة، ونجد هذا التصوير النابض عن الأعراض «إن أخطأه هذا نهشه هذا» يقول الرضي: «شبهها عليه الصلاة والسلام بالحيات الناهشة، والذؤبان الناهشة لأخذها من لحم الإنسان ودمه، وتأثيرها في نفسه وجسمه»[4].

وهي استعارة مكنية تبث الحياة والحركة العنيفة في الأعراض، ونرى هنا اختيار النهش وما يوحيه من قزع وكراهية المصائب والحيات على السواء، فالإنسان ضحية لا يملك لنفسه أمرا، والإتيان بالصورة في أسلوب الشرط فيه شبه تضاد بين الفعلين «أخطأ ونهش» وكأن الإنسان هم الأعراض الشاغل، وهو لا يكاد يفلت منها، فإن أخطأ البعض أصاب الآخر وكانت الإصابة قاتلة.

والحديث الثاني مواساة للمرء وحث على التفويض إلى الله، وبث الشجاعة في كيانه وهدم الأسى على ما فات «لو تفتح عمل الشيطان» وهو مجاز يجسد

---

(1) التاج الجامع ٢٧٩/٤.
(2) المرجع السابق ٢٨٤/٤.
(3) المرجع السابق ٢٠٤/٥.
(4) المجازات النبوية: ص ١٢٣.

المعنوي المتوهم ، ويختار صورة وإن كانت تحدث دائما من فتح الأبواب وإغلاقها لكن البراعة أنها أبعد ما تكون ذهنا عن المعنى الحقيقي ، فقد صور عمل الشيطان بباب موصل إلى أخطار وأهوال من صنع الشيطان وأوقع الفتح عليه تخييلا وجعل «لو» اللفظة الضئيلة رمزا لشعور الأسف النفسي : مفتاحا ضخما تراه العيون ، وأسند الفتح إليه تخييلا أيضًا ، فكأن هنا استعارتين تخييليتين بقرينة واحدة ، ويزيد العبارة براعة صدقها في اكتشاف أعماق الإنسان ، وتجسيد أثر هذا الخلق بما يجره من آلام نفسية لا تطاق .

والحديث الثاني : مثل في جانب الخير في صورة متحركة لها رصيدها في الوجدان الإنساني ، فهنا قصة سفر تبدأ بالخوف من التأخير ، ثم الإدلاج وركوب الصعب في سبيل الأمن ، ثم بلوغ المنزل والأمن الفعلي على السواء ، إنها إيجاز في كلمات لحياة المؤمن طرفاها الدنيا والآخرة ، ورمز للسفر الإنساني الغريب ، وخوف المسلم من الذنوب والعقاب ، وصبره على الطاعات ، وأداء رسالته وجدية عمله بموت بل يواصل انتصاراته حتى يدخل الجنة .

أما توارد الخير والشر وأثرهما في نفس المؤمن فقد قام به الحديث بعد ، ولا بأس أن يكون الحديث تفسيرا للآية بعده ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ لكننا نلمح في هذا التفسير عملية تكوين الرين ، فقد صور الحديث على سبيل التصريحية أثر الذنب في منع الخير النكتة السوداء في القلب ، ونلاحظ هنا ما يحمله التصوير من تنفير ، فهناك نكتة لونها أسود مخالف للون القلب الأحمر ، ثم هي في القلب نبع الحياة وهذا كاف في الزجر ، وتأتي التمثيلية لتأخذ بخناق الخيال والشعور ، فالنكت السوداء تتكاثر وتزيد وتتجسم متماسكة سوداء اللون تعلو القلب ، وتطفو فوقه ، والقلب عضو خاص ليس فيه علو ولا سفل أو نكت أو تغطية ، بل بيان لأثر الذنوب في غلظة القلب وهبوط الروح والمنع من الإيمان وبين التصريحية والتمثيلية تشرق استعارة ثالثة بياض القلب لصفائه وإقباله على الله ، وتفرض الصور المتباينة نفسها على العقل والحس والخيال فلا تملك إلا اقتناعا وتأثرا وذهولا ، ويزداد

ذلك إذا لاحظنا أن القلب بالذات كان مكانا لهذه العمليات من سواد وبياض ، وتسويد متماسك متحرك إلى أعلى يعلو القلب ، وحشد هذه الألوان مع لونه الثاني يجعل لهذه الصورة المرسومة بدقة إشعاعات وجدانية لا تحد في نفوس المتلقين .

ولا بأس أن نقدم هذا الحديث لعلاقته بما سبق .

قال رسول الله ﷺ : «ما من مؤمن إلا وله بابان ، باب يصعد منه عمله وباب يترك منه رزقه ، فإذا مات بكيا عليه»(1).

وهو امتداد للتأمل في قضية الإنسان فقد أثبت للعمل والرزق بابين مختلفين ثم ملأ الحديث حركة ونشاطا فالعمل أصبح ذا ثقل يرفع ، والرزق مادة تهبط والحركة دائبة بين تصعد وتصوب والإنسان بلغ من الأهمية ما جعله يشغل الأرض والسماء ثم فجأة تتوقف الحركة ، ولا يبقى إلا حركة صامتة لا تبين «بكاء البابين عليه» وقد لاحظنا تصاعد التخييل والأحداث حتى وصلت إلى النهاية بموت المؤمن ، وهنا نجد الموقف حزينا شاغلا مصورا من البابين عاقلين يبكيان .

ومثل هذا الحديث الشفاف ما ذكره الإمام الزمخشري رحمه الله عن رسول الله ﷺ «ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض» ثم قال «وذلك على سبيل التمثيل والتخييل»(2).

والحديث في موت الغربة ، وما يوحيه من شعور شاحب عميق الأثر ، كما نلاحظ أن قوة المكنية التخييلية في الحديثين بجعلها بابي العمل والرزق والسماء والأرض يبلغ بها التأثر والحزن موقف البكاء قد صدقت في تصوير هذا الجو ببراعة ، والفن الخالص والمشاركة الوجدانية ـ بعيدا عن الترغيب والترهيب ـ قد كانا وراء الحديث الأخير لتقديم نمط من الناس يموت عن أهله غريبا .

---

(1) التاج الجامع ٢٣٠/٤ .

(2) انظر : الكشاف ٢١٨/٤ ، ٢١٩ .

جوانب من الترهيب والتحذير :

١- الضحك والغناء : قال رسول الله ﷺ :

« ولا تكثر الضحك ، فإن كثرة الضحك تميت القلب »[1].

« إن الغناء ينبت النفاق في القلب »[2].

والغناء وكثرة الضحك سلوكان أحدهما مؤثر شعوري، والثاني نتيجة مؤثر ، وهما معا برهان الغفلة ، ودليل الامتزاج بعبث الحياة دون ثمرة أو خير ، والاستعارة فيهما تبعية ، والغرابة أن إحداهما من وادي الموت ، والأخرى من عالم الحياة والزرع ، ويتفقان في التنفير ، وفي أن القلب مسرح لهما ، وفي الأولى تصوير قسوة القلب من كثرة الضحك وابتعاده عن ذكر الله بإماتته ، والعجيب أن يقع الموت المخصوص على جزء من كل ، وأن يكون هذا الجزء منبع الحياة ، وإنه لمدهش أن يتصور الخيال حيا يسير بقلب ميت أو بلا قلب ، وهو دهش ممزوج بالخوف والرهبة من آثار الضحك الكثير ، وفي الثانية تجسيد واضح فإيجاد النفاق وهو شعور لا نبات له ، وتصور عملية الزرع في هذا الموطن « القلب » وأن المزروع خبيث غير بهيج يهز الوجدان ويثير النفار من الغناء الداعي إلى الرفث المبعد عن ذكر الله ، ولا يخفى ما في الأول من جمع الضحك والموت والثاني من الملائمة بين الغناء دليل البهجة والإنبات دقة في التعبير والبيان .

٢- الكبر ـ جرائم اللسان ـ النفاق :

قال رسول الله ﷺ : **« يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان فيساقون إلى سجن يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال »**[3].

---

(١) التاج الجامع ١٦٧/٥ .

(٢) المرجع السابق ٢٨٦/٥ .

(٣) المرجع السابق ٣٣/٥ .

من حديث معاذ : «وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[1].

٣- قال رسول الله ﷺ : «من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان في النار»[2].

والكبر ، وفساد القول ، والنفاق سبب البلاء في الناس ، لذا كانت المجازاة عليها بالنار يوم القيامة .

والحديث الأول يلتقط مشهدا مفزعا يتصاغر له الخيال ، ويسجد له الفن فالمتكبر الضخم السمين مع أمثاله يصغرون ويتصاغرون من الذل حتى يكونوا مثل النمل الصغير في صور الرجال ، فالرجل في صورة نملة تافهة ، إن الوجدان لا يجرؤ على السخرية من الرعب ، ها هو ذا الذل وانكسار النفس والانخذال والضعف يتجسد يوم القيامة ماء يغشاهم ويحيط بهم وهم فيه غارقون ، وكان من الممكن أن تكون الاستعارة تبعية في الفعل «يغشى» لكن الجو العام للإذلال والتحقير يرشح جعلها مكنية مبالغة في الإذلال إلى ما يناسب حقيقة أغرب من الخيال ، ومثله في الكناية ـ الحديث : «يأتي الرجل السمين العظيم يوم القيام لا يزيد عند الله جناح بعوضة».

وفي النفاق تتضح براعة التصريحية ، وهي متخيلة ، بمعنى أنها تجمع شتات الصورة غير الواقعية من أجزاء في الواقع تزيد الوجدان غرابة ، فقد صور رأيي المنافق المختلفين بالوجهين في رأسه وليكن الآخر في قفاه ، ولما كان المنافق يفجأ قوما برأي يوافق آراءهم صار كالوجه ؛ لأنه أول ما يطالع المرء فإذا لجأ إلى معارضين أدار الوجه الآخر بملامح أخرى غريبة ، أما الجزاء فهو أغرب لمن له في الدنيا لسانا يعبر عن نفاقه فليكن له لسانان من نار ، ذلك بأن رأيه تنوع إلى مذهبين على لسانه الكاذب ، وهذه إحدى جرائم اللسان التي يعالجها الحديث التالي بعمومية «حصائد ألسنتهم» ولا بأس أن نورد هنا رأي

---

(١) التاج الجامع ٢/٥٠ .

(٢) المرجع السابق ٥/٢٤ .

الرضي قال : «شبه ما تحذف به ألسنتهم عن الأقوال المذمومة التي تسوء عواقبها ، ويعود عليهم وبالها بالزارع الذي يستوبئ عاقبة زرعه والفارس الذي يستمر ثمرة غرسه ، وهذا كقول القائل لمن أخذ بجريرة ، وعوقب على جريمة : احصد ما زرعت واستوف أجر ما غرست[1].

وغرضه : الاستعارة التمثيلية من حسن المبتدأ وسوء المنقلب وفيه اضطراب لأن الكب على الوجه أو المناخر حقيقة ، وألسنتهم في « حصائد ألسنتهم» فلم يبق إلا جعلها مكنية تخييلية ، والتصوير هنا مكبر موضح فالألسنة مناجل تحصد الزرع وإضافة الحصائد تخييل على أن هذه القرينة نفسها « حصائد» معارة لآثار اللسان من إفك وبهتان ، وإفساد ، والخيال يعجب بهذه المناسبة في الأثر ، والشكل بين اللسان والمنجل ، وتخييل الحركة من سلاح باتر مستمر في قصف الحصاد ولسان لا يمل الحديث الآثم ، وقد قدم الجزاء بالكب في النار على الوجوه تخويفا ثم تشويقا إلى سببه الذي قصر عليه سبب العذاب ترهيبا ووعيدا .

المجازات في الغيبيات :

١- تجديد الدين . ٢- الفتن . ٣- علامات الساعة .

قال رسول الله ﷺ : «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلا مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض عدلا كما ملئت ظلما وجورا»[2].

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »[3].

لعثمان رضي الله عنه « يا عثمان إنه لعل الله يقمصك قميصًا فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم»[4].

---

(١) انظر : المجازات النبوية ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢) التاج الجامع ٣٤٣/٥ .

(٣) المرجع السابق ٤٠٨/٣ .

(٤) المرجع السابق ٣٢٩/٣ .

« بادر بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنًا ، ويمسى كافرا ، ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا »[1].

عن الفتن « ثم فتنة الدهيماء لا تدع أحدا من هذه الأمة إلا لطمته لطمة »[2].

« توشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ، قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن ، فقال سائل : يا رسول الله وما الوهن قال : حب الدنيا وكراهية الموت »[3].

« يأتي المسيح (الدجال) من قبل المشرق حتى ينزل دبر أحد ، ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام ، وهنالك يهلك »[4].

« يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم »[5].

والغيبيات تتنوع ثلاث فكر : تجديد الدين ـ الفتن ـ لمحة من يوم الدين ، وقد ورد حديثان حول الأولى : يصوران عدالة المهدى المنتظر ، ومن يرجع إلى الدين قوته ، وقد اعتمد الاستعارة التبعية ، فالمهدي ينشر العدل في جنبات الأرض وهذا معنوى جسد بملء إناء سائلا معينا بعد تفريغه من آخر تأكيدا لانتشار تامٍ لعدل المهدي بعد شيوع كاثر لظلم عظيم ، وتبادل الملء يعطي حركة تقوي الصورة وتؤكد مضمون الخبر .

والحديث الثاني يصور تنفيذ تعاليم الدين والقضاء على البدع بتجديد شيء كان قد خلق دليلا على قوة التجديد وتصويرا نابضا لجهود مباركة .

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٠١ .

(٢) المرجع السابق ٥/٣٠٦ .

(٣) المرجع السابق ٥/٣٢٧ .

(٤،٥) المرجع السابق ٢/١٨٥ .

علامات الساعة والفتن :

ونبدأ بحديث عثمان ﷺ ، وقد كانت رؤية النبي ﷺ لمحة من عالم الغيب لم يفسرها إلا الزمان ، وقد صور تقدير الله الخلافة لعثمان بإلباسه قميصا سابغا في الاحتواء والستر إبرازًا للمعنوى الغيبي بالمنظور تأكيدا وتقريراً .

وقد ترى أثر الفتن على الإيمان فهناك من « يبيع دينه بعرض الدنيا » ، فقد بلغ من عدم الاحتفاء بالدين أن يكون سلعة يبادل عليها بتافه من الأعراض إنه تصوير حزين يملأ النفوس ألما .

وهناك فتن لا تدع أحدا إلا أثرت فيه بسوء ، وقد صورها الحديث باللطم على الخد واللطم المؤكد ، وما فيه من إهانة وتحقير يوضح تهافت الناس على الشر وفرض الفتن نفسها على الناس .

ثم إن الناس مهيئون نفسيًّا لهذه الفتن فهناك الطمع الخارجي وضعف القيم الداخلية ، وقد بين الحديث ما يئول إليه أمر الناس من جراءة العدو عليهم ثم قذف الوهن في قلوب الناس ، وقد صدر كلا بالقسم مع التأكيد بالنون ودقة التصوير دلالة على أنه واقع ليس له دافع ، والبراعة هنا في المقابلة بين النزع بمعنى الإزالة ، والسلب ، وبين القذف بمعنى الإيجاد الأول فيه أخذ بشدة مسرعة ، والثاني فيه إلقاء بعنف وغضب وفي كليهما تجسيم لحالة شعورية دلالة على مقت الله وترسيبا للمعنى في الحس والذهن - ومن الفتن نزول الدجال بطرف أحد وقد صور أحدا بالبعير على عادتهم في التمثيل الكنائي به دلالة على منع الله له من الاقتراب من المدينة .

ومن تصوير المجاز لمشهد من مشاهد الحشر ساعة العرض والشمس مكسورة دانية والناس وجلون والعرق يبلغ أفواههم فكأنه يلجمهم ، فالاستعارة تبعية واللفظة هنا معبرة ، إن الناس مرغمون لا يملكون للعرق دفعا كاللجام يوضع في فم الفرس قهراً لإرادته ، واقتران الحصان ولجامه بيد صاحبه في الخيال يجعل القائد مقودا إظهاراً لبعض جوانب هذا اليوم العسير .

مع النبي ﷺ :

في قصة شق الصدر : قال ﷺ بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان . . . . « فأتيت بطست من ذهب ملأ حكمة وإيمانا فشق من النحر إلى مراق البطن بماء زمزم ملئ حكمة وإيمانا »[1].

قوله ﷺ لمكة : « ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ ولولا أن قومك أخرجوني منك ما سكنت غيرك »[2].

نظر رسول الله ﷺ إلى أحد فقال « إن أحدًا جبل يحبنا ونحبه »[3].

« أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديث »[4].

« أمر النبي ﷺ بكبش أقرن يطأ في سواد ، ويبرك في سواد ، وينظر في سواد ، فأتى به ليضحي به »[5].

وهذه المجموعة تنصب على أحداث أو اهتمامات أو انفعالات شخصية للنبي عليه الصلاة والسلام ، وفي قصة شق الصدر نجد الحكمة والإيمان وهما من عالم المعقولات سائلا يملأ هذه الطست ، أو يملأ البطن كله ، وقد يكون ذلك حقيقة جريا على تجسيد المعنويات كما في ليلة الإسراء ولكن العقل البشري وقوى النفس لا يمكنها إلا التخيل لما لا تطيق .

أما مشاعره الذاتية ﷺ نحو أمكنة خاصة فهنا امتداد الوجدان وإشعاعه وهنا التشخيص الذي ينطق الجماد ويحيي الموات ، فهذه مكة المكرمة التي قضى بها ربيع العمر حبيب يناجي بأصدق العبارات « ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ » إنها إنسان يبث النبي حبه وأشواقه ، ولقد طوى المشبه به ، وألقى ما يرمز إليه وهو الخطاب مسبوقا بالتعجب من الطيب والحب تعجبا لا يدرك أسراره سواه عليه السلام .

---

(١) التاج الجامع ٢٥٧/٣ .

(٢) المرجع السابق ١٧٣/٢ .

(٣) المرجع السابق ١٨٧/٢ .

(٤) المرجع السابق ١٨١/٢ .

(٥) المرجع السابق ١١٢/٣ .

وهذا التشخيص بالمكنية والتخييلية، ونقل الانفعالات وامتداد الوجدان إلى الجماد نجده في «أحد» «إن أحدًا جبل يحبنا ونحبه» فعلى سفوحه دارت معارك الإيمان والشرك، وفي بطنه رفاق الكفاح، وأحد على مقربة من المدينة بشر يقربها ولقاء الأحبة وقد صور أحدا بإنسان عزيز ثم أسند إليه أقدس شعور وهو الحب تخييلا، ولذا لا نكاد نفهم صنيع «ابن الأثير» بتقسيم المجاز إلى توسع وتشبيه واستعارة وجعله الحديث من باب التوسع قائلاً: «إضافة المحبة إلى الجبل من باب التوسع إذ لا مشاركة بينه وبين الجبل الذي هو جماد»[1]، وكأن ابن الأثير خفيت عليه أسرار الاستعارة المكنية وما بها من تجسيم ينطق الجماد ويحرك الموات، على أن هذا التوسع المنفرد في التقسيم متحقق في المجاز بألوانه إذ هو أسلوب للتعبير يثري اللغة، ويفتح مجالا للقول.

ومن مجاز الأمكنة أيضًا حديث المدينة «أمرت بقرية تأكل القرى» قال الرضي: «المراد أن أهلها يقهرون أهل القرى فيملكون بلادهم، ويغتنمون أموالهم، فكأنهم لهذه الأحوال يأكلونهم»[2]، وواضح تخريجه الأسلوب على التبعية والمجاز المرسل في القرية، وعندي أن تشبيه القهر والإهلاك والغنيمة بالأكل ليس فيه كبير مبالغة للتقارب بين الطرفين، والمساس بفنية الصورة، فالأليق تخريجها على المكنية ـ فالقرية المؤمنة أسد، والقرى الكافرة سوائم وإسناد الأكل إلى القرية وإيقاعه على القرى تخييل فيهما، وهو تخييل قوي يوحي بالحركة المستمرة بما يدل عليه المضارع (تأكل) بيانا لدور خالد في هزيمة الكفر، ولا تخفى الإشادة بالمدينة والفخر برسالتها.

أما الحديث الآخر فهو آية البيان وسر البلاغة فقد سيق للفن وحده دون أي غرض ديني أو دنيوي، وما كان أيسر أن يقال جيئوا بكبش سود الأظلاف

---

(١) انظر: المثل السائر: ٨٢/٢.

(٢) المجازات النبوية: ص ٣٣٠، ٣٣١.

والحدقتين والركبتين ، لكنه أتى بهذا التصوير الفذ ، الذي تحولت فيه الألفاظ مدادا لريشة النبوة لترسم منظرا فريدًا لحيوان أليف ويزيد عليه الشكل ذو الطبيعة الخاصة الذي يعدي ما يلامسه من الأرض،ومجال البصر في أي اتجاه.

فأظلافه لسوادها ، وتوقف المشي عليها تنقل السواد ، فتسود مواقعها على الأرض ، وكذا مواضع بروكه ، وحدقته السوداء تبصر على غير ما يعهد الناس فنورها ومجال رؤيتها ، وما تراه كله أسود خلقة عجبا ولكنه واضح أبلج ، والخيال يحار في هذا الشكل الثابت الذي أذابه الحديث وجسمه مادة تنتقل إلى ما يحيط بالكبش من مرئيات ، وهذا الاندماج الكامل وتنقل اللون لا الشعور وتغيير الواقع بقوة التصوير جعل هذا الحديث نسيج وحده في البيان ، والفن ، ومن الهين إجراء التبعية في الثلاثة أفعال «يطأ ويبرك وينظر» والأهم تبيان أسرارها التعبيرية والفنية بما قد كان .

* * *

سمات خاصة

وضح مما سبق كيف أن الاستعارة النبوية عالجت أغراضا للدعوة المحمدية كما أتت لغرض وصفي لا علاقة له بالرسالة وإنما أملاه الفن ، وداعي البلاغة كمشاعر النبي الذاتية من حب لمكة ، وأحد والمدينة وتضرعاته ﷺ لربه جلا وعلا والإخبار عن بعض الفتن آخر الزمان .

ونضيف هنا ـ بإيجاز ـ بعض الملامح الخاصة : التصريف في المادة الواحدة على طريقة الاتساع والتجوز لمناسبة المقامات كمادة « ملأ » فهناك : ملأ الليل بطن كل واد ، وملء الصدر غنى ، والأرض عدلا ، بعد ملئها ظلما ، والطست حكمة وإيمانا ، والمصدر أيضًا ، كما نلاحظ أن المسند إليه قليلا ـ والمفعول به كثيرا : قرينة المجاز لأنه سيال أو معنوي أو شعوري ، ومادة « حيى » نجد « أحيا » واقعة على السنة ، والأرض ، ومسندة إلى الشمس وكذلك « أمات » على السنة ، والأرض ، والبقلتين ، والقلب ، و « الإهلاك » على المال ، والمفعول هنا إما معقول أو جماد لكنه شخص بهذا الإيقاع ، كما نجد « الإطفاء » واقعا على الغضب والخطئية ، « والبيع » واقعا على الدين والنفس .

قد نجد اسما واحدا أسند أو علق بأكثر من فعل مجازي كلفظ الخطيئة أو الخطايا مع الأفعال : مسحا ، خرج ، حط ـ حظت ـ كشف ، غسل ، والرحمة مع الأفعال : تنزل ، توضع ، تعس ـ تغمد ـ نزع ، والإيمان مع « ذاق طعم » و « ذاق حلاوة » وتعدد الأفعال لا يأتي كيفما اتفق بل يخضع لقاعدة هامة في التصوير هي مناسبة الحدث لما استعير له من حالات تتفاوت قوة وضعفا ، وبالتالي تأثيرا وإيحاء نزولا على مقتضيات الأحوال . فغسل الخطايا في مقام التضرع أقوى من حطها ، وأقوى من محوها حسب الأعمال الصالحة وتفاوتها ثوابا منه ، وأثرا ، بل إن طريقة الصياغة للفعل لها أثر في تحديد قوة

الاستعارة حسب المقامات : فهناك : حط خطيئة وتحط خطيئة ، وحطت خطاياه بالبناء للمجهول ، كما أن التغمد الواقع على الرحمة في الرجاء النبوي يوم القيامة أقوى لداعي الحال من «غشيتهم الرحمة» في الذاكرين الله .

والواقع أن كل لفظة معارة في البلاغة النبوية إنما وضعت بدقة محسوبة وفق خطة تصويرية لا يشذ عنها شارد ولا وارد خطة الطبع النافذ البصير فلا يحل لفظة مكان أخرى كما في جوب الليل ، وبطن السماء ، وبطن كل واد ، وكما في : «طبع على القلب» في ترك ثلاث جمع ، وختم في ترك الجماعات بالمرة ، وفي «كشف» واقعا على المغرم والمأثم ، وستر الله لمن يجاهر بما صنع ليلا ، وهتك مسندا لمن تعرف في غير بيتها .

قد نرى الاستعارات تنصب على المعار تقلبه من كل نواحيه وتحيط به من كل جوانبه ، آخذة كل منها جزءا أو طرفا يناسب المقام حتى يستوي منه نموذج كامل كالبعير لأن له ارتباطا ذهنيًا وواقعيا ونفسيا بالعربي ، فالإعارة منه أقوى في تثبيت الصورة والغرض فكان منه : جوف الليل وبطن السماء وظهر البحر ورأس الجبل وكاهل الليل وسرة الشهر ودبر أحد ، كما نجد لمحات من حيوانات أخرى ليس لها هذه الأهمية فهناك الغرة من الخيل والقرن من ذوات القرن وآكلة الخضر وسرب الظباء .

كما نجد استعارات تصور معارا واحدا في صور مختلفة ، فالشمس حية وزائفة ، ولها حاجب ، ولها قرن ، وهكذا . .

قد يجمع الأسلوب بين استعارتين متغايرتين أو متضادتين قوة في التصوير وجذبًا للانتباه وتأكيدا للمعنى كإحياء السنة ، والأرض بعد موتهما ، والسفل والفوق في درجات الناس ، والخفة على اللسان والثقل في الميزان لنوع من ذكر الله ، ورأس الجبل مع بطن الوادي ، والقلب يسود ، وقد يبيض ، وقد يتراكم فيه السواد ويتماسك مكونا غطاء كثيفا ، وقد تكون البراعة في الجمع طباقا بين لفظتين أحدهما معار والآخر على حقيقته ترشيحا للاستعارة وخلابة

في البيان ، نحو يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان ، وقلب الشيخ شاب . . . كما قد يكون الفعل المعار واحدا والطباق في متعلقه كحديث المهدي : يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا .

هناك ألفاظ خصصت بحالات خاصة لم تتجاوزها كالفعل «قذف» خصص بالشر من الصفات كالرعب والذل ، والشر ، والوهن ، كما خص «نزع» بسلب صفات طيبة كالرحمة والمهابة .

ثانيًا : المجاز المرسل

من الألوان البلاغية التي جلاها بيان النبوة ، فجاءت ناصعة عفوية شديدة الإيحاء ، قوية الأثر في إمتاع الخيال ، والوجدان ، وإشباع الحاسة الفنية المتذوقة ، لتأكيد المعنى المسوق له الأسلوب .

ومنهجنا تتبع أمثلة المجاز المرسل في الحديث جهد الطاقة ، وتنويعها حسب العلاقة ، ليمكن اكتشاف أسرار التعبير ، والخصائص العامة في المجاز المرسل ، ومعناه المميز .

العلاقة باعتبار ما يكون :

قال رسول الله ﷺ : ١- «من سأل وله ما يغنيه فإنما يستكثر من النار ، وفي رواية من جمر جهنم»[١].

٢- عن ابن عباس أن النبي ﷺ رأى خاتما من ذهب في يد رجل فنزعه وطرحه وقال : «يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده»[٢].

٣- «من شرب في إناء من ذهب أو فضة فإنما يجرجر في بطنه نارا من جهنم»[٣].

٤- «من ينظر في كتاب أخيه بغير إذنه فإنما ينظر في النار»[٤].

---

(١) التاج الجامع ٢/٣١ .

(٢) المرجع السابق ٣/٢١٨.

(٣) المرجع السابق ٣/١٢٧ .

(٤) المرجع السابق ٥/١١٢.

٥- «إذا المسلمان حمل أحدهما على أخيه السلاح فهما على جرف جهنم فإذا قتل أحدهما الآخر دخلاها جميعا»[1].

٦- «من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسرا إلى جهنم».

والحديث الأول يحذر من السؤال مع الغنى، ونجد قوة التصوير هنا بجعل المال المستكثر منه نارا لأنه يئول إليها في الآخرة، ويكفي تخيل هذه النار وقت أخذ الصدقة ليفر منها الغني، وقوة التخييل نجدها في الحديث الثاني زجرا عن استعمال الذهب، والأسلوب يوفر للترهيب قوته، فالخاتم جمرة متلهبة يظهرها البيان فيجعل لها صورة الخاتم، وهذه الجمرة يقصد إليها عن عمد تصويرا للغباء وجهل العاقبة، ثم هذه الجمرة لا تقتصر على الإصبع وإنما تجعل في اليد بأكملها، فقد أطلق الجزء وهو الإصبع وأراد اليد كلها قابضة على الجمرة تجسيدا للألم، وهذان المجازان المرسلان أبلغا في التحذير والترهيب مع ما في تنكير جمرة ونار من تهويل. كما نجد من يشرب في إناء من ذهب نرى الأسلوب يغير الحقيقة إلى صورة متحركة مخيفة تتأجج نيرانها فالسائل إنما هو نيران ذائبة يتجرعها المترف المختال، وقد أكد استحضار النار بقوله «من جهنم» وتقابل اللفظتين «يجرجر» باستمرارها و «جهنم» بوقعها الخاص يعطي للصورة إيحاءات نارية مخيفة زجرا ورهبًا وبمقارنة الحديثين وهما في الذهب نجد أن جهنم لما كانت تعبر عن الغضب النبوي في انتهاك ما حرم باستعمال الذهب في تناول الأطعمة والأشربة، وذلك أدل على الثراء والخيلاء من التختم بالذهب جاءت «جهنم» جزاء وفاقًا وتلمح ما يعين على قوة التصوير في الأسلوب بالخطاب (أحدكم) مع كلمة (يعمد) ثم تجسيم النار بجمرة ترى وتحس ثم جعلها في اليد، فكأن المخاطب قد ساعد في تكوين الصورة بعمده، وقبضه على الجمر، وتفاوت الجزاء في الأسلوب بتفاوت الحالة من أسرار البيان النبوي.

---

(١) التاج الجامع ٥/٣٠٢.

ومن ينظر في كتاب أخيه : تأتي الصورة لتشتمل عليه فهو في النار محيطة به ، وهو فيها معذب حائر ينظر في أنحائها ، وذلك تخويفا وتربية للذوق العام وحفظا لأسرار الناس وحقوقهم .

ونلاحظ هنا أن كلمة «جهنم» معبرة عن الغضب النبوي في مقام ينتهك فيه حق أو عبادة لها حرمتها ، فالمسلمان حين يحملان على بعضهما السلاح يتركان أخوة الدين وهديه جانبا ، ويدخلان إلى الشر والغضب الإلهي ، وتنقلها الصورة إلى جهنم ، فهما حين ينويان الشر على جرف جهنم ، وجهنم تتوثب بنارها وجرفها توشك أن تتداعى بهما ، وتمر الصورة رابطة بين أحداث الدنيا والآخرة في ومضة ، إنهما بحملهما السلاح يقتربان من جهنم ، فإذا قتل أحدهما الآخر اندفعا إليها جميعا ، ولا يخفى تصوير المجاز للغضب الإلهي بالوقوف على جرف جهنم فعلا ، لأنه موصل إليها ، وما يهم هو استحضار الغائب ، وتلاعب الصورة بالمشاعر المسلمة بهذا التقريب المخيف المهتز «جرف جهنم» وما له من تخويف .

كما نجد الترهيب من تخطي رقاب الناس يوم الجمعة أن هذا المتخطي المتأخر جهلا وإيذاء يصور المجاز عاقبة عمله ، وسوء فعله بما يئول إليه ، إن هنا جسرا خاصا موصلا إلى ما تستعيذ منه الحواس ، إنها جهنم إنه جسر مرئي تحته نار ونهايته نار فليتخط الرقاب من يشاء إذن إن كان يريد .

أمشاج أخرى من علاقة ما يئول إليه :

قال رسول الله ﷺ : ١- «من عاد مريضا لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجى قيل يا رسول الله وما خرفة الجنة؟ قال : جناها»(١).

٢- «من قتل قتيلا فله سلبه»(٢).

٣- «من قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»(٣).

---

(١) التاج الجامع ١٩٧/٣ .
(٢) المرجع السابق ٤٩٧/١ .
(٣) المرجع السابق ٢٣٨/٢ .

٤- «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»[(١)].
٥- «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[(٢)].
٦- «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة»[(٣)].

والحديث الأول ترغيب في عيادة المريض توثيقا للصلات الاجتماعية وتخفيفا عن المرضى، والجزاء هنا يصوره المجاز محققا مجسما، تصويرا للثواب بما يئول إليه، ولقد روى الشريف الرضي الحديث بتغيير فيه «عائد المريض على مخارف الجنة»، قال: فإن كان المراد المخارف جمع مخرف وهو جنى النخل، فكأنه عليه الصلاة والسلام شهد لعائد المريض بدخول الجنة، وحقق له ذلك حتى عبر عنه، وهو بعد في دار التكليف بعبارة من صار إلى دار الخلود ثقة له بالوصول إلى الجنة، والنزول في دار الأمنة، وهذا موضع المجاز[(٤)].

والحديث الثاني: يرغب في الجهاد بالمغنم الدنيوي «من قتل قتيلا فله سلبه»، فلقد وصل في نهاية المشرك دفعة واحدة فسلمه قتيلا باعتبار ما يصير إليه، تهوينا على المجاهد، وتأميلا له في الانتصار، وحثا له لمنحه سلب الكافر، قال الزمخشري في الآية من سورة نوح: ﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ وصفهم بما يصيرون إليه كقوله ﷺ «من قتل قتيلا فله سلبه»[(٥)].

كما نجد الترغيب في الدفاع عن الدين والدم، والمال والعرض بالترقي في نوع القتل بجعله استشهادا، فأمره آيل إلى هذه الصورة المشرفة صورة الاستشهاد، وقد يأتي هذا اللون من المجاز لتقرير حكم شرعي «لا وصية لوارث» وحين الوصية والموصي حي لا وراثة، ولا وارث، ولكنه تجوز بإطلاق الوارث على من يستحق الإرث قوة في التصوير، وتأكيدا للحكم، ثم لمحا للآتي البعيد تزهيدا في الدنيا ونهاية أمرها.

---

(١) التاج الجامع ٢٢٣/٢.
(٢) المرجع السابق ٢٣٨/٢.
(٣) المرجع السابق ٦٥/٥.
(٤) المجازات النبوية ص ١١٣، ١١٤.
(٥) الكشاف ٤٩٧/١.

وقد يأتي المجاز بوصف ينفر تقبيحا له ، ولصاحبه ، «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» ولا يسمى المتفحش زانيا إلا بعد وقوع جريمته ، وفيه مع نفي الإيمان عنه دفع له بهذا الوصف المتقذر الذي يئول إليه أمره وهو وصف ثابت لا ينفك عنه ، وهذا الأسلوب التربوي في بيان الجرائم وتبشيعها قبل وقوعها أوقع في النفس الإنسانية من جملة الأوامر والنواهي .

ولا بأس أن نورد شذرات للإمام الزمخشري عن هذه العلاقة قال عنها : كقول رسول الله ﷺ «من قتل قتيلا فله سلبه» وعن ابن عباس : «إذا أراد أحدكم الحج فليعجل فإنه يمرض المريض ، وتضل الدابة وتكثف الحاجة» فسمى المشارف للقتل والمرض والضلال ، قتيلا ومريضا وضالا ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أي صائر إلى الفجور والكفر[1].

وقد ذكر المجاز ولم يكشف عن أسراره ، فهنا دفع وحفز للمجاهد بتصوير الغنم والسلب وكأنه واقع فعلا ، وكأن القتل للعدو أمر لاشك فيه فهو قتيل ملقى تدوسه الأقدام ، وفي تأخير الحج للقادر إثم فمن يضمن ما تأتي به المقادير ، وهذه صور ملتقطة لما قد يحدث : مريض هنا لا يستطيع حراكا ، وراحلة نفرت فضلت وصاحبها في حيرة ، إن النهاية المخوفة المعرقلة قد أحضرت تخييلا وتصويرا إلهامًا للمشاعر وتهييجا للعواطف بالإسراع إلى الحج .

علاقة الجزئية والكلية :

قال رسول الله ﷺ : ١- «ويل للأعقاب من النار ، ويل للعراقيب من النار[2]، فيمن لم يتعهدهما في الوضوء».

٢- «اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعى وبصري ، ومخى وعظمى ، وعصبي»[3].

---

(١) انظر : الكشاف ٢٨/١ .

(٢) التاج الجامع ١٠٥/١ .

(٣) المرجع السابق ٩٣/١ .

٣- «عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله»[1].

٤- «أفضل الصدقة ما ترك تمني واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول»[2].

٥- «من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[3].

٦- «دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمهما أجرا الذي أنفقته على أهلك»[4].

٧- «الظهر يركب إذا كان مرهونا»[5].

٨- لثوبان ﷺ «لا عليك بكثرة السجود» ، ولربيعة بن كعب الأنصار ﷺ «أعني على نفسك بكثرة السجود»[6].

وهذه الجملة من الأحاديث بين ترغيب وترهيب،وتضرع وتقرير أو وصف وقد تجوز فيها بإطلاق الجزء على الكل مبالغة في هذا الجزء ، وبيانا لمدخليته في الحدث ، وتأكيدا لما ينطق به من تصوير أو إرشاد ، ونلاحظ ملاءمة العضو المخصوص للغرض المقصود .

والحديث الأول إنكار على المتسرع في الوضوء ، خاصة الأعقاب فهى مظنة الترك والإهمال ، فأفردها وحدها مسبوقة بالويل ملحقة بذكر النار ، والتعذيب لمن هو في النار لا يكون لعضو فرد ، بل النار مشتملة محيطة ، ولكنه خيل تفرد العراقيب بهذا الجزاء ، وهي وحدها لا حس لها ولا إرادة ، ولكن لما كان ترك غسلها سبب الإثم بإبطال الوضوء والصلاة ، وإحباط العمل كان تسليط الجزاء عليها بلوغا بالترهيب كل مدى .

---

(١) التاج الجامع ٤/٣٦٦ .
(٢) المرجع السابق ٢/٣٦٦ .
(٣) المرجع السابق ٣/٤٦
(٤) المرجع السابق ٢/٣٧ .
(٥) المرجع السابق ٢/٢١٦
(٦) المرجع السابق ١/١٣٦ .

وعندما تلتقي بتضرع النبي ﷺ «خشع لك سمعي ، وبصري ، ومخي ، وعظمي ، وعصبي» والخشوع صفة شعورية مركبة من الخوف والحب تشمل الإنسان كله ، لكنه أسندها إلى هذه الأعضاء كأن كلا منها قد استغرق في خضوع وخشوع ، وكأنها ذوات في ذات تدور في فلك الإنابة والخضوع وهي ذوات منها المرئي ومنها الخفي في هيكل الجسم مع عظم وعصب ، فالخشوع ظاهرا وباطنا ، برهان الفناء في العبادة .

والحديث بعده : «عينان لا تمسهما النار» ، نجد ترغيبا بالجزاء الأخروي بالإبعاد الشديد من النار ، والعينان مقصود بهما صاحبهما إذ لا يتصور النجاة من النار أو البكاء خشية الله ، أو السهر حماية للوطن للعين دون صاحبهما ، لكن لما كان للعين هنا دور أساسي خطير في الحدث أسنده إليها ، ذلك أن الخوف انفعال نفسي عام والمرابط يحرس وطنه ساهرا مدافعا ، وفي الحالين نجد العين مظهرا للخوف والبكاء ودليلا على السهر باتساع الحدقة مبالغة في دورها وتخييلا باستقلالها إذ بها وحدها يكون الحماية والسهر ؛ ولذا خصها بالجزاء مشاكلة وطردًا للأسلوب على وتيرة واحدة .

أما اليد : فنجدها في حديث يرغب في الصدقة ، وينفر من السؤال ، اليد العليا خير من اليد السفلى ، معبرا بها عن صاحبها مجازا ، بيانا لدورها في التصدق إذ تمتد عطاء أو أخذا ، وكأن هذه اليد مخلوق ذو إرادة يتصرف في المال،والتي تمتد بالعطاء فتمنح تكون أعلى من تلك التي تمتد في ذلة تتلقف، ولا بأس أن نقف هنا بقدر ما ناقش الشريف المرتضى رحمه الله فقد اختار أن تكون اليد في الحديث هي العطية والنعمة قال «لأن النعمة قد تسمى يدا في مذهب أهل اللسان بغير شك ، فكأنه ﷺ أراد أن العطية الجزيلة خير من العطية القليلة ، وهذا حث منه على المكارم ، وتحضيض على اصطناع المعروف بأوجز الكلام ، وأحسنه مخرجا»[1].

---

(١) انظر : غرر الفوائد (أمالي المرتضى) ٢/٦٧ .

ولا يخفى أن مراد الحديث الدعوة إلى التصدق وفيه البذل والسخاء ، والتنفير من السؤال وفيه الذلة والخضوع ، وليس المراد المفاضلة بين كثرة المبذول وقلته ، فالأهم هو النية الصادقة وراء البذل ، مع جعله بذل القليل تسفلاً ، وفي هذا ما فيه من منافاة لروح الإسلام ، ولقول النبي ﷺ : « اتقوا النار ولو بشق تمرة »[1].

لقد كانت نظرة الشريف الرضي أبعد وأعمق حيث قال :« أراد باليد العليا يد المعطي ، وباليد السافلة يد المستعطى ، ولم يرد على الحقيقة أن هناك عاليا ، وسافلا وصاعدا ونازلا » ثم قال وقد خانه تعبيره « إنما كنى عليه الصلاة والسلام عن هاتين الحالتين باليدين لأن الأغلب أن يكون بهما الإعطاء والبذل وبهما القرض والأخذ »[2].

ولعله لا يقصد من « كنى » معناها المعهود وإنما هو مجاز مرسل ، والعجب من المحقق الذي ذهب إلى إخراج الأسلوب على الاستعارة وهو قول متهافت[3] ، لكن المهم من أسرار الحديث هذه الموازنة بين يدين ثم المفاضلة بينهما برفع الأولى حسا وفضلا ، كما نلاحظ :

١- تجسيم الإعطاء والأخذ وتصور حركتهما المحسوسة ، وأن ثمة يدين تتحركان ، ولكن إحداهما عالية والأخرى نازلة ، مع تصوير العطاء بالعلو ، والأخذ بالسفل تصويرا حركيا للازم عن الملزوم .

٢- ما في التصوير من مدح وترغيب في التصدق لعلو يد المتصدق ، والعلو محبوب ، وذم السائل لأن يده سفلى ، والسفل في الطباع مكروه ، ولا بأس أن نشير إلى أن المجاز النبوي حين يصور هيئة الإعطاء يأتي باليد تجسيدا لهذه الهيئة مدحا وترغيبا كالحديث السالف في الاستعارة « ورجل تصدق

---

(١) رياض الصالحين ص ٣٣ .

(٢) انظر : المجازات النبوية ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) المرجع السابق ص٣٦ هامش ٢ .

بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه» والمجاز هنا في الشمال واليمين ، وقد خيل سحر البيان استواءهما شخصين يخادع أحدهما الآخر فينفق دون علمه فضلا ، وخيرا ، كأن الخداع في الخير خير كالخداع في سحر البيان ، فالحديث متفق وجها وغاية ودعوة وغرضًا في طريقة الإنفاق ووجه البيان .

وقد نجد اليد مرادا بها صاحبها في معرض الذم لمن يخرج عن الجماعة وطاعة الحاكم وقد عاهده «من خلع يدا من طاعة ، لقى الله يوم القيامة لا حجة له».

ولما كان التوثيق وإعطاء العهد إنما يكون بالقبض باليد عرفا عربيا صور العاصي لحاكمه بمن يخلع يده من عهد على الطاعة ، تجسيدا لهذا العصيان وتنفيرا منه ، مع الإيجاز ، وبقية الحديث «ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية» ، والتركيز هنا على العنق في البيعة لأن العهد والبيعة إلزام وانقياد والعنق يؤخذ به ، ويوجه منه ولا يتفلت منه كما يقول من يلتزم بشيء هو في رقبتي ، كالرقبة في العنق «ودينار أنفقته في رقبة» ترغيبا في تحرير العبيد ، ذلك بأن الرقبة مقدمة الجسم ، ومنها تقاد الدابة ، فأفردت في الذكر تركيزا على ما لا يكون المرء إلا به والمراد صاحبها .

أما الحديث «الظهر يركب إذا كان مرهونا» فيقدر حكما شرعا ركوب الدابة إذا كانت مرهونة ، وقد عبر عن الدابة بالظهر لأنه المخصص للركوب ومحله وبيان الانتفاع بالدابة إذ لا يكون إلا بالركوب على الظهر ، والجزء هنا خاص بالحدث «الركوب» كما أنه هام لا تتصور دابة ولا الانتفاع بها إلا به .

وفي الحديثين الأخيرين : أعني على نفسك بكثرة السجود ـ عليك بكثرة السجود ـ وأداء الصلاة لأن الصلاة دعاء وتضرع ومناجاة دلالة الفقد والذل لله ، وأظهر ما يكون هذا في السجود بوضع أشرف الأعضاء في مواطن الأقدام لله رب العالمين ، تصويرا لحسن أثره ، وترغيبا في الإكثار منه وكأنه لب الصلاة وخلاصتها ، وسرها الكريم .

السبب والمسبب :

١- عن جابر رضي الله عنه : خرجنا في سفر فأصاب رجلا منا حجر ، فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لي رخصة في التيمم فقالوا : ما نجد لك رخصة ، وأنت تقدر على الماء : فاغتسل فمات ، فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك ، فقال : « قتلوه قتلهم الله ، ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العمى السؤال ، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ، ويغسل سائر جسده »[١].

٢- قال ﷺ : « أكثروا من ذكر هازم اللذات »[٢].

٣- « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه فقيل يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال : يسب أبا الرجل ، فيسب أباه ، ويسب أمه »[٣].

٤- « لا يقطع الصلاة شيء وادرأوا ما استطعتم ، فإنما هو شيطان »[٤].

٥- رفع إلى رسول الله ﷺ ابن ابنته وهو صبي ، ونفسه تتقعقع كأنها سن ففاضت عيناه ، فقال سعد : يا رسول الله ما هذا؟ فقال « هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء »[٥].

٦- من حديث السبعة الذي يظلهم الله « رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »[٦].

والحديث الأول : يفضح أثر الجهل في إهلاك الناس ، ولقد صوّر فتواهم بوجوب الغسل مع شج الرأس والأذى المترتب عليها بالقتل ، لأنه سببه الظاهر ، وتمثيل هذه الجريمة في الخيال مع نسبتها إليهم ، واتباعها بالدعاء عليهم من جنس فعلتهم « قتلهم الله » تبشيعا لجريمتهم ، وردعا لهم ولأمثالهم عن الإفتاء بغير علم ، فهنا صور السبب بصورة المسبب .

---

(١) التاج الجامع ١/١٢٨ .
(٢) المرجع السابق ١/٢٣٨ .
(٣) المرجع السابق ٥/١٠ .
(٤) المرجع السابق ١/١٧٤ .
(٥) المرجع السابق ٥/٧٦ .
(٦) المرجع السابق ٤/١٦٣ .

وفي الثاني : نجد الوعظ وذكر الموت ، ولم يذكر الموت صراحة بل ذكر أثره وما يتسبب عن وقوعه مما تراه العين ، ويرتعب له الخيال ، تحقيقا في التصوير ، وتأكيدًا للغرض ، والبراعة هنا في مناسبة الوعظ باختصاص الموت بقطع اللذات لأنها موطن التكالب والصراع البشري ، وللذات ظلال في أحاسيس الإنسان فإذا ذكر ما يقطعها ويهزمها انكمش حب الشهوة ، وحل الورع والخوف من الله والدار الآخرة .

والحديث الثاني : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه» بهذه البداية الغريبة التي تشد الانتباه ، وقد هزت المقدمة أعماق الصحابة فاندفعوا يسألون ، ذلك أن هذا الصنيع في عصر النبوة بل وعصر الجاهلية مناف للخلق العربي ، ويوضح الحديث قرينة التجوز ، وينكشف التصوير المؤكد بعد أن وفرت له طريقة قوة على قوة وقد صدر المسبب «اللعن» بصورة السبب (السب) تنفيرا من هجر القول وبذاءة اللسان .

وعلى درب الترهيب نجد الحديث الثاني : فالمصلي يجد أحيانا اندفاع بعض الناس أو الأطفال أو الحيوانات بين يديه ، وقد يلهيه ذلك عن صلاته ويفسد عليه خضوعه ، وقد طوى الحديث كل ذلك فصوره بسببه المحرك له إنه الشيطان يلعب بضعاف العقول فيدفعهم إلى إفساد الصلاة ونرى الإثارة هنا من ناحيتين : ردع المار بين يدي المصلي ، وكفى به ألعوبة يحركها الشيطان ، وحث للمصلي أن يدرأ ما استطاع فإنما يجاهد الشيطان ، وذكر الشيطان وحده كاف في إثارة مشاعر النفور والبغض لهذا العدو الخبيث .

أما هذا الشعور المقدس للنبي الرحيم ﷺ فقد صور الدموع محسوسة معروفة للخيال لونا وحجما ، وحرارة بصورة سببها الباعث عليها وهو شعور قلبي كريم ، تجسيدا للرحمة دافئة بيضاء تنسكب في انفعال وتأثر تصويرا ذاتيا لمشاعر نبي كريم ، ودعوة إلى الرحمة وإباحة للدموع الطاهرة في موقف نبيل .

والحديث الأخير « ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه» .

قال الإمام الزمخشري في الآية ٨٣ من سورة المائدة ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ معناه : تمتلئ من الدمع حتى تفيض ؛ لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه ، فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء وهو من إقامة المسبب مقام السبب[1].

ففي الحديث إذن مجاز مرسل ، وسر التعبير القصد إلى طي الكلام وإيجازه ثم ذكر الفيض وهو المسبب مرة واحدة ، وهو الغاية التي ينفعل بها الخيال ؛ إذ هناك حركة دائبة من دموع متقاطرة متوالية أثر الفيض ، ثم هناك تلاؤم خاص قلب يفيض إجلالا ، وعين تفيض دموعا تصويرا لأثر الحب والخوف في نفس الطائع مدحا وترغيبا في التأسي ، وترشيحا لما يستحق من جزاء عظيم سابق ، « من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ».

ويتعلق بالسبب أحاديث نجد فيها الإيجاز يطوي العبارة ويقرب البعيد ويختزل الأسلوب كأنه كائن قوة في المعنى ، وتأكيدا للغرض وبراعة في التصوير كهذه الأحاديث .

عن معاوية الفيشري : قلت يا رسول الله : ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال : « تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت »[2].

« إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته »[3].

وأصل الأساليب : إذا أردت الطعام وإذا أردت الاكتساء ، وإذا أردتم القتل ، أو الذبح ، فهي أساليب شرطية وجواب الشرط ليس معلقا في الواقع على فعل الشرط المذكور ، لأنه ماض ولم يقع بعد خارجا ، بل على إرادته ونيته إذ بعد

---

(١) الكشاف للزمخشري ١/٥٢١ ، ٥٢٢ .
(٢) التاج الجامع ٢/٣١٦ .
(٣) المرجع السابق ٣/٩ .

وقوع فعل الشرط وهو «القتل أو الذبح» مثلا يكون الجواب غير واضح ، وإنما طوى النية والإرادة المتسببة في الأحداث والأفعال أسلوبا لأنها مطوية في القلوب توافقا بين ظاهر الأفعال وخفيها وبين تركيب الأساليب ، وجاء المسبب مباشرة لأن القصد إليه والتوجيه والإرشاد منوط به والسلوك البشري مبني عليه ، ثم افتراضًا في المخاطب وقوع ما عزم عليه والمبادرة إلى تعليمه بإيجاز وتجوز ليشغل الذهن ويلفت العقل ويؤكد الغرض من إرشاد لأحكام هامة صورت أبدع تصوير .

الحالية والمحلية :

قال رسول الله ﷺ : ١- «لا تركبوا الخز ولا النار»[1].

٢- عن علي ﷺ قال : إن نبي الله أخذ حريرا فجعله في يمينه وأخذ ذهبا فجعله في شماله ثم قال «إن هذين حرام على ذكور أمتي»[2].

٣- «إن إبراهيم حرم مكة ، ودعا لأهلها ، وإني حرمت المدينة ، كما حرم إبراهيم مكه»[3].

٤- «البسوا من ثيابكم البياض وكفنوا فيها موتاكم»[4].

٥- «أريت قوما من أمتي يركبون ظهر البحر كالملوك على الأسرة»[5].

٦- «فيمن ترك صلاة العشاء ، لو علم أحدكم أنه يجد عظما سمينًا لشهدها»[6].

هذه الأحاديث سيقت للإرشاد والتعليم والعظة والتقرير ، واعتمدت المجاز المرسل معرضا لها ، ونجد في جميعها الإيجاز والقصد إلى سوق الحكم مباشرة مع جودة التصوير : فالحديث الأول : ينهي عن استعمال الحرير في السرج وعلى ظهور الدواب ، يعني : لا تركبوا دواب على ظهورها ، وسرجها

---

(١) التاج الجامع ١٨٣/٣ .
(٢) المرجع السابق ١٤٩/٣ .
(٣) المرجع السابق ١٨٢/٢ .
(٤) المرجع السابق ١٥٥/٣ .
(٥) المرجع السابق ٣٣٠/٤ .
(٦) المرجع السابق ٢٤٩/١ .

حرير أو جلود نمار ، فاختصر العبارة وأوقع الركوب على الخز والنمار لأنها محل الركوب وملاصقة لمتون الدواب ، فخيل استقلالها وانفرادها لأنها المقصودة بالنهي تأكيدا للحكم وقوة في النهي .

والحديث الثاني « إن هذين حرام» والحرمة حكم لا يتعلق بذات ـ الذهب والحرير بل باستعمالهما ، فأسند الحرمة إليهما لأنهما محل الاستعمال ، ولتخييل أن الحرمة قد شملتهما في ذاتهما ، فتعديها إلى استعمالها من باب أولى ، مبالغة في المنع والتحريم .

وكذلك : حرم واقعا على مكة والمدينة ، فقد صور الحال ، وهو الفتح والانتهاك ، أو الرعاية والحماية بصورة المحل وهو مكة والمدينة كأن كل ساكن أو متحرك فيهما أصبح بين حلال أو حرام في ذاتهما ، تقديسًا للمدينتين ورفعا لشأنهما .

والملابس البيضاء رمز النقاء ، ودليل النظافة يوصي بها الحديث ، عامدا إلى التصوير والتخييل والإيجاز ، بالقصد إلى اللون مباشرة وهو البياض ، وإنه لعرض لا يقوم بذاته ، فمحل استقلاله وانفراده عن محل يقوم به ، وكأن من يرتدي ثوبًا أبيض إنما يرتدي البياض ذاته ، تصويرا غريبا لا يقضي منه الخيال دهشًا ، تأكيدا للإرشاد ، ودعوة بدليلها لارتداء الملابس البيضاء في الحياة وحتى في الكفن قبل مواراة الثرى .

والبحر لا يركب ظهره مباشرة ، وإنما تمخر السفن عبابه وتشق الجواري لججه فصور الحال وهو السفن بصورة المحل وهو البحر مبالغة في السفن وكأنها قد غطت البحر كله ، فهم حين يركبونها إنما يمتطون ظهر البحر هكذا دون وسيلة بلوغا في القدرة والعزة كل مدى ، ولا يخفى هذا التلازم بين السفن والبحر ، فلا سفن إلا في بحر ، وفي هذا المجاز ما يؤكد الصورة التي كشف الغيب لثامها فرآها الناس حقيقة مشرقة دالة على عزة الإسلام وقوة المسلمين كما لا يخفى أثر التشبيه وإيحاؤه في غنى الصورة وتدعيم مضمونها .

والحديث الثاني فيمن يتخلف عن صلاة العشاء في جماعة ، موبخًا مصورا تفاهة شأنهم ، وحقارة نفوسهم بأنهم لو علموا أن بالمسجد زادا أو طعاما زائلا ، لأتوا مهطعين ، والمجاز هنا مقتدر في بلاغته الفائقة ، فقد صور الزائل من الطعام بالعظم السمين ، والعظم لا يوصف بالسمين ، والمراد اللحم على العظم ، فقد أطلق المحل وأراد الحال ، وهو اللحم والشحم لانبنائها عليه ، ثم إن في هذا المجال سرا آخر هو كشف اللثام عن نهاية المتاع ، وفيه كشف لأعماق المتخلفين وتصويرا لجشعهم وعبوديتهم للدنيا وزائل المتاع ، فهم لو أحسوا أن في المساجد عظما ، نعم عظما لسارعوا إليه وتطاحنوا عليه تقبيحا وتنفيرا وترهيبا .

الآلية :

قال رسول الله ﷺ :

١- « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه »[١].

٢- في دعائه ﷺ « أسألك لسانا صادقا ، وقلبا سليما »[٢].

٣- عن ثوبان ﷺ : قال : لما نزلت ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة:٣٤) ، كنا مع النبي ﷺ في سفر فقال بعض أصحابه : يا رسول الله أنزل في الذهب والفضة ما أنزل لو علمنا أن نتخذه ، فقال : « أفضله لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه »[٣].

٤- « إنها ستكون فتنة تستنظف العرب ، قتلاها في النار ، اللسان فيها أشد من وقع السيف »[٤].

ونلاحظ في هذه المجموعة كلمة « لسان » تكررت أربع مرات تجوزا لا يراد بها حقيقتها مع اختلاف جهة المعنى والمراد كل مرة ، وهذا من البيان .

---

(١) التاج الجامع ٣/٣١٣ .
(٢) المرجع السابق ٥/١٢٢ .
(٣) المرجع السابق ٣/١٣٢ .
(٤) المرجع السابق ٥/٣٠٣ .

والحديث الأول : مدح لعمر ﷺ بأن الحق في قوله وبيانه ، واللسان آلة القول وأداته مبالغة في قول الحق وأنه تعدى البيان إلى اللسان ، فالحق مركب موضوع عليه يتحرك به كيفما كان .

وفي التضرع النبوي يراد باللسان الصادق : الذكر الحسن ، دنيا وأخرى ، واللسان هنا أعم معنى من الأول لأن النبي ﷺ زفع ذكره بين العالمين مقرونا باسم الله تعالى إلى يوم الدين وكذلك في الآخرة ، وقد ذكر اللسان لأنه آلة الذكر ، فكأن الذكر الطيب تجسد لسانا ناطقًا مع ما في اللسان من وصفه بالصدق تضرعا يرفع الدرجة وصالح العمل وبقاء الأثر .

وفي الثالث نسبة الذكر إلى اللسان والذاكر هو صاحبه بمشاعره وإرادته واللسان معبر عما في القلب فهو آلة الذكر المفصح عنه ، وقد بولغ في الذكر دعوة إليه حتى صح أن توصف به آلته نفسها دلالة على كثرته واستمراره .

واللسان في الأحاديث الثلاثة استعمل مجازا في القول الخير .

أما الحديث الأخير في اللسان فقد جاء فيه في معرض الذم مصورا الأقوال الثائرة والكلمات الفائرة ، والخطب الملتهبة والأقاويل المغرضة التي تؤجج الفتن ، وقد عبر باللسان عما يعرفه الخيال أيام الفتن الهوج ، لأنه أداتها الحبارة ، وآلتها المخيفة ، ولقد وفر باقي الحديث للمجاز مضاءة اللسان فيها أشد وقعا من السيف ، لأن السيف قد يقتل أعدادا ، أما اللسان فإنه يحصد شعوبا ، ولذا كان الذم والوعيد ، وكان التصوير معرضه ووسيلته .

وقد بقي من الحديث الثالث قوله « وقلب شاكر » والمراد صاحب القلب الذي يشكر نعم الله تعالى ، والشكر شعور موطنه القلب ، وهو شعور غطى على غيره من المشاعر فأصبح وصف الشكر ملازما للقلب ، كما أن القلب مع كونه موطن الشكر هو أيضًا أغلى الأجزاء فنسب الشكر إليه وكأنما تحول المرء كله قلبا شاكرا والعلاقة هنا المحلية والجزئية بالاعتبار كما وضحت .

اللازمية والملزومية :

قال رسول الله ﷺ : ١- «للصحابي» «صم شهر الصبر ، ويوما من كل شهر»[1].

٢- «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فكفر عن يمينك وآت الذي هو خير»[2].

٣- «لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبري عيدًا ، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»[3].

والواقع أن اللزوم الذهني متحقق في كل ضروب المجاز لأنه انتقال من لازم إلى ملزوم ، ونوع من تداعي المعاني في الذهن والخيال ، بيد أن اللزوم هنا أقوى من اللزوم العام ، ولذا كان علاقة مستقلة في كتب البيان .

وفي الأحاديث نجد المبالغة في التصوير قد تعدت الملزوم إلى اللازم فصورته بصورته فرمضان بما فيه من حرمان وإمساك عن المتع يلزمه الصبر الشديد عنها ، فكأن الصبر أبرز ما فيه ، وأوضح معالمه ، فبالغ في الصبر ، ونسب إليه الشهر فهو شهر الصبر ترغيبا فيهما جميعا .

وفي حديث «اليمين» ليس الهدف المفاضلة بين صيغ اليمين لامتناعها عقلا وشرعا ، وإنما المراد من حلف على فعل شيء أو تركه ، ولما كان اليمين تقتضي محلوفا عليه ، للتلازم الذهني بينهما عبر عن المحلوف عليه باليمين تعبيرا يرسب الحذر والحيطة ، عند اللجوء لتأكيد أمر المقسم عليه ذلك أن الأمر المقسم عليه ليس ثوب القسم وكل حرمته فليتحر المرء أعماله ولا يغامر باليمين كلما حلاله ، تنفيرا وتوجيهًا .

والحديث الأخير : صور الاحتشاد والجمرة ونية التجمع ، بالعيد لأنه من لوازمه ومن أخص سماته ، على أن المجاز هنا يحسن تصويره كأنما ليخفف

---

(١) التاج الجامع ٩١/٢ .

(٢) المرجع السابق ٨٦/٣ .

(٣) المرجع السابق ٧٥/٤ .

التوتر الشعوري الحزين في لفظ «قبري» فهنا تعادل شعوري بين اللفظين ثم إن العيد قد يحدث فيه من المباح أو المكروه أو ما لا يليق بجلال المقام النبوي فهي كلمة مجازية موحية لها أكثر من جهة وكلها مراد متصور في المعنى والأسلوب .

ثالثًا : المجاز العقلي

قال رسول الله ﷺ : ١- من حديث عبد الله بن مسعود ، «فو الله الذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[(١)].

٢- «إن هذا المال خضرة حلوة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا أو يلم»[(٢)].

٣- من حديث أبي هريرة «ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[(٣)].

٤- «إن خير أكحالكم الإثمد يجلو البصر ، وينبت الشعر»[(٤)].

٥- «شر ما في الرجل شح هالع ، وجبن خالع»[(٥)].

٦- من دعائه ﷺ «اللهم استر عوراتي ، وآمن روعاتي»[(٦)].

٧- «ما من مسلم يصيبه أذى ، شوكة فما فوقها ، إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»[(٧)].

---

(١) التاج الجامع ٣٨/١ .

(٢) المرجع السابق ١٦٣/٥ .

(٣) المرجع السابق ٦٣/١ .

(٤) المرجع السابق ١٥٥/٣ .

(٥) المرجع السابق ٣٧١/٤ .

(٦) المرجع السابق ١٠٧/٥ .

(٧) المرجع السابق ١٩٥/٣ .

ونلاحظ في هذه الأحاديث ضربا من التجوز غير ما سلف ، ذلك أن الكلمة هنا مسند أو مسند إليها أو فضلة جاءت على أصلها وحتى إن وقع فيها التجوز فهو لغوى ، وإنما التجوز في الإسناد أو في طريقة إثبات الحكم ، ولذا وصف بأنه مجاز عقلي أو حكمي .

والحديث الأول في القدر : يبين أن الله كتب السعداء والأشقياء في اللوح المحفوظ قبل الخلق ، وكتبته الملائكة عندها ، فالمرء ميسر لما خلق له ، يسير وفق ما خط عليه في الكتاب ، فجعل الكتاب مالك أمره ، وموجه قدره ، ومصيره ، فقال : فيسبق عليه الكتاب ، فأسند الفعل إلى محله ، تصويرا لخطورة الكتاب والمكتوب جميعا ، بيانا للعجز الإنساني ، وقوة نفاذ الكتاب ، وسيطرته على سير حياة الإنسان بقدر لا يحيد عنه مع الإيجاز البليغ .

والحديث الثاني : سبق في الاستعارة التمثيلية تصويرا لحال الدنيا والناجي فيها ، والهالك ، وقد كان للتجوز الحكمي دور في الصورة ، فالعبارة «كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا أو يلم» نجد الإنبات والربيع على وضعهما اللغوي والتجوز في إسناد الإنبات إلى الربيع والأصل : «كل ما أنبت الله وقت الربيع ، ولنسج صور فنية طويت العبارة ، وأسند الإنبات إلى فاعل مجازي له ملابسة للفاعل الحقيقي ، ذلك أن الربيع زمن ، يهيئ الله فيه الظروف الطبيعية للنبات فينمو ويخضر ، والتصوير هنا يخيل أن الإنبات قد تكاثر وطغى بصورة جعلت الزمن نفسه وهو معنى ينبت تخييلا ، وفي العبارة مجاز آخر بإسناد القتل حبطا إلى ضمير كل ، وهو نبات الربيع تصويرا لأثره ، وسببيته الظاهرة في القتل ، معناها للفاعل الحقيقي ، مبالغة وتخييلا».

والحديث الثالث : نجد علاقة التجوز السببية «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» فأسند بطأ إلى العمل ، وهو معنى معقول ، والمعنى : من أخره الله بسبب عمله السيئ ، فأسند الفعل إلى العمل مبالغة في مدخليته في الحدث ، لأنه سببه ، ونجد هنا قوة الترغيب في العمل الصالح ، ومزيدا للترهيب من سيئ العمل ، لأنه يؤخر صاحبه يوم القيامة ، كما نجد الإسراع المنفي مسندا

إلى النسب لنفي توهم أن النسب له دخل في الشفاعة والسرعة إلى الرضوان حسب عرف الجاهلية .

وفي الحديث الرابع : جاء المجاز العقلي في وصف طبيعة الإثمد ، وبيان أثره توجيها للنافع المفيد «الإثمد ينبت الشعر» والإثمد لا ينبت بنفسه ، ولكنه سبب ظاهري ، ولما كان الناس بالظاهر نسب إليه الإنبات ، مبالغة في أهميته وتصويرا لحسن أثره .

أما الحديث : «شر ما في الرجل شح هالع ، وجبن خالع» في التنفير من الشح والجبن فنجد طبيعة التركيب المعجز في الحديث : أسلوبا جامعا حكيما فيه تصوير وإيحاء يعالج طبيعتين تمسخان الإنسان وقد توفر هنا ما يلي :

١- إسناد الهلع ، وهو شدة الرعب إلى الشح ، وإسناد الخلع الواقع على القلب ، والمقصود فظاعة الخوف إلى ضميري الشح والجبن فاعلين مجازيين مبالغة فيما يجره الشح والجبن من هلع ورعب ، كأنهما وصلا درجة تخطت الفاعل الحقيقي إلى السبب الباعث ، وهو وصف غرزي اقتدارًا في العبارة وبراعة في التصوير وشدة في المبالغة .

٢- حذف المفعول في هالع والخالع ، وهو في الأول صاحب الشح والثاني قلبه ، تحقيرا ، وأن الهلع والخوف والخلع قد محاه محوا من عالم الرجولة ، فليمح من دنيا الأساليب ، وهو من التلاؤم بين طبيعة البشر ، وطبيعة الأساليب سحرا في البيان ، مع الموازنة والسجع بالإيقاع المعبر بتكرار مقطع واحد ، حركة فسكون سريعين في «شح ، جبن» وضغطا في الصفة بيانا لأثرها الضاغط في النفوس ، ثم فتحة طويلة في «هالع وخالع» بيانا لانتشار هذا الشعور الجارف من الهلع والخوف ، كل هذا وفر للمجاز قوته وحدته .

والحديث التالي «في التضرع» «استر عوراتي ، وآمن روعاتي» ، ولا يخفى بادي الرأي خفة الإيقاع ، وجمال التجنيس ، مع هذا التصوير في النسب

الإنشائية بطلب إيقاع الأمن على الروعات ، والروعة والخوف مصدر لا يأمن ، وإنما يأمن صاحبه ، وأصل العبارة : أمنى من روعاتي «فحذف المفعول الحقيقي» ياء المتكلم ، وحذف حرف الجر ، وأوقع الفعل على المفعول المجازي لما له من أثر في القلوب والنفوس ، كأن الروع والخوف طغى واحتد حتى صح أن يوصف به المصدر ، فالروعات خائفة فطلب أمنها ، وتهدئ روعها تخييلا بارعا وتصويرا فذا .

والحديث الأخير : يرغب في الصبر على الأذى بأنواعه ، ببيان أثره في غفران الذنوب :

ولقد صور فيه سرعة المغفرة ومحو الذنوب بمظهر طبيعي زمن الخريف حين تتساقط الأوراق الصفراء تاركة جسم الشجرة القوي المتين .

وقد قام المجاز العقلي بدوره في إتمام الصورة بإسناد حط الأوراق إلى الشجرة ، وهذا الانفصال بقطع الغذاء بتدبير الله وحكمته في سنن الطبيعة فأسند الحط إلى الشجرة لأنها مكان الأوراق وأصلها ، استحضارا للصورة وبيانا لأثر الشجرة الأم لأنها أبرز ما في الصورة مبالغة وتخييلا وتتميمًا للتشبيه في الترغيب في الصبر والرضا بقضاء الله .

* * *

الفصل الثالث

الكنايات النبوية

تمهيد:

ترجع الأساليب البيانية، ومنها الكناية، إلى ظاهرة نفسية هامة في الحياة العقلية، وهي ظاهرة: «تداعي المعاني» والتلازم بين المكني والمكني عنه، عامل من عوامل هذا التداعي في أذهان الناس، وإن كان يأتي في صور مختلفة باختلاف تجاربهم، ومعارفهم ومواضع اهتمامهم، وأحوالهم، فالكناية رمز له مدلول خاص، يعطي التعبير اتساعا ويبعث على التفكير، وإعمال الذهن وقد يكون وسيلة للارتفاع بالأساليب عن التصريح بما لا تحث ذكره، مع حسن التصوير، وتقوية المعنى [1].

وما عده المحدثون تداعي المعاني، يدعى لدى الأقدمين بالتلازم الذهني، فمبنى الكناية كما صححه المتأخرون: الانتقال من الملزوم إلى اللازم، ووجود الملزوم يقتضي وجود اللازم، لامتناع انفكاك الملزوم عن اللازم، وعلى ذلك فالكناية دعوى الشيء ببينة وبرهان، ومع الإفصاح مدعى لا ببينه [2].

ولقد كانت الكناية مفتاحا للرمزية، كمذهب أدبي يحدث، من حيث تصوير الحقائق والمعاني بشيء من الخفاء، وفي هذا الخفاء يكمن السحر، حيث لا يقطع على الخيال رحلته في عالم المعاني [3].

---

(١) انظر: الأصول الفنية للأدب، الأستاذ عبد الحميد حسن ص ١٨٢، وتطور الأساليب النثرية ١/٧٣.

(٢) راجع: مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٩٤، والمطول ص ٤٠٨-٤١٣.

(٣) انظر: دراسات في علم النفس الأدبي ص ٤٦.

ونلتقي مع الكنايات النبوية لنرى ، كيف جاءت على نسق طبعي لا كلفة فيه وكيف سبقت إلى لقطات نافذة ، جمعت بين جمال التصوير ، وتدعيم المعنى ، مع الإيجاز ، واللمح دون تبسط في الإيضاح ، واختيار الألفاظ الموحية الدالة ، وأود أن أنبه إلى :

إن البيان النبوي ما اختار الكناية لأنها كناية ، أو التصريح لأنه تصريح بل هنا وضع خاص اقتضاه المقام ، وكان التصريح فيه أبلغ ، فأتى به ترهيبا أو تشريعا أو الكناية أوقع ، فأتى بها تنفيرا ، من قولهم لكل مقام مقال .

وأخرى أنبه إليها ، ذلك أنني وجدت ما كان كناية عن صفة أكثر من غيره موصوفا أو نسبة ، ولعل ذلك لأن المرء مجموع صفات تغييره بتغييرها ، وكان الهدي المحمدي ينفث في الإنسان روحا ، ويبدله خلقا آخر ، فلا جرم أن الكنايات عن صفات أكثر وأغزر وأبرز ، ويمكن تنويع الكنايات عن صفة إلى نوعين ، كناية عن صفة محمودة وأخرى عن صفة غير مرضية .

١- الكناية عن صفة :

أ- الكناية عن صفة محمودة :

ـ من تسبيح الرسول ﷺ : «سمع الله لمن حمده ـ ربنا ولك الحمد ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شئ بعد»[(١)].

ـ قال رسول الله ﷺ : من السبعة المرضى عنهم «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[(٢)].

ـ «اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[(٣)].

ـ «جعل رزقي تحت ظل رمحي»[(٤)].

---

(١) التاج الجامع ١/١٩١ .

(٢) المرجع السابق ١/٢٣١ .

(٣) المرجع السابق ٤/٣٢٩ .

(٤) المرجع السابق ٤/٣٦٠ .

- قوله لأنس ﷺ «ياذا الأذنين»[1].

- «أفضل الأعمال الحال المرتحل، قالوا: وما الحال المرتحل: قال: أن تختم القرآن ثم تفتحه»[2].

- من حديث أم زرع «له إبل قليلات المسارح، كثيرات المبارك، إذا سمعن صوت المزاهر أيقن أنهن هوالك»[3].

منه أنها تحت ظل سلاحه، والكناية تغني عن كثير من الإيضاح حول قرب الجنة وسرعة الشهيد إليها، وما أبرعها أكدت القرب وخلصت الإيجاز، وأبلغت في الترغيب وأثرت في القلوب، وهذا التلازم وشدة القرب والمبالغة فيه بإيحاءاته المتشعبة نجده في الأحاديث «جعل رزقي تحت ظل رمحي»، «والجنة تحت أقدام الأمهات»[4]، «والخيل معقودة في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم»[5].

حسن الاستماع: «ياذا الأذنين» مداعبة الرسول ﷺ بالحق لأنس تلميذه وخادمه، والكناية تعني شدة الانتباه، وعظيم الحرص على العلم واستماعه مع دلالتها على الفطنة والذكاء، ودعوتها إلى كمال التعلم، ومهارة التلمذه وحسن الطاعة.

دوام التلاوة للقرآن: «الحال المرتحل»، الفاتح المختتم، دليل على مداومة التلاوة مع التصوير البارع، إن القارئ في سفر شائق، لا يحفل في منزل إلا ريثما يرتحل، وهي كناية لها ظلالها: أليس المسافر يكتشف الجديد دائما، يعلم نفسه، ويهذب خبرته، ويمتع فؤاده وحواسه، هو في جديد لا يمل كذلك قارئ القرآن المديم قراءته.

---

(١) التاج الجامع ٥/٥٦.
(٢) كنايات الجرجاني ٩.
(٣) التاج الجامع ٢/٣١٨.
(٤) المرجع السابق ٤/٣٦٠.
(٥) المرجع السابق ٤/٣٤٩.

فضل الصيام : عليك بالصيام فإنه لا مثل له ، والكناية في نفس المثل ، كأن الصيام تفرد بميزات كبار ، وثواب جزيل ، فهو ضرب وحده ، لا مثيل له ، ونفى المثل عن الشيء دليل تفوقه وفضله ، دعوة إليه ، وترغيبا فيه .

عزيمة قوية : «لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي هذه» : لقد أثار هذا الحديث البلاغيين حقا ، وقل من حلله ، قال ابن الأثير : «هذا الحديث من جوامع الكلم ، وهو من الفصاحة والبلاغة على غاية لا ينتهي إليها وصف واصف»(1) .

وقال العلوي : «وهذا الحديث قد جمع بين المحاسن ، والإحاطة في بلاغة المعاني وفصاحة الألفاظ ، ما لا يقدر على وصفه قائل ، ولا يستوي على حصر لطائفه مجيب ولا سائل»(2) .

وإذا كان هذا الضرب من النقد لا يفيد في كشف الأسرار الجمالية ، فإننا نجد عند الرافعي ما يغني على طريقته الأدبية التحليلية دون تسمية لون بلاغي ، قال : «فتأمل قوله عليه الصلاة والسلام» «حتى تنفرد سالفتي هذه» ، وكيف تصور معنى الانفراد الذي لا يستوحش منه ، لأن الثقة فيه بالله ، والقلة التي لا يخاف منها لأن الكثرة فيها من الله ، والاستماتة التي لا تردد معها لأن الأمر فيها إلى الله ، وانظر كيف يصف العزيمة بالحذاء ، وكيف تفرع بالوعيد والتهديد ، وكيف تغني في جواب القوم ما لا تغنيه الرسائل الطوال ، وإنها لكلمة بمعركة(3) . دين الله ، والعزم الثائر على إبلاغ الرسالة حتى الموت ، وقد وفر بناء العبارة ما نحس منها : فجاءت لفظة «تنفرد» بمدلولها الخاطف ، لا يغني عنها تقتطع أو تظهر ، مناسبة للتفرد بالرسالة ، والتفرد بالتهديد والعزم على التضحية ، وقد جاءت بين إشارتين : أمري هذا وسالفتي هذه ،

---

(1) المثل السائر ٢/٣٤٣ .
(2) الطراز ٢/١٢٣ .
(3) إعجاز القرآن ، الرافعي ٣٧٢ .

استحضارًا وتقوية ، والكناية هنا : دعوة بدليلها ، ونتيجة ببرهانها ، تصويرا وإنذارا وإنها لكلمة بمعركة حقا .

الرقة والخوف : «قلوبهم مثل أفئدة الطير» ، كناية عن الرقة والخوف ، فهى قلوب ، كلما ذكرت ربها ، وجلت واضطربت ، وتمثلت جلاله وعظمته ، فمادت وخشعت ، فكان جزاؤهم دخول الجنة ، لأن الخائف من الله دائمًا مؤد لرسالته الإنسانية ، ولقد جاءت كناية في حديث الرؤيا «وهى على رجل طائر ما لم يتحدث بها فإذا تحدث بها سقطت»[1] ، والكناية هنا «على رجل طائر» تعبر عن الاضطراب وعدم الاستقرار ، قال ابن قتيبة «والعرب يقولون للشيء إذا لم يستقر هو على رجل طائر ، وبين مخاليب طائر ، وعلى قرن ظبي ، يريدون أنه لا يطمئن ولا يقف»[2]

الامتثال والطاعة : «لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة بالسجود لزوجها» وهو حديث يتوج ما ورد في الدعوة إلى طاعة المرأة زوجها ، ثم هو كناية عن شدة الطاعة ، وعظيم الانقياد ، مع الحب والإخلاص ، والسجود أدل على تمام الخضوع والتسليم وكمال الانقياد ؛ ولذا خص بعبادة الله وحده ولو حدث بين العباد لكانت الزوجة أحق ، وهو درس في تعليم حقوق الرجل وتقديره والإخلاص له حتى تسعد الأسرة ويسعد المجتمع .

وبكل ما سبق من كنايات عن صفات طيبة نرد على ابن أبي الإصبع ، حيث تعجل فجعل الكناية النبوية «أن يعبر المتكلم عن المعنى القبيح ، باللفظ الحسن وعن الفاحش بالطاهر» ، ثم قال : وفي السنة النبوية ما لا يكاد يحصى كقوله ﷺ «لا يضع العصا على كتفه» كناية عن كثرة الضرب ، أو كثرة السفر[3].

---

(١) التاج الجامع ٣٥٦/٤ .

(٢) انظر تأويل مختلف الحديث ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

(٣) انظر : تحرير التحبير ١٤٤/١ .

كنايات عن صفات غير طيبة :

وهنا نجد الطب النبوي يعالج بالإيحاء النفسي تصويرا ، فلم يفصح عن الصفة ويذكر لازمها لمجرد التنفير بل طلبا للتغيير وإيقافا على أثرها السيء .

قال رسول الله ﷺ : « إذا مشت أمتى المطيطا ، وخدمها أبناء الملوك ، أبناء فارس والروم سلط شرارها على خيارها »[1].

ـ قالت عائشة رضى الله عنها حسبت من صفية كذا وكذا تعني أنها قصيرة ، فقال عليه الصلاة والسلام ، « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته »[2].

ـ « من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له »[3].

ـ « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، أو يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه »[4].

ـ « صنفان من أهل النار لم أجدهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها »[5].

ـ « رغم أنفه (ثلاثا) من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة »[6].

ـ من حديث خلق آدم « فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو ، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك »[7].

---

(١) التاج الجامع ٣٤٤/٥ .

(٢) المرجع السابق ٢٥/٥ .

(٣) المرجع السابق ٢٦٦/٥ .

(٤) المرجع السابق ٥٤٢/٦ .

(٥) المرجع السابق ٢٧٩/٢ .

(٦) المرجع السابق ٤/٥ .

(٧) المرجع السابق ٤٨/٥ .

- «لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»[1].

- من حديث عدى بن حاتم وآية الصيام «قلت يا رسول الله إني أجعل تحت وسادتي عقالين، عقال أبيض، وعقال أسود، أعرف الليل من النهار، فقال عليه الصلاة والسلام، إن وسادك لعريض، إنما هو الليل والنهار».

قوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها حين راجعته في صلاة أبي بكر بالناس «مرى أبا بكر فليصل بالناس، فإنكن صواحب يوسف»[2].

بهذه الجملة من الأحاديث: صفات عبرت عنها الكناية بذكاء، ودلت عليها بطريق أقوى.

١- **الترف والكبر:** «إذا مشت أمتى المطيطا، وخدمها أبناء الملوك»: كنى عن الخيلاء والكبر بهذه المشية لأنها دليلها، وهي مشية توضح كلمتها بحروفها معنى الرخاوة والتثاقل الذي أورثه الترف والكبر، ثم إذا وصلت في الغنى إلى ما لا حد له، وقد عبر بهذه الكناية «خدمها أبناء الملوك» عن ذلك، فهو غنى فاحش وكبرياء صفتان معنويتان أكدتهما الكناية بإثبات لازمها الحسى مبالغة وإيجازا، ومقدمة لما يترتب عليها من دمار الأخلاق، وتسلط الأشرار.

٢- **الغيبة:** «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»، وهو تصوير صارخ لشدة النتن وقبح الرائحة بما يخالط البحر مخالطة يتغير بها طعمه وريحه تنفيرا مؤثرا عن صفة الغيبة، فهى كناية عن صفة لكن المرء يفتنه هذا التعبير: ففيه:

١- تصوير المعنوي «الكلمة» بصورة المرئي المحسوس «يمزج».

٢- إثبات النتن والقبح - عن طريق الكناية - لهذه الكلمة، ثم المبالغة إلى درجة تغير ما لا يتغير وهو البحر.

---

(١) التاج الجامع ١٦٢/٥.

(٢) المرجع السابق ٢٧٠/١.

٣- أتى بالدليل على المدلول ، وبالبينة على الدعوى تأكيدا .

٤- هذا الإيحاء في الكناية يخلق جوا من النفور والتقزز من هذه الصفة .

٥- أعطت المبالغة والإيجاز فسحة للخيال يذهب في التصور كل مذهب .

حب الدنيا وآثاره : « من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله »، ثلاث كنايات عن ثلاث صفات ، الأولى سبب في الآخرين :

١- من كانت الدنيا همه : كناية عن حبها والحرص عليها ، فقد جمع بين المعنى ودليله في قوة ذلك أن الهموم إذا صارت هما واحدا ، وشغلا شاغلا انصب على الدنيا ليلا ونهارا ، يقعد المرء ويقيمه فقد بلغ الشغف بالدنيا مداه ، والحرص عليها منتهاه ، وترتب على ذلك نفسيًا :

٢- جعل الله فقره بين عينيه : كناية عن قرب الفقر ، وشدة الفزع منه ، ولا يمكن لأسلوب بياني آخر أن يؤدي ما أدته الكناية هنا من تصوير الرعب الشديد من الإملاق ، فالإنسان ينصب ليغني ، ويبعد عن الفقر ، وكلما قرب الفقر منه أصابه الفزع ، فيجد في طلب اليسار ، لكن ما بالك بالفقر أقرب إليه من يديه ، وبحيث لا يغيب عن ناظريه ، إنه قرب قريب ، فزع غريب لأنه بين عينيه ، وهو أمر ملازمه ، ولا يستطيع منه فرارا ، ثم :

٣- « فرق عليه شمله » ، كناية عن اضطراب مشاعره ، وتوزع أهوائه ، وتشعب قلبه بالمطامع والآمال ، فهذه ثلاث كنايات نصبت أدلتها ، وتدرجت في الصفات النفسية والمبالغة فيها ، وضربت في أفانين التخييل ، تحذيرًا من الدنيا وما يترتب على حبها .

الغباء والبلادة : وفيهما حديثان أولهما مداعبة ، والثاني ذم وترهيب .

١- « إن وسادك لعريض » وهو متعالم بقول الزمخشري « وروى: لعريض القفا » قلت غفل عن البيان ، ولذلك عرض رسول الله ﷺ قفاه ، لأنه مما يستدل به على بلاهة الرجل ، وقلة فطنته ، وأنشدتني بعض البدويات :

عريض القفـا ميزانـه في شمالـه قـد   انحسر من حب القـراريط شـاربه[1].

٢- «ألا يوشك رجل شبعان على أريكته».

كناية عن البلادة وقلة الفهم ، وفيه تصوير حسي بديع ، فهنا رجل أكل حتى أتخم وتمتع حتى بطر ، ثم اضطجع على أريكته في كسل وخمول يناقش متسليا أخطر قضايا الدين ، لقد طغى الترف على عقله فلم يبق إلا الغباء والبلادة .

ونلمح مع الذم التهكم بهذا الغر الجهول ، ويقترن في ذهني هذا التصوير الكنائي بتصوير في حديث آخر ، يأتـي الرجـل السمين العظيم يـوم القيـامـة لا يزن عند الله جناح بعوضة[2]، وإن كانت الكناية هنا عن صفة البوار والخسار وقد أكملت بناء الأسلوب ، مقتصرة على دليل الصفة «لا يزن جناح بعوضة» وهل جناح البعوضة مما يوزن به ، إنه تصوير بالغ في ضياع العمل ، وحين تقرن هذه الخفة المجازية بتلك السمنة والضخامة في الدنيا تبلغ الإثارة مداها والتهكم غايته ، فالصورة يتقابل وجهها مرسومة بريشة صناع ، وبالكناية يتحقق الغرض من الدعوة إلى العمل الصالح حتى لا يكون المرء طبلا أجوف لا عقل له بل كجناح بعوضة تافهة .

الظلم والسفور :

«قوم معهم سياط كأذناب البقر» فقد كنى عن الظلم بإثبات آلته وأداته فهنا ظلم صارخ تمثل في سياط تلهب ظهور الناس تمثيلا حسيًا للتنفير والوعيد ، وكنى بقوله «كاسيات عاريات» عن لبس الشفاف من الأثواب يبدي ويثير دلالة على ضعف الدين ، ويسرن «مائلات مميلات» كناية عن الخلاعة والتبرج ، و «على رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة» كناية عن السفور وإبداء الزينة ، ثم نسب هذه الصفات الرذلة لصنف من النساء جمعه مع الظالمين في أنهما من أهل النار لتحقق نوع من الظلم في كل صنف .

---

(١) الكشاف للزمخشري ١/١٧٥ .   (٢) رياض الصالحين للنووي ص ٥٥ .

ويهمنا ما نقلت الكنايات من دقة التجسيم ورسبت من خالد الصور ما جعلها طريفة في زمن التنافس في الخلاعة .

الطمع البشري : «ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب» .

فهو حريص طماع لا يشبع ، وبرهانه أنه لا يملأ جوفه ، وعينيه إلا التراب وهي كناية مؤثرة تصور النهاية مجسمة أمام الإنسان ليرتدع ويقنع ، ثم فيها الحكم النهائي على ابن آدم بهذا الطمع ، ضعفا بشريا يلازمه حتى الموت .

«عليك بالصيام فإنه لا مثل له»[1].

من قوله ﷺ «فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، ولينفذن الله أمره»[2].

«يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير»[3].

«لو كنت آمرا آحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة بالسجود لزوجها»[4].

هذه كنايات عن صفات محمودة ، أفادت المبالغة وقوة الإيحاء وجمال التصوير .

كثرة محبوبة : أحمد الله حمدا كثيرا لا يناله حصر أو عد حمدًا يليق بالمنعم وعظيم آلائه ، إنه حمد يملأ السموات ويملأ ما بينهما ، ويملأ ما لا نعلم مما شاء الله من خلقه ، فالكناية هنا عن الكثرة التي لا حد لها في حمد الله وتمجيده ، ولها ظلان : جلال الله العظيم الذي يستحق كل إجلال : وقوة الإيمان عند النبي ﷺ وصدق معرفته بربه جل وعلا .

إخفاء كريم : «حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» دعوة إلى صدقة الخفاء التي تطفئ غضب الرب ، والخفاء هنا يبلغ حدا مثيرا ، وإذا كان المجاز أعطى قوة الإيحاء وجلال التصوير ، فإن التعبير كله مسوق للكناية مبالغة في

---

(١) التاج الجامع : ٢/٥٠ .

(٢) المثل السائر ٢/٣٤٣ .

(٣) رياض الصالحين ص ٢٣ .

(٤) رياض الصالحين ص ٦٠ ، والتاج الجامع ٢/١٣٤ .

إخفاء الصدقة حدا لا مزيد عليه رحمة بالفقير ، ومراعاة لشعوره ، ثم قهرا للنفس وحربا على الرياء ، ودعوة إلى تنافس خفي بين الموسرين يعم المحتاجين .

قرب الغاية : « الجنة تحت ظلال السيوف » كناية عن قربها ، ودليل على هذا القرب ، فالمقاتل يبذل مهجته في سبيل ربه ، وإنه لحبيب إليه وإن رحمة الله وجنته لقريبة .

التطلع إلى الإمارة : عن الإمارة « فنعمت المرضعة ، وبئست الفاطمة ».

قال القاضي أبو العباس الجرجاني « كنى بالمرضعة عن الإمارة ، والفاطمة عن الموت » ، فهنا كنايتان عن الإمارة ، وكنى عنها بالمرضعة تدر لبنها ، وتغذي وليدها ، وتؤويه إلى صدرها فهو في متعة ونعيم ، كذلك الإمارة وما فيها من دنيا ، فجاءت الكناية بالغة من دقة التصوير ولطف التخييل كل مبلغ[1] ، وتعبيره عن الثانية بالموت تسامح ، إنها كناية عن زوال الإمارة بموت أو سواه كما كانت الأولى كناية عن إقبالها ، وهو المفهوم من قول الرضي : « أقام الإمارة في حلاوة أوائلها ، ومرارة أواخرها ، مقام المرضع التي تحسن الرضاع وتسيء الفطام ، ثم يقول : لما في الخارج عنها من طرق السوء وشمات العدو »[2] ، ولا يخفى كيف كان التجوز في خدمة الكناية التي اقتضاها الغرض تأكيدا وتصويرا وإيجازًا تعليمًا وتخويفًا من التهالك على الإمارة .

عقوق الوالدين : « رغم أنفه من أدرك والديه أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة » أراد رغم أنف العاق ؛ لأنه لا يدخل الجنة ، فأتى بدليل الصفة ولازمها الرادع وهو الحرمان من الجنة ، تأكيدا وترهيبا .

---

(١) كنايات الجرجاني : ص ٩ .

(٢) انظر : المجازات النبوية للشريف الرضي : ص ١٨١ ، ١٨٢ .

الضعف البشري : «فجعل إبليس يطيف به ، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك»

والكناية بلغت من الإيجاز والإعجاز ، فقد جمعت وبينت كل ما ركب في الإنسان من غرائز وطبائع تستذله وتدمره بكلمة واحدة «لا يتمالك» دلالة الضعف والانقياد للغرائز ، وبرهان الذلة والاستسلام إلا من عصم الله .

دهاء النساء :

«إنكن صواحب يوسف» كناية عن الخداع ومخالفة الباطن ، ذلك أن السيدة عائشة رضي الله عنها خافت تشاؤم الناس من صلاة أبي بكر ﷺ بالناس في مرض النبي ﷺ ، وقالت إنه رجل رقيق بَكَّاء ، ولم يكن ذلك بخفي عن نور النبوة ، ثم إن المقام جد كله فهو تشريع للتمهيد لخلافة أبي بكر ، والكناية أيضًا لم تواجه السيدة عائشة بما تكره بل علمتها بطريق مهذبة للصراحة وعدم المخادعة ، فأتى بالتعبير كناية عن ذلك كزليخا أضافت النسوة وأظهرت إكرامهن ، ولكن مرادها أن ينظرن جمال يوسف فيعذرنها في محبته[1] ، ثم هنا إيماء إلى الحب والخطأ والعفو الكريم .

صفوة القول : إن الكناية عن صفة أدت دورها في البيان النبوي ترهيبا أو ترغيبا مع قوة التصوير ، والتجسيم ، ودقة التعبير ، والإيحاء المثير ، تركيزًا في الإيجاز وقوة في التأكيد المدعم بالأغراض النبوية .

الكناية عن موصوف :

قال ﷺ : ١- «كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، واستمع الإذن حتى يؤمر بالنفخ»[2].

---

(١) التاج الجامع ٢٧٠/١ هامش ٩ .

(٢) المرجع السابق ٢٦١/٥ .

٢- «شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»[1].

٣- «الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى»[2].

٤- «من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه، أضمن له الجنة»[3].

٥- «لا يحلف أحد عند منبري هذا على يمين آثمة، ولو على سواك أخضر إلا تبوأ مقعده من النار»[4].

هذه أحاديث بها كنايات عن موصوف جاءت فى جميعها تقوي المراد وتؤدي الغرض: الأول: صاحب القرن كناية عن إسرافيل عليه السلام، وذكره بهذه الصفة يتسق مع الغرض العام وهو الإخبار بقرب الساعة، ويقدم صورة نابضة فهذا ملاك موكل بالنفخ أدرك قرب الساعة فالتقم قرنه مسرعا، ثم تحول إحساسه فى أذنيه فما هو إلا أن يسمع الإذن حتى ينفخ فيه.

والثانى: ذو الوجهين، كناية عن المنافق يظهر خلاف ما يبطن، فكأن له وجهين يقابل أعداءه بوجه وأحباءه بوجه آخر، ولقد قام «ذو الوجهين» مقام المنافق المتلون دليلا عليه، وتقبيحاً له، وتبريرا للجزاء.

والثالث والرابع: فيهما كنايات عن أعضاء لها خطرها فى اقتران الآثام، وكأنما كانت الكناية ما يقمع هذه الآفات: البطن و ما حوى - ما بين لحييه - ما بين رجليه سترا ونفوراً وتحذيرا، ثم إيحاء وتأثيرا.

والحديث الأخير: فيه تحريم اليمين الآثمة عند منبر النبى صلى الله عليه وسلم ولو كان على سواك أخضر كناية عن الشيء لا بال له، مبالغة فى القلة وتصويرا يوحى بأن من كذب فى يمينه على شيء تافه عند هذا المكان المقدس، إنما هو زهيد النفس فارغ القلب تخويفا وتعليما.

---

(١) التاج الجامع ٤١٦/٣.

(٢) المرجع السابق ٥٩/٥.

(٣) المرجع السابق ١٨٣/٥.

(٤) المرجع السابق ١٧٩/٥.

والكناية عن موصوف لا غناء فيه تكثر فى البيان النبوى كالحديث :« لقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شىء يواريه إبط بلال » كناية عن القلة غير الكافية بيانا للصمود فى سبيل الله ، وحديث « إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا »[1] كناية عن الحرمان ، بل هو كريم وهاب . .

كما تعالت تعبيرات نبوية كناية عن القلة ، أو الصغر ، كوزن الذرة[2] أو شعيرة[3] أو برة[4] أو حبة خردل[5] أو مثقال حبة من خردل[6] كما اشتهر فى الكثرة :« ولو كان مثل زبد البحر »[7] « ولو كانت مثل قراب الأرض »[8] « ولو كانت كنجوم السماء »[9] إلى غيرك ذلك .

الكناية عن نسبة :

ولن نجد الكثير من هذا النوع في البيان النبوي ونورد هنا ما أورده الزمخشري مثلا قال رحمه الله « يقال أنا فى جنب فلان وجانبه ، وناحيته » وفلان لين الجنب والجانب ، ثم يقول : وهذا من باب الكناية لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه فقد أثبته فيه ألا ترى إلى قوله :

إن السماحة والمروءة والندى . . . فى قبة ضربت على ابن الحشرج

ومنه قول الناس لمكانك فعلت كذا يريدون لأجلك ، وفى الحديث الشريف « من الشرك الخفى أن يصلى الرجل لمكان الرجل »[10]

والكناية هنا واضحة لا لبس فيها . .

---

(١) التاج الجامع ١١١/٣
(٢) المرجع السابق ٣٢/٥
(٣،٤) المرجع السابق ٤٤/١
(٥) المرجع السابق ٢١٦/٥
(٦) المرجع السابق ٢٢٢/٥
(٧) المرجع السابق ٥/ ٨٧
(٨) المرجع السابق ١٥٨/٥
(٩) المرجع السابق ٣٨١/٥
(١٠) انظر : الكشاف ١٠٦/٤

التعريض :

خرج النبى ﷺ يوما وهو محتضن لأحد الحسنين فقال لهما : « إنكما لمن ريحان الله ، وإن آخر وطأة وطأها الله بوج »[1]

والريحان له معنيان : الرزق أو النبت المعلوم ، وقد جعل الشريف الرضي رحمه الله فى « ريحان الله » استعارة على المعنى ، الثاني ، فالولد بمنزلته لأنه يستلذ ويشم ريحه ويستروح إلى استنشاق عرقه ، ولم يطق المحقق مع وجود طرفي التشبيه .

وجعل فى « إن آخر وطأة وطأها الله بوج » إيجازًا بالحذف ، أي وطأها جند الله أو رسول الله بوج ، ثم جعل الكناية فى التعبير بالوطء عن الوقعة ؛ لأن العرب تكنى عن الوقعة أو الحال الشديدة بالوطأة[2].

والمراد أبعد من هذا بكثير اكتشفه ابن الأثير رحمه الله بذوقه وحسه ، فجعله من خفي التعريض وغامضه قال : « والمراد التأسف على مفارقة أولاده ، لقرب وفاته ، لأن غزوة حنين كانت فى شوال سنة ثمان ، ووفاته ﷺ كانت فى ربيع الأول ، من سنة إحدى عشرة ، وبينهما سنتان ونصف ، فكأنه قال : إنكما من ريحان الله ، أى من رزقه ، وأنا مفارقكم عن قريب ، إلا أنه صانع عن قوله « وأنا مفارقكم عن قريب» بقوله « وإن آخر وطأة وطأها الله بوج» وكان تعريضا بما أراده وقصده من قرب وفاته ﷺ »[3]

وعند العلوي نجد هذا التعريض ، وهو المعنى الحاصل عند اللفظ لا به فيما وجدناه عند ابن الأثير ، وبينما يكتفي ابن الأثير بحمل الريحان على الرزق ولا يلمح فيه شيئا نجد العلوي يجعله من قبيل التعريض أيضا ، فيقول :

---

(١) انظر : المجازات النبوية : ص ٦٢

(٢) المرجع السابق : ص ٦٢ ، ٦٣

(٣) المثل السائر : ٧٤/٣

«وضع قوله» إنكما من ريحان الله «موضع الشفقة والحدب ، والعطف عليهما وإعظام المنزلة عنده لهما فعرض به عن ذلك - ثم يقول : فكأن قال : إنكما لمن رزق الله الذى يستراح به ، وتقر به النفس ، وإنى مفارقكم عن قريب ، فانظر إلى هذا التعريض ما أحسن مغزاه وأدق في البلاغة مجراه»[1]

ونضيف هنا :

إن التعريض لما كان من أدق الألوان البيانية ، وأخفاها ، لأنه لا يفهم من اللفظ أو العبارة ، وإنما يفهم من أمور خارجية عنها تعين المراد كان لا يقصد إلا في خطير الأمور ، وفي هذا الحديث كأنما كان النبي ﷺ يقرأ من الغيب ما سيلقاه سبطاه عليهما السلام من أذى وبلاء ، فجاءت هذه الجملة «إنكما من ريحان الله» تعريضا بالحنو والعطف ، وتعريضا بما سيلقياه من أذى ، أليس البلاء على قدر المنزلة ، وأكثر الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، وتكون المناسبة قوية بين هذا التعريض والتعريض بعده بقرب وفاته ﷺ ، وهو وداع فيه أسى خفيف لمفارقته أحبابه وأصحابه ، وما كان لرسول الله ﷺ أن يصرح بقرب وفاته ، فهو لم يؤذن بذلك ، وله أن يعرض ليفهم الخاصة ، أولو الألباب كأبي بكر رضي الله عنه حين سمع رسول الله ﷺ يقول في إحدى خطبه «إن الله خير عبدا بين الدنيا وما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله»[2] فلقد بكى أبو بكر وأدرك خافي التعريض وحده ، وأن الرسول الحبيب نعى نفسه إليهم ﷺ .

* * *

---

(١) انظر : الطراز : ٣٨٩/١

(٢) التاج الجامع : ٣٠٦/٣

الباب الخامس

(علـم البديـع)

الفصل الأول

المحسنات المعنوية

تمهيد :

جاء البديع في البيان النبوي عذبا فطريا له دور في التراكيب صياغة ومعنى ملائما للأغراض معينا على ما تقتضيه المقامات ، غير ملتزم ولا مقصور إليه وإنما كان صوت النفس ، ورجع الحس والوجدان ، وخفيفا لطيفا ، وليس هنا حشد ما اكتشفه البلاغيون وعلماء البديع من ألوان بديعية نيفت على المائتين ، والتماس أمثلة لها نبوية ، فليست تلك طريقة منهجية ، بل كـان منهجنا درس ما تيسر من ألوان بديعية دراسة موضوعية تعين على بيان الأسرار البديعية في الأساليب ، واكتشاف الظواهر البلاغية واضحة مجلوة تبرز نفسها متميزة في البيان الكريم . كما أننا لن نفرق الصفحات ثناء حول بديع النبوة دون دراسة ، بل إن الثناء نفسه سيفرض نفسه من خلال الأساليب النبوية في علاجها بديعيا .

الطباق

تمهيد :

يجعل كثير من المتأخرين الطباق حلية بديعية يقصد إليها ، لتجميل المعنى وتزيينه ، وقد يكون ذلك صحيحا في غير البيان الكريم من أساليب البشر ، أما هنا فقد أدى غرضا من استيعاب الحكم استيعابا كاملا يفي بالمعنى ، أو لعقد مقابلة حسية أو نفسية ، حاضرة أو ماضية ، أو مستقبلة ، تأكيدا للغرض فليس ترفا أسلوبيًا يتخفف منه ، يؤكد ذلك أن الطباق من الأمور الفطرية المذكورة

في الطباع إذ الضد أقرب خطورا بالبال عند ذكر ضده ، قال الإمام عبد القاهر في أسرار البلاغة «أما التطبيق والاستعارة ، وسائر أقسام البديع فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة دون أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب ، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب»ثم يقول«أما التطبيق فأمره أبين وكونه معنويا أجلى وأظهر ، فهو مقابلة الشيء بضده ، والتضاد بين الألفاظ المركبة محال ، وليس لأحكام المقابلة ثَمَّ مجال»[1]

بل لقد جعله بعض النقاد المحدثين طريقة من طرق التصوير ، ووسيلة من وسائل التلحين ورباطا معنويا قويا يجعل الصورة متماسكة قوية ، أو وحدة واحدة في الفكر والخيال[2] وسنجد في البيان النبوي ما يلقى مزيدا من الأضواء .

المجموعة الأولى : (التأسيس)

١- عن النواس بن سمعان قال سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال : «البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في الصدر ، وكرهت أن يطلع عليه الناس»[3]

٢- عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال :«من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[4]

٣- عن أبي موسى من دعاء النبي ﷺ «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير»[5]

---

(١) ص ١٤
(٢) انظر : التصوير الفنى فى القرآن : ص ٨٢
(٣) التاج الجامع ٣/٥
(٤) المرجع السابق ٧٨/٥
(٥) المرجع السابق ١١٩/٥

٤- عن بريدة عن النبي ﷺ «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»[1]

ونلاحظ في هذه المجموعة : في الحديث الأول : أن البر والإثم تعلق بهما غرض السائل وقد وضح البيان أن البر حسن الخلق ، فأعطى البر مفهوما جديدا ولو توقفنا عن البر لجاز أن يفهم أن الإثم سوء الخلق ، لكن النبي ﷺ لا يريد أنها مدلولات خاصة للألفاظ ، فالإثم ما تردد في الصدر وأنف المرء من اطلاع الناس عليه ، والمقام هنا يقتضي الجمع بينهما جوابا للسؤال ومعالجة نهائية لقضية البر والإثم بتحديد مفهومها في ثوب جديد .

وفي الثاني : نجد الطباق بين أحب وأبغض . . ، وأعطى ومنع ، ونلاحظ فطرة التعبير ، وسلامة الطبع في الطباق بين الحب والبغض ، وهما شعوران متضادان ، والعطاء والمنع هما فعلان متقابلان ، ولو اقتصرنا على أحب لله وأعطى لله لأهملنا هذا الجانب الخطير في إيمان المؤمن وهو مقاومته الشر ورفضه البغي ، بل لما كان إيمانا كاملا بل عقيدة مستسلمة مشوهة بائسة ، فكمال الإيمان إذن يقوم على هذه الدعائم الأربع ، وراءها الرغبة فيما عند الله ، ومع هذا التأسيس جاء الجمال يقرن المتضادين في الخيال والذهن في مجال الشعور والسلوك ليتأكد الترغيب في استكمال الإيمان .

وفي ابتهال النبي ﷺ وتضرعه بغفران الذنب نجد مقام الدعاء المقتضى شيئا من التفصيل طمعاً في تحقيق الدعاء : «اغفر لي ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت» نحس السلاسة والطبع ، وهذه النغمة المتموجة التي تناسب مقام التضرع والتذلل مع القصد إلى استيفاء كل جوانب الذنوب التي لم يصرح بها تعليما للحياء من مواجهة الله تعالى بها ، والطباق يجمع بين الماضي والحاضر ، والسر والعلن في فقرات سريعة تبهر الخيال ، ولو لم يذكر : ما أخرت وما أعلنت لترك من الذنوب كثيرا ، وهو طعن بلاغي

(١) التاج الجامع ٣٦/٤

ولا يخفي هنا التواضع النبوي والتعليم وإلا فالنبي الكريم مغفور الذنب ، طاهر الثوب .

وفي الرابع : «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة» ترغيبا في عمارة المساجد بالصلاة فيها خاصة في الأوقات الباعثة على التنافس كالظلمة الحالكة مثلا ، وبراعة الطباق في الجمع بين كلمتين لهما إيحاء خاص في النفس :«الظلم» «النور» وكما جاءت «الظلم» جمعا ليبين استهانة المؤمن المشاء إلى المساجد بالمخاطر «جاء النور فردا» برهان قوته ونفاذه موصوفا «بالتام» مع تناسب الجزاء للعمل فهنا ظلم ، وهناك نور تام ، وفي يوم القيامة ، قوة في الترغيب ، ثم إن الجمع بين حاضر دنيوي فيه معاناة ، وآت في الغيب له وقعه البهيج في قرن واحد في الأسلوب يحث الخيال على جمع هذه اللقطات بين حاضر ومستقبل في صورة كلية فيها ظلم ونور تام ، وهنا الإبداع والإمتاع الفني . .

المجموعة الثانية : (التأكيد)

١- عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «ينادي مناد في أهل الجنة آن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وآن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وآن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وآن لكم أن تنعموا فلا تيئسوا أبدا».[١]

٢- وعنه عن النبي ﷺ من حديث عن الجنة «من دخلها ينعم ولا يبؤس ، ويخلد ولا يموت لا تبلى ثيابهم ، ولا يفنى شبابهم»[٢]

٣- عن أبي موسى قال بعثني رسول الله ﷺ ومعاذ إلى اليمن فقال «يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا»[٣]

---

(١) التاج الجامع ٤٣٢/٥
(٢) المرجع السابق : ٤٣/٥
(٣) المرجع السابق : ٣٦٧/٤

وفي هذه المجموعة نجد الطباق مقررا للحكم مؤكدًا للمعنى ، مثبتا للغرض العام ، والحديث الأول مركز على تحقيق الآمال الإنسانية التي تصطرع في أعماق البشر ويصطرعون في سبيلها ، ولأنها آمال لا تدوم في الدنيا ، لتغيرها وزوالها جاء الطباق بنفي ضد كل صفة تأكيدا ، ونفيًا لتوهم أنها تتغير ، أو تزول قياسا على المرئي في الدنيا ، وإنه لتأكيد أبرع من التأسيس ـ يحقق أمل المؤمنين في رحمة ربهم ، وقوة التأكيد بهذا الظرف المقيد للخلود «أبدا» معقبا به كل صفة مع امتداد حركاته دلالة على الديمومة والأبدية ، ولو قال : آن لكم أن تصحوا وسكت لتوهم أنها متعة مؤقتة ، مع ما في الطباق من الدلالة على التكريم بزف البشرى بخلود هذه النعم بطريق لا ريب فيه ، ومثل ذلك الحديث الثاني أيضاً .

وفي حديث أبي موسى : يوجه إلى صفات لابد من تحلي الداعية إلى الله بها ، لاسيما إذا تعاون معه غيره لنجاح الدعوة ، التيسير على الناس ، وتبشيرهم وتطاوع الدعاة ، وإن افتقدت صفة في الداعى انفض الناس من حوله وأخفق ؛ لذا كان التأكيد والتقرير هنا جد خطير يتطلبه المقام بالدعوة إلى الصفات أولا ، والنهي عن ضدها ، ثم جمع الحسن في مواجهة السيئ من الشيم ، عيانا أمام النظر والخيال ليعمل الترغيب في الأولى ، والتنفير عن أضدادها أثره المؤكد السريع الباقي .

المقابلة

وهي نوع من الطباق بالجمع بين معنيين متوافقين أو أكثر ثم مقابلتها بأضدادها ، ونلاحظ من قراءتنا الدائمة في البيان النبوي ـ الكثرة الكاثرة من المقابلة وتنوعها ، لدخولها في أغراض الدعوة بطريق مباشر ذلك أن المتقابلات بطبيعتها تفرض نفسها في عالم المحسوس ، والمعقول ، والمتخيل ، فهنا الدنيا والآخرة ، والخير والشر ، والخبيث والطيب ، وكل أمر أو حالة له ضد مرغوب فيه أو عنه ، بل إن الشيء الواحد تختلف به الحياة رفعا وخفضا ،

وصلاحا وفسادا ، وخيرا وشرا وإنها لسنة الله تشمل الكائنات جميعها ، لا جرم أن المقابلة تكثر هكذا كما نلاحظ أن المقابلة ـ كالطباق ـ قد تكون للإلمام بأطراف المعنى استيعابا للحكم ، أو تكون للتأكيد والتقرير الذي اقتضاه المقام ، وندرس هنا دور المقابلة في أداء المعنى .

(١) التقابل بين صفتين :

١- عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ «لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال خردل من كبرياء»(١)

٢- عن حراثة بن وهب عن النبي ﷺ قال : «ألا أخبركم بأهل الجنة : كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار : كل عتل جواظ مستكبر»(٢)

٣- عن ابن عمر عن النبي ﷺ «من خطبته يوم فتح مكة» «فالناس رجلان : بر تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله»(٣)

٤- عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «المؤمن غر كريم ـ والكافر خب لئيم»(٤)

والأحاديث جمعت بين نماذج بشريه متقابلة تبدى رضاها عن الأولى بذكر صفاتها الطيبة ، وتنفر من الأخرى بسوق صفاتها السيئة ، وذكر صنف يؤكد الثاني تبعا مع كشف المعنى وجمعها في قرن واحد عقلا وخيالا لاسيما ما يؤكد الإقناع ذكر ما تقبله الفطر السليمة ، والعقول الواعية يمدحه . وفي الأول : تقابل بين صنف من أهل الجنة وآخر من أهل النار ، وذكر لأسباب الحكم وهو اتصاف الأول بالإيمان ولو قليلا ، ونعت الثاني بالكبرياء ، وإن يسيرا ، ونلاحظ أنه جمع في النوع الأول بين النار المنفية والإيمان وقابلها بالجنة المنفية والكبرياء واستحضار الجنة والنار في الخيال،والإيمان والكبرياء،

---

(١) التاج الجامع ٥/٣٢

(٢) المرجع السابق ٥/٣١

(٣) المرجع السابق ٤/٢٤١

(٤) المرجع السابق ٥/٤١

وهما شعوران فيهما شغل لمنافذ النفس زيادة في الترغيب والترهيب ، كما أن ذكر صنف لا يغني عن الآخر .

وفي الحديث الثاني : مقابلة شاملة بين أهل الجنة ، وبين أهل النار وصفات النوع الأول : الضعف والتضعف والتواضع البالغ وإجابة الدعوة ، والثاني غلظ القلب وكثرة التعالي ، والتكبر على الناس ، وهذان النموذجان مشاهدان في دنيا الناس وجمعهما معا : تأليف بين المتناقضات الحسية والنفسية ، لتؤتي المقابلة ثمرتها ، ثم الانتقال بالخيال لمحا بين الجنة المتخيلة إلى الحاضر في الدنيا ثم عودة الخيال في ومضة إلى الآخرة لتخيل النار ، ورجعه القافز إلى تمثل العتل في الدنيا بهذا التلوين والحركة يثبت المعنى ويقوى الصورة ترغيبا وترهيبا على نحو ثابت جميل .

والحديث الثالث يعد موازنة بين صنفين من البشر يتناولان الناس بر تقي كريم على الله تعالى ، وفاجر شقي هين على الله ، ومكونات الصنف الأول : البر والتقوى والكرم على الله ، والثاني بمقابلتها : الفجور والشقاء ، والهوان على الله ، والصفات ، بمضمونها ، وتقابلها بأضدادها ، واستيعابها لعالم ماثل في الواقع ، وفي الخيال مؤكد للترغيب والتنفير مع الجمال الفني ، وكذلك من المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم ، نلاحظ تعانق المقابلة الكاشفة للصورة المؤكدة للمعنى وقد أعان السجع والجناس في خدمة الغرض الداعي إلى التحلي بأخلاق الأول ـ والتخلي عن صفات الثاني .

المقابلة بين صفتين أو حالتين :

عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال «آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار»[(١)]

عن أبي هريرة ﷺ عن الرسول ﷺ «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً»[(٢)]

---

(١) التاج الجامع ٢٦/١

(٢) المرجع السابق ٢٠٢/٥

وعنه عن النبي ﷺ «بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ، ويمسي كافرا ، ويمسي مؤمنا ، ويصبح كافرا يبيع دينه بغرض من الدنيا»[1]

وفي الأول تقابل بين صفتين نفسيتين الإيمان والحب والنفاق والبغض ليجعل حب الأنصار ، وبغضهم مرتبطا بالعقيدة نفسها ، ذلك أن الرسول الكريم يحبهم ، والله يحبهم فحبهم من الإيمان ، وبغضهم من النفاق دعوة إلى حب هؤلاء العظماء ، وتنفيراً من بغضهم بشكل آكد .

والحديث الثاني : يقابل حالتين لموصوف واحد يتعاقبان عليه ، وذلك ينقل شعور الخوف إلى المخاطبين من عوالم مجهولة يبصرها ﷺ ، ويرى ما يبعث الرعب ، والجلال الخالص لله ، من جنة ونار وعجائب في ملكوت الله ، وقد قابل بين حال الضحك الدال على الابتهاج موصوفا بالقلة ، وبين حال البكاء الدال على دوام الفكرة والحزن موصوفا بالكثرة وقرن سلوكي الضحك والبكاء المقيدين أثرين لانفعالي السرور والألم في الذهن والخيال بما يقوي غرض الوصف لبث الإجلال لله والخوف منه سبحانه في الصدور .

وفي الحديث الثالث : قابل بين حالتين مختلفتين متعاقبتين لتصوير أثر الفتن وزلزالها الدين في أعماق الإنسان ، فثَمَّ إيمان بالصباح وكفر بالمساء بهذه المقابلة الأولى الدالة على مدى الاضطراب النفسي ، وتوزع المرء بين الفتنة ودينه ، ثم مقابلة أخرى بين إيمان بالمساء وكفر بالصباح دالة على هذا التبدل والتغير بين إيمان وكفر صباحا ومساء ، فهنا مقابلات ثلاث اثنتان جزئيتان وواحدة عامة لتصوير توارد الإيمان والكفر على المرء في كل وقت ، بل إن الوقت الواحد ليتناوبه الشعوران المتناقضان وإنه لاضطراب وزعزة بل إمحاء للإيمان وأثره في النفوس باستيعاب مؤكد ، فلا يمكن الاقتصار على مقابلة أو اثنتين لوصف الخطر الرهيب للفتن ، والتنفير من القرب منها .

---

(١) التاج الجامع ٢٠١/٥

المقابلة في الزمان :

وقد تأتي المقابلة لجمع وقتين متدابرين لتأكيد الصورة وإلهاب الخيال وتثبيت المعنى :

عن عمر ﷺ عن النبي ﷺ : قال « إذا أقبل الليل وأدبر النهار ، وغابت الشمس فقد أفطر الصائم »[1]

والمقابلة هنا بين إقبال الليل ، وإدبار النهار صورة فنية للحظة زمنية يتغير فيها الوجود فتدبر آخر فلول النهار وتقابل أولى طلائع الليل ، وإن المقابلة هنا لتكاد تنطق سحرا مع المجاز الذي بث الحركة والحياة في الليل والنهار ، مع كشف الصورة كشفا يحقق الغرض التشريعي ، وهو تحديد وقت الإفطار للصائم ، وكالحديث عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيئ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[2].

والمقابلة هنا بين حدث في زمنين متقابلين ، فالله يبسط رحمته ليلا ليتوب من أذنب نهارا ، فالفرصة سانحة للتوبة ، ويبسطها بالنهار ليتوب مسيئ الليل مدا للأمل ، ولما كان الزمن ليلا ونهارا ، ولابد للحدث من زمن دل شقا المقابلة على استيفاء المعنى وهو قبول التوبة دائما ترغيبا فيها وحثًا عليها .

تعقيب :

وضح مما سبق كيف أدى الطباق والمقابلة دورهما في البيان النبوي ، تبليغا وتأسيسًا وتأكيدا ، وخدمة لأغراض الدعوة المتنوعة ، وكيف بسطا سلطانهما على الأحداث والمشاعر ، والمكان والزمان تحقيقا للأغراض وإحداث متعة فنية اكسبتها العفوية وسماحة الطبع سحرا وجلالا مما زاد المعاني والأغراض قوة تحقيق وثبات .

---

(١) التاج الجامع ٥٣/٢ (٢) المرجع السابق ١٥٢/٥

قال ابن رشيق في معرض التمثيل للطباق : ومن أفضل كلام البشر قول رسول الله ﷺ في بعض خطبه «فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ، فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار».

فهذا هو المعجز الذي لا تكلف فيه ، ولا طمع في الإتيان بمثله[1].

مراعاة النظير :

وهو أن يجمع في الكلام بين أمرين أو أمور متناسبة لا بالتضاد ، ونقدم الأحاديث :

١- عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما قال : زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم أن النبي ﷺ خرج ذات يوم وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول : « إنكم لتبخلون وتجبنون ـ وإنكم لمن ريحان الله»[2]

٢- عن علي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان ، سفهاء الأحلام ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يقولون من خير قول البرية ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية»[3]

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يدعو : « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال»[4].

وفي الحديث الأول : يوضح عاطفة حب الأولاد ، وأثرها في النفوس ، فالولد امتداد لأبيه ، يحفظ اسمه ، ويرعى سمعته ، ويخلد ذكره ، من هنا كان حب الأولاد صورة من حب الذات بل أشد ، وفي سبيلهم ينسب الآباء إلى البخل والجبن والجهل ، وقد جمع بين هذه الصفات لتناسبها في الذهن ،

---

(١) العمدة لابن رشيق ٨/٢
(٢) التاج الجامع ٨/٥
(٣) المرجع السابق ١٢/٤
(٤) المرجع السابق ٢٠٠/١

وكونها صفات مرذولة ، والغرض من هذا الجمع بيان ما يورثه حب الأولاد من صفات مجمع على كراهتها ، ولا يرضاها لنفسه ما قل ، ولأنها أقبح صفات إنسانية لتأثيرها على علاقات الإنسان جمعها وحدة واحدة ، دون أن يكرر إن واسمها « إنكم » مع كل صفة إيجاز وقرنا متقاربًا بين صفات متناسبة بيانا للغرض .

وفي حديث علي : يحدد صفات الخوارج ، وقد جمع بين حدثاء الأسنان ، وسفهاء الأحلام ، لاقتران حداثة السن بالطيش والهوج لترتبها عليها غالبًا ، بل لو لم يذكر « سفهاء الأحلام » لتوهم من قراءتهم القرآن أنهم متدينون غيورون أو مغالون فاحترس بهذا الوصف ليوضح أنه قد اجتمع فيهم حداثة السن ثم أسوأ ما فيها وهي خفة العقول ، وسفاهة الألباب ، إيماء إلى أنه لا وزن لرأيهم ولا قيمة لعملهم ، والحديث يتنبأ بما سيحدث بعد عصر النبوة تحديدا لصفاتهم ، فالغرض إذن يستدعي هذا الجمع مع الإيجاز بعدم تكرار العامل ، وتوازى الكلمات في نغماتها تقسماتها ؛ مما يجعل الأسلوب كله نابضًا بالجمال .

وحديث أبي هريرة : جمع بين التعوذ من عذاب القبر وعذاب النار لاقترانهما في الخيال والذهن لأن القبر أول منازل الآخرة ، وعذابه مدخل لعذاب النار والدعاء الجامع المحكم يستدعي هذا الجمع بين ما يتعوذ منه في رحلة مهولة مجهولة ، وأقطع مافيها بداية وامتدادا ونهاية ، كما لا يخفي أن التناسب منع من تكرار التعوذ قصدا إلى الإيجاز الذي اتسم به البيان الكريم .

الجمع والتقسيم :

قد جاء على أنحاء مختلفة في البيان النبوي :

منها : الجمع بين شيئين أو أكثر في حكم واحد كالحديث عن أبي بكر ﷺ عن النبي ﷺ « لا يدخل الجنة خب ولا منان ، ولا بخيل »[1].

---

(١) التاج الجامع ٤١/٥

وعن عبد الله بن محصن عن أبيه عن النبي ﷺ قال ، «ومن أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا».

فقد جمع في الأول : الخب الماكر ، والمنان المتطاول ، والبخيل الشحيح في حكم واحد هوالحرمان من الجنة تهديدا وزجرا .

والثاني يبين حقيقة الدنيا بتحديد أهم ما فيها،وهو الأمن والعافية وما يكفي قوت اليوم جمعا لها تحت حكم واحد هو حيازة الدنيا ، تعليمًا للقناعة وحدا من التسابق على الزائل ودفعا للشكر على نعم لا يلقى لها الناس بالا .

ومنه الجمع مع التقسيم :

كقوله ﷺ : «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق»[1]

وعن النبي ﷺ : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر»[2]

وعن النبي ﷺ : «الحياء والعي شعبتان من الإيمان ، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق[3]».

فقد جمع في الحديث الأول خصلتين ، وختم بأنهما لا تجتمعان في مؤمن لأثرهما السيئ على الإيمان : ثم قسمهما إلى البخل وسوء الخلق .

والثاني أتى بالجمع موصوفا بالطرد والغضب الإلهي يوم الدين ثم قسم بأن الثلاثة شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر ، والجمع في عقاب واحد مخيف مقدم ، قوة في الترهيب ، وتشويقا للتقسيم تثبيتا للترهيب من الصفات وذويها .

أما الثالث فقد قسم أولا الحياء والعي والبذاء والبيان ، ثم جمع كلا في حكم واحد ، شعبتان من الإيمان ، وشعبتان من النفاق ، بهذا التعبير الدال ترغيبا وتنفيرا .

---

(١) التاج الجامع ٥/٦٨ (٢) المرجع السابق ٥/٤١

(٣) المرجع السابق ٥/٣١

وقد يجتمع : الجمع مع التقسيم والتفريق .

كقوله ﷺ : «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إنما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة»[1].

فقد جمع الجليس الصالح والجليس السوء تحت المثل ، ثم فرق في المشبه به ، ثم قسم مثبتا أحوال كل ، ولاشك أن التفكير في أحوال البشر مع إلهامات النبوة قد أخرج هذه الحكمة المكتنزة التي تضيء للناس طريقهم في اختيار أصدقائهم والتي اقتضاها الغرض ترغيبا في مجالسة الصالحين ، وتنفيرا من الطالحين ، وبراعة التقسيم هنا في استيفائه أجزاء المعنى ، وهذا ما أطلق عليه «ابن أبي الإصبع» صحة التقسيم[2] ، كمثل الحديث الشريف عن مطرف عن أبيه أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو يقول «ألهاكم التكاثر» قال : يقول ابن آدم ما لي مالي ، وهل لك إلا ما تصدقت فأمضيت ، أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت»[3] والحديث : «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف»[4]

فلا ريب أن المال لا وجه له إلا هذه الأوجه الثلاثة المعتبرة ، اثنان منها فانيان ، والآخر باق مدخر ، كما أن الأرواح بين متعارفة متآلفة ، ومتناكرة متنافرة .

وقد نجد الأسلوب مصوغًا مقسما شاملا للمعنى العام دون جمع إيماء الى استقلال كل قسم في أدائه معنى مستقلاً له دافعه كقول الرسول ﷺ :«اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن»[5]

---

(١) التاج الجامع : ٦/٥ .

(٢) انظر : تحرير التحبير ١٧٦/١

(٣) التاج الجامع : ١٦٣/٥

(٤) المرجع السابق : ٨١/٥

(٥) المرجع السابق : ٦٣/٥

ظاهرة لافتة :

وبعد : فحيثما أردنا معالجة هذا اللون راعتنا كثرة الأحاديث : إن صفحة واحدة من كتاب التاج البالغ خمسة أجزاء لا تكاد تخلو من نوع من هذا اللون وفكرنا في الأمر واهتدينا لتعليل هذه الظاهرة :

لقد كان رسول الله ﷺ كثير التأمل ، طويل الصمت ، وإذا تكلم تكلم بالحكمة ، وعادة ما يقول ثلاثا مترسلا ، متأنيا ، لتتشرب النفوس هديه الكريم ، وليس كالحصر ، والتقسيم والتحديد ما يعين على ذلك سواء شمل هذا الحصر دعائم الدين وأركانه ومبادئه ، أم فضائله وسننه ، وسواء اتجه الكلام إلى عالم الأخلاقيات والمثل أم عالم الواقع الملموس لا يحصره عد بتلك الطريقة مع طرق أخرى استقرت تشريعات النبي في النفوس على مدى الأجيال ، ولما لهذه النظرية من أثر نجد هذه التقسيمات المعتدلة ، والتحديات الدقيقة التي يلجأ إليها العلماء في كل جيل .وقبيل إعانة على الإلمام بجوانب المعرفة .

صفوة القول أن هذا اللون وقد جرى بشكل عام في بيان النبوة ، وقام بأغراضها وأدى أهدافها وبين أسرارها لا يمكن والحال تلك جعله زينة وحلية ذلك أن الزينة إذا كثرت كانت إسرافا يسقط الأسلوب باتفاق البلاغيين ، أما وهذا النبوغ البلاغي كثير كثرة بالغة ولم يزدد الأسلوب إلا نبلا فهو كالتشبيه الذي كثر في البيان النبوي لنجاحه في أداء غرض النبوة لا جرم أننا نضمه إلى الطباق فيما لا يتم النظم إلا به ـ وأن يجعل ـ لونا بلاغيًا ذاتيا إن كان مقتضى مقام ، يدل على ذلك ما ألحق بهذا اللون من لون آخر سماه ابن أبي الإصبع والعلوى بالتوشيع وحدده الأول بأن يأتي المتكلم أو الشاعر باسم مثنى في حشو العجز ثم يأتي تلوه باسمين مفردين هما عين المثنى يكون الأخير منهما قافية بيته أو سجعة كلامه كأنهما تفسير له ثم قال : وقد جاء من ذلك في السنة ما لا يلحق بلاغة وهو قوله ﷺ : «يشب ابن آدم ويشب معه خصلتان

الحرص وطول الأمل»[1] بينما أطلقه العلوي فجعله أن يأتي المتكلم بمثنى يفسره بمعطوف ومعطوف عليه[2] ولا يخفى الجمع والتقسيم هنا وأن التوشيع ذكره البلاغيون من أقسام الإطناب من علم المعاني .

الانسجام :

وقد تعرض له ابن أبي الإصبع فقال :«أن يأتي الكلام متحدراً كتحدر الماء المنسجم ، سهولة سبك وعذوبة ألفاظ ، حتى يكون للجملة من المنثور والبيت من الوزن وقع في النفس وتأثير في القلوب ما ليس لغيره مع خلو من البديع وبعده عن التصنيع ، ثم مثل له من السنة بقوله ﷺ في القرآن :

« إن الله أنزل هذا القرآن آمرا وزاجرا ، وسنة خالية ، ومثلا مضروبًا فيه نبؤكم وخبر ما كان قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، لا يخلفه طول المدد ولا تنقضي عجائبه . . .» الحديث ، ثم قال : «فانظر إلى انسجام هذه العبارة وما جاء فيها من البديع غير مقصود ، تشهد الخواطر السليمة أنه كلام مسترسل غير مرو»[3] وما يلفت النظر حقا هو استيعاب البلاغة التقليدية لكل نظريات النقد الأدبي المعاصر ذلك أن الانسجام يدخل تحته ملاءمة الألفاظ لمعانيها وهو ما نبه إليه ابن الأثير وسماه : ارتباط الألفاظ صوتها بمعناها ، فقال «الألفاظ الجزلة تتخيل في السمع ، كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق ، ولطافة مزاج»[4]

وجاء النقد الحديث يزكي هذا المعلم ويوسع من دائرته فقال « لا سل ابركرمى» قد يراعى في الألفاظ ناحية أدق وأخف : وهي أن يكون بين أصواتها وبين الموضوع ملاءمة بحيث يكون فيها تقليد للشيء الموصوف ، أو وحي إلى الخاطر يصعب تحديده ، ولكنه محسوس ، وهذه الخاصية

---

(١) انظر : تحرير التحبير ٣١٦/٢ ، والطراز ٨٩/٣

(٢) انظر : الطراز ٨/٣

(٣) انظر : تحرير التحبير ٤٢٩/٣-٤٣٢

(٤) انظر : المثل السائر ٢٥٢/١

للكلمات ينظر فيها إلى كل كلمة على حدة ، وتأثير أصواتها ، وقال عن التلاؤم بين الألفاظ :« ولكن هنالك ناحية أخرى لتأثير الكلمات وهي التي ينظر فيها إلى الكلمات متتالية متعاقبة ، وهذا ما يعبر عنه بالانسجام أو موسيقى اللفظ ، فهنا لا ينظر إلى الأصوات ، ونوعها بل إلى تموجات الأصوات وإلى مقدارها في عدة جمل »[1] وهذا التلاؤم بين الألفاظ وبين الموضوع من ناحية ، وبين الألفاظ نغما وموسيقى من ناحية أخرى يحدث ما يسمى بموسيقى النفس التي تتبع الألفاظ نغما وموسيقى ذلك أن الكلام إذا رتب ترتيبا نفسيا يوافق اهتزاز المشاعر ، وتموجات النفس فجاء مطردا منسجما متدفقا في نسق خاص أحدث هذا الطرب النفسي في هذه الموسيقى الخفية ، لأنها ترجمة صوتية عن تجربة الكاتب تعين اللغة على أداء مضمونها الروحي مع الإيحاءات والمعاني الجديدة وهذا ما يقصده البلاغيون من ألفاظ العذوبة والرقة والجزالة والفخامة وغيرها مما يعبر عن رضائهم عن الأسلوب .[2]

والواقع أن موسيقى الحديث النبوي ذات ألوان مختلفة باختلاف موضوعها :

ففي مجال الزجر والترهيب نجد القوة والفخامة ، وفي مجال الترغيب نجد الرقة والشفافية وفي الدعاء قبل النوم هناك الهدوء والاستسلام ، وعند الحرب نجد اللحن الحماسي العنيف[3]

ونأخذ مما سبق :

١- استيعاب البلاغة العربية لمفاهيم النقد الحديث .

---

(١) انظر : قواعد النقد الأدبي ترجمة دكتور محمد عوض محمد ، ص ١٥ ط . لجنة التأليف والنشر ١٩٥٤

(٢) انظر : دراسات فى علم النفس الأدبي للدكتور حامد عبد القادر ص ٩٠-٩٣ ، والأصول الفنية للأدب ، الأستاذ عبد الحميد حسن ص ٣٢ وما بعدها .

(٣) انظر : الحديث النبوي ، الصباغ ص ٧٧ ، وسيدنا محمد فى إبداعه الأدبي ص ٢٤١-٢٤٣ .

٢- تنبه القدماء لأثر الموسيقى ظاهره وخفيه في الأسلوب وإطلاقهم الانسجام والملاءمة وارتباط الألفاظ صوتيًّا بمعناها .

٣- الانسجام صفة ذاتية للأساليب لا تنفك عنها ، وليست لونا بديعيًّا لا يلتزم بل يتبع النظم كقانون بلاغي وضح بجلاء عند عبد القاهر الجرجاني .

وعلى هذا ينضوي تحت الانسجام ما ذكره العلوي من لون آخر هو «الإلهاب والتهييج» قال : وهذا كثير فيما كان واردا في الأوامر والنواهي له ﷺ فإنما كان على جهة الإلهاب على فعل الأوامر - والانكباب عن المناهي ، والتهييج لداعيته وحثا له عليه .[1]

والواقع أن البيان النبوي يعتمد كل وسيلة بيانية وصولا إلى الإثارة الوجدانية والإقناع العقلي حتى تقر مبادئ الرسالة في الأعماق .

* * *

---

(١) انظر : الطراز ١٦٦/٣

الفصل الثاني

المحسنات اللفظية

أولا : السجع

علاقة السجع بالتأثير النفسي :

يكاد يجمع دارسو الأدب على أن موسيقي النفس تتوقف على موسيقى اللفظ ، فكلما تآلفت الكلمات وتناسقت الأصوات اشتد تأثيرها في العقل ، وحسن وقعها في النفس ؛ لأن ثَمَّ صلة وثيقة بين الأصوات والجهاز العصبي ، حيث يتحول ما ينبعث من نغم ورنات إلى مؤثرات في الأوتار العصبية للإنسان فتوقظ العواطف وتثير كامن الانفعال ، وتبعث ألوانا من الذكريات وأفنانا من الأحاسيس والتموجات .

وليس كالسجع مؤثر فإن توالى المقاطع ، وتناسب الفقر ، وحسن الإيقاع وتتابع الأصوات بنظام ، واتساق النظم ، وتوارد الفواصل على حرف واحد مع الاعتدال في مقاطع الكلام كل ذلك يجعل الكلام خفيفا على اللسان ، مقبولا في الأذن ، موافقا لحركات النفس ، مطابقا لطبيعة الفكرة ، أو الصورة أو العاطفة التي يعبر عنها الأديب ، وهذا ما يعبر عنه بالسلاسة والعذوبة والطلاوة[1] على أن ذلك مرجعه إلى الأذن المرهفة ، والفطرة الصافية ، والذوق الفني السليم ، ففي هذه الملكات وضع البارئ جلا وعلا سر الفن كله ، وفي نبي الإسلام ﷺ

---

(١) انظر في هذا : دراسات في علم النفس الأدبي : حامد عبد القادر ص ٦٦ ، ٨٩ ، ٩٣ ، دفاع عن البلاغة ، أحمد حسن الزيات ص ١٢٠ -١٢٣ ، والأصول الفنية للأدب عبد الحميد حسن ص ٢٠ ، والأسلوب : أحمد الشايب ص ٦٨ ، وإعجاز القرآن ، الرافعي ص ٢٤٤ .

كملت هذه المواهب فكان الأبلغ في دنيا الناس ، وكان أسلوبه الأوقع في عالم الأساليب .

موازنة علمية :

سبق البلاغيون إلى إظهار الفارق بين سجع الكهان الذي يقوم على التكلف وبين سجع النبوة الذي هو طبع وفطرة ، ثم هم لا يعقدون موازنات ، ولا يوازنون الأساليب إلا في الفينة بعد الفينة ، وقد ارتأيت أن أثبت هنا جملة من الأحاديث النبوية بها سجع ، ومجموعة مما ورد من سجع الكهان لتتم الموازنة بصدق على النهج العلمي :

١- عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، سبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض»[1]

٢- عن عائشة رضي الله عنها قالت : افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة فتحسست فإذا هو راكع أو ساجد يقول «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك»[2]

٣- عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ «تعوذوا بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء»[3]

٤- عن عبد الله بن الشخير ﷺ أنه قال : أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ : «ألهاكم التكاثر ، يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت»[4].

---

(١) رياض الصالحين ص ٢٠٨
(٢) المرجع السابق ص ٢١٠
(٣) المرجع السابق ص ٢٩٦
(٤) المرجع السابق ص ٩٣

وهذه نماذج من سجع الكهان :

١- سجع الكاهنة «زبراء» مع بني رئام : قالت تحذرهم من أعدائهم «يا ثمر الأكباد ، وأنداد الأولاد ، وشجا الحساد ، هذه زبراء تخبركم عن أنباء قبل انحسار الظلماء بالمؤيد الشنعاء ، فاسمعوا ما تقول ، قالوا وما تقولين يا زبراء قالت : واللوح الخافق ، والليل الغامق ، والصباح الشارق والنجم الطارق والمزن الوادق إن شجر الوادى ليأدو قتلا ، ويحرق أنيابًا عصلا ، وإن صخر الطود لينذر شكلا ، لا تجدون عنه محلا»[1].

وروى الجاحظ من قول عزى سلمة «والأرض والسماء والعقاب والصقعاء وواقعة ببلقاء لقد نقد المجد بني العشراء للمجد والسناء»[2]

روى ابن الأثير قول سطيح «عبد المسيح جاء إلى سطيح ، وهو موف على الضريح لرؤيا المؤذن وارتجاس الإيوان»[3]

وجاء في الأغاني أن عوف بن ربيعة كاهن بني أسد قال لقومه يتكهن بمقتل الملك حجر بن الحارث أبي امرئ القيس الشاعر «من الملك الأصهب ، الغلاب غير المغلب في الإبل كأنها السربرب ، لا يعلق رأسه الصخب ، هذا دمه يتغب وهذا غدا أول من يسلب»[4].

ونقدم قبل الموازنة ملحظا ، ذلك أن نزاعًا عنيفًا نشب بين من ينفون سجع الكهان أو النثر الفني الجاهلي بصفة عامة ، وبين من ينفونه مدعين ضياعه ، ولا بأس من اتباع رأي كثير من المحدثين في إثبات بعضه ، وإثبات أن المنتحل منه جاء على غرار الأصل ، ذلك أن الاهتمام الديني بالكهنة ونفورهم إليهم في مشكلاتهم جعلتهم يعون كلامهم ، وطريقة تأليفهم ، على أن لجوء الكهان إلى السجع بنغمة الموسيقى قد قاوم عوامل الضياع لقربه من الشعر

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١٨٦/١

(٢) المرجع السابق ١٨٣/٦

(٣) انظر : المثل السائر ٢٧٤/١ ، ٢٧٥

(٤) الأغانى للأصفهاني ٨٤/٩

سهولة في الحفظ ، ولصوقًا ـ بالذهن[1] ومهما يكن فإن دراسة ماأثبتناه من نصوص جاهلية تطلعنا على ما يلي :

١- لجوء الكهان إلى الإقسام بالمظاهر الكونية والمخلوقات الطبيعية دون تناسق في المقسم به كالعقاب والصقعاء ، واللوح الخافق والليل الغامق قصدًا إلى التمويه والتأثير والغموض .

٢- الإكثار من الكلمات الغريبة والحوشية لتوفير جو من الغموض والخفاء ، تضل فيه المعاني تحت أكداس من الرموز والإبهام ، فيكثر الاحتمال والتأويل لتبقى للكهان مهمتهم كمتصلين بما وراء الطبيعة .

٣- القصد إلى السجع قصدا مع التكلف البغيض والتعسف الكريه مع استكراه المعنى ، والتنافر بين الجمل ، وكثرة الإشارات ، فأي صلة بين السماء والأرض والعقاب والصقعاء ، وواقعة ببلقاء ، وأي علاقة بين من هو كالسربرب وبين صخب الرأس ، مع استكراه القول ، والطول الممل حول موضوعات جد تافهة كولد البقرة ورأس الجرادة ، فالسجع هنا ـ حقيقة ـ لم يساعد الأساليب على تقديم أفكار طيبة أو معان عميقة ، وأعتقد أن مثل هذا السجع كان يروى ـ كالنوادر ـ تزجية فراغ ، وتسلية وقت ، فلا يأوى إلى ظل من الأدب الراقي .

فإذا ما قرأنا الأحاديث النبوية السابقة وهي مجموعة فسنجد هذه الخصائص :

١- الوضوح التام في الألفاظ ، والوضوح التام في المعاني ، فالمعنى هو الذي يختار لفظًا يلبسه .

---

(١) راجع فى هذا : تطور الأساليب النثرية ، أنيس القدسى ١/١١-١٣ ، الخطابة محمد أبو زهرة ٢/٢٠ ، الخطابة فى صدر الإسلام : محمد طاهر درويش ١/٧٦ ، ٧٧ صور للبديع ، على الجندي ١/٤٦ ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، شوقي ضيف ص ٣٢ ، ٣٣ .

٢- معالجة فكرة كاملة في كل حديث ، فالطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ؛ إنه الطهر الظاهري والباطني لتمجيد الله في علاه .

٣- إحاطة الألفاظ بكل جوانب المعنى : «ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أوتصدقت فأمضيت» فكل ما في الدنيا من متاع موزع بين المظهر والزخرف أو المتعة الزائلة ولا يبقى إلا العمل الصالح .

والتعوذ بالله من شرور الحياة المقدرة من بلاء يجهد أو شقاء يتعس ، أو قضاء يمحق ، وهذه إحاطة بما يصيب المرء من مصائب في دنياه ويترتب عليه شماتة الأعداء .

٤- التعبير عن حقائق كاملة وابتهالات صادقة أو تعوذات خائفة أو مناجاة ذائبة فيها هذه الأحاسيس الراقية والمشاعر الصادقة .

٥- الانسياب في الألفاظ دون حائل من غرابة أو غموض من إشراق المعنى وتسلسله نفسيا ومنطقيا ، فالمعاني مرتبة في النفس قبل صدورها منسقة الأسلوب بعد ظهورها مع الإطار الموسيقى الساجع ، ومن هنا كانت سجعات الحديث مطبوعة فطرية ، وكان اللفظ والمعنى كحدي الشفرة يقومان معا بمهمة مشتركة ، وبهذا نرد رأيا للدكتور زكي مبارك حين يقول وفي الأحاديث النبوية سجع مقصود خلافا لما ظن المسيو ما سينيون ، ومن أمثلته : «أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»[1]

فهل يمكن تغيير لفظ بآخر دون تغيير في المعنى أو حذف كلمة دون نقص في الفكرة بل إن المتأمل ليجد هذا التسلسل المعجز بين الفقر ، فهناك علاقة الإنسان بأخيه تتمثل في السلام وهو قول طيب ينشر المحبة والأمان ولا يكلف رهقا ، ثم إطعام الطعام أعم من إكرام الضيف أو إطعام الفقير ، وهو أدخل من الأول في العطاء وحمل النفس عليه ، ثم علاقة المؤمن بربه في صلاة خاصة في وقت خاص في حال خاصة بالليل في جوفه والنيام كثيرون ، ونلاحظ الترتيب

---

(١) النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه ، دكتور عبد الحكيم بلبع ٧٥/١

التصاعدي هنا كان الجزاء طيبا والحديث كله بين إطارين من السلام بدءًا في الدنيا ونهاية في الأخرى ، وفي الأسلوب على السواء ومن يتدبر الحديث يجد فيه الكثير ، على أن العجيب في رأي زكي مبارك أنه مناقض لقوله «السجع من مميزات البلاغة الفطرية»[1] كأنه يناقض نفسه بطريق غير مباشر .

ظاهرة :

لم يتعمد الحديث السجع وإنما جاء عفو الخاطر ووحي البديهة ، ثم إن الأحاديث غير المسجوعة تفوق كثيرا الأحاديث المسجوعة ، لكن ما وجه النظر هو أن أكثر ما جاء في البيان النبوي مسجوعا الابتهالات والدعوات والتضرعات والاستعاذات وهذا ما جعلني أفكر أن البيان النبوي يرسم للإنسان طريقه في الحياة وإلى الله هاديا ومرشدا ، هكذا كان النبي الكريم يخاطب الناس ويعلمهم ، لكن هناك لحظات كان يناجي ربه وحده ـ ضارعًا ذائبًا ينسى هذا الكون وما فيه ، فكان هنا حالة استغراق إنسانية خاصة فيها فوران عاطفي واهتزاز وجداني ، لا جرم أن الألفاظ تنبع وفيها هذا الإشعاع الروحي . منغومة مسجوعة صافية فيها إيقاع خاص ، وهذا لا ينفي تعليم النبي أمته ولكن في هذه اللحظات كان وحده ناسيا ما عدا الله لاجئا إليه وحده ، مستحضرًا جلال ربه العظيم ، ولا ينفي ثانيا أن يجيء السجع في المواعظ لتحفظ وفي غير الابتهالات .

وأن تأتي ابتهالات غير مسجوعة قليلا ، فلا تحكم في الطبع والفطرة وإنما كثرة السجع فيما ذكرت هي الظاهرة التي أثارتني .

العلماء والسجع :

لما في السجع الكهنوتي من إيهام وخطأ في الأحكام وتمويه على العقول ورد عن النبي ﷺ ما يوهم إنكار السجع فقد أمر النبي ﷺ في الجنين بغرة عبد أو أمة ، فقال من حكم عليه «أأدى من لا شرب ولا أكل ولا نطق

---

(١) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ٧٥/١

ولا استهل»، ومثل ذلك بطل فقال رسول الله ﷺ : «أسجعا كسجع الكهان»، أي أتتبع سجعا كسجع الكهان ؟»[1]. وقد ورد الحديث في معظم كتب البلاغة - وأبادر هنا بتسجيل هذه الملاحظة فقد قدم الرجل الشراب على الأكل ، والنطق على الاستهلال وهذا قلب للترتيب العقلي والنفسي ، من هنا كان الأسلوب شاذًا والسجع متكلفا ، وهذا ما نفر منه ﷺ ، وعلى ضوء ما قررت نفضى إلى موقف العلماء من السجع وقد أثارهم هذا الحديث ، ولسنا بحاجة إلى الخوض في موضوع قتل بحثًا ونكتفي بالإشارة الدالة ، والواقع أن قلة من العلماء منهم أسامة ين منقذ ، والباقلاني ، والرماني عابوا السجع ، وأولوا ما جاء في القرآن والسنة وآثار العرب بأسماء غير السجع ، أما جمهرة البلاغيين فقد أقروا السجع كنمط في الكلام ، واشترطوا لقبوله عدم تكلفه ، واقتضاء المقام له[2] بل إن المحدثين حللوه موسيقيا وربطوا بينه وبين النفس الإنسانية في تأثرها بالإيقاع والنغم ، وبينوا أثره في الكلام وإمتاع العاطفة ، وإذن فيحق لنا أن نرد رأيا للدكتور شوقى ضيف حول سجع النبوة حين قال «ومن المؤكد أنه (عليه الصلاة والسلام) لم يستخدم السجع في خطابته ، بل كان ينفر بسبب استخدام الكهان له في الجاهلية ... ولذلك صد عنه كما صد عنه خلفاؤه[3].

ونكتفي بالإحالة على ما أوردته من أحاديث مجموعة ، وعلى أى كتاب مختصر كرياض الصالحين ، لمحاولة حصر ما ورد مسجوعا ، ولا بأس هنا أيضا أن نثبت هذا القول لابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة بعد أن أورد

---

(١) انظر : المثل السائر ٢٧٥/١

(٢) انظر : إعجاز القرآن للباقلاني ص ٦٠ ، النكت في إعجاز القرآن : الرمانى ص ٧٥ من (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) والصناعتين ص ٢٥١ ، أسرار البلاغة ص ٦ ، وسر الفصاحة ص ١٦٤ ، والمثل السائر ٢٧٥/١ ، شرح نهج البلاغة ١٢٩/١ ، وتحرير التحبير ٣٦٥/٣ والطراز ٢٠/٣ ، والبرهان للزركشي ٥٩/١ ، ٦٠ .

(٣) انظر : الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٥٧

خطبة حجة الوداع[1]، قال «فأما خطبة رسول الله ﷺ وآله هذه فإنها وإن لم تكن ذات سجع فإن أكثر خطبه مسجوع كقوله «إن مع العز ذلا ، وإن مع الحياة موتا ، وإن مع الدنيا آخرة ، وإن لكل شيء حسابا ، ولكل حسنة ثوابا ، ولكل سيئة عقابا ، إلى آخر الخطبة ثم يقول : فأكثر هذا الكلام مسجوع ، وكذلك خطبه الطوال كلها»[2]

السجع والتوازن :

ونلمح بإيجاز إلى أقسام السجع ، وله تقسيمان ، فهو بين طويل أو قصير ، والثاني أصعب وأوعر ، وإن كان أخف وأطيب وهو بين مرصع ، وهو ما اتفق غالبا وزنا وتقفية ، وتوازن ، وهو ما اتفق في الكلمتين الأخيرتين ، ومطرف وهو ما اختلفت فاصلتاه وزنا ، واتفقتا في الحرف الأخير[3].

وهذه مجموعة من الأحاديث نجري عليها دراستنا :

«المؤمن غر كريم ، والفاجر خب لئيم»[4]

«إن الله كره لكم ثلاثا قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال»[5]

«شر ما في الرجل شح هالع ، وجبن خالع»[6]

والحديث : المؤمن غر كريم ، والفاجر خب لئيم ، والحديث الآخر شر ما في الرجل شح هالع ، وجبن خالع ، نجد اتفاق الفاصلة ، واتفاق الوزن ، مما زاد العبارة أسرًا وخلابة ، ثم إن الأسلوب مقطع تقطيعا صغيرا ، فيه جرس خاص ، وقد جاءت إليه الياء قبل الميم ، والألف قبل العين ، ثانيا ، فأعطى

---

(١) انظر : شرح نهج البلاغة ١/١٢٦ - ١٢٨

(٢) المرجع السابق ١/١٢٨ ، ١٢٩

(٣) انظر : الطراز ٣/٣٠ وعلوم البلاغة للمراغي ص ٣٧٣ .

(٤) التاج الجامع ٥/٤١

(٥) رياض الصالحين ص ١٦

(٦) التاج الجامع ٤/٤٣١

للنفس تموجًا وامتدادا ، فهنا توازن صوتي تضمن في الوقت نفسه ما أطلق عليه المحدثون قانون التساوي بمعنى تساوي الأجزاء ، وقانون التوازي بمعنى توازيها[1].

وهذا الإيقاع الخاص المترتب على النظام الموسيقي بتكرار مجموعة من الأصوات أعطى للأسلوب نسقا معينا ، وإذا كان الصوت ما يهز الانفعال الذي أحاط المعنى بجو مشبع به ، فإننا نلحظ أن الصوت أو اللفظ أخرجه المعنى في صورته بعفوية وفطرة لغوية ، لا تكلف فيها ، فالكريم من صفات المؤمن بلاشك واللؤم من خصال الكافر بلا نزاع ، ثم قد نجد في الحديث النبوي مع السجع أمورا ترجع لحروف الكلمات وأواخرها ، كاعتماد الفاصلة على حرف النون مسبوقا بالألف في قول الرسول الكريم : «كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

فالفواصل هنا قصيرة مختومة بحرف غنه ، وترنم ، وقد تكرر ذلك بشكل محبوب يترجم عن صوت الوجدان الداعي للمقام هنا وهو الحث على ذكر الله وتقديسه . وهذه الظاهرة التي يسميها الأقدمون التوازن : يطلق عليها المحدثون : اتزان الإيقاع[2] والتي صنفوها بين تامة إذا اتحد الاتزان والتقفية كشح هالع وجبن خالع ، أوغير تامة إذا عدمت التقفية كما في الحديث : «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك في أهل القبور».

ولدور ظاهرة التوازن في تقوية المعنى عن طريق النغم قد تقتضي تعديلاً في التعبير عن الصورة القياسية للكلمة كقول النبي ﷺ : «خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة»، قال ابن سنان الخفاجي : قال : مأمورة لأجل المناسبة ،

---

(١) انظر : الأسس الجمالية في النقد العربي دكتور عز الدين إسماعيل ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ط . ثانية دار الفكر العربي

(٢) انظر : التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ص ٨٩ .

والمستعمل موفورة أي كثيرة النتاج كما قرئ ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ ، أي كثرنا .

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان يعوذ الحسن والحسين عليهما السلام : « أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » فقال لامة ولم يقل ملمة ، وهي القياس مكان المناسبة اللفظية التامة ، ومثله قوله عليه الصلاة والسلام « ارجعن مأزورات غير مأجورات » ، والمستعمل موزورات فجاء به مهموزًا لأجل المناسبة . وهذا كما يقول ابن أبي الإصبع : من الفصاحة العجيبة .[1]

ويدل على أن هذا التعديل اللفظي طبعي لتوفير الدقة الكاملة للأسلوب والإيقاع المعبر دلالة على تمام البلاغة ، إنه حدث في موقفين لا يشجعان على طلب الزخرفة ، فالأول : رقيا طفلين حبيبين إلى قلب الرسول الرحيم يخاف عليهما من كل سوء ، وهذا موقف صدق وصراحة ، والثاني : انتهار نسوة أخرجهن الحزن على فقيد كريم لاطمات باكيات خارجات ، من جزع . . ، على تقاليد الإسلام فهو موقف جد وتعليم وزجر ، كل هذا دال على أن هذا التعديل بل ظاهرة السجع من أساسها فطرة لغوية ، ومنحى أسلوبي ، وبلاغة معنوية لا ترف لفظي أو تحسين أسلوبي - وبهذا نرد على الأستاذ العقاد والدكتور عبد الحكيم بلبع وقبلهما الدكتور زكي مبارك في جعلهم السجع في الحديث حلية لطيفة ، أو ترفا نفسيا أو زينة تقصد ولكنها لا تلتزم[2].

فما كان رسول الله ميالا بطبعه إلى حلي أو تزيين في الأسلوب أو ترف لفظي وهو الذي نهى عن التكلف الممل لاسيما موقفان شعوريان صادقان

---

(١) انظر : سر الفصاحة ص ١٦٩ ، والصناعتين ص ٢٥٢ ، المثل السائر ١/١٧٤ وتحرير التحبير ٣/٣٦٧

(٢) انظر : النثر الفني ، زكي مبارك ١/ ٧٩ ، عبقرية محمد للعقاد ص ٧٧ والنثر الفنى ، عبد الحكيم بلبع ص ١٠٨ .

لا تقبل فيهما زخرفة أو تزيين ، يقول الأستاذ أحمد الشايب عن المحسنات منكرًا على من يدعي أنها حلي :

« والحق أنها تدخل الأساليب الأدبية حين تدعوها طبيعة المعاني لتوثيقها أو إيضاحها »[1]

وبهذا نعود إلى ما بدأنا به الفصل من أن السجع كأي لون بلاغي في بيان النبوة يتطلبه المعنى ويقتضيه المقام وأن الأفكار النبوية تلبس ما يلائمها من ألفاظ ، حقيقة كانت أم مجازا أم سجعا .

ولقد استولت فكرة الموسيقى على بعض المؤلفين في البلاغة النبوية ، فراحوا ينصبون الأدلة على تسلل الموسيقى الشعرية إلى العبارات الحديثية بتحوير فيها أو بدون تحوير ، يقول الدكتور عز الدين السيد في الحديث الشريف « تعوذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ».

والجرس الهاتف منها يعلن عن ذاته حتى يمكن أن يحول إلى الشعر أكثر ما في الحديث « أعوذ بربي لجهد البلاء ، ودرك الشقاء وسوء القضاء آيبون تائبون عابدون ساجدون » .

إنها تحكى بيتا من الرمل المجزوء ويصلح لحنا شجيًا يصور أفراح النفس بالعودة الظافرة بالفلاح[2].

ولو كان الأمر كذلك لهان الخطب وحولنا أو حورنا القرآن والسنة إلى شعر شاعر يتغنى بآلام الإنسانية وأفراحها لكن لا نقول بعد إنه قرآن أو سنة ، إن الحديث الشريف له طبيعته الفنية الخاصة طبيعة النثر الفني الذي يمثل أرقى ما وصل إليه بشر ، ولهذا النثر موسيقاه الخاصة المتسقة مع معانيه وتراكيبه

---

(١) الأسلوب ، الأستاذ أحمد الشايب : ص ١٩٩ .

(٢) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية دكتور عز الدين السيد : ص ٢٧٨

وتخالف موسيقى الشعر في الكم والإيقاع والانسجامات الصوتية[1] ونحمد الله أن رسوله ليس بشاعر بل كان لا يقيم وزن الشعر ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ ، ولن يتكلف على عادة الشعراء الذين هم في كل واد يهيمون ، بل هو الفطرة العربية في صورتها الكاملة ، ولقد اندثر كثير من الشعر وبقيت السُّنة كالشمس يراها الناس لا يستطيعون لها صعودًا ، على أن هذه المحاولة السابقة يمكن أن تطبق على كل كلام غث أو سمين ثم لا يسمى بعد ذلك شعرا ولا يكسبه نبلا فليس الشعر وزنا راقصا أو نغما شجيا ، وما نعالج السجع إلا بمقدار ما يعين على تجلية الانفعال والأعماق لأن اللفظ بجرسه صورة للمعنى بظلاله .

التجنيس

وهو تفعيل من التجانس وهو التماثل وإنما سمي هذا النوع جناسا لصلاحية اللفظ لمعنيين مختلفين ، واصطلاحا ، تشابه الكلمتين في اللفظ مع اختلاف المعنى[2]

وقد نبه البلاغيون إلى أنه من ألطف مجارى الكلام ، ومن محاسن مداخله إذا كان عماده الطبع المواتي الذي يقذف به سهوا رهواً في حالات الصفاء والتسامي[3]

وهو حلية لفظية عندهم إلا أن النقد المعاصر لا يفرق بين الشكل والمضمون طالما كان فكر المتكلم وشعوره وراء لسانه ، وقد سبق الإمام عبد القاهر إلى ذلك حينما أجمل بعد تفصيل فقال « وعلى الجملة فإنك

---

(١) راجع في الأدب والنقد دكتور محمد مندور ص ٢٥

(٢) انظر : الطراز ٢/٣٥٦ ، وعلوم البلاغة للمراغي ص ٣٦٦

(٣) انظر : فن الجناس ، الجندي ص ٣١

لا تجد تجنسيًا مقبولا ، ولا سجعًا حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه ، وساق المتكلم نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلا ، ولا تجد عنه حولا ، ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ، فأوقع من غير قصد من المتكلم إلى اختلابه وتأهب لطلبه ، أو ما هو لحسن ملاءمته وإن كان مطلوبًا ـ وأن كان مطلوبا ـ بهذه المنزلة . وفي هذه الصورة وكذلك أحسن الإفادة مع أن الصورة صورة تكرير وإعادة[1]. وسر هذا الجمال في الجناس التعاطف الموسيقي في حروف الألفاظ المتجانسة بما يدخل في فنون المخاتلة والتحذير ، والاستدراج مع تقديم معنى طريف[2] ولاشك أن الجناس له هذا التأثير إذا جاء في الفينة بعد الفينة طبعا غير متكلف ، ونازلا على حكم المعنى ، وإلا أصبح لونا من الإسراف الذي تضيق به النفوس ، قال في سر الفصاحة : وهذا إنما يحسن في بعض المواضع إذا كان قليلا غير متكلف ، ولا مقصور في نفسه»[3].

وإذا كان ذلك التحفظ والتغيير في جناس الناس عامة فلن نلجأ إليه في جناس النبوة لأن البيان النبوي كله إنما هو فيض الطبع ونبض الحكمة ، وإذا كان التجنيس ـ أصلا ـ حلية لفظية فإنه في الحديث قام بدور هام في أداء المعنى ثم أفاض من جماله ما أمتع وأعجب ، لا جرم أن البلاغيين أكثروا من الاستشهاد به في تقسيماتهم وتفريعاتهم .

الجناس التام :

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : «من تعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال أو الناس لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا» الصرف الأول فضل الكلام ، والثاني : النافلة والتوبة[4].

---

(١) انظر : أسرار البلاغة ص ١٤ ط رشيد رضا

(٢) انظر : فن الجناس ص ٢١

(٣) سر الفصاحة : ص ١٨٣

(٤) التاج ٥/٢٨٥

والحديث يتوعد من وهب بيانا أحلى من العسل وقلبه أمر من قلوب الذئاب ولن يدعهم الله لاسيما يوم القيامة إذ كل أعمالهم ستكون هباء ، ترفض توباتهم ، وتمحق نوافلهم ، وفرائضهم ؛ لأنهم مخاتلون ، وبراعة الجناس أنه أوهم أن اللفظ الثاني عين الأول ، فإذا ما دقق الفكر وجد معنى جديدا وفائدة شريفة مع أن الصورة صورة تكرير وإعادة ، كما أن في تكرار الإيقاع لكلمة واحدة ما يثير الانتباه ويربط آخر الكلام بأوله .وقد مثل ابن الأثير والعلوي بقوله ﷺ لما نازع الصحابة جرير بن عبيد الله في أخذ زمام ناقته ﷺ أيهم يقبضه فقال عليه السلام « خلوا بين جرير والجرير »[1]

وتعجبني هذه اللفتة الذكية من الأستاذ علي الجندي في كتابه « فن الجناس » قال « ويقول السيوطي : لم أقف على هذا الحديث »[2] والجندي يثير قضية هامة هي وجوب البحث فيما أورده البلاغيون من حديث وتحديد صحته ودرجتها ، ونخله وزيف موضوعه ، ثقة بأن ما يقرأ ويدرس بلاغة النبي ﷺ مما تعرضنا له من نفي بعض أحاديث أوردها قدامى البلاغيين وهي غير صحيحة .

الجناس الناقص :

قال حكيم بن حزام أي رسول الله : أرأيت أمورا كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم أفيها أجر ؟ قال : « أسلمت على ما أسلفت من خير »[3] وعن النبي ﷺ « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم »[4] وقد جاء الجناس بين أسلمت وأسلفت ، والخيل والخير ، والحروف المختلفة متقاربة المخارج ، ولذا سمي مضارعا ، وقد

---

(١) انظر : المثل السائر ٣٤٣/١ ، والطراز ٢٥٧/٢

(٢) ٧٠

(٣) التاج الجامع ١٢٥/٤

(٤) المرجع السابق ٣٤٩/٤

اشتهر التمثيل بالحديث الثاني عند البلاغيين[1]، ومن الجناس المحرف الذي تباعدت فيه مخارج الحروف المختلفة فيها قوله ﷺ وقد سئل عن الحج فقال: «العج والثج»: والعج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: نحر الهدي[2]، وقال ﷺ: «إنما مثل المريض إذا برأ وصح كالبردة تقع من السماء في صفائها ولونها»[3]

والجناس بين العج والثج وبرأ والبردة، وقد يطلق على هذا النوع جناس التصحيف، أو الجناس اللاحق، وقد أطلق العلوي المضارع على القسمين جميعًا[4]، ومن تجنيس التغاير باختلاف نوع الكلمة قوله ﷺ «عصية عصت الله ورسوله وغفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله»[5]

ومن الاشتقاق قوله عليه الصلاة والسلام «الظلم ظلمات يوم القيامة»[6] و«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هاجر ما نهى الله عنه»[7] ومن جناس القلب قوله ﷺ «اللهم استر عوراتنا»، وقوله ﷺ لصاحب القرآن «اقرأ وارتق تزاد بكل آية حسنة»[8] وهنا لون من التجنيس نبه إليه ابن الأثير وتبعه العلوي وهو عكس الألفاظ كقوله ﷺ: «جار الدار أحق بدار الجار»[9].

قال الدكتور عز الدين السيد (ومع أن الحديث يعطي مادة من قانون الفقه في الشفعة، لا نجد أروع منه في الفن ليخلط الفقه بالجمال، ويخلط العلم بالفن، فيظل يعمل في النفس ويحوك في القلب بعيدا عن الجفاف، فبين الجار

---

(١) انظر: الصناعتين ص ٣٢٢، والمثل السائر ٣٥/١، والطراز ٣٦٧/٢
(٢) التاج الجامع ١٢١/٢
(٣) المرجع السابق ١٩٠/٣
(٤) انظر: الطراز: ٣٥٦/٢-٣٦٧
(٥) تحرير التحبير ١٠٤/١
(٦) التاج الجامع ١٩/٥
(٧) المرجع السابق ٤١٧/٣
(٨) المرجع السابق ٥/٤
(٩) التاج ٢١٧/٢، انظر: المثل السائر ٣٥٧/١، والطراز ٣٧١/٢

والدار وهما وحدة في الزخرف وحسن الجناس ثم صنع بهذه الوحدة أن كررت منعكسة فكانت كالشجرة وظلها في الماء أو كجناحي الطائر »[1] ومنه قوله ﷺ في دعائه « اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمني ما ينفعني ، وزدني علما »[2]

والجملة الثانية تعكس ترتيب الجملة الأولى التي هي تضرع إلى الله تعالى أن ينفعه بما أعطاه من علم وتجربة في الماضي ، وهذا خاص بما قطعه المرء من عمر ، فأين المستقبل إذن وهو غيب والعلم بين ضار ونافع والنافع نفسه قد يتعلم ولا يوفق للعمل به، لابد إذن من اللجوء إلى الله حتى يعلمه ما ينفعه، ونلاحظ هذه المقابلة الزمنية بين معلوم مسبق وطلب معلوم في المستقبل ، وإن العكس هنا جاء نازلا على حكم المعنى لاستيعابه دلالة التفويض واحتكام الدعاء في هذا البيان الذي امتزج فيه الجمال اللفظي مع الجمال المعنوي مع الإيجاز الحكيم ، وإحاطة العلم محفوفا بالنفي المكرر إيماء إلى أن المهم ليس العلم وحده لذاته بل بما يترتب عليه من نفع خاص وعام .

وهكذا في كل عكس للألفاظ في البيان النبوي ، وقد ورد منه غير يسير تقسيم شامل وتبديل بارع ، فما هو إلا تغيير في وضع كلمات وترتيب لها من جديد ، فإذا بمعنى رشيق يعالج أخطر ما يهم الإنسان فيوفي على الغاية في تحقيق ما يريد .

شرط الحسن في المحسنات اللفظية :

وهو عدم التكلف وترك النفس على سجيتها ، فأصل كل حسن كما يقول عبد القاهر « أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني ، فإن المعاني إذا أرسلت على سجيتها وتركت وما تريد طلبت لنفسها الألفاظ ، ولم تكتس إلا ما يليق بها »[3].

---

(١) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية : ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(٢) التاج الجامع : ١/١٩٥

(٣) أسرار البلاغة : ص ١٤

ونحمد الله أن هذا القيد غير وارد عندنا في البيان الكريم ، ذلك أن البيان النبوي بألوانه البلاغية كان ولا يزال مثلا يقتدى وافقا سامقا لأنه اتخذ من الفن الأدبي متكئا فكانت دعوته يليها القدسي ونسجها الأدبي وصدقها الفني أبقى من الأيام وأضوأ من الشمس ولقي به ﷺ أبلغ من نطق وأفصح من أبان . .

والله المستعان ،

* * *

خاتمة

لقد كان البحث على طوله ، شائقا غنيا بعديد الظواهر الأسلوبية ، وجديد النتائج المثمرة ، وطرائف السمات الخاصة المعبرة ، مما لا يمكن ذكره هنا إلا لمحا وإيجازًا على ترتيب البحث أبوابا وفصولا .

ولقد وضحت ـ بادئ بدء ـ كيف أعد الله نبيه الكريم ليكون أبلغ البشر ، فاختار له البيئة الملائمة والنشأة اللغوية القوية ، ثم تعليمه أسرار اللغة وحياً ، مع الطبع الكامل والفطرة النقية ، فأصبحت اللغة بلهجاتها تسري فيه سريان الدم لا جرم أنه يخاطب كل قوم بلهجتهم الغريبة عن الآذان ، وأن يضع ألفاظا ، وينتزع مذاهب بيانية ، وأن تكثر جوامع كلمه ، أما معانيه فهي معانى نبي حكيم موحى إليه تدور مع الإنسان أينما كان ، لذا كان أسلوبه عصريا لأنه يقال في كل عصر ، ثم وضحنا منهجه البياني ، وهو الطبع الخالص دون تكلف ، ثم بينا أن مصدره إنما هو فطرته وإلهام ربه وكان هذا معجزة المعجزات .

ثم عالجنا تدوين السنة ، وادعاء المستشرقين وأتباعهم أن السنة لم تدون إلا بعد موت الحفاظ الأوائل ، وقد أثبتنا لدحض هذه الآراء انتشار الكتابة في العهد النبوي بأدلة لا تنقض .

ثم وازنا بين أحاديث النهي عن الكتابة وبين أحاديث الإذن وما قاله العلماء وما استقر عليه الرأي ودعمناه بالبراهين القوية كمثل هذه الصحف التي تعالت أخبارها عند الصحابة والتابعين مدونة فيها الأحاديث ، ثم تتبعنا التدوين في عصر الراشدين والتابعين حتى استقرت السنة تلقائيا في مظانها المشهورة .

وبنينا على هذا النظر في الرواية للأحاديث باللفظ أم بالمعنى ، وذكرنا طائفة من أقوال المعاصرين أطلقت دون تروية ثم تتبعنا الخلاف القار في أصوله ، وبينا أنه في نطاق ضيق في غير أنواع من الحديث اتفق على لفظها ،

مع ذكر أدلة المجوزين للرواية بالمعنى ، والمانعين ، وأكثرهم ممن دون الحديث كابن عمر ومالك ومسلم ، ثم إن هذا الخلاف ـ كما وضحنا ـ خلاف الأصل وأنه من باب التجويز العقلي الذي شمل كل شيء إبان النهضة العلمية العباسية .

ثم فسرنا ظاهرة اختلاف الروايات باختلاف المناسبات والمقامات كما كشفنا النقاب عنه في مقتضى النظم وتوصلنا إلى هذه النتيجة هي أن الأحاديث لاسيما قصيرها ومتوسطها ، وصلت إلينا بمحكم ألفاظها دون تغيير ، وأن قلة من الأحاديث الطويلة كقصص السابقين ربما دخل فيه تغيير يسير في كلمة أو كلمتين مع التحفظ البالغ وتنبيه العلماء إليه .

وبينت أننا لو أجملنا ما ورد في صحف الصحابة كصحيفة عبد الله ابن عمرو وجابر بن عبد الله وهمام بن منبه ، وكتب ابن عباس ، وموطأ مالك ، وصحيح مسلم لأحاط بالسنة كلها ، وقد أوليت هذه القضية فضل رعاية لأثرها البالغ في إثبات البلاغة النبوية أو نقضها من أساسها كأنها معجزة انتهت بموت صاحبها ، وقد وصلنا في ذلك إلى ما يرضي البحث العلمى والعقل الحر الحصيف .

ثم عالجت : البحث البلاغي في بيان النبوة ، بدأته بالدراسات البلاغية حول المشكل من الحديث ، وموقف العلماء وتداخل المتكلمين مع البيانيين ، ووضحت أثر المشكل في إنماء البحث البلاغي ، واستواء مذهب التخييل البياني حلا لمشكلة المشكل ، ثم صنفت ما نسب إلى الله سبحانه في الحديث إلى نسبة جارحة حادثة أو صفة حادثة ذاكرا أقوال العلماء مناقشا مثبتا أو رافضا على أساس مكين ، ثم حررت الرأى الفصل في تأويل المشكل بأنه ذو شقين : التخييل البياني والمشاكلة .

ثم تناولت بالبحث من اهتم من الأقدمين والمحدثين بالبلاغة النبوية وكان أولهم المرتضى وقد بينا وجهته وغلبة النزعة الكلامية وولعه بتكثير المعاني ولو متكلفة ، وحمدنا له جمع الأحاديث المتماثلة في غرض واحد ، كما بينت

اشتراكه مع أخيه الرضي - أسلوبا وفكرة - في معالجته بعض الأحاديث ورجحت أسبقيته مع عنايته كأخيه بأسرار الألوان البلاغية في الأساليب دون تسمية لها .

ثم عمدنا إلى الرضي ، وبينا إيجازه في مجازاته ، ومنهجه ، واصطلاحاته وخلطه فيها ، وتعرضه لشذرات من المعانى والبديع ، وتمكنه الأدبي بذكر معنيين أو معان للتركيب قد يرجح وقد يدع الترجيح بينهما ، وحمدنا له موازناته بين الحديث والشعر وأثر الحديث في بيان الصحابة ، وإدراكه أثر العرف في التعبير اللغوي ، وأخذنا عليه استطراده ، وخروجه عن دائرة البلاغة كالمسائل الفقهية ، والكلامية واللغوية ، وعدم معالجته قضية الشعر حين تعرض لها مع أنه شاعر ، وظهور تشيعه ، وذكره أحيانا لبعض الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة ، وبينا أن ذلك لا يغض من جلاله وقدره ، ثم تكلمنا عن : الاتجاه الأدبي عند ابن الأثير وابن أبي الإصبع والعلوي اليمني من البلاغيين .

وقد رأينا مدى اهتمام ابن الأثير بالحديث حفظا ودعوة وشرحا ، وبينا وجهته وأثره ، بموازناته الطريفة ، ومعالجاته لقضايا جديرة بالتقدير كجوامع الكلم والسجع والغرابة والترجيح بين المعاني مع التحليل البارع أحيانا ، وقد أثبتنا تأرجحه بين النقد الموضوعي بتعليل أحكامه ، والتأثري بالإطراء دون تعليل ، وقد يسوق الحديث غفلاً وقد ينفعل بحسنه ويبين أسراره ، وأخذنا عليه عدم الدقة أحيانا بقطع الأحاديث عن أغراضها وقبوله سجع حمل ابن النابغة المتكلف ، وإصابته التقعيد وخطئه في التطبيق في الحكم على المعاني والأغراض ، وكل ذلك لا ينال منه فقد فتح الباب على كنز من البلاغة النبوية لا ينفد .

أما ابن أبي الإصبع فقد بينا أسلوبه في تأليفه وإكثاره نسبيا من الحديث محللا تارة بموهبة الأديب الشاعر مسميا اللون وأثره ، وقد يكتفي بالأثر وقد يسوق النص دون بيان ، ورأينا التفاته الكثير إلى البيان النبوي بارعا متفننا ،

وسيره على درب ابن الأثير من عقد موازنات فنية بين الحديث والشعر ، وإن لم تكثر عنده ، وأخذه البديع بمفهومه الشامل عند ابن المعتز ووضحنا أن له اتجاهًا أدبيا مصريا معنيًا بعميق التحليلات ورشيق التقسيمات والاستشفاف الأدبي لمواضع التراكيب مع عمد قاصد إلى النهل والعل من ورد البيان الكريم .

وأخذنا عليه خلطه بين الحديث القدسي والنبوي وعدم التزامه التمثيل من السنة لكل ما ذكر من بديع خاص بالنثر .

ثم أبنا إلى العلوي مبينين منهجه وطريقته الأدبية والتنبيه على الألوان البلاغية والموضوعات التي شفعها بالأحاديث ، وعقده فصولا للحديث يحلله تحليلا ، وقد يحكم عليه بالتفوق والفصاحة دون شرح ، ورأينا تأثره أحيانا بابن الأثير في أمثلته وتقسيماته ومواطن استشهاده كما في الإيجاز والتكرير والإطناب والافتتاحات والتشبيه ، كما انفرد عنه أحيانا بحشد نصوص حديثية محللة ، وقد فاقه شرحا وبيانا كما في الاستدراج والاقتصاد والاستطراد ، بينا أن من طريقته أن يبدأ أمثلته بالقرآن ثم الحديث ثم أقوال الإمام على ثم صم الشعر ، وقد تستغرق الحديث الواحد صفحات ، وأنه قد وفق في تحرير التخييل كمذهب بياني خرجت معظم الأحاديث المشكلة ، ويحمد له الدقة في رواية الحديث بذكر الراوي غالبا مما يعتبر جديدا عند البلاغيين .

وأخذنا عليه :

إغفاله جانب الموازنات التي أثارها ابن الأثير وجعله تشبيهات القرآن والسنة من القريب وذكره حديثين لا يعول عليهما ، ثم عقده موازنة بين النص القرآني والحديثي مما فتح الباب للمتأخرين لهذه الموازنات التي لا تفيد إلا في إثبات القهر الإعجازي القرآني والعجز لسواه من الأساليب .

ثم بينت أن ابن الأثير وابن أبي الإصبع والعلوي مثلوا اتجاها أدبيا مسترسلا يتسم بالدقة وعمق النظرة والكشف عن القيم البلاغية وأثرها في الأساليب ، وقد بلغ الاتجاه قمته عند الأخير بيانا عذبا أخاذا ، ثم تناولنا علماء الحديث ،

ورأينا من علماء الغريب الزمخشري في الفائق لا يولي البلاغة النبوية اهتماما كعالم بلاغي وحمدنا له ـ حين يذكرها ـ تعمقه وتحليله وتسميته الألوان بأسمائها الاصطلاحية .

ثم ابن الأثير أبو السعادات مجد الدين في «النهاية» في غريب الحديث والأثر ورأيناه لا يلتزم ذكر الحديث بتمامه وإن كان سهل العبارة أدبي النزعة مشيرًا إلى اللون البلاغي وبيان أثره مع الاستئناس بالمأثور والنقل عن السابقين ، وذكر المعاني والآراء في شرح الحديث وهو يمتاز على الزمخشري تحليلا وبيانا أدبيا لأثر الألوان البلاغية وأسرارها ، واستقصاء الأقوال المختلفة في معنى الأثر مع الإشارة أحيانا إلى تسمية النوع البلاغي .

وقد وجدنا من شراح الحديث الإمام العيني «عمدة القارى» يهتم غالبا بالمعانى والبيان دون البديع ، وأنه كان ينتهز الفرصة أحيانا لوجود لون بلاغي ـ خاصة أوائل الكتاب ـ فيذكره ويشرح اللون ذاته معرفا مقسما مفصلا ذاكرا ما دار حوله من خلاف دون ترجيح ، وقد يتعرض لدقيق الخلافات الجدلية التي اشتهر بها المتأخرون ووضحنا تأثره بمنهج معاصريه ، وأنه لم يستوعب البلاغة النبوية بل ينبه على الأشهر ، وحمدنا له : لمحاته الخاصة في أسرار التعبير اجتهادا أو نقلا وصفاء أسلوبه أحيانا ولفتاته البلاغية الواعية ، واستعانته بمناسبات الأحاديث لتفهم الأساليب .

وبينا أن له محاولات للكشف عن الجمال الأدبي في الحديث على رأيه ومنهجه تحكمت فيها ظروف بيئته وثقافة عصره .

وأتبعناه بابن علان الصديقي الشافعي في «دليل الفالحين» ورأينا كتابه أوفى الكتب الشارحة للحديث بحق البلاغة .

ونبهنا على اهتمامه بالمعاني خاصة الفصل والوصل والإيجاز والقصر وجوامع الكلم ، والبيان وإن يكثر من النقل ، ويسمى الألوان البيانية ويشير إلى علاقات المجاز المرسل والعقلي أحيانا كما وجدنا بعض العناية بالبديع كالسجع والقلب وله لفتاته الذكية في أسرار التعابير .

وأخذنا عليه اضطرابه في تحرير الألوان البلاغية ، وعدم الدقة في توجيه الاستعارة ونوعها ، وذكر بعض الخلافات الجدلية والأصولية ، واحتمالات مختلفة في النوع البلاغي للعبارة الواحدة .

ثم بينا مدى ما أسهم به علماء الحديث من جهد في إثراء البحث البلاغي ثم انتقلنا إلى العصر الحديث فوجدنا الرافعي أظهر من بحث بيان النبوة وقد بينت طريقته الأدبية القائمة على إيحاءات الألفاظ ، وفلسفة التراكيب وتعمقه في أسرار العبارات دون التفات للألوان البلاغية المعهودة .

وقد بينا أن ما ذكره عن فصاحة النبي وتأثيره في اللغة - والغريب ، والشعر وموقف النبي ﷺ منه وجوامع الكلم مسبوق إليه وإن كان قد تفنن تشقيقًا وشرحا وأن إرجاعه كثرة الجوامع إلى طبيعة الأسلوب العصبي المتحكم في اللغة الذي تغلبه النفس وتتحكم فيه روح النبوة ، وكذلك رده مبنى النسق في البلاغة النبوية إلى ثلاثة مبادئ نقدية الخلوص والقصد والاستيفاء ، وسبقه إلى شرح عدد من الأحاديث بأسلوب أدبي فلسفي كل ذلك سلم له .

ورأينا أنه لم يعتمد على البلاغة في معنى النسق عنده إلا القصد الذي يعني الإيجاز ، كما ناقشناه في الخلوص والاستيفاء ، وبينا أنهما وصفان أو مبدآن نقديان يصفان النص بعد اكتماله دون نفوذ إلى مهمته وصياغته وأسرار الجمال في قيمه الفنية الجزئية والكلية مما قامت به مبادئ البلاغة العربية وموضوعاتها .

ثم بينا جهده وأثره في الكشف عن أسرار الحسن في البيان النبوي ، ثم انتقلنا إلى بلاغة النبوة بادئين بروائع من المعاني قدمنا لها بتمهيد عن فصاحة الكلمة المفردة في الحديث ، وعالجنا قضية الغريب في مخاطبته ﷺ لبعض الوفود ومكاتباته لهم ، معللين ذلك بكمال فصاحته ﷺ ، ونبهنا إلى نوع من الغريب في كلامه مع الصحابة وأرجعنا ذلك إلى كمال طبعه وقدرته ﷺ على الوضع اللغوى ، ومناسبة اللفظة الغريبة للمعنى والمقام حسبما تقرر في النقد العربي والغربي ، وناقشنا ابن الأثير في زعمه تداول الغريب ورأينا أن هذا

المتداول لا يعنينا بقدر ما يعنينا غير المتداول مما تفردت به لهجة عربية في قبيلة لها معجم خاص .

ثم خلصنا إلى أن الغريب كان لابد منه مراعاة لحال المخاطبين الوافدين أو توفيراً للتأثير برسم صور معبرة باللفظ عن المعنى بظلاله تمشيا مع أغراض الدعوة .

ثم عالجنا الإيجاز وأسراره ، وبدأناه بالإيجاز بالحذف الذي تناول حذف حرف أو أداة ، واكتشفنا في النداء ظاهرة أسلوبية هي إطراد حذف أداة النداء إذا كان المنادى صفة لله مسبوقة بلفظة اللهم خاصة في التضرعات وقد عللنا الظاهرة لفظيا ومعنويا بدلالة المقامات ، ثم حذف الفعل كما عالجنا حذف المبتدأ وترك الخبر ، والموصوف ، والمضاف والمضاف إليه والمفعول والجملة والفعل في الشرط والجواب أو هما معا أو جملة في غير الشرط كل ذلك حسب المقامات العديدة المتنوعة وقد ظهر هذا التلاؤم الغريب بين واقع الأساليب وواقع الحياة وواقع الشعور النبوي من حذف المرغوب عنه إعراضا عاما شاملا .

كما وضحت ظاهرة الاحتباك وهي الحذف من كل من الطرفين ما يدل الآخر عليه كما رأينا أن المحافظة على السجع أو الاختصار وحده أو مع القوم لا يصلح غرضا يستقل بالحذف بل ذلك من دواعي الأغراض في حذف المفعول .

كما عرضنا العديد من النواحي النفسية والأسلوبية في كل ما سبق واهتممنا خلال الشرح ببيان أسرار الحذف في الحديث ورأينا من ذلك : أن ما وصفه البلاغيون من أسباب الحذف غير كاف في بيان أسراره ، وأن الدوافع النفسية عند المتكلم والمخاطبين كانت السبب وفي تكييف الأسلوب على نحو خاص .

ورأينا أنه قد يقصد بالحذف رسم صورة سريعة مؤثرة ، أو صورة مشرقة متحركة أو يكتفي بحروف تأخذ بأعناق جمل اقتدارا في البيان أو يدل على الشعور بكلمة واحدة نابضة لها إيحاءات مستمرة كما قد تسقط الكلمة للقفز

إلى أثرها أو ما يليها استحضارا له لأهميته في المقام أو اقتصادا في التأثير على المخاطبين .

وفي الإيجاز بالقصر :

وضحنا أنه جاء متسمًا بالدقة والطبع وقوة التأثير ثم عالجنا جوامع الكلم بنوعيها إيجاز بارع وهو الغالب ، أو حكم وأمثال لها خصائصها وبقائها .

ثم ناقشنا العسكري وابن الأثير في خطئهما في التمثيل على المساواة بأحاديث وضح فيها قوة الإيجاز ، وتعرضنا للإطناب وقد رأينا البلاغيين والأدباء قديما وحديثا بين قلة تنكره وكثرة تؤيد وجوده في البيان النبوي ، ومن أيده استدل بما ورد عن أبي سعيد الخدري من خطبته ﷺ من العصر حتى الغروب ، وقد أيدنا الرأي الثاني لا من الجهة التي استدلوا بها فقد يتكلم البليغ يوما ثم لا يقول إلا فصلا ، بل لأن - الإطناب بملامحه وأقسامه الاصطلاحية البلاغية وجد بوفرة في البيان الكريم ، وعالجنا كذلك الاحتراس ، والإيضاح بعد الإبهام ، والخاص بعد العام والتذييل والتتميم والاعتراض ، والنفي والإثبات ، وأثر ذلك كله في الأساليب ، ثم بينا أن الإطناب النبوي أخيرا له سمة الدقة والصدق والمرونة ، ومن هنا كانت شبهة المنكرين .

ثم تكلمنا عن التقديم من تقديم الخبر ، وذكرنا أغراضه ومقاماته العديدة وتقديم المفعول لأسباب جمة وضحناها تفصيلا ، وكذلك تقديم المتعلقات لدواع مختلفة ، ثم عالجنا لونا من التقديم أسميناه مقتضى النظم ، اختلف فيه ترتيب الكلمة ووضعها تقديما وتأخيرًا في أساليب متفقة الفكرة مع سوق أمثلة تبين أسرار هذا الاختلاف في النظم .

كما قدمنا نمطا آخر من النظم هو التسلسل المنطقي والنفسي بين العبارات وأحداثها ، ونمطا ثالثا قلب المتعارف عليه تغييرًا في المفهومات ، ونزولا على مقتضيات الأحوال .

وأتبعنا التقديم بالاستفهام ، وقد وضحنا صدقه في تصوير المشاعر النبوية وامتداده إلى الإنسان والقيم والزمان والمكان والماضي والحاضر الماثل والغيب المكنون بأحداثه المثيرة .

وقد رأينا الهمزة أوسع الأدوات انتشارا جاءت مع (لا) أو بدونها لدواعي المقامات العديدة ، كما عللنا ذكر حرف الجواب (بلى) أو حذفه بحالات المخاطبين وخطورة الكلام والمقام ، كما عالجنا بقية الأدوات ومقاماتها النفسية ، وقد لاحظنا أن الإنكار في مقامه ـ قد يتوجه بشكل فيه عموم للمنكر عليه وغيره ، وقد يتوجه خاصا المنكر عليه وقد عللنا ذلك ، كما لاحظنا كثرة استعمال التعبيرات : ما بال كذا أو مالي ولكذا ، وما هذا ، وما هذه في الإنكار غالبا .

كما نبهنا إلى تجاوب النظم كله مع الاستفهام للتعبير عن المراد ، وإلى نجاح الاستفهام في إحداث الأثر المباشر لدى المخاطبين ودلالة قوته وصدقه .

ثم تناولنا القصر في بيان النبوة ، واكتشفنا في طريق النفي والاستثناء ظاهرة هامة هي : أن يتقدم نفي بما النافية داخلة على المقصور اسما نكرة عاما بلفظة مسبوقا بمن الزائدة ، وقد يسبقه نفي جنسه نحو :

ما من نبي ، ما من أحد ، ما من عبد ، ما من الأنبياء من نبي وهكذا في أكثر من عشرين نصًا ، وقد فسرنا ذلك بإمكان صياغة المعنى في شكل قاعدة أو قانون عام دائم له قوة النفاذ والثبات .

كما نبهنا إلى ظاهرة تالية هي أن المقصور عليه أحيانا لا يتبع المقصور مباشرة بل يتبع المقصور بفيض من الصفات المتلاحقة تستوفيه من ناحية ، ويثير أشواق المخاطب من ناحية أخرى ليتأكد القصر نفسًا مع تأكيده أسلوبيًا وذلك في مقام خاص ، كالغيبيات والجزاءات المثيرة ، وقد يفصل في المقصور عليه أيضا استيفاء لأجزائه ، كما وجدنا القصر دون مبالغة في الصياغة وفاء بحق المقام ، وتعرضنا للقصر الحقيقي ، وإلى تأدي النفي بالاستفهام وأثر ذلك في الأساليب .

وفي « إنما » بينا أنها جاءت في أمور جلية أو خفية ادعي جلاؤها كما جاءت كثيرا للتعريض لدواعي المقامات .

وفي القصر بحرف العطف رأينا الحالات الخاصة استدعت الأساليب المتأنية القوية في النص على المنفي والمثبت ، كما بينا أن الحرف إذا جاء بعد واو العطف يكون للاستدراك لا للعطف ، وانتهينا إلى أن الأسلوب روح صاحبه وأن القصر في بيان النبوة تميز بسمات خاصة لم تتوفر لغيره ضمانا للتأثير الجمالي والعقلي .

ثم عالجنا الفصل والوصل على نهج البلاغيين ، وبينا أن القطع من أسباب التماسك بين الأساليب ، اعتمادا على عقل المخاطب وخياله كما أرجعنا كمال الانقطاع لعدم المناسبة ـ عند البلاغيين ـ إلى ظاهرة تداعي المعاني النفسية ودخول الأساليب تحت مقام عام يشملها جميعا .

ثم عالجنا الألفاظ ومعانيها ورأينا أن الأمر لم يقتصر على الانسجام بين حروف الكلمة ، أو التعاطف بين اللفظ والمعنى بل جاز ذلك إلى رسم صور نابضة ، أو إكمال صور فذة ، وقد تنوعت الدلالة بين ما يؤديه اللفظ بجرسه وصورته ، أو بإيحائه وظله ، أو بهما معا ، وقد عرضنا أمثلة دالة معبرة حسب المقامات المتنوعة ثم بينا أن ذلك ليس من قبيل الدلالة المعنوية بل من قبيل الطريقة التصويرية كما أشار إلى ذلك النقاد المحدثين .

ثم تكلمنا عن التشبيه النبوي وخصائصه وطبائعه النابعة من أساليبه مما عالج التشبيه من موضوعات لمقامات كثيرة كالقرآن الكريم جملة وتفصيلا ، وذكر الله تعالى ، والنبي ﷺ ورسالته ـ والدنيا وحقيقتها ، وقرب زوالها والترغيب في جملة من العبادات .

كما وضحنا عقد التشبيه موازنات بين أصناف متقابلة لهم صفات متضادة أو جمع التشبيه بين صفات لتكوين فكرة عن موصوف ، كما رغب في صفات محبوبة بطريقته المعبرة ، كما تناول الصفات السيئة مثيرا متوعدًا منظرا وكذلك عالج الأمكنة كبيان فضل المدينة والحجاز ونفذ إلى المستقبل المجهول يصور الفتن في تنوعها وآثارها ، والمحشر بمواقفه المتنوعة ، ومشاهد من النعيم والعذاب في الآخرة ، وقد فصلنا القول في كل ذلك ونوع التشبيه وأسراره ، ثم

نبهنا على مادة التشبيه في الحديث فوجدناها واسعة سعة النفس والحياة الإنسانية شاملة شمول الكون فهناك الظواهر الكونية والطباع الإنسانية والإنسان العربي وآلاته ، وطبائعه ، ومتاعه ، وأماكنه وكل مستلزمات حياته ، وكذلك حيوانات البيئة وكائناتها بطبائعها والطبيعة بما فيها ، وبينا أن التشبيه لم يلتقط المادة غفلا بل قيدها بوصف أو إضافة أو أخذ منها ما يهمه كما رأيناه يبعث الحياة والحركة المتجددة ذات الظلال المديدة خاصة في المركب التخييلى .

كما وجدنا تفاوتا في التركيز على المادة الملتقطة حسب أهميتها وموقعها من المخاطبين فالبعيد مثلا ، والنار مع الكير أو وحدها جاء كل في عشرة أحاديث تنوعت معارضها ، كما بينا انفراد بعض المواد بأغراض لا تتعداها ، فالشاة للهوان والكلب للتقذير ، والحمار للذل ، والحذف للتبشيع ، وجناح البعوضة وحثالة النمر في التفاهة والشامة والشعرة والعلامة في القلة والضآلة وكما شبه بالمحسوس شبه بالمركب التخييلى والقصة المصورة ، والمتوهم وما لا يحيط به .

ثم بينا التمثيل النبوي وأن انعقاده لم يقف عندما حدده البلاغيون فأداته غالباً ما تكون الكاف داخلة على ما المصدرية ، أو مثل مقصود بها الحال متوصف بأوصاف المشبه به أو الكاف داخلة على اسم موصول أو على اسم معرف متبوع بحال مثبتة ، أو على مثل داخلة على ما المصدرية ، كما رأينا انعقاده بالمصدر المضاف وألفاظ المفاضلة وبينا السر في كل هذا التنوع ، كما رأيناه في قصة متبوعة بالعبرة أو غير متبوعة .

وقد يجتمع تمثيلان أو أكثر تحقيقا للغرض ، كما لاحظنا كثرة التمثيل نسبيا وهذا يوضح دوره في أغراض النبوة .

كما رأينا في التشبيه ، المفرد ، والمتعدد مفردا ومركبا بأنواعه من ملفوف وجمع وتسوية وتشبيهين مستقلين ظاهرا لتكوين فكرة عن موصوف لا يستغنى عن أحدهما .

ووضحنا الأداة في التشبيه ، وبينا أن دقة المعنى والوفاء بالغرض كان هو الحكم في الأداة ذكرا وحذفا بحيث لو حذفت أو ذكرت عكس ما في الحديث ضاعت بلاغته ، وكان هذا مثيرا لأنه ينقص ـ كما بينا ـ ما ذكره السكاكي وتابعوه من مراتب البلاغة في التشبيه .

ثم بينا التشابه والتشبيه المنفي وأثره على المعنى وإعانة الأسلوب للتشبيه في مهمته وفي خصائص التشبيه وضحت كيف كان أداة للتعبير ووسيلة للبيان ونقل الانفعالات المطهرة ، بل وجدناه معبرا عن رغبات فنية بعيدا عن مجالات الدعوة كذلك .

كما بينا سمات الصورة التشبيهية فقد نجد فيها الاستمرار والحركة لتكوينها من عناصر متجاذبة بطبيعتها ، أو دلالة التركيب على الحركة ، أو تخييل الحركة البطيئة ، وقد تكون ثابتة ، ولكنها ماثلة لا تريم ، وحين يكون التشبيه منتزعا من مادة جامدة نجدها بالتعليق والإسناد تعج بالحرارة والنماء ، وأكثر ما يبدو هذا في التخييل ، كما رأينا كثرة المعاني الإضافية صفة لازمة .

كما بينا ونبهنا أن المخاطب أو المتكلم أو ما يقع عليه بصرهما أو ما في ذهنهما من مكونات التشبيه ضمانا للانفعال والتفاعل ، كما قد يتعرض التشبيه لدقائق تخفي على الإنسان ـ أول وهلة ـ كالرقمة والشامة والفيء مثل الشراك .

كما وضعنا ظاهرة ترشيح التشبيه ، وتجريده وناقشت عليا الجندي في ذلك كما وجدنا التشبيه مسلطا أضواءه على أعماق النفس البشرية واصفًا طباعها ومكنوناتها أو صادقا في الكشف عن النماذج البشرية .

واشتمال الصورة على حقائق مسلمة محسوسة حين تكون الدعاوى غريبة والشك قويا تهوينا وتوهينًا واستدراجا وإثباتا لليقين .

وبينا أن الهدف من التشبيه لم يكن مجرد إظهار المعقول في معرض المحسوس مثلا بل اتبع قاعدة في التصور تهدف إلى إعمال ملكات النفس والأخذ بها إقناعا وإدفاعًا وأثناء ذلك جميعه نورد من أقوال النقاد والبلاغيين

قديما وحديثا وآرائهم ما يستحق الذكر نناقشه ، وقد نؤيده ، وقد نرده بالعدل على هدى وبصيرة .

ثم عالجنا الاستعارة النبوية وموضوعاتها ، وأغراضها الواسعة المتنوعة ، وبيان نوعها وأسرارها ، وأثناء ذلك ظهر لنا :

كيف عالجت أغراضا للدعوة المحمدية كما أتت لغرض وصفي أملاه داعي الفن وحده كمشاعر النبي الذاتية وتصوير الغريب كما وجدنا التصرف في المادة الواحدة على طريقة الاتساع المناسبة للمقامات :

كمادة : ملا وأحيا وأمات ، وأطفأ والمسند إليه أو المفعول قرينة التجوز لأنه معنوي أو شعوري أو جماد أو عرض .

كما وجدنا اسما واحدا أسند أو علق بأكثر من فعل مجازي كلفظ الخطيئة والخطايا مع محا وخرج ، وحط ، ويحط ، وحطت ، وكشف وغسل والرحمة مع تنزل وتوضع وتغش وتغمد ، ونزع ، وكثير غير ذلك ، وبينا أن تعدد الأفعال لا يأتي كيفما اتفق بل يخضع لقاعدة عامة في التصوير هي مناسبة الحدث لما استعير له من حالات تتفاوت حدثا وقوة وضعفا ، بل إن طريقة الصياغة للفعل لها أثر في تحديد قوة الاستعارة فهناك حط خطيئة ، ويحط خطيئة ، وحطت خطاياه ، كما أن التغمد الواقع على الرحمة في الرجاء يوم القيامة أقوى من غشيتهم الرحمة في الذاكرين الله . وقد نصبنا أدلة على أن اللفظ في البيان الكريم يوضع بدقة بالغة الحساب والحساسية ، فلا يمكن أن يحل لفظ معار مكان آخر كما في جوف الليل وبطن السماء ، وبطن كل واد ، وكما في طبع على قلبه ، في ترك ثلاث جمع ، وختم : في ترك الجمعات تهاونا ، وفي «كشف» واقعا على المغرم والمأتم ، وستر الله لمن يجاهر بالمعصية و«هتك» مسندًا لمن تعرت في غير بيتها وكل ما سبق لدواعي المقامات .

كما وجدنا الاستعارات منصبة على المعار تقلبه على كل وجوهه ، وتحيط به من كل ناحية جزءاً أو طرفًا مناسباً للمقام حتى يستوي منه نموذج كامل

كالبعير فله ارتباطه الذهني والواقعي بالعربي وقد وجدنا منه : جوف الليل «وبطن (السماء) وظهر (البحر) ورأس (الجبل) ، وكاهل (الليل) وسرة (الشهر) ، ودبر (أحد) كما وجدنا لمحات من حيوانات أخر كغرة الخيل والقرن وآكلة الخضر ، وسرب الظباء .

كما وجدنا استعارات تناولت معارا في صور مختلفة فالشمس حية وزائغة ، ولها حاجب ، ولها قرن وهكذا نزولا في هاتيك الأمور على قاعدة التصوير السابقة .

كما وجدنا جمع الأسلوب بين استعارتين متغايرتين ، كما بينا أن هناك أفعالاً خصصت مجالات لا تتعداها كالفعل قذف في الشر من الصفات كالرعب والذل والشر والوهن كما خص نزع بسلب صفات محمودة كالرحمة والمهابة .

كما درسنا مكونات الصورة وبينا أنها قد تكون مستمدة من الواقع العربي أو الواقع الإنساني النفسي والحسي ، أو متخيلة مركبة في الحس أو بالتصرف التخييلي في المعنويات ، كما قد تكون وهمية لا تخطر على بال أحد كتبول الشيطان في الأذن .

كما بينا غرابة الصور أيضا في كونها غير مألوفة للحس والخيال فالحسنات تؤكل والنفاق نبات أو تصغير الكبير احتواء له أو تضخيم الصغير فالأرض والسفر والبعد يطوى ، والدنيا رحلة والبحر بعير واللسان منجل ، كما تكون البراعة من اختيار مجال حساس حيوي للصورة الأدبية فالقلب مسرح لعمليات عدة يبيض ويسود ، ويقذف فيه الشر والوهن وينزع منه الرحمة ، والضحك يميته وحده دون الجسد والغناء ينبت به النفاق كما اكتشفنا دوران مجموعة من الاستعارات حول قضية عامة ، كل تعالج جزءا حتى يتم استيفاء الموضوع مصدرا محققا كالدنيا تناولت أحوالها وطبيعتها ، وقيمتها ، ومفارقاتها ، ونهايتها .

كما رأيتها تصور الطباع وتحلل النماذج البشرية ، وتحل كثيرا من مشكلات الإنسان القدرية .

وقد رأينا قوة تصويرها للحقائق واكتشافها أخفى العلاقات لكنها قوية دائمة كما قد ترسم بالألفاظ المحددة لوحات أخاذة ، أو باللفظ الواحد مشهدًا مثيرا كقوله : آمنا في سربه ، وكواهل الليل ، وقرن الشمس ، يطأ سواد ، أو مشهدا محدودا كبكاء السماء والأرض على الغريب ، وتقيؤ الأرض .

وقد وجدنا تماسك الأسلوب وتعاونه لتقديم صورة تلائم المقام ودرجته كالحديث « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها » وكيف وفر الأسلوب للاستعارة صدقها وقوتها وناقشنا من جعل الاستعارة هنا قريبة وعرضنا لتناسب الكلمة إيحاء مع المقام كقذف الشر وحلق الدين في الانفعال الغاضب ، وتغمد الرحمة وغسل الأخطاء في التضرع وبكاء السماء والأرض والرزق والعمل في التأثير ، وتجديد الدين والأمن في السرب والرضا ، وهكذا .

مع الاستعانة باللون والمادة والحركة والشكل وجرس اللفظ ، وتنسيق ذلك في صور خصبة طريفة كتصوير القلب في الذنوب والتوبة أو الإصرار وقد تعاقبت عليه الألوان مع تحرك السواد إلى سطح القلب مكونا غشاء مع ملاحظة لون القلب أساسا ، وكما في اللسان الحاصد والأعراض الناهشة .

وعرضنا لتناسب الصورة مع جوها ووقت حدوثها وحالة صاحبها الشعورية ، وكأثر الفتن الهوجاء التي تلطم كل امرئ لطمة .

كما رأيناها تجسد المعانى الذهنية ، والحالات النفسية والمتوهمة والأعراض والزمان والمكان وتمنحها حياة نابضة ، بل تبعث الحياة والحركة في بعض الكيان واستقلال الإحساس فالبطن تكذب ، واليد تعلم والقلب وحده يموت ، بل إن الكلمات لها سلوك فلو تفتح عمل الشيطان كما وجدنا هيئات تنقل على نحو جديد كالإسراف في الذنوب الكثيرة والطبع والختم في إتمام الضلال .

وقد أوضحنا خلال البحث تنوع الاستعارة بأقسامها المعهودة ، وناقشنا كثيرا من العلماء فيما قالوه حول استعارات الأحاديث ، ورددنا ما كان ضعيفا أو خافيا عليهم أو فيما جوزوا فيه الجمع بين أنواع الاستعارات باعتبارات ، وكان المقام وحده هو الحكم في توجيه الاستعارة .

ثم وضحنا المجاز المرسل وتتبعنا أمثلته ، ونوعناها حسب علاقاته وكذلك المجاز العقلي مع بيان التجوز وأسراره البيانية ، ووضحنا سمات المجازين ومنها قوة التخييل باستحضار الغائب ترهيبا أو ترغيبا والتركيز على بعض الأمور كالنار وحدها أو مع جهنم باعتبارات مختلفة يلائم فيها الجزاء شكلا وأثرا صورة العمل المقترف ، كما وجدنا مع دمج الصورة بين الحاضر والمستقبل رسم خطين متوازين للعمل والجزاء دنيوي وأخروي يسيرا معا بقدر بداية ونهاية مع الأحداث .

وقد تبدأ الصورة بعمل دنيوي «يتم» منه أشواطا في الآخرة ثم تعود تكملة في الدنيا خلابة في البيان وقوة في الغرض .

كما وجدنا التركيز على جزء له مدخليته في الحدث بإيهام استقلاله بذاته حسب المقامات ، وقد تتغلغل الصورة في أعماق الكيان الإنساني انفعالا صادقا في مقامات التضرع كخشوع البصر والمخ والعظم والعصب ، ولاحظنا ملاءمة العضو لما نيط به من حدث .

كما ناقشنا بعض العلماء في إخراجهم المجاز المرسل على الاستعارة .

ورأينا من أسراره البيانية جمع الصورة بين عضوين متجاذبين ، أو عقد موازنة بينهما وقد يكون اللفظ واحدًا له معارض شتى ومعان مختلفة كاليد في ثلاثة واللسان في أربعة معارض ، ورأينا اتفاق المدلول واختلاف اللفظ لغرض بلاغي كالعنق والرقبة .

مع تجسيد المشاعر والألوان العرضية والكشف عن أدق الطباع الإنسانية ، كما رأينا تعادل الصورة شعوريا بما يوصيه المجاز اقتصادا في التأثير النفسي كالحديث «لا تجعلوا قبري عيدا».

ورأينا كيف يعيا الوصف أحيانا عن الإحاطة بأسرار التركيب والمجاز كالحديث آمن روعاتي وما فيه من إيجاز بالحذف والقصر ومجاز عقلي وطباق وإيقاع نافذ وإيحاء في هذا الخوف الخائف .

ثم تكلمنا عن الكنايات النبوية :

ثم عالجنا الكناية عن صفة محمودة وقد لعب فيها التصوير والتخييل دوره العظيم ترغيبا ، ورددنا على ابن أبي الإصبع في جعله الكناية النبوية فيما يقبح ذكره ، كما تناولنا الكناية عن صفة غير محبوبة أبدعت الكناية تقديمها بشكل مثير تنفيرا وترهيبا .

وعرضنا للكناية عن موصوف تنوع بين ملك وإنسان وحيوان وجماد وقد ذكرت صفته اللازمة إثارة وتحقيقا للغرض كما نبهنا إلى أن الكناية عن صفة تكاثرت في البيان النبوي كما وجدنا تعالم الكناية في موصوفات أو صفات لا تتعداها كفرس الشاة في الخفير القليل والصغر ، ووزن الذرة أو الشعيرة أو البرة أو حبة الخردل في القلة والصغر ، وزبد البحر وقراب الأرض ونجوم السماء وما لا عين رأت في الكثرة والعظمة والعظم ووضحنا الكناية عن نسبة .

وتناولنا التعريض وأسراره في البيان .

وقد وضحنا خلال التحليل لأمثلة الكناية براعتها في تصوير المعقول بصورة المحسوس والخفي في معرض الجلي مع تصوير أمور غاية في الدقة ، واختيار ما يعبر عن المقام بصدق وقوة .

وبينا :

أن هدف الكناية لم يكن فقط مجرد التقرير أو التبليغ كما ادعي البعض بل جاءت مع هذا بجناحين من الفن والسحر وقد أتمت الدلالة مع تلبيتها نداء الفن وحده وبعيدًا عن أغراض الدعوة .

ورأينا استغلالها بعض الألوان البيانية قوة في التخييل ومع تعبيرها عن الأدب النبوي سترا وحياء ، جاءت ترغيبًا وتحسينا وتعليما وتنفيرا ، وكانت صادقة في نقل الانفعالات ومعالجة عديد الأغراض والموضوعات .

ثم أفضينا إلى المحسنات البديعية بقسميها ، وقد تناولنا المعنوى منها فعالجنا : الطباق ووجدناه يأتي في حالة التأسيس أو التأكيد لها ، وبينا أثره في الربط المعنوي ، كما وجدنا كثرة المقابلة في البيان النبوي لأن الوجود بل ما هو أعم منه من عالم المعنويات قائم عليها ، وقد وجدنا التقابل بين صنفين أو صفتين ، أو حالتين أو التقابل في الزمان وانتهينا إلى أن الطباق والمقابلة وقد بسطا سلطانهما على الأحداث والمشاعر والزمان والمكان تحقيقا للأغراض وتجلية للمعاني ليسا حلية أو ترفا .

كما عالجنا :

مراعاة النظير : والجمع والتقسيم بألوانه ووجدنا شيوعه وكثرته التي تفوق الحد والعد ورأيناه معنيا بالحصر والتقسيم والتحديد والتفنين للمبادئ والشرائع لهذا ـ وهو مشهور قديما وحديثا ـ ألحقنا في كثرته وقيامه بلور بارز بالتشبيه في أصالته ، ودعمنا ذلك بأدلة قوية .

والانسجام وعالجناه علميا وموضوعيا موضحين استيعاب البلاغة العربية لكل نظريات النقد الحديث فهذا الانسجام يشمل ملاءمة الألفاظ لمعانيها وموسيقى اللفظ الظاهرة والخفية ، ولذلك اعتبرنا الانسجام صفة ذاتية للأساليب لا تنفك عنها ، ويلحق به الإلهاب والتهييج .

ثم تناولنا :

المحسنات اللفظية ، فعالجنا السجع ، وعلاقته بالتأثير النفسي ، عاقدين موازنة علمية بين سجع النبوة وبين سجع الكهان ، ولخصنا نتائجها الخاصة ، ثم نبهنا إلى ظاهرة انتشار السجع في الابتهالات والدعوات ، والاستعاذات معللين هذه الظاهرة نفسيا ، ثم أوجزنا موقف العلماء من قضية السجع ورددنا على ابن الأثير في قبوله سجع حمل بن النابغة المتكلف ، وعلى شوقي ضيف في ادعائه خلو الخطب النبوية من السجع لنفور النبي منه .

ثم عالجنا :

أحاديث السجع والموازنة وعلاقتهما بالتساوي والتوازي واتزان الإيقـاع عنـد المحدثين ، ونبهنا إلى أثر التوازن في تغيير بعض الألفاظ عن وضعها القياسـي ، وأنه تعديل طبيعي وأوردنا لذلك بعض المقامات الجادة التي تـأنف مـن التـأنق اللفظي رادين على زكي مبارك والعقاد وعبـد الحكيـم بلبـع في جعلـهم سـجع الحديث حلية وترفا وأيدنا قولنا برأي الأستاذ أحمد الشايب .

كما نقدنا من فهم خطأ فكرة الموسيقى في النثر فجوز نقل بعض الأحاديـث إلى أبيات شعرية خالطا بين موسيقى الشعر والنثر .

ثم عالجنا التجنيس وأقسامه وأسرار جماله ، وآثاره البلاغيـة والنفسـية ، ثـم بينا أن كل ألوان البديع كباقي التعبير النبوي جاء فطرة نقيـة وطبعـا صـافيا فـلا يرد عليه التقييد كشرط الطبع .

وبعد :

فلست بحاجة إلى تأكيد أن ما سبق من تلكم الظواهر الأسلوبية والأدبيـة في البيان النبوي بل جملة كاثرة من علوم المعاني والبيان والبديع لاسيما السـمات العامة الفنية النابعة من تتبع الأحاديث واستقرائها لم أجد فيها حرفا لأحد قبلي وهذا ما يجعلني أحمـد الله الكـريم الوهـاب علـى توفيقـه وأسـأله المزيـد مـن العناية والرعاية وأصـلى علـى الحبيـب العظـيم سـيدنا رسـول الله وأسـلم عليـه وعلى آله وصحبه والله المستعان .

* * *

المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ط الثانية القاهرة مطبعة المعاهد .

٢- أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، بطرس البستاني ط الثانية بيروت .

٣- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ط سادسة تحقيق السيد رشيد رضا ١٩٥٩م .

٤- الأسس الجمالية في النقد العربي دكتور عز الدين إسماعيل ط ثانية دار الفكر العربي ١٩٦٨م .

٥- الأسلوب : الأستاذ أحمد الشايب ط الخامسة مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ .

٦- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، العز بن عبد السلام ط أولى ١٣١٢هـ

٧- الأصول الفنية للأدب ، الأستاذ عبد الحميد حسن ط مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٤٩م .

٨- أضواء على السنة المحمدية الأستاذ ، محمود أبو رية ط الثانية ـ دار المعارف .

٩- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ الأستاذ مصطفى الصادق الرافعي ط ثانية المكتبة التجارية ١٩٦٩م .

١٠- الأمثال في النثر العربي القديم دكتور عبد المجيد عابدين ط أولى دار مصر للطباعة ١٩٥٦م .

١١- أمالي السيد المرتضى٤٣٦ ط أولى تحقيق الحلبي والشنقيطي ط السعادة ١٩٠٧ .

١٢- الإيضاح للخطيب القزويني تحقيق دكتور محمد خفاجي ط الأولى الحسين التجارية ١٩٥٠م القاهرة .

١٣- الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث ، الحافظ ابن كثير تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر ط حجازي القاهرة .

١٤- البرهان في علوم القرآن ، الزركشى ط أولى الحلبي ١٩٥٧م .
١٥- ابن أبي الإصبع المصري بين علماء البلاغة ، دكتور حفنى شرف ط . الأولى مكتبة نهضة مصر .
١٦- البلاغة العربية في دور نشأتها ، دكتور سيد نوفل مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨
١٧- البيان والتبيين ـ الجاحظ تحقيق ـ السندوبي ط .أولى التجارية القاهرة ١٩٢٦م
١٨- تأويل مختلف الحديث : ابن قتيبة الدنيوري ط . أولى كردستان العلمية ١٣١٦هـ
١٩- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ، ابن أبي الإصبع المصري ٦٥٤هـ تحقيق دكتور حفني شرف القاهرة ١٣٨٣هـ
٢٠- تدريب الراوى في شرح تقريب النواوي السيوطي تحقيق دكتور عبد الوهاب عبد اللطيف دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٦٦م
٢١- تدوين السنة دكتور محمد الطيب النجار ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٤ .
٢٢- تاريخ الأدب الجاهلي دكتور على الجندي ط الثانية مكتبة الجامعة بيروت ١٩٦٦ .
٢٣- تاريخ الأدب العربي دكتور عمر فروج ط الأولى بيروت دار العلم للملايين ١٩٦٥م .
٢٤- تاريخ الأدب العربي الأستاذ أحمد حسن الزيات ط . الأولى مكتبة نهضة مصر .
٢٥- تاريخ آداب العرب ، الرافعي تحقيق محمد سعيد العريان ط الثانية الاستقامة ١٩٤٠م .
٢٦- التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول (٥ أجزاء) الشيخ منصور على ناصف ط الرابعة عيسى الحلبي القاهرة .
٢٧- التصوير الفني في القرآن الأستاذ سيد قطب ط . ثالثة القاهرة ١٩٤٥م .
٢٨- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي : الأستاذ أنيس المقدسي جامعة بيروت الأمريكية .

٢٩- تمييز الطيب من الخبيث ٧٣م عبد الرحمن بن على الشيباني الشافعي ط محمد على صبيح ١٩٦٣ القاهرة .
٣٠- توجيه النظر إلى أصول الأثر : طاهر بن صالح بن أحمد الجزائري الدمشقي ط . أولى الجمالية مصر ١٣١٨هـ ـ١٩١٠م .
٣١- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق دكتور محمد خلف الله ودكتور محمد زغلول سلام ـ دار المعارف ١٩٥٦م .
٣٢- ثورة الإسلام وبطل الأنبياء الأستاذ محمد لطفي جمعة ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩م .
٣٣- الحديث النبوي دكتور محمد الصباغ منشورات المكتب الإسلامي ـ الرياض ١٣٩هـ١٩٧١م .
٣٤- الحديث النبوي من الوجهة البلاغية دكتور عز الدين السيد ط . أولى ١٩٧٣م .
٣٥- الحديث والمحدثين دكتور محمد محمد أبو زهرة ط . الأولى مصر القاهرة ١٩٥٨م .
٣٦- حياة محمد دكتور محمد حسين هيكل ط دار الكتب المصرية ١٣٥٤هـ .
٣٧- الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق دكتور عبد السلام هارون ١٣٥٧ هـ القاهرة .
٣٨- خزانة الأدب : عبد القادر بن عمر البغدادي تحقيق دكتور عبد السلام محمد هارون ـ القاهرة
٣٩- دائرة معارف القرن العشرين ـ الأستاذ محمد فريد وجدي .
٤٠- دراسات تاريخية في رجال الحديث دكتور عبد الحميد بخيت ط . أولى العربي القاهرة ١٩٥٨م .
٤١- دراسات في علم النفس الأدبي : دكتور حامد عبد القادر ط النموذجية القاهرة ١٩٤٩م .
٤٢- دفاع عن البلاغة الأستاذ : أحمد حسن الزيات ط ثانية عالم الكتب القاهرة ١٩٦٧م .
٤٣- دفاع عن الحديث النبوي : الأستاذ زكريا على يوسف ط أولى الإمام القاهرة ١٩٧٠م .

٤٤- دلائل الإعجاز : الإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق الشيخ أحمد مصطفى المراغي ط الثانية المحمودية التجارية القاهرة .
٤٥- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين : العلامة محمد بن علان الصديقي الشافعي ط جمعية النشر والتأليف الأزهرية أبو الهول القاهرة ١٩١٨م .
٤٦- رياض الصالحين : للإمام أبي زكريا محيي الدين النووي ٦٧٦ هـ ط محمد صبيح القاهرة .
٤٧- سر الفصاحة : لابن سنان الخفاجي ط أولى تحقيق علي فودة ط الرحمانية ١٩٣٢م .
٤٨- السنة قبل التدوين دكتور محمد حجاج الخطيب ط الأولى القاهرة ١٩٦٣م .
٤٩- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : دكتور مصطفى السباعي ط أولى ، دار العروبة القاهرة ١٩٦١م .
٥٠- سيدنا محمد في إبداعه الأدبي : دكتور محمد أحمد البيومي رسالة دكتوراه لم تطبع كلية اللغة العربية الأزهر .
٥١- سيرة ابن هشام : الأستاذ مصطفى السقا ط الثانية القاهرة الحلبي ١٩٠٠ .
٥٢-السيرة النبوية : لابن كثير تحقيق الأستاذ مصطفى عبد الواحد القاهرة ١٣٨٤هـ .
٥٣- شرح نهج البلاغة : لابن أبي الحديد تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ثانية القاهرة ١٩٦٥م .
٥٤- الشفا بتعريف حقوق المصطفى : القاضي عياض اليحصبي ط دار الكتب القاهرة ١٩٥٠ .
٥٥- الصبغ البديعي في اللغة العربية : دكتور أحمد إبراهيم موسى ط دار الكتاب العربي ١٩٦٩ القاهرة .
٥٦- الصناعتين ـ العسكرى تحقيق محمد أمين الخانجي ط ثانية محمد صبيح القاهرة .
٥٧- ضياء الدين بن الأثير : دكتور محمد زغلول سلام دار المعارف بمصر .
٥٨- الطراز : يحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني ـ المرصفي ـ ١٩١٤م .

٥٩- عبقرية الشريف الرضي : دكتور زكي مبارك ط الثامنة أمين عبد الرحمن القاهرة ١٩٤٠م .
٦٠- عبقرية محمد : الأستاذ العقاد ، دار الهلال ـ القاهرة .
٦١- علوم البلاغة : الأستاذ أحمد مصطفى المراغي ط الخامسة المكتبة المحمودية التجارية القاهرة .
٦٢- العمدة : لابن رشيق تحقيق محمد محيي الدين ط الثانية السعادة بمصر ١٩٧٤هـ .
٦٣- عمدة القاري شرح صحيح البخاري الإمام بدر الدين العيني ـ إدارة الطبعة المنيرية ـ مصر .
٦٤- الفائق في غريب الحديث : الإمام الزمخشري تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ط الأولى القاهرة ١٩٤٥م .
٦٥- الفلك الدائر في المثل السائر : لابن أبي الحديد ـ ط الأولى ـ نهضة مصر ١٩٥٩م .
٦٦- فن التشبيه : دكتور علي الجندي ط الثانية ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٦م .
٦٧- فن الجناس : دكتور علي الجندي دار الفكر العربي ـ القاهرة .
٦٨- الفن ومذاهبه في النثر العربي : دكتور شوقي ضيف ط الثانية مكتبة الأندلس بيروت ١٩٥٦م .
٦٩- في الأدب الإسلامي والأموي : دكتور سليمان ربيع ط الثالثة السعادة مصر ١٩٦٦ .
٧٠- قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي : دكتور محمد خفاجة ، ودكتور عبد الله عبد الجبار ط الأولى دار مصر للطباعة القاهرة ١٩٥٨ .
٧١- الكشاف الإمام الزمخشري ط الاستقامة القاهرة ١٩٥٣م وبذيله أربعة كتب الانتصار والكافي الشافي وحاشية المرزوقي ومشاهد الإنصاف .
٧٢- الكنايات : لأبي منصور الثعالبي م٤٣٠هـ ط الأولى السعادة مصر ١٩٠٨م .
٧٣- الكفاية في علم الرواية لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي ـ طبعة إدارة جمعية المعارف العثمانية ١٣٥٧هـ .

٧٤- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير دكتور أحمد الحوفي ودكتور بدوي طبانة ط الأولى نهضة مصر القاهرة ١٩٥٩م .
٧٥- المجازات النبوية ، الشريف الرضي تحقيق الأستاذ محمود مصطفى ط مصطفى الحلبي مصر ١٩٣٧م .
٧٦- المجازات النبوية ، الشريف الرضي تحقيق دكتور محمد الزيني ط الأولى الحلبي مصر .
٧٧- مجلة مجمع اللغة العربية الجزء الثالث القاهرة ١٩٣٦م .
٧٨- مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة : جمعها دكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي طبعة لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٤١م .
٧٩- المدخل إلى علم أصول الفقه : دكتور محمد معروف الدواليبي ط ثالثة جامعة دمشق ١٩٥٩م .
٨٠- المزهر ، جلال الدين السيوطي ط السعادة مصر ١٣٢٥هـ .
٨١- المستصفى من علم الأصول : الإمام الغزالي تحقيق الشيخ فرج الله زكي الكردي ط أولى مصر ١٣٢٢هـ .
٨٢- مشكل الحديث وبيانه : الإمام أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ط أولى حيدر آباد الركن ١٣٦٢هـ .
٨٣- مصادر الشعر الجاهلي : دكتور ناصر الدين الأسد دائرة المعارف بمصر ١٩٥٦م .
٨٤- المطول على التلخيص : العلامة سعد الدين التفتازاني ط أحمد كامل القاهرة ١٣٣٠هـ .
٨٥- مفتاح العلوم : أبو يعقوب السكاكي ط مصطفى البابي الحلبي القاهرة ط أولى ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧م .
٨٦- مقدمة ابن خلدون المطبعة الأزهرية مصر ١٩٣٠م .
٨٧- المنتخب من كفايات الأدباء وإشارات البلغاء : القاضي أبو العباس أحمد ابن أحمد الجرجاني الثقفي ط الأولى السعادة بمصر ١٩٠٨م .

٨٨- مناهل العرفان في علوم القرآن : الأستاذ محمد عبد العظيم الزرقاني دار إحياء الكتب العربية .
٨٩- الموافقات : الشاطبي السلفية ١٣٤١هـ .
٩٠- النبأ العظيم : دكتور محمد عبد الله دراز ط دار السعادة القاهرة ١٩٦٠م.
٩١- النثر الفني في القرن الرابع : دكتور زكى مبارك دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٣٤م .
٩٢- النثر الفني وأثر الجاحظ فيه : دكتور عبد الحكيم بلبع ط الثانية القاهرة ١٩٦٩م .
٩٣- نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامى : دكتور علي حسن عبد القادر ط الثانية دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٩٥٦.
٩٤- نقد النثر المنسوب إلى أبي الفرج قدامة بن جعفر : ب . ط دكتور طه حسين ودكتور عبد الحميد العبادي ط الأميرية بولاق ١٩٤١م .
٩٥- النهاية في غريب الحديث والأثر : مجد الدين أبو السعادات بن الأثير تحقيق الأستاذين طاهر الزاوي ومحمود الطناحي ط أولى عيسى الحلبي القاهرة ١٩٦٣م .
٩٦- وحي الرسالة : الأستاذ أحمد حسن الزيات المجلد الرابع ط أولى ١٣٧٥هـ ١٩٥٦ طبعة مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة .
٩٧- وحي القلم : الرافعي دار الاتحاد العربي للطباعة ـ القاهرة .

وبعد :

فلقد اقتصرت على ذكر المهم الذي اقتضته الضرورة ، وأغفلت الكثير جدا من المراجع العامة ، وكتب البلاغة والحديث والنقد الأدبي والتراجم والثقافة العامة إيجازا ؛ ولأن لها دورا محدودا في مادة البحث وإن كانت تمثل الأرضية الصلبة أو الخلفية القوية للبحث واكتفيت بالإشارة إليها حين الأخذ منها .

والله ولي التوفيق والصلاة والسلام على النبي وآله وصحبه .

الفهرس

الفصل الثاني : الشريفان المرتضى والرضى

(٦٧-٨٠)

الفصل الثالث : الاتجاه الأدبي
عند (ابن الأثير ـ ابن أبي الإصبع ـ العلوي)

(٨١-١١١)

الفصل الرابع : علماء الحديث

(١١٣-١٢٦)

الفصل الخامس : الرافعي والبلاغة النبوية

(١٢٧-١٣٢)

الباب الثالث : من روائع المعاني في البيان النبوي

(١٤١-١٨٤)

الفصل الأول : الإيجاز وأسراره

(١٤١-١٨٤)

الفصل الثاني : من أسرار التقديم في البيان النبوي

(١٨٥-٢٣١)

الفصل الثالث : القصر في بيان النبوة

(٢٣٣-٢٤٥)

الفصل الرابع : الفصل والوصل

(٢٤٧-٢٥٤)

الفصل الخامس : الألفاظ ومعانيها في بيان النبوة

(٢٥٥-٢٦٢)

الباب الرابع : من أسرار البيان في البلاغة النبوية

(٢٦٣-٤٠٢)

الفصل الأول : في التشبيه والتمثيل في البيان النبوي

(٢٦٥-٣١٦)

الفصل الثاني : المجاز في البيان النبوي

(٣١٧-٣٨٦)

الفصل الثالث : الكنايات النبوية

(٣٨٧-٤٠٢)

الباب الخامس : البديع في البيان النبوي

(٤٠٣-٤٣٩)

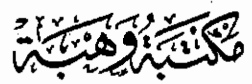
الفصل الأول : المحسنات المعنوية

(٤٠٥-٤٢٢)

الفصل الثاني : المحسنات اللفظية

(٤٢٣-٤٣٩)





١٤شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة تليفون : ٢٣٩١٧٤٧٠ تليفاكس : ٢٣٩٠٣٧٤٦
e-mail:publisher_sultan@yahoo.com